

المجموعة الكاملة لمؤلفات الشهيد
سماحة آية الله
السيد عز الدين بحر العلوم (رحمه الله)

(١)

أوراق بعد الشهادة

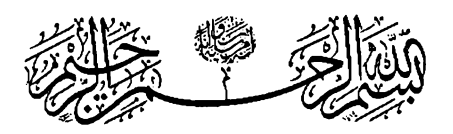
الشهيد السعيد سماحة آية الله
السيد عز الدين بحر العلوم (رحمه الله)

مبرّة
المرحوم محمد رفيع حسين معرفي الثقافيّة الخيريّة

دار الزهراء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان



أوراق بعد الشهادة



والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين

محمد وآله الطيبين الطاهرين

المجموعة الكاملة لمؤلفات الشهيد
سماحة آية الله
السيد عز الدين بحر العلوم (رحمه الله)
(١)

أوراق بعد الشهادة

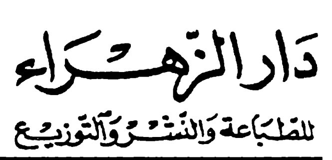
الشهيد السعيد سماحة آية الله
السيد عز الدين بحر العلوم (رحمه الله)

مبرّة
المرحوم محمد رفيع حسين معرفي الثقافيّة الخيريّة

دار الزهراء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت ـ لبنان

الطبعة الأولى

٢٠١١ م - ١٤٣٢ هـ



بيروت . لبنان . حارة حريك . شارع المقداد . بناية الهدى
هاتف : ٧٢٧٧٦٤ ٣ ٠٠٩٦١ - ٥٥٤٠٩٤ ١ ٠٠٩٦١
e-mail: najaf_86@yahoo.com



الشهيد السعيد سماحة آية الله
السيد عز الدين بحر العلوم (رحمه الله)

خطوات من مسيرة رجل

تقديم
الشيخ إبراهيم النصيراوي

يقف القلم قاصراً والكلمات عاجزة عن الدخول إلى فضاء عالم كبير.. وأستاذ معروف.. وعلم من أعلام النجف الأشرف هو آية الله الشهيد السيد عز الدين بحر العلوم(رحمه الله).

الرجل الذي حباه الله بمزايا وفضائل، وتحلّى بصفات قلّ أن تجتمع في غيره كانت حرية بالدراسة وتسليط الأضواء واستلهام دروس وعبر منها، خصوصاً في زماننا هذا الذي أجدب فيه الجانب التربوي والإجتماعي والعلمي، وهو بحاجة إلى زخات مطر معطرة بشذى الذكريات وألق الماضي القريب لتخضّر ساحتنا الإسلامية، وهي تعيش أصعب ظروفها اليوم.

عرفت السيد عز الدين منذ عام(١٩٨٠م) وعاشرته على مدى أحد عشر عاماً أي حتى فترة اعتقاله، وللأسف كانت آخر فترة حياته، وكنت قريباً منه جداً يشملني برعايته ويكنفني في ظلاله، وأنا ذلك الطالب الجديد على الحوزة العلمية في النجف الأشرف فوجدت فيه ضالتي وتعلمت منه الشيء الكثير في جوانب متعددة، فكان ليّ بحق أباً وأخاً وصديقاً لم يكن لفارق السن في حساباته الإيمانية الأخوية دخل ولا لاختلاف البيئة وطراز الحياة في منطلقه الإنساني تأثير فكان غيابه عليَّ عظيماً وفقده مؤلماً بكل ما لعبارات اللوعة من معنى.

اكتشفت من خلال معاصرتي لسماحته كنوزاً في حياته كنت أتوخى الفرصة للحديث عنها وللأسف لم يوف لهؤلاء الأعلام(شهداء الحوزة العلمية) حق ولم

يكن لهذه الدماء الطاهرة من أكثر الناس إلا الترحم والاستذكار العادي تاركين دراسة حياتهم ونهجهم وعطائهم ودورهم في المسيرة الإسلامية للصدفة.

نعم، إلا بعض الحالات الفردية وما أقوم به شاهد على ذلك فقد طلب مني أخي الحبيب السيد حسن نجل الشهيد السعيد تقديماً، وقد لمس فيّ رغبة لذلك لعلي أفي بحق من حقوق هذا الرجل العظيم عليَّ.

أحاول أن أجول في حياة الشهيد السعيد من خلال تسليط الضوء على بعض النقاط المهمة في شخصيته.

أولاً: الانتماء العلمي:

ينتمي الفقيد إلى مدرسة النجف الأشرف العريقة في أصولها، الغنية في مادتها، المتشعبة في ثقافتها، وهناك أكثر من حوزة في عالمنا الشيعي بصورة خاصة والإسلامي بصورة عامة إلا أن لمدرسة النجف مزايا عرفت بها من أبرزها أمران هما:

١ ـ الدقة والتسلط التام على المواضيع العلمية واستكشاف غوامض المطالب الفقهية والأصولية والفلسفية وغيرها، لذا كان علماؤنا المشتغلون العاملون بجدية في أتم الاستعداد لكشف القناع عن المادة الدراسية والإجابة عن كل الإشكالات التي يوردها الطالب وهو أسلوب متبع في طريقة الدراسة الحوزوية.

٢ ـ الأستاذ الحوزوي في النجف الأشرف لا يدرّس المادة بالطريقة الكلاسيكية أي شرح العبارة وتبسيط مفرداتها وبيان المراد منها فحسب، وإنما الدخول في فقه العبارة غالباً أي يقوم الأستاذ بالنقد والإشكال على المطالب العلمية التي يلقيها على طلابه خصوصاً في مرحلة السطوح العالية وتبدأ حلقة من النقاش الجدي ببراعة الأستاذ ونباهة الطالب مما يخلق جواً علمياً رائعاً ينمي القابليات ويقوي الملكات وهذا سر الإبداع في حوزة النجف الأشرف.

عاصر سيدنا الشهيد في منتصف عمره أوج عطاء الحوزة العلمية وحضر

أبحاث كبار العلماء وآيات الله كالشيخ حسين الحلي والسيد محسن الحكيم والسيد أبو القاسم الخوئي وغيرهم فكان متقن المعلومة قوي الحجة مسلطاً على المطالب والبحوث الفقهية والأصولية بالدرجة الأولى والمواضيع الدراسية الأخرى فنبغ على هذا الأساس أستاذاً فرض وجوده العلمي من خلال الحلقات الدراسية العديدة التي تخرجت على يديه فكان له كم من طلاب العلوم ومن مختلف الجنسيات تفاعلوا مع نهجه الجيد وأسلوبه الجذاب وهيمنته على المادة العلمية واهتمامه الخاص بطلابه ورعايته واحترامه البالغ لهم، وأصبحوا هم أساتذة في الحوزة العلمية وأنا أعرف عدداً منهم، وقد يطول بنا الحديث ونخرج عن صميم البحث باستقصائهم وربما يتم ذلك حينما يعد كتاب حول شخصية الشهيد(رحمه الله).

اتضح إذن في هذه الفقرة مكانة الفقيد على مستوى كونه تلميذاً وأستاذاً وهي حالة مطّردة في حياة طلاب الحوزة العلمية إلا أن الملفت للنظر عادة في هذه المرحلة هو النجاح والتوفيق الذي حالف السيد الشهيد على المستويين فقد كان مبدعاً ومحلقاً في الجانب الأول ـ تلميذ ـ وذلك من خلال تدوينه دروس أساتذته واستيعابها وإخراج بعضها للنور بأسلوب رائع ولغة علمية متقنة ـ كما سيأتي في فقرة مؤلفاته ـ وكذلك في الجانب الثاني ـ أستاذ ـ حيث احتل مكانة مرموقة في عرش التدريس في مدرسة النجف الأشرف التي لا يتبوءه أحد من فراغ أو من ليس له شأن وباع في ذلك لأنها «حوزة النجف» ويعرف معنى هذه العبارة من عرف المدرسة الحوزوية النجفية ومزاياها ومكانتها.

ثانياً: المسيرة الأخلاقية:

لمسيرته الأخلاقية محطات هي الأخرى تدعو للتوقف عندها ونعلم من خلالها قيمة الالتزام الأخلاقي بأهل البيت(عليهم السلام) فقد كان السيد الشهيد نموذجاً حياً على التواضع والتواصل مع الناس، وهو ذو علاقات عامة واسعة في داخل النجف وخارجها، بل امتدت إلى خارج العراق وكان بيته المتواضع محط رحال الوافدين ومأوى المحبين حيث يخدمهم بنفسه ويقوم بكل التزامات الضيافة دون كلل أو ملل.

رأيته ـ وهو العالم الوقور الأنيق في كل شيء ـ يقف مع الصغير والكبير ينحني على يد من هو أكبر منه من أبناء أسرته مقبلاً رغم مكانته العالية بمنظر يشد إليه القلوب كم للتربية من أثر في نفسية الإنسان واستقامته؟ يتفقد الناس لقضاء حوائجهم ويصلهم بالأفراح والأحزان، ولم أنسَ مواقفه معي بالذات في طول الفترة التي عشتها معه.

وأذكر على سبيل المثال، حينما مرّ بي ظرف عصيب كنت مطارداً فيه من قبل قوات الأمن الصدامية فكان الوحيد يتفقدني وأحتفظ إلى الآن برسالة بعثها لي عبّر فيها عن مواساته ليّ ومشاعره[١].

صحبته مرة إلى بغداد لزيارة صديق مريض هو العلاّمة الحجة الشيخ عبد الغفار الأنصاري(رحمه الله) رغم شدة الظروف الأمنية التي كانت تحيط بنا، وأخرى إلى مدينة الحلة لمواساة العلامة الشهيد الشيخ محمد حيدر بوفاة عزيز له، وثالثة لكربلاء لحضور مجلس عزاء في بيت أحد أصدقائه المؤمنين فتذكرت وصية أمير المؤمنين الأخيرة لأولاده(وعليكم بالتواصل والتباذل وإياكم والتدابر والتقاطع...) إنها روابط اجتماعية تنم عن خلق رفيع وتقوي شوكة المجتمع المسلم أمام التحديات وما أكثرها في عالمنا ومحيطنا، كان يقابل المجتمع بطلعته البهية وسمته الجميلة وكلماته الأبوية.

---

(١) نص الرسالة:(بسم الله الرحمن الرحيم الأخ العزيز أبا أيمن دام عزه:

على العجالة والسيد حسن يخبرني أنه يريد الذهاب إلى داركم وأنا مشغول بتوديع الناس من أواخر تعزية الزهراء(عليها السلام)، على كل حال شوقي لا يوصف ودعائي مستمر ونحن بالإنتظار عندما تتحسن صحتكم، ختاماً أرجو قبول بعض ما يلزم مع أنني خجل من التقصير ودمت مؤيداً لأخيك عزّالدين/ التوقيع ٣/ ج٢/ ١٤٠٦هـ).

وطبيعي عبر(رحمه الله) عن الوضع الأمني وتمنياته بالسلامة بقوله مورياً: عندما تتحسن صحتكم.

ثالثاً: المسيرة الإيمانية:

الإيمان والتدين سرّ علاقة الإنسان الشخصية مع الله تعالى الذي يعلم السر وأخفى وهو الذي يزكي الأنفس، وتوجد مواطن للدلالة على شدة الإرتباط مع الله تعالى قد تخرج عن حسابات السلوك الظاهري الذي لا ينم عن باطن بالضرورة لأنه اقتحام في خضم الأجواء الروحية والدينية، فالسيد الشهيد كان لديه مثلاً إصرار على تعاهد الحضور لحرم أمير المؤمنين(عليه السلام) قبل صلاة الفجر بفترة زمنية ليؤدي الزيارة ونوافل الليل لم يمنعه ارتباك أمني وكنا نتوقع كل شيء، ولا برد أو حر، وأخيراً وقع عليه الإختيار ليكون إماماً للصلاة فجراً في داخل الحرم الشريف إضافة لكونه إماماً للصلاة في «مسجد السقاية» ظهراً وليلاً.

كان يجد في عمله حلاوة القرب الإلهي مقتدياً بالأئمة الأطهار وإحيائهم الليل، وكان ولعاً بقراءة الأدعية والمناجاة كدعاء كميل ودعاء الصباح وهو يحفظهما ويترنم بقراءتهما لما للدعاء من أثر في بناء الشخصية الإسلامية منطلقاً من قوله تعالى:

﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾[1].

رابعاً: تجسيد الوحدة:

كان(رحمه الله) من دعاة الوحدة بعيداً عن التعصب يحاور ويناقش بروح مطمئنة واعتقاد راسخ، يجسد في أدبياته سماحة الإسلام ومنهج أهل بيت الرحمة وابتغاء الحجة والدليل، يحب أن يضع يده في يد الآخرين للنهوض نحو العقلانية والمنطق، أذكر في عام(١٩٨٦م) تقريباً وفي شهر محرم الحرام حيث يعقد مجلس السادة آل بحرالعلوم الكبير في ديوانهم العامر بشارع الطوسي في النجف الأشرف ويرتاده العلماء والمثقفون وعامة الناس فيكتظ بالحاضرين خصوصاً الأيام الأخيرة وفي اليوم السابع وحيث يبلغ المجلس ذروته والسادة الكرام من آل بحر العلوم مصطفون لاستقبال الوافدين إذ دخل المجلس رجل غريب إلا أن عليه هيبة ووقاراً ببزته

---

(١) سورة الفرقان: الآية، ٧٧.

وعقاله العربي، ولما توسط الحاضرين أخرج من جيبه راية بيضاء صار ينشرها على رؤوس الناس ويقلبها يميناً وشمالاً بمنظر جميل، وبعد الترحيب به سأل عن مغزى فعله هذا قال: إنني من أهل سامراء ومن أهل السنّة جئت برايتي هذه لكم رامزاً إلى تأكيد الوحدة والأخوة التي بيننا وبينكم، فشكروه على هذه المبادرة وانبرى له السيد الشهيد ليدعوه إلى بيته لتناول طعام الغداء ودعاني معه وفعلاً كنت أنا وهو في رحاب السيد عز الدين رحاب الإيمان والضيافة والكرم والغذاء المادي الطيب والروحي الشيق، وتحدث عن معاني الوحدة والتلاحم والأخوة التي لها جذور قديمة في عراقنا الحبيب التي حاول أعداء السنّة والشيعة في الفترة الأخيرة زعزعتها فطفت على السطح قلوب مريضة حركتها أياد مغرضة لئيمة من الداخل والخارج فنالت من أحباب آل محمد وشربت الكثير من دمائهم ظلماً وعدواناً إلا أن العقلاء المخلصين الواعين من كلا الطرفين لم يسمحا لهذه الفتنة أن تمتد فقطعوا الطريق على تلك الأيادي الآثمة وبقي العراق وسيبقى - بإذن الله - عراق المقدسات وعراق الوحدة والحوزة العلمية حاضنة الوحدة ومن أشهر رجالها الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء والسيد محمد تقي الحكيم والسيد الشهيد محمد باقر الصدر والسيد الشهيد عز الدين بحر العلوم وكثيرهم.

خامساً: الارتباط الولائي:

الولاء لمنهج أهل البيت عرف به شيعتهم الموالون لهم ويشتد ويضعف هذا الارتباط من شخص لآخر وفق ظروف ومنطلقات ربما تكون بيئية أو علمية أو تربوية، وقد أمرنا القرآن والسنّة الشريفة بالإعتصام بهم والسير على صراطهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [1]، وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [2]،

---

(١) سورة النساء: الآية، ٥٩.

(٢) سورة الحشر: الآية، ٧.

وأخرج الحافظ نعيم في الحلية وأبو طلحة في مطالب السؤول والبلاذري في تأريخه والبلخي الحنفي في ينابيع المودة باب ٤٣ وغيرهم قول رسول الله(ﷺ) لعمار بن ياسر: «يا عمار إن سلك الناس كلهم وادياً، وسلك علي وادياً، فاسلك وادي علي، وخل عن الناس، يا عمار علي لا يردك عن هدىً ولا يدلك على ردى، يا عمار طاعة علي طاعتي وطاعتي طاعة الله».

وعشرات بل مئات الروايات التي لا تدع مجالاً للتردد في مكانة أهل البيت(عليهم السلام) في الأمة والرسالة الإسلامية.

عرف سيدنا المترجم بشدة الولاء والإرتباط بهذا المنهج منطلقاً من بعدين أولهما أنه نشأ في بيت علمي ولائي يتسلسل حتى يصل إلى الإمام الثاني الحسن بن علي(عليهما السلام) وتلقى تربية صالحة طافحة بالعقيدة والولاء والإقتداء بآل بيت الرسول(ﷺ).

والبعد الآخر البعد الدليلي والعلمي شأنه شأن أي مطلب عقائدي يتوخى الإنسان في ترسيخه الدليل والاجتهاد لا العاطفة خصوصاً في مثل من آتاه الله درجة من العلم والمعرفة والسيد الشهيد كان عالماً جال في التاريخ والحديث والتفسير فوجد أمامه كمّاً هائلاً من الأدلة التي حفل بها تراث المسلمين على اختلاف انتماءاتهم بأفضلية أهل البيت وأحقيتهم وقربهم من الرسول والرسالة بل هم صميمها وطريقها ومن أخذ عنهم فعن الله ورسوله أخذ.

وجسّد ولاءه وارتباطه بالنبي والزهراء والأئمة الأطهار من خلال ما كتب وألّف وحاور وربّى في إحياء شعائرهم ومناسباتهم وتعاهد إقامتها بنفسه رغم قساوة الوضع الأمني فكان يعقد المأتم في وفيات المعصومين في بيته ويقيم في العشرة الأولى من محرم الحرام المأتم على مدى تسعة أيام وكان ملتزماً بزيارة كربلاء وفي كل ليلة جمعة وكل الزيارات الواردة عندنا، صحبته في الفترة الأخيرة في كثير منها، وكان ينزل في بيت المرحوم الشهيد الحاج عبد الحسين سوادي من أهالي البصرة اتخذه مكاناً يأتيه عند المناسبات الدينية، وكان الفقيد الشهيد السيد بحر العلوم قد خول

بالتصرف فيه فكنا نستريح فيه أيام الزيارات وفي زيارة عاشوراء والأربعين نجتمع مع عدد من أبناء هذه الأسرة الكريمة ـ آل بحر العلوم ـ كآية الله أستاذنا الشهيد السيّد علاء الدين وآية الله الشهيد السيد جعفر وحجج الإسلام الشهداء السيد حسن السيد موسى والسيد محمد حسين والسيد محمد رضا والسيد أحمد والسيد علي والسيد مصطفى والسيد أمين وغيرهم تغمدهم الله بواسع رحمته، والأخوة السيّد حسن والسيّد كاظم حفظهما الله والكل موشح بالثياب السوداء حزناً على أبي عبدالله الحسين(عليه السلام) فكان يحثني السيد الشهيد على قراءة مجلس عزاء وكتابة قصيدة وقراءتها لتضرب الصدور المؤمنة بعد أن نغلق الأبواب والنوافذ ونأوي إلى غرفة في زوايا المنزل حذراً من جلاوزة النظام المباد ونهارس تلك الشعيرة الرائعة التي يعبّر عنها الإمام جعفر الصادق(عليه السلام) بقوله: «ولقد شققن الجيوب ولطمن الخدود الفاطميات على الحسين بن علي(عليهما السلام) وعلى مثله تلطم الخدود وتشق الجيوب»[1].

وفي ليالي الجمع والقدر من شهر رمضان المبارك نذهب معاً في سيارة كبيرة تجمعنا مع العائلة الكريمة للسادة آل بحر العلوم فيقرأ السيد الشهيد الفقيد دعاء كميل بصوته الشجي ونبرته الذائبة في الأجواء الروحية ويطلب مني بعد الدعاء قراءة مجلس عزاء مختصر ونحن في طريق كربلاء بين علي والحسين(عليهما السلام) حيث العظمة والروضة التي تهفو لها قلوب الملايين فيترك التفاعل الوجداني والبكاء أثراً في توطيد البيعة والإرتباط مع هذه الرموز الإلهية الكبيرة صلوات الله عليهم أجمعين وثبتنا على ولائهم.

سادساً: المسيرة الجهادية:

والحديث عن جهاده في مقارعة الظلم حديث عن الرجولة والمواقف حيث كنا نعيش فترة زمنية قاسية يعتبر فيها نفس وجودنا في جامعة النجف الأشرف وممارسة مهامنا ولو الحد الأدنى منها هو بنفسه جهاد في سبيل الله وتحدي للنظام الذي أراد

---

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ ٢٢، ٣٩٥ـ٤٠٩.

القضاء على كل هذه المظاهر والوجودات وكان الفقيد يقوم بأكثر من عمل يتحدى به الحصار المفروض على الحوزة العلمية ورجالها ويتجسّد بما يلي:

١ ـ كان على صلة وثيقة بالرموز الإسلامية التي تتحرك في الساحة من العلماء وغيرهم ممن هم داخل العراق وخارجه كأخيه العلامة الدكتور السيد محمد بحرالعلوم، وآية الله العظمى الشهيد محمد باقر الصدر الذي كان يستشيره في بعض الأمور، وآية الله الشهيد السيد محمد باقر الحكيم وغيرهم، وهذا السلوك لا يعارضه العمل بالتقية أحياناً وفق ما يشخّصه الإنسان نفسه.

٢ ـ كان يتفقد بعض عوائل الشهداء ويوصلهم ببعض ما يلزم وكان يلتزم ببعض العوائل المتعففة المعروفة التي مرت بمحن من جراء الظلم الذي انصب على رجالنا العلماء والمؤمنين.

٣ ـ حاولت السلطة استمالته مرات عديدة وركزت عليه نظراً لمكانته وبيتيته، ولكنه أبى أن يستجيب لأي طلب منهم قيد أنملة ودعي لمناسبات شتى فامتنع من الحضور رغم علمه أن هذا الموقف سيكلفه كثيراً، ولكن هكذا كان أبو الحسن شديداً في موقفه لا تحركه العواصف، فكّر في كل الاحتمالات وخطط لتحملها، استجوب أكثر من مرة وهدد باعتقال نجله وصهره وغيرهما من شباب الأسرة وبقي ثابت القلب رابط الجأش حتى آخر عمره.

شارك الحوزة العلمية الصامدة في مواقفها خصوصاً في فترة الحرب العراقية الإيرانية التي كانت أشبه بالمخاض الحرج بالنسبة لنا وحاول النظام أن يجعل الحوزة طرفاً في النزاع، ولكن الله تعالى حفظها وسددها فكانت المواقف متحدة والكلمة واحدة من رجالها المخلصين برفض الإستجابة لمطالب النظام وإفشال مخططه والسير وفق ما تمليه الضوابط الشرعية.

٤ ـ أما في الانتفاضة الشعبانية فيتألق الموقف ويصل الجهاد ذروته حيث القلوب تغلي، وقد بلغ الظلم أوجه وتجاوز كل الحدود فلم يبق ذو ضمير إلا وانتفض من أعماقه ليعبّر عن الرفض كل بلغته، والتفت الجماهير حول المرجعية

الدينية وكان الفقيد أحد أعضاء اللجنة التي شكّلت لحفظ النظام من قبل المرجعية وكان عدد أفرادها تسعة من كبار العلماء، ولازم السيد عزّ الدين بيت الإمام الخوئي (رحمه الله) الذي كان بمثابة المقر للجنة ليقوم بدوره ومسؤوليته التي أنيطت به مستسلماً لكل النتائج لأنه لا يستطيع التنصل حينما يمر المجتمع العراقي الصابر بمحنة كبرى يكون فيها أحوج ما يكون لرجال الدين المخلصين الذي يشكلون الأبوة الروحية في المجتمع وحينما انتهت الانتفاضة بمأساة كبرى تجسّدت بقتل الآلاف من الأبرياء واعتقال أمثالهم وهدم الدور والمحلات وتدمير حتى المقابر ودور العبادة ليوجد بدلها مقابر جماعية للرجال والنساء والأطفال، وكان الفقيد من بين المعتقلين مع المرجعية الدينية حيث أبى أن يفارقها في ساعة المحنة وتفرّق الناس وهم معذورون لهول ما جرى و كان كل فرد يشخّص تكليفه الشرعي ويمشي على ضوئه لشدة ما وقع من بلاء، وقد قدّرت المرجعية المستهدفة ذلك وطلبت من الحاضرين التفرق والذهاب إلى أماكن آمنة، ولكن السيد الشهيد أصر مع ثلّة مؤمنة على البقاء مهما كلّف الأمر حتى لو أدى بقاؤه إلى الإعدام وفعلاً كان ذلك فتبين أن في الساحة من يقول ما يفعل ويفعل ما يقول وإنه لموقف المفاداة التي نقرأها في حياة أمير المؤمنين (عليه السلام) للرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) ليلة المبيت، وهكذا انقطع خبره من عام (١٩٩١م) وبقيت الآمال تعلل النفوس لعلنا نحظى برؤية وجه أبي حسن ثانية ولا ندري ـ أو ندري نظراً للظروف السائدة فنكابر لحبنا له وتعقلنا به ـ أنه في جوار الله تعالى: ﴿**مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا**﴾[1].

سابعاً: نتاجه العلمي:

أبدع في مجال التأليف والكتابة لا لأنه أصدر كتباً عديدة زادت على عشرة مؤلفات وإنما لأمرين:

---

(١) سورة النساء: الآية، ٦٩.

١ ـ إنه لبّى حاجة قائمة فيما كتب وألّف بأسلوب بعيد عن التعقيد المفرط والتبسيط المخل فكانت كتبه محل تسابق رواد العلم والمعرفة والثقافة.

٢ ـ التنوع الموضوعي فيما أنتج فنراه في كتابه(بحوث فقهية) [١] فقيهاً واعياً أجاد فيما قرر وأبدع فيما كتب حتى صار الكتاب ـ الذي ضم مواضيع معاصرة طرحت للنقاش واستخلاص الرأي الفقهي فيها ـ مرجعاً للفقهاء ومصدراً مهماً من المصادر الفقهية.

وهكذا يترك لنا تراثاً كبيراً في المجال الفقهي والثقافي والفكري والتربوي والروحي فكتبه الفقهية، هي: اليتيم في القرآن والسنّة، والحجر وأحكامه، والتقليد في الشريعة الإسلامية، وأما الاجتماعية فتقع ضمن سلسلة بعنوان(في رحاب القرآن والسنّة)، ومنها كتاب الزواج في القرآن والسنّة، وكتاب الطلاق أبغض الحلال إلى الله، والإنفاق في سبيل الله وكتبه الروحية التي تقع ضمن سلسلة في رحاب الله منها كتاب أضواء على دعاء كميل، وأضواء على دعاء الصباح، وأنيس الداعي [٢].

---

(١) والكتاب من تقريرات بحث أستاذه سماحة آية الله العظمى الفقيه الشيخ حسين الحلي(رحمه الله).

(٢) أذكر هنا أني كتبت تقريضاً لسماحته بعدما صدر كتابه(الطلاق أبغض الحلال إلى الله) وأهدى ليّ نسخة منه وهو كتاب قيّم عالج فيه مشكلة اجتماعية مهمة فقلت:

وافى كتابك وهو يحكي صورة ... عن واقع بالشرح والتفصيلِ
وكأنه درر تناثر من فم ... ما فاه إلا عن هدى ودليلِ
ما أروع العلم الجميل يخطه ... قلم بإخلاص لأكبر جيلِ
لينير درب السالكين إلى العلا ... بمشاعل التعليل والتحليلِ
هذي(بحوثك) سيدي فقهية ... أبدعت فيها فهي خير سبيلِ
ترعى(اليتيم) وأنت أجدر أن ترى ... فينا أبا ينمى لخير سليلِ
وكتاب(تقليد) تقدّس حرفه ... وقد استقى من محكم التنزيلِ
و(الحجر) و(الإنفاق) شع سناهما ... بل فاق حسنا من(دعاء كميل)
وإلى(الزواج) تسابق الجيل الذي ... يرنو لبحث منصف وحلولِ
وأتى(الطلاق) فكان في طياته ... حل لقائل هاهنا أو قيلِ
سلمت يمينك أن شعري عاجز ... فاقبل فديتك سيدي بقليلي

هذه المؤلفات شواهد حية على ما ذكرت سلفاً خصوصاً في مرحلة التأليف التي عاصرت بعضها وكم كانت الحاجة ماسة إلى مثل هذه المؤلفات التي لبّت حاجة كانت ملحة ولا زالت.

وأما الكتاب الذي بين أيدينا فهو مجموعة من البحوث التي كانت في ذاكرة الزمن منسية شأنها شأن كثير من التحف التي كنا نظن بها لمحاذير فرضها الزمن تميزت هذه الباقات العطرة بأفكار متعددة ورؤى متنوعة جال فيها متنقلاً بين التفسير وعلوم القرآن والعقائد والفقه والإجتماع والتراجم والبلاغة والقصة، بحوث خطتها ريشة مبدع دلّت على تنوعه الفكري والثقافي والعلمي، حرية بالمطالعة والمراجعة فلله دره وعلى الله أجره وجزاه عن الإسلام وأهل بيته خيراً.

أخيراً، لعليَّ أطلت على القارىء الكريم وخرجت عن أسلوب التقديم المعتاد إلى ترجمة أحياناً وذكريات أخرى وسيرة ثالثة، ولكنه سيعذرني حتماً حينما يعلم أن نيتي تجليل مقام عالم كبير ومجاهد صامد وشهيد حق وكل ما قلته وتحدثت عنه هو خطوات في مسيرة هذا الرجل «السيد عز الدين بحر العلوم» لعل المستقبل يكشف عن تراث هؤلاء الأبطال الأحياء أكثر وأكثر:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[1].

والحمدُ لله أولاً وآخراً

إبراهيم النصيراوي

النجف الأشرف: ٢٠٠٨/١١/٢١ م

---

(١) سورة آل عمران: الآية، ١٦٩.

في رحاب التفسير[1]

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾[2].

السؤال الذي يمكن أن يرد في هذا المجال هو:

ما هو المراد من قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ﴾؟

حيث فسّره بعض الباحثين بقوله:(العاجز، الطاقة التحمل بدون صعوبة إطلاقاً أو التحمل بصورة طبيعية. والطاقة لغةً وفناً مثل الطاقة الكهربائية على ما هو معروف ومشهور يعني القوة الكهربائية).

وعلى هذا الأساس، يكون مفاد الآية الكريمة وعلى الذين يتحملون ولهم القدرة على الصيام، ولا يصومون يؤدون الفدية، ولكن الصيام أفضل من أداء الفدية والإفطار: ﴿ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فإذا أفطر وأدى الفدية بإطعام مسكين يكون قد ترك الأفضل، والأفضل أحق أن يتبع.

وقد ساق الباحث أدلةً على هذا الرأي، وهي:

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة مساء ٢٦/ رمضان/ ١٣٨٧هـ.

(٢) سورة البقرة، الآيات ١٨٣ ـ ١٨٥.

أولاً: نرى في القرآن الكريم آيات متعددة في الفدية بالقتل وغيره إما صيام مدة معلومة أو عتق رقبة تقابل الفدية بالصيام.

ثانياً: فإذا جارينا رأي من يقول بأن الطاقة عدم التحمل أو التحمل بصعوبة لدرجة عدم التحمل فكيف يستقيم المعنى بآخر الآية: ﴿**وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾؟

فهل يصح أن يوصي الباري تعالى بالصيام في حال عدم التحمل أو التحمل بصعوبة فائقة؟

ولكن المعنى يستقيم، إذا كان يتحمل الصيام ولم يصم وأدى بإطعام مسكين يكون قد أدى فريضة الصيام بالفدية، ولكن الصيام يفضل على الفدية.

المناقشة:

ونقاشنا مع الباحث في هذا الرأي يكون من جهات:

الجهة الأولى: إن الملاحظ من خلال هذا الرأي، أن الباحث اعتبر وجوب الصيام وفرضه على المكلفين الأصحاء فعلاً وجوبياً تخييرياً بينه وبين الفدية فبأيهما جاء المكلف كان قد امتثل الفرض التكليفي، وليس بوجوب تعييني يتمثل بفرض الصيام على المكلفين الأصحاء المقيمين والذين لا عذر لهم من دون فدية.

وقد عرف الأصوليون الوجوب التعييني بـ«أنه فرض فعل مخصوص كفرض الصلاة» مثلاً.

أما الوجوب التخييري فـ«هو فرض فعلين أو أكثر على نحو البدل» كما في خصال الكفارة في الإفطار حيث ردد الشارع المقدس بين العتق أو الإطعام أو صوم شهرين متتابعين.

الجهة الثانية: ولا بدّ لنا فيها من عرض آراء المفسرين لنرى مدى التقارب بين هذا الرأي وبين ما ذكروه.

اختلفت كلمة المفسرين في هذه الفقرة الكريمة:

﴿**وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖ**﴾.

فمنهم من يراها، من الآيات المنسوخة، بالآية الكريمة التي بعدها:

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾.(فعن معاذ بن جبل، قال: إن رسول الله (ﷺ) قدم المدينة فصام يوم عاشوراء وثلاثة أيام من كل شهر ثم أن الله عزَّ وجلَّ فرض شهر رمضان فأنزل الله تعالى ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ حتى بلغ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ﴾ فقال: من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم مسكيناً ثم أن الله عزَّ وجلَّ أوجب الصيام على الصحيح المقيم وثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصوم فأنزل الله عزَّ وجلَّ:

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾[(١)].

ونقل عبد الرحمن بن أبي ليلى عن عطاء مثل ذلك إلاّ أنه قال: ثم نزلت آية ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ فوجب الصوم على الجميع إلاّ المريض والمسافر والشيخ الكبير، وبهذا المضمون المثبت للنسخ بآية فمن شهد منكم الشهر حدّث كثيرون واختلف البيان من كلٍ منهم[(٢)].

وذهب آخرون، إلى أن الناسخ لهذه الآية الكريمة هو قوله تعالى:

﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[(٣)].

وقد ناقش الفخر الرازي في تفسيره[(٤)] القائلين بالنسخ بآية:

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾.

كما وقد ناقش القائلين بالنسخ بآية: ﴿وَأَن تَصُومُواْ ...﴾، الحجة الشيخ محمد جواد البلاغي في آلاء الرحمن.

---

(١) راجع أبو جعفر الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن/ ٢، ١٣٢.

(٢) المصدر المتقدم.

(٣) راجع المصدر السابق.

(٤) الفخر الرازي: التفسير الكبير/ ٥، ٨٨.

وفي قبال هؤلاء، من يرى أن الآية الكريمة ليست بمنسوخة بل هي من الأحكام الخاصة في الشيخ الكبير والعجوز أو فيهما، وفي الحامل والمرضع، وفي مقدمة هؤلاء ابن عباس والشعبي[(١)].

وقال بعضهم إن هنا أداة نفي محذوفة والتقدير لا يطيقونه.

وقرأ غير هؤلاء: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ بالتشديد بمعنى العجز عنه كما عن سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء.

وقد نقل الرازي بأن هناك قول برجوع هذه الآية إلى المريض والمسافر لأن من المسافرين والمرضى منهم من لا يطيق الصوم ومنهم من يطيقه وبقوله تعالى:

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ ، ذكر حكم من لا يطيق وبقوله عزَّ وجلَّ، وعلى الذين يطيقونه أشار إلى من يطيق[(٢)].

وهناك تفاسير لا مجال لبيانها.

الجهة الثالثة: مع الأخبار الشريفة:

أما من طرق العامة: فقد نقل مسلم في صحيحه عن يزيد مولى سلمة بن الأكوع حديثين، وفي أحدهما قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُ...﴾ كان من أراد أن يفطر ويفتدي حتى نزلت التي بعدها فنسختها.

وفي **الحديث الثاني**: صرح يزيد بأن الآية الناسخة هي آية:

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾.

وبعدها نقل عن عطاء عن ابن عباس بأن الآية ليست بمنسوخة، وإنما هي للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة حيث لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم

---

(١) المصدر المتقدم.

(٢) الفخر الرازي: التفسير الكبير/ ٥، ٨٦.

مسكيناً[١].

أما من طرق الإمامية: فقد جاء عن محمد بن علي الإمام الباقر (عليه السلام) في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ...﴾.

قال(عليه السلام): الشيخ الكبير والذي يأخذه العطاش[٢].

وبهذا اللسان وردت روايات كثيرة عن أهل البيت(عليهم السلام) وفيها فسرت الآية الكريمة بالشيخ الكبير[٣].

ويلاحظ أن الإمامية لا تقول بالنسخ كما ذهب إلى ذلك أغلب مفسري العامة ورواتهم حتى قال الرازي القول الثاني، وهو قول أكثر المفسرين إن المراد من قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ ...﴾ المقيم الصحيح فخيّره الله تعالى أولاً بين هذين ثم نسخ ذلك وأوجب الصوم عليه مضيقاً معيناً[٤].

الجهة الرابعة: الجواب عن الرأي المذكور:

وتتركز إجابتنا عن رأي الباحث، على دفع ما ذهب إليه من اعتبار فرض الصوم على المكلفين الأصحاء المقيمين على نحو الوجوب التخييري بينه وبين الفدية، بعد نزول هذه الآيات المذكورة بأجمعها بحيث يتمكن كل مكلف من الإفطار والفدية ولو لم يكن معذوراً، ويكون الرد من وجوه:

الوجه الأول: إن هذا القول مخالف لإجماع علماء المسلمين من فقهاء ورواة ومفسّرين حيث لم يقولوا بأن فرض الصوم على نحو الوجوب التخييري بل هم

---

(١) مسلم بن الحجاج بن مسلم: صحيح مسلم/ كتاب الصوم، باب بيان نسخ قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ...﴾. والشوكاني: نيل الأوطار/ ٤، ٢٥٨، ط الأخيرة.

(٢) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ١٠، ٢١٠، ح٣، باب سقوط الصوم الواجب عن الشيخ...، تحقيق: مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث.

(٣) المصدر المتقدم: كتاب الصوم، من يصح منه الصوم.

(٤) الفخر الرازي: التفسير الكبير/ ٥، ٨٦.

مطبقون على كونه وجوباً تعيينياً وأقصى ما نقل على فرض تسليم ذلك أن التخيير كان موجوداً فنسخ بعد ذلك وإن اختلف في الآية الناسخة كما بيّنّاه في الجهة الثانية.

فالقول باستمرارية الوجوب التخييري لا قائل به، وهو مخالف لإجماع العلماء ومن ثم مخالف للضرورة من الدين.

الوجه الثاني: إن الشارع المقدس بعد أن فرض على المؤمنين عامة الصيام بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾[1] فإن المستفاد من ذلك هو شمول هذا الحكم التكليفي لجميع المكلفين بغض النظر عن مريضهم وعاجزهم ومسافرهم وحاضرهم وذكرهم وإناثهم فمن تكتمل فيه هذه الشروط «شروط التكليف الشرعي» كان مخاطباً بهذا الحكم المأخوذ على نحو القضية الحقيقية في هذه الآية الكريمة حيث يؤخذ الحكم فيها على نحو فرض الوجود فكلما وجد موضوعه كان الحكم منطبقاً عليه بدون تخلف.

وبعد هذا بدأت عملية الإخراج من هذا العموم لبعض الأشخاص حيث رفع عنهم التكليف منّة منه عليهم نظراً لما طرأهم من العذر.

ولكن رفع التكليف عن هؤلاء الأشخاص كان على نحوين:

الأول: سقوط التكليف الأدائي فقط. بينما لا بدّ من المبادرة إلى القضاء بعد ارتفاع العذر الذي كان سبباً في رفع التكليف الأدائي ويتمثل هذا في المسافر والمريض والحامل والمرضع.

الثاني: سقوط التكليف على نحويه الادائي والقضائي والانتقال إلى ما اكتفى الشارع المقدس بتعيينه في هذا المقام، وهو الفدية وهذا كما في الشيخ والعجوز في صورة كون الصوم مشقة عليهما والمريض لو استمر مرضه إلى شهر رمضان آخر فلا قضاء على هؤلاء كما لم يكن عليهم الأداء فرضاً فلا بدّ لهم من القيام به من قبلهم.

الوجه الثالث: إن الآية الكريمة ما بينا حيث دلت على وجوب الصوم وفرضه

---

(١) سورة البقرة: الآية، ١٨٣.

على المكلفين عامة أداءً وعلى المرضى والمسافرين قضاءً فإن الظاهر منها دلالتها على وجوب الفدية فرضاً تعيينياً على غير هذين الصنفين «وهما المريض والمسافر» وذلك على الشيخ والشيخة ومن استمر مرضه إلى شهر رمضان آخر. وعليه، فكيف يقال بالوجوب التخييري بين الصوم والفدية لمن تمكن من الصوم وكان صحيحاً ومقيماً غير مسافر؟

الوجه الرابع: إن ـ الطاقة ـ كما فسرتها كتب اللغة هي القدرة على الشيء بمشقة وإعمال جهد. قال ابن منظور في اللسان[1]:(الطاقة أي أقصى وهو اسم لمقدار ما يمكنه أن يفعله بمشقة منه).

وقال ابن الأثير في نهايته[2]:(الطوق: اسم لمقدار ما يمكن أن يفعل بمشقة منه. ومنه حديث عامر ابن فهيرة(كل امرئ مجاهد بطوقه) أي أقصى غايته).

وهكذا نجد كلمات باقي اللغويين تصرح بهذا المضمون. فلا يكون المستفاد حينئذٍ من قوله تعالى: ﴿يُطِيقُونَهُ﴾ القدرة على الشيء بدون أي مشقة، ليكون المقصود من الآية الكريمة هو الشخص الصحيح القادر على الصوم ومتحمّلاً له بدون مشقة.

الوجه الخامس: إنا لو سلمنا أن ـ الطاقة ـ اسم للقدرة على الشيء وللسعة بدون أخذ المشقة فيه كما صرح بذلك في(قاموس اللغة: مادة طوق) وكذلك في(أقرب الموارد) إلاّ أنا لا نسلم أن المقصود من قوله تعالى ﴿يُطِيقُونَهُ﴾ هو: الصحيح القادر، وذلك، لأن(يطيقونه) مضارع ماضيه ـ أطاق ـ ومضارعه ـ يطيق ـ مضموم حرف المضارع مثل قولك أعان يعين ومن المعلوم أن الإطاقة بمعنى إيجاد السعة في الشيء فلا بدّ أن يكون الشيء في حد نفسه مضيّقاً لتكون سعته ناشئة من قبل الفاعل وتحقق هذا المعنى يتوقف على إعمال الجهد.

---

(١) ابن منظور: لسان العرب/ مادة طوق.

(٢) مجد الدين بن محمد الجزري المعروف بـ(ابن الأثير): النهاية في غريب الحديث والأثر/ مادة طوق.

وقد نقل رشيد رضا[1] نقلاً عن شيخه الشيخ محمد عبده أن العرب لا تقول أطاق الشيء إلاّ إذا كانت قدرته عليه في نهاية الضعف بحيث تكون معه مشقة عظيمة وهذا منطبق على الشيخ والشيخة لا على القادر الصحيح والذي لا يجد مشقة في صومه.

والمعنى الذي يريده الباحث، وهو الطاقة بدون مشقة فإن مضارعه يطوق لأن طاق فعل ماضٍ مجرّد معتل الواو أصله طوق كقام يقوم ومضارعه يطوق والحال أن يطيق مضموم حرف المضارع كما في الآية الكريمة.

إذن، فالآية مأخوذة من أطاق والإطاقة كما في تفسير المنار ما تكون القدرة عليه بمشقة لا ما لم تكن فيه مشقة.

قال الرازي في تفسيره[2] «أنه لا يقال في العرف للقادر القوي أنه يطيق هذا الفعل لأن هذا اللفظ لا يستعمل إلاّ في حق من يقدر عليه مع ضرب من المشقة».

الوجه السادس: إن الهمزة في أطاق ليست للتعدية لأن الفعل بنفسه متعدٍ إلى المفعول فلا يحتاج إلى الهمزة ولا بدّ لنا فراراً من زيادة الهمزة في أطاق أن نقول أن فائدتها في قولهم أطاق يطيق إنها تفيد جعل الصوم مطاقاً له مع أنه غير مطاقٍ له ومحصل جعل الصوم مطاقاً له أن يفعله المطاقين فمثل هذا الشخص لا يكون الصوم واجباً عليه وهو ساقط عنه وعليه الفدية.

بل يمكننا، أن نحمل قراءة(يطيقونه) على هذا المعنى أي أنهم يجعلون الصوم مطاقاً لهم فيفعلونه ويتكلفونه كما يفعله المطيق الذي لا كلفة عليه في صيامه فهؤلاء لا يكون الصوم واجباً عليهم بل عليهم الإفطار والفدية.

الجهة الخامسة: مع الباحث في أدلته:

أما الأدلة التي أراد بها الأستاذ رأيه فقد عرفت:

---

(١) رشيد رضا: تفسير المنار/ ٢، ١٥٦.

(٢) الفخر الرازي: التفسير الكبير/ ٥، ٨٨.

إن الدليل الأول: كان هو أن الشارع المقدس في كثير من الموارد في الكتاب المجيد قابَلَ الصيام بالفدية ومن ذلك استخلص عدم الاستبحاش في أن يفدي المكلف القادر ويترك الصوم لامتثاله ما أمر به الشارع.

والجواب عنه: إنا بعد أن بينا أن الفدية في الآية الكريمة كما هو الظاهر منها أخذت على نحو الوجوب التعييني فليس في البين تخيير بينها وبين الصوم للشخص القادر القوي ليكون نظيرها موجوداً في القرآن. فإنا نسلّم أن الشارع المقدس قابَلَ الفدية بالصيام، ولكن ذلك في موارده الخاصة والتي يكون ملاك الوجوب فيها قد أخذ على نحو الوجوب التخييري كما في موارد الكفارة وغيرها، أما أن المورد من موارد الوجوب التعييني فلا يمكن قياس أحدهما على الآخر بعد أن كان لكل من الوجوبين ملاكه الخاص كما تقدم بيانه في الجهة الأولى من هذا البحث.

وأما الدليل الثاني: وقد بين لنا الباحث أن الآية لا يستقيم صدرها مع ذيلها لو أخذ في الإطاقة التحمل مع الصعوبة إذ كيف يستقيم كون الطاقة هي عدم التحمل أو التحمل بصعوبة مع قوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ، وهل يصح أن يوحي الباري تعالى بالصيام في حال عدم التحمل أو التحمل بصعوبة فائقة.

وقبل الإجابة عن ذلك، لا بدّ لنا من الإشارة إلى أن هذا الإشكال قد تعرض له الرازي في تفسيره[1] حيث قال:(لو كان المراد هو الشيخ الهرم لما قال في آخر الآية وأن تصومون خير لكم لأنه لا يطيقه).

والجواب أولاً: إن الوجوه المحتملة في تفسير هذه الفقرة من الآية الكريمة:

﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ كثيرة:

أحدها: أن يكون هذا خطاباً مع أولئك الذين يطيقون الصوم بمشقة ومنهم الشيخ الكبير، ويكون التقدير وإن تصوموا أيها المطيقون أو المطوقون «على اختلاف القراءات» وتتحملون المشقة فهو خير لكم من الفدية ويكون الشارع المقدس قد

---

(١) راجع الفخر الرازي: المصدر المتقدم/ ٥، ٨٨.

خيّر الذي يجد المشقة في صيامه بين أن يفطر ويؤدي الفدية وبين أن يصوم وهو خير له لما فيه من الأجر والثواب إذا اختاره. ولا تكون في البين منافاة كما يتخيلها الباحث. بل المعنى يستقيم في سلسلة جريان الآية الكريمة صدراً وذيلاً لأن الإطاقة كما عرفت ما كان في القدرة على الشيء مشقة وليس معنى ذلك هو حصول العجز الكلي للشيخ والشيخة ليحصل التهافت صدراً وذيلاً حيث يكون التقدير للصدر أنك أيها الهرم تفطر وتؤدي الفدية بعدما عجزت عن الصوم والذي يقول إن صمت فهو خير لك وحينئذٍ فيرد الاشكال:

هل يصح من الباري أن يكلف العاجز؟ وهل هو إلاّ من قبيل التكليف بغير المقدور؟ بل قد عرفت أن المقصود من الذي يطيق هو الشيخ الكبير والشيخة ولكن بمشقة وعسر عليهما. وحينئذٍ، فلا منافاة في أن يقال لمثل هذا الصوم أن وجود المشقة في هذا الصوم عليهما كان سبباً في أن يرفع الشارع المقدس عنكما التكليف الصيامي منّة منه تعالى وتفضلاً، ولكن لو تحملتما المشقة كان ذلك لكما خيراً من الإفطار والفدية لما من ذلك في إيثار عبادة الله على الراحة، والامتثال لما تفرضه الشريعة على المكلفين وبذلك تحصلان الثواب فلا تهافت بين الصدر والذيل.

وثانياً: إنه بالإمكان القول بأن المقام في عرض هذه الفقرة من الآية المباركة ﴿ **وَأَن تَصُومُواْ** ﴾، ليس في مقام بيان الحكم التكليفي ليحصل التهافت ليقال أنه يتنافى رجحان الصوم وأنه خير لمن يتحمله بمشقة مع كون الحكم له بالفدية وجوبياً. بل يقال أن هذا النحو في الكتاب المقدس ينحو الشارع فيه لبيان مدى التشريع وأن الحكم الذي يشرّعه الخالق عزَّ وجلَّ لا يخلو من المصلحة والخير والحسن وقد عودتنا الآيات الكريمة في موارد كثيرة من القرآن الكريم بإعطاء صورة واضحة عن مثل ذلك وأن تظهر بهذا الشكل الترغيبي، قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ** ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٥٤.

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[1]. وجاء في الطبري[2] شرحها قائلاً:(يقول إيمانكم بالله ورسوله وجهادكم في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم خير لكم من تضييع ذلك والتفريط).

وهكذا الحال لو لاحظنا قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[3].

ومن مجموع ما بيّناه، نستفيد أن الوجوب لم يكن تخييرياً، وإنما هو وجوب تعييني على أشخاص رفع عنهم التكليف منّة وتفضلاً فعليهم الفدية.

والآية مستقيمة ولا توقف فيها.

والله الموفق للصواب

---

(١) سورة الصف: الآية، ١١.

(٢) أبو جعفر الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن/ ١١٣، ٢٨.

(٣) سورة الجمعة: الآية، ٩.

الإنسان مم خلق؟

قال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾[١].

تعرض القرآن الكريم لخلق الإنسان من حيث تكوينه من المواد الأولية. وتناولت الآية المباركة هذه الحقيقة فأعطت صورة موضحة عنها، وذلك في مرحلتين:

الأولى: بيان أصل تكوين الإنسان الأول آدم(عليه السلام) من إطار العناصر التي خلق منها.

الثانية: بيان التكوين التركيبي الناتج من التزاوج واللقاء بين العنصرين الذكر والأنثى فيما يعود بالنسبة إلى الأفراد(البشر).

أما بالنسبة إلى الإنسان الأول، والذي هو أبو البشر فقد قالت الآية الكريمة عنه: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ﴾[٢]. وعندما يصل المفسرون لهذه الآية الكريمة يقولون:

أي كون جسمه من تراب بعد أن أصابه الماء فصيّره طيناً لزجاً، وبعد هذه العملية التركيبية: ﴿ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[٣].

وأما عن الأفراد البشرية، من نسل(أدم) بغض النظر عن الذكورة والأنوثة، فقد

---

(١) سورة الطارق: الآية، ٧.

(٢) سورة آل عمران: الآية، ٥٩.

(٣) سورة آل عمران: الآية، ٥٩.

تنوّعت الآيات في التعبير عن المواد التي تكوّن الفرد.

١ ـ البعض منها تصرح بأن منشأه هو التراب وورد ذلك في آيات عديدة: منها: قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٍ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ﴾[١].

٢ ـ البعض الآخر تصرح أن منشأه هو الطين كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾[٢].

٣ ـ وهناك قسم ثالث من الآيات صرح بأن مبدأ الفرد من بني آدم هو الصلصال حيث قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٍ مِّنۡ حَمَإٍ مَّسۡنُونٍ ﴾[٣].

ومن مجموع هذه الأقسام الثلاثة لهذه الآيات عرفنا أن التعبير عن المادة الأولية هو «التراب. الطين. الصلصال».

وفي الحقيقة، إن التأمل يقضي بأن جميع هذه الآيات تنحو نحواً واحداً في المضمون وإن اختلف التعبير فيها.

فالطين عندما نلاحظه نراه يتألف من التراب الممتزج بالماء.

وأما الصلصال فهو، الطين اليابس يصلصل ويصوت غير مطبوخ فإذا طبخ فهو فخار[٤].

والنتيجة، إن التراب هو المادة الأولية للأفراد البشرية.

تساؤل:

ومن هنا يبرز علينا السؤال التالي:

إذا كان التراب هو المنشأ والمبدأ لآدم وولده، فما الفرق بين الإنسان وبين من

---

(١) سورة الحج: الآية، ٥.

(٢) سورة الأنعام: الآية، ٢.

(٣) سورة الحجر: الآية، ٢٦.

(٤) الغرناطي الكلبي: ٢، ١٤٥، دار الكتاب العربي ـ لبنان.

يتولد منه؟ مع أن الفرق بينهما موجود بالكلام؟

وللإجابة على ذلك نقول:

إن خلق آدم ابتداءً كان من التراب وبدون توسط مادة أخرى. بينما خلق الفرد البشري وإن كان من التراب، ولكن بعد مرور هذا التراب بمراحل عديدة لتصبح بعد ذلك المادة التي يتكون منها الإنسان مباشرة.

أما المراحل فهي:

إن الفرد الإنساني كما سيظهر لنا من البحوث الآتية يتكون من بويضة تكمن في الأنثى وحيمن يكمن في الرجل والذي هو المني وكلا هذين(الحيمن والبويضة) يتكون من الدم، والدم يتكون إما من الحيوان أو النبات اللذين يشكلان المادة الغذائية الوحيدة لحياة الإنسان، وعندما نلاحظ هذين العنصرين الأساسيين نراهما يعودان إلى التراب أيضاً، وذلك:

لأن الحيوان إما أنه يعيش على أكل النباتات أو على أكل لحوم الحيوانات الأخرى والتي تعيش هي على أكل النباتات وإذا عاد الأمر إلى النبات فإنه يخرج من الأرض بزرعه بعد سقيه بالماء، ولذلك صرحت الآية الكريمة:

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ ﴾[1].

فالأرض، هي الأم لهذا الحشد البشري الهائل الذي أطلق القرآن عليها إنها المنشأ في تكوين الفرد الإنساني وخلقه ولكن بالطريقة غير المباشرة كما بيّنا فهي عملية تمرّ بالمراحل التي ذكرناها.

خلق الإنسان المباشر:

أما خلق الإنسان بالطريقة المباشرة الحاصلة من الخلق التركيبي الناتج من عملية التزويج واللقاء بين الرجل والمرأة أو بالمصطلح الطبي التلقيح بين حيمن الرجل

---

(١) سورة يس: الآية، ٣٦.

وبويضة المرأة ليشمل ذلك التلقيح الطبيعي والتلقيح الصناعي. تستمر الآيات الكريمة لتعرض مسيرة هذا التركيب للفرد الإنساني من الإطار المباشر فتنطلق الآيات ببيان المراحل التي تبدأ فيها هذه المسيرة، فقال سبحانه وتعالى:

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾[1].

إذن: فالإنسان ـ الفرد ـ يبدأ من نطفة من مني، والنطفة القطعة من الدم كما في اللغة ومنشؤها المادة التي أطلق عليها اسم ـ المني ـ.

---

(١) سورة القيامة، الآيتان: ٣٦ ـ ٣٧.

البحث في رؤية الله[١]

من جملة ما تعرض إليه الأستاذ محب الدين الخطيب في خطوطه العريضة هو البحث في رؤية الله، فنقل على عادته رأي أهل السنة في ذلك فقال: ممكنة في الآخرة فقط لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[٢].

ثم عقب ذلك بنقل رأي الشيعة في ذلك فقال: غير ممكنة لا في الدنيا ولا في الآخرة[٣].

وحيث ذكر الباحث الدليل الذي اعتمد عليه أهل السنة في إمكان رؤية الله في الآخرة فقط وهو الآية الكريمة فلا بدّ لنا، من الانتقال إلى رحابها لنرى ما يقوله المفسرون فيها ثم الحكم بعد ذلك على ضوء ما نتوصل إليه من الإمكان أو الاستحالة.

الآية الكريمة، جاءت في سورة القيامة لتصور لنا وما بعدها من آيتين مشهداً من مشاهد القيامة فتعطينا صورةً حية عن ذلك اليوم الرهيب حيث يقف الإنسان والدهشة تأخذ عليه مسالك التفكير ليرى نتيجة ما عمله في دنياه ليُحاسب على ما فعل وما قدم وما أخر وهو: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[٤].

تستعرض الآيات الكريمة في هذا اليوم العصيب بني الإنسان لتقسّمهم إلى

---

(١) ألقيت المحاضرة في يوم الخميس ١٢/ جمادى الأول/ ١٩٩٣م.

(٢) سورة القيامة، الآيتان: ٢٢ و٢٣.

(٣) محب الدين الخطيب: الخطوط العريضة/ ٥٣.

(٤) سورة يس، الآيات: ٣٤ ـ ٣٧.

قسمين:

فالبعض منهم، يجني ثمرة إيمانه بربه والخضوع لما أمر به ونهى عنه وإذا بهؤلاء: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ حسنة فيما حكم مستبشرة بوعد الله الكريم: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

أما البعض الآخر، فقد خسر في دنياه وآخرته فلم يخضع ولم يكن للإيمان إلى تلبيته سبيل وإذا بهم: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝٢٤ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾[1].

ويتفق هذا البعض بوجوهٍ عابسة مكفهرة لا تدري ما أخفي لهم في ذلك من داهية وبلاء.

ومقاطع هذه الآيات الكريمة لم يحصل الاختلاف فيه من قبل المفسرين إلاّ في المراد من قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، فقيل في ذلك وجوه، وبالإمكان إرجاع تلك الوجوه إلى قولين رئيسين:

أحدهما: إن النظر هنا بمعنى الرؤية والمشاهدة بالعين المجردة. وعليه، يكون تفسير الآية المباركة أن تلك الوجوه الحسنة الناعمة تنظر إلى ربها وتشاهد جلاله وتتطلع إليه.

ثانيهما: إن النظر هنا بمعنى الانتظار فهي وجوه حسنة تنتظر من الله الثواب أو الرزق أو الفضل أو ما أوعدها عليه في الدنيا في الجزاء ونظير ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾[2]، والمراد إني منتظرة جواب رسالتي.

وفي الشعر العربي جاء ذلك حيث يقول الشاعر:

وجوه يوم بدر ناظراتُ   إلى الرحمن تنتظر الفلاحا

ومن الطبيعي أن الشيعة الإمامية يميلون إلى القول الثاني، ليفسروا الآية بمعنى

---

(١) سورة القيامة: الآية، ٢٥.

(٢) سورة النمل: الآية، ٣٥.

الانتظار. على العكس مما يقول به غيرهم من القول الأول، وهو كون النظر فيها بمعنى الرؤية.

وبعد هذا العرض نقول:

ومع الباحث في عبارته:

أولاً: إن ما ذهب إليه الشيعة الإمامية من اعتبار النظر في الآية بمعنى الرؤية لم يختصوا به بل وافقهم عليه جمع من المفسرين فليس هو من مبتدعات الشيعة وخرافاتها ليكون هذا القول تشنيعاً عليهم.

ثانياً: إن على الجانب الشيعي أن يفنّد القول بإمكان النظر إلى الخالق بمعنى الرؤية كما يدعيه الطرف الآخر ليسلم له مدعاه من القول بأن أولئك البعض منتظرون لرحمة ربهم لا أنهم يرونه مشاهدة.

وفي هذا الحال، يدّعي القائل بالإحالة للرؤية بأنا لو أجزنا للبشر أن ينظر بهذه الحاسة البصرية إلى خالقه فلماذا نقتصر على هذه الناحية في الآخرة، وليكن ذلك أيضاً في الدنيا؟ ولماذا تقوى حاسة البصر بعد الموت وفي يوم القيامة تنظر إلى ما كانت محرومة عن رؤيته في الدنيا؟

ثالثاً: إن الكتاب الكريم نفسه حدّث عن هذه الظاهرة فمنعها حيث قال تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[1]، والآية صريحة في أنه تعالى يرى البشر بينما هم لا يرونه.

وقد يقال: بأن الإدراك ليس بمعنى الرؤية بل الوصول ويكون التقدير عدم الوصول إلى فهم حقيقته وكنه ذاته.

ويكون الجواب: إن الإدراك حيث يضاف إلى الحواس فيفهم من كل ما لتلك الحاسة من عمل فإذا أضيف إلى العين علمنا منه الرؤية وإذا أضيف إلى السمع حيث يقال أدركته بأذني يفهم منه السماع وإذا قيل أدركته بفمي أي وجدت طعمه، وهكذا.

---

(١) سورة الأنعام: الآية، ١٠٣.

وعليه فالآيتان متعارضتان لو قلنا أن النظر بمعنى الرؤية فكيف ينفي الله ما أثبته لنفسه. والجمع بين الآيتين يكون بحمل النظر في الآية على الانتظار وبحمل الإدراك على الرؤية.

ورابعاً: إن النظر بمعنى الرؤية له تعالى مستحيل. ويستند القائل بالإحالة لإثبات مدعاه إلى القول:

بأن النظر إلى شيء تحديد له في المنطقة، وهذا يستلزم حصره تعالى في مكان خاص، وهو محال لأن المكانية يحتاج إليها الجسم وهو تعالى منزه عن الجسمانية.

على أن التحديد المذكور بالمكانية يستلزم خلوه عن الأماكن الأخرى وهذا مستحيل لأنه في كل مكان. ويشير إلى هذا المعنى الإمام علي أمير المؤمنين(عليه السلام) في نهج البلاغة حيث يقول:

«وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة. فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثنّاه، ومن ثنّاه فقد جزّأه، ومن جزّأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه»[١].

ويعلق الشيخ محمد عبده[٢] على الفقرة الأخيرة قائلاً:

إنما تشير إلى شيء إذا كان ذلك في جهة فأنت تتوجه إليها بإشارتك وما كان في جهة فهو منقطع عن غيرها فيكون محدوداً أي له طرف ينتهي إليه فمن أشار إليه فقد حدّه ومن حدّه فقد عدّه أي أحصى وأحاط بذلك المحدود لأن الحد حاصر لمحدوده. ويعلق ابن أبي الحديد المعتزلي[٣] على هذه الفقرة قائلاً:

---

(١) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ ٥٤، ١٧٦، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

(٢) الشيخ محمد عبده: شرح نهج البلاغة/ ١، شرح ص ١٥، دار الذخائر ـ قم المقدسة.

(٣) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة/ ١، ٧٦، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

ومن أشار إليه فقد حده وهذا حق لأن كل مشار إليه فهو محدود لأن المشار إليه لا بدّ أن يكون في جهة مخصوصة وكل ما هو في جهة فله حد وحدود أي أقطار وأطراف.

وتعالى الله عن التحديد لأن المحدودية من لوازم الجسم كما بيناه.

وبعد هذه الجولة يتضح لنا، أن النظر في الآية الكريمة ليس هو الرؤية. خصوصاً إذا لاحظنا التنسيق بين الموقفين: موقف هؤلاء بوجوههم الناعمة ومن يقابلهم بوجوههم المكفهرة وكل ينتظر جزاءه، ويأتي مثل هذا المنظر في سورة أخرى من القرآن حيث يقول تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾[1].

إن الكتاب الكريم يريد بتكرار هذه الصورة عرض حالتين ومشهدين في أحدهما يعلو الرضا والاستبشار على الوجوه، وفي الآخر تعلو الكآبة والعبوس وكل من الطرفين ينتظر جزاءه في ذلك اليوم.

يقول بعض المفسرين في ختام حديثه عن قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

وإذن، فقد كان جدلاً ضائعاً ذلك الجدل الطويل المديد الذي شغل به المعتزلة أنفسهم ومعارضيهم من أهل السنة والمتكلمين حول حقيقة النظر والرؤية في مثل ذلك المقام... لقد كانوا يقيسون بمقاييس الأرض ويتحدثون عن الإنسان المثقل بمقررات العقل في الأرض ويتصورون المدارك المحدودة المجال... إلى قوله... فلنتطلع إلى فيض السعادة الغامر الهادئ وفيض الفرح المقدس الطهور الذي ينطلق من مجرد تصورنا لحقيقة الموقف على قدر ما نملك ولنشغل أرواحنا بالتطلع إلى هذا الفيض فهذا التطلع ذاته نعمة لا تفوقها إلاّ نعمة النظر إلى وجهه الكريم[2].

وختاماً، فما يذهب إليه الشيعة من إحالة رؤيته تعالى في الدنيا والآخرة مبتنٍ على

---

(١) سورة عبس، الآيات: ٣٨ ـ ٤٢.

(٢) راجع السيد قطب: في ظلال القرآن / في معرض تفسيره للآية الكريمة.

أسسا علمية وليس من نسيج الخيال والخرافة. قواعد تبتنى على إجلاله وتعظيمه وتنزيهه عن الصفات التي تختص بمخلوقاته.

ولك أن تحكم أيها القارئ بعد هذا العرض أن الشيعة مخطئون أو مصيبون فيما ذهبوا إليه في معتقدهم المذكور.

القرآن يتحدى

تحدي القرآن من أعظم الدلائل على أنه وحي إلهي.

كانت العرب مفطورة على حب البلاغة والأدب والشعر والخطابة، وحسبك أنهم كانوا يقيمون في كل سنة موسماً عاماً يتبارى فيه الخطباء وينشدون فيه أشعارهم في مكان يطلق عليه «سوق عكاظ» وكان هناك شعراء فحول يحكمون بينهم واشتهرت هذه الفنون بين العرب، وكانت أسمى ميزاتهم وذلك لأمرين:

الأول: إن حياة الصحراء تدعو إلى التأمل وإثارة العواطف وإنماء الخيال، وهي أمور تلهم الشاعرية وتوحي ضروب القول.

الثاني: إن حياتهم القبلية كانت مدعاة للتفاخر والتخاصم والحروب المستعرة، لذلك كانوا بحاجة إلى الشعر البليغ الذي يرفع منزلة القبيلة، ويعلي من شأنها ويحط من قيمة القبيلة الأخرى. من هنا كثر اهتمامهم بالأدب والشعر فرفعوا منزلة الشاعر المفلق والخطيب البليغ ونوهوا بهما.

جاء القرآن الكريم أفصح كلاماً وأبلغ أسلوباً ومعنىً ليجد السبيل إلى امتلاك الجزيرة العربية التي كانت مسرحاً للفوضى والاضطراب وهو لا يستطيع أن يتولى عليها إلاّ إذا كان أقوى منها فيما هي قوية فيه[1]، بحيث يشعر أهلها بالعجز والضعف. ومن طباع النفس التي جبلت عليها أنها متى خذلت وكان خذلانها من قبل ما تعدهُ أكبر فخرها واجمل ضعفها وأعظم همها وأصابها الوهن في ذلك وضربها الخذلان باليأس فقلما تنفعها نافعة بعد ذلك أو تجتزها قوة أخرى.

فمن ثم لم تقم للعرب قائمة بعد أن أعجزهم القرآن من جهة الفصاحة التي هي

---

(١) عفيف عبد الفتاح طبارة: روح الدين الإسلامي/ ١٣.

أكبر أمرهم ومن جهة الكلام الذي هو سيد عملهم.

سمعه فصحاؤهم وبلغاؤهم فخروا ساجدين لفصاحته مذعنين لبلاغته، بهر الشعراء منهم فخرست ألسنتهم وسكنت شاعريتهم وضاع إلهامهم وذهبت كل بلاغة في تياره.

ولكن زعماء الشرك أبوا الإذعان للدين الجديد ولرسالة محمد(ﷺ) فأخذوا يحاربون الحق بالأوهام ويؤلبون قوى الشرك على داعية الإسلام، فقالوا في القرآن هو شعر وهو سحر وهو أساطير الأولين ولو نشاء لقلنا مثل هذا ورموا محمد(ﷺ) بالجنون.

ولما كان من عادة العرب أن يتحدى بعضهم بعضاً في المساجلة بالكلام والمقارضة بالقصيد والخطب حيث أن ذلك مفخرة من مفاخرهم يستعلون به ويذيع لهم حسن الذكر وعلو الكلمة. أمام كل هذا تحداهم القرآن في آيات كثيرة أن يأتوا بمثله أو بعضه: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾[1].

وحكمة هذا التحدي ذكرها القرآن الكريم، وهي أن يشهد التأريخ في كل عصر بعجز العرب عنه وهم الخطباء وفصحاء اللسان وحتى لا يجيء بعد ذلك فيما يجيء من الزمن مولّد أو أعجمي أو كاذب أو منافق.

شرائع الله لعباده مبناها الرحمة الشاملة لا مكان فيها لاعتساف أو إجحاف قد يعشق الأب أولاده أو يجهل أو يحيف، وقد يخلقه من طبيعته البشرية ما يشهد تأديبه لهم بالأثرة والغرض. أما رب العالمين فإنه يشرّع لعباده ما يعود عليهم بالخير المحض وما يكفل مصلحتهم الصرفة فحنوه عليهم مقرون بالغنى المطلق عنهم وهدايته لهم دائرة كلها على ما يصون محياهم ويرفع مستواهم.

يريد الله للناس أن يخلفوه في أرضه وأن يحيوا فيها علماء راسخين وأن يجعلوا منها مهاداً حسناً لمعرفته وإنفاذ أمره. وما معرفته وإنفاذ أمره إلاّ منهاج الرشد والنفع

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٢٣.

لهم والضمان الأول والأخير لمصالحهم، ولو ترك الناس لأهوائهم لنزلوا إلى حضيض ولعاشوا بعيداً عن شرائع الله في درك الوحشة والريبة والمظالم والظلمات.

قال ابن القيم: «إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والعباد وهي عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها: فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور وعن الرحمة إلى ضدها وعن المصلحة إلى المفسدة وعن الحكمة إلى العبء فليست من الشريعة وإن دخلت فيها بالتأويل فالشريعة عدل الله في عباده ورحمته بين خلقه وظله في أرضه وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسله أتم دلالة وأصدقها»[١].

القرآن ثم السنة، القرآن الكريم هو المصدر الأول لتعاليم الإسلام والمصادر الأخرى بمنزلة الجذع في فروع الشجرة وثمارها.

وأنت ترى في الأنظمة العامة التي تحكم الجماعات دساتير ثم قوانين إدارية وجنائية وشخصية وتجارية ثم لوائح وقرارات ومذكرات تفسيرية... الخ. والمفروض في الدساتير أنها مجمع القواعد الخطيرة في الحكم والتشريع والتنفيذ وأنها تضم أمهات المسائل التي ينبغي النص عليها ولا تنزّل للتقديرات المختلفة وإن ما عداها يرتكز عليها ويستمد حرمته منها، ولذلك لا يمكن أن يحتوي على ما يخالفها نصاً أو روحاً فإذا وجد هذا المخالف ألغي من تلقاء نفسه.

كذلك كتاب الله هو قطب الإسلام ومنبع شرائعه والدستور الذي له الصدارة فيما يضم من توجيه وأدب ووصايا وأحكام، وقد تضمن أصول الإسلام ومنه تؤخذ الصور العامة لما يرضاه الله لعباده في شؤون حياتهم ومناحي تفكيرهم ومعالم سلوكهم. ويستحيل بداهة أن يكون في مصادر التشريع الأخرى ما يعارضه أو يسير في مجرى يغاير اتجاهه[٢].

---

(١) محمد الغزالي: ليس من الإسلام/ ٦ و٧.

(٢) ليس من الإسلام: محمد الغزالي ٢٧ و٢٨.

فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لا ريب أن الإسلام دين كامل متكامل، يتعامل مع الواقع ويضع الحلول المناسبة لكل مشكلات الحياة، وهذا الأمر يبدو جلياً من خلال نضرة إلى ما يحويه هذا الدين الخاتم في مجال العقيدة والفقه والأخلاق.

وعلى هذا، فإن دور الإسلام هو إرشاد البشرية إلى الحق المبين وإخراجها من الظلمات إلى النور، وهذا ما اضطلع به الصدر الأول من المسلمين حتى خاطبهم القرآن بعدما حملوا الإسلام عقيدة وجسّدوه حياةً وسلوكاً قائلاً:

﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[1].

ولضمان نشر الإسلام في ربوع الأرض وتثبيته في بلاد الإسلام شرّع الله تعالى للمسلمين فريضة «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، فكانت من أقدس الفرائض التي تحفظ كيان الأمة ووحدتها وتماسكها.

ونحاول هنا بيان بعض معالم هذه الفريضة العظيمة وأهميتها.

القرآن الكريم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من التكاليف الشرعية المهمة التي اهتم بها القرآن الكريم حيث ذكرت في عدة آيات وبصيغ بيانية مختلفة، فتارة: جعلها دعوة العقلاء والحكماء من بني الإنسان كما في قوله تعالى في سورة لقمان مخاطباً ابنه: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾[2]، فهذا

---

(١) سورة البقرة: الآية، ١٤٣.

(٢) سورة لقمان: الآية، ١٧.

في مقام الإرشاد إلى السلوك المستقيم والصبر على البلاء.

وأخرى: جعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من واجبات الحاكم المؤمن والسلطان العادل. كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [(١)]، وأجلى مصداق الحاكم المؤمن والعادل هو النبي الأكرم(ﷺ) والأئمة المعصومون من بعده(عليهم السلام) كما في قوله تعالى والخطاب له(ﷺ): ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[(٢)].

يقول أحد الباحثين، وإن كان الخطاب للنبي(ﷺ) إلاّ أنه لا يمنع عند لزومها للإنسان العادل إذا التزم بالشريعة الإسلامية لقيادة الأمة[(٣)].

علماً أن من صفات الحاكم العادل هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما في قوله تعالى مبيناً صفات القائد الإلهي المنصّب بأمر السماء:

﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾[(٤)].

وثالثة: جاءت الآيات نعتاً للمؤمنين الصالحين مؤكدة على ممارسة هذه الفريضة مهما كانت الظروف، كما في قوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ

---

(١) سورة الحج: الآية، ٤١.

(٢) سورة الأعراف: الآية، ١٩٩.

(٣) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في فقه أهل البيت: ١٢.

(٤) سورة الأعراف: الآية، ١٥٧.

بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[3]، وغيرها من الآيات الكريمة التي وردت بهذا النعت للمؤمنين الصالحين مثل قوله تعالى:

﴿ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾[5].

ورابعاً: إن الترك لهذه الفريضة ينذر بالعذاب والهلكة كما في قوله تعالى:

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾[6]، وأيضاً جاء العذاب بقوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾[7].

السنة النبوية وروايات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

لا تقل أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الروايات التي وردت عن

---

(١) سورة الأعراف، الآيات: ١٦٣ ـ ١٦٦.

(٢) سورة آل عمران: الآية، ١١٠.

(٣) سورة آل عمران: الآية، ١٠٤.

(٤) سورة التوبة: الآية، ٧١.

(٥) سورة التوبة: الآية، ١١٢.

(٦) سورة المائدة، الآيتان: ٧٨ ـ ٧٩.

(٧) سورة الأعراف: الآية، ١٦٦.

العترة الطاهرة(عليهم السلام) لأنهم عدل القرآن بنص حديث الثقلين عن سائر الفرائض الإلهية.

لهذا ارتأينا أن نذكر، بعض النصوص المهمة التي تؤكد أهمية هذه الفريضة على المسلمين كافة، وأنها كسائر الفرائض نظير الصلاة والصوم والحج وغيرها... بل تكون أهم لأن بهما بقاء الدين. كما أن لهما آثاراً عظيمة في تربية سلوك الفرد وصلاح المجتمع.

١ ـ يقول الإمام السبط الشهيد الحسين(عليه السلام) عن أمير المؤمنين(عليه السلام): «اعتبروا أيها الناس بما وعظ الله به أولياءه من سوء ثنائه على الأحبار إذ يقول: ﴿ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ ﴾[1].

وقال: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ .... لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾[2].

وإنما عاب الله ذلك عليهم لأنهم كانوا يرون من الظلمة الذين بين أظهُرهم المنكر والفساد فلا ينهونهم عن ذلك رغبة فيما كانوا ينالون منهم ورهبةً مما يحذرون والله يقول: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾[3]، وقال:﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾[4]، فبدأ الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة منه لعلمه بأنها إذا أُديت وأقيمت استقامت الفرائض كُلها هيّنها وصعبُها وذلك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دُعاء إلى الإسلام مع ردّ المظالم ومخالفة الظالم وقسمة الفيء والغنائم وأخذ الصدقات من مواضعها ووضعها في حقها.. الخ)[5].

٢ ـ وعن أبي عبد الله(عليه السلام): «إن رجلاً من خثعم جاء إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله)،

---

(١) سورة المائدة: الآية، ٦٣.

(٢) سورة المائدة: الآيتان، ٧٨ ـ ٧٩.

(٣) سورة المائدة: الآية، ٤٤.

(٤) سورة التوبة: الآية، ٧١.

(٥) ابن شعبة الحراني: تحف العقول/ ٢٣٧، تحقيق وتعليق: علي أكبر الغفاري.

فقال: يا رسول الله أخبرني ما أفضل الإسلام؟

قال: الإيمان بالله، قال: ثمّ ماذا؟ قال: صلة الرحم، قال: ثم ماذا؟

قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. الخ»[1].

٣ ـ وأيضاً ما رواه الأعمش بسنده عن جعفر بن محمد(عليه السلام) في حديث شرائع الدين قال: «والأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان على من أمكنه ذلك ولم يخف على نفسه ولا على أصحابه»[2].

٤ ـ ونفس المضمون في حديث الرضا(عليه السلام) إلى المأمون: «محض الإسلام شهادة أن لا إله إلاّ الله(إلى أن قال(عليه السلام) والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان إذا أمكن ولم يكن خيفة على النفس»[3].

ومما لا شك فيه أن هذه الأحاديث الشريفة وغيرها تؤكد على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهناك روايات كثيرة تحث الإنسان المؤمن على الاهتمام بهذه الفريضة المنسية في هذا الوقت نذكر منها:

١ ـ عن أبي عبد الله(عليه السلام) عن آبائه(عليهم السلام) قال: «قال رسول الله(صلى الله عليه وآله): والذي نفسي بيده ما أنفق الناس من نفقة أحب من قول الخير»[4].

٢ ـ وعنه أيضاً(عليه السلام) قال: «قال أمير المؤمنين(عليه السلام) قولوا الخير تعرفوا به: واعملوا الخير تكونوا من أهله»[5].

٣ ـ وعن رسول الله(صلى الله عليه وآله): «رحم الله من قال خيراً فغنم... الخ»[6].

٤ ـ وعن أبي عبد الله(عليه السلام) عن آبائه عن علي(عليه السلام) قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله):

---

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ ١٦، ١٢١، ح ١١، تحقيق: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث.

(٢) المصدر المتقدم: ١٦، ١٢٥، ح٢٢.

(٣) المصدر المتقدم: ١٦، ١٢٩، ح٨.

(٤) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ ٦٨، ٣١١، تحقيق: السيد إبراهيم الميانجي ومحمد باقر البهبودي.

(٥) المصدر المتقدم: ح٩.

(٦) الحر العاملي: وسائل الشيعة / ١٦، ١٢٣، ح١٧.

«من أمر بالمعروف أو نهى عن منكر أو دل على خير أو أشار به فهو شريك، ومن أمر بسوء أو دلّ عليه أو أشار به فهو شريك»[١].

ولأهمية هذه الفريضة كما عرفنا من الروايات نجد هناك طائفة من الروايات تهدد وتنذر الإنسان بالعقاب الدنيوي وعذاب الآخرة على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نذكر منها:

١ ـ عن أبي جعفر وأبي عبد الله(عليهما السلام) قال: «ويلٌ لقومٍ لا يدينون الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[٢].

٢ ـ وعن محمد بن عزمة قال: «سمعت أبا الحسن الرضا(عليه السلام) يقول: لتأمرنّ بالمعروف ولتنهنّ عن المنكر، أو ليستعملنّ عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم»[٣].

٣ ـ بالإسناد عن الرضا(عليه السلام) إنه سمعه يقول: (كان رسول الله(صلى الله عليه وآله) يقول: إذا أمتي تواكلت ـ تواكلوا ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فليأذنوا بوقاع من الله)[٤].

٤ ـ وعن أبي عبد الله(عليه السلام) قال: «ويلٌ لمن يأمرُ بالمنكر وينهى عن المعروف»[٥].

٥ ـ محمد بن الحسن الطوسي قال: روي عن النبي(صلى الله عليه وآله) أنه قال: (لا تزال أمتي بخير ما أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وتعاونوا على البر، فإذا لم يفعلوا ذلك نزعت منهم البركات وسلّط بعضهم على بعض، ولم يكن لهم ناصر في الأرض ولا في السماء)[٦].

---

(١) المصدر المتقدم: ١٦، ١٢٥، ح٢١.

(٢) المصدر السابق: ١٦، ١١٧، ح١، باب وجوبها وحرمة تركها.

(٣) المصدر السابق: ١٦، ١١٨، ح٤.

(٤) المصدر السابق: ح٥.

(٥) المصدر المتقدم: ١٦، ١٢٢، ح١٤.

(٦) المصدر السابق: ح١٨.

الأدلة القرآنية على وجوب الأمر بالمعروف:

أوجب الله سبحانه وتعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجعله من التكاليف الأساسية لأنه غاية الدين كما عبر عنه الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام): «غاية الدين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحدود»[١]، وقال(عليه السلام): «قوام الشريعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحدود»[٢].

ولا بد لنا من استعراض الآيات القرآنية التي دلت على وجوب هذه الفريضة وهي:

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٣].

تقريب الاستدلال:

أشارت الآية الكريمة إلى أصل الوجوب بقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ﴾. و﴿وَلْتَكُنْ﴾ أمرٌ ظاهر في الوجوب هذا من جهة.

ومن جهة أخرى: حصرت الآية الكريمة الفلاح ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ بهذا العمل.

وهنا في الآية إشارة إلى نوعية هذا الوجوب، هل هو وجوب عيني أم وجوب كفائي؟

وفي مقام الجواب نقول، إن المخاطب بهذه الآية بعض الأمة ﴿مِنْكُمْ﴾ وهي تفيد التبعيض. لذا صرح الفقهاء على أن «الوجوب كفائي» فإذا قام به البعض سقط عن الآخرين. فالمؤمنون مكلفون بأن ينتخبوا منهم أمة تدعوا وتقوم بهذه الفريضة. وقد وصفهم الباري عزَّ وجلَّ بأنهم هم «المفلحون».

---

(١) السيد حسين الطباطبائي البروجوردي: جامع أحاديث الشيعة/ ١٤، ٣٨٣، منشورات: مدينة العلم ـ قم المقدسة.

(٢) محمد الريشهري: ميزان الحكمة / ٣، ١٩٤، تحقيق: دار الحديث.

(٣) سورة آل عمران: الآية، ١٠٤.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[1].

تقريب الاستدلال بما حاصله:

من أن الله لم يشهد لهم بالصلاح بمجرد الإيمان بالله واليوم الآخر بل أضاف إلى ذلك «مشرّكاً بالعطف» الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فيكون المراد من الآية الكريمة، إن الذين لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر لا يعدّون من الصالحين، ولولا الوجوب لما نفى صفة الصلاح عنهم.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2].

تقريب الاستدلال:

استفاد المستدل من هذه الآية الكريمة الوجوب من جهةِ نعت الآية الكريمة المؤمنين بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، والذي لم يقم بهذه الوظيفة فهو خارج عن الصفة التي أطلقها عليهم تبارك وتعالى وهي صفة ـ المؤمنين ـ بأنهم الذين يقومون بهذه الوظيفة الأخلاقية والاجتماعية وهما من شؤون بعض المؤمنين على بعض، وعلى هذا فالذي يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يكون خارجاً عن هؤلاء المؤمنين «المنعوتين بالآية».

وإخراج التاركين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من جماعة المؤمنين لا يصح ولا يجوز إلاّ إذا كانا واجبين.

ويؤيد هذا الاستدلال على الوجوب، إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وارد

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١١٣ ـ ١١٤.

(٢) سورة التوبة: الآية، ٧١.

في سياق الواجبات كإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله(ﷺ) فيكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بدلالة وحدة السياق واجبين[١].

رابعاً: قوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾[٢].

بيان الاستدلال:

إن استحقاقهم اللعن في الآية الشريفة إنما كان لعصيانهم وعدوانهم. ثم بيّن حالهم لهذه اللعنة أنهم: ﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾، أي لم يكن ينهى بعضهم بعضاً. فلو لم يكن النهي عن المنكر واجب لما استحقوا اللعنة من الله على لسان أنبياءه(عليهم السلام). فاللعنة لا تصيب قوماً إلاّ إذا فعلوا معصية أو ذنباً كبيراً وهو ترك الواجب.

ويؤيد هذا الاستدلال، ما روي عن أبي عباس في تفسير رسول الله(ﷺ) للآية فقال(ﷺ): «لتأمرنّ بالمعروف ولتنهنّ عن المنكر ولتأخذنّ على يد السفيه، ولتأطرنه على الحق اطرأ أو ليضربنّ الله قلوب بعضكم على بعض ويلعنكم كما لعنهم»[٣].

خامساً: قوله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾[٤].

تقريب الاستدلال:

قرنت الآية الشريفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالإيمان بالله عزَّ وجلَّ

---

(١) لاحظ لذلك سلسلة المعارف الإسلامية: ١٨.

(٢) سورة المائدة: الآيتان، ٧٨ ـ ٧٩.

(٣) الشيخ أبو علي الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن / ٣، ٣٩٧، تقديم: السيد محسن الأمين العاملي، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت.

(٤) سورة آل عمران: الآية، ١١٠.

وقدّمتهما عليه ـ الإيمان ـ لأنهما «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» سياج الإيمان وحفظه.

ومعنى الآية: «صرتم خير أمة خُلقت لأمركم بالمعروف ونهيكم عن المنكر وإيمانكم بالله، فتكون هذه الخصال على هذا الرأي شرطاً في كونهم خيراً»[١].

علماً أن هذه الخيرية، (لا يستحقها من أقام الصلاة وآتى الزكاة وصام رمضان، وحج البيت الحرام، والتزم الحلال وأجتنب الحرام مع الإخلاص الذي هو روح الإسلام، إلاّ بعد القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..)[٢].

من خلال هذه التفاسير وغيرها استدل الفقهاء على الوجوب بهذا الثناء والمدح فأصبحوا خير أمة لقيامهم بهذه الوظيفة الدينية المهمة، وهذا بعينه يدل على فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

سادساً: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[٣].

بيان الاستدلال:

روي عن عطا «إن رجلاً دخل على ابن عباس، وبين يديه المصحف، وهو يبكي وقد أتى على هذه الآية إلى آخرها، فقال ابن عباس: قد علمت أن الله أهلك الذين أخذوا الحيتان وأنجى الذين نهوهم. ولا أدري ما صنع بالذين لم ينهوهم ولم يواقعوا المعصية وهي حالنا»[٤].

---

(١) الشيخ أبو علي الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن / ٢، ٣٦٣.

(٢) نقلاً عن مركز الرسالة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر / ١٦، الناشر: مركز الرسالة ــ قم المقدسة.

(٣) سورة الأعراف: الآية: ١٦٥.

(٤) الشيخ أبو جعفر الطوسي: التبيان في تفسير القرآن / ٥، ١٦، تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب قصير العاملي.

وحينئذٍ فإن نجاتهم من العذاب كان لأنهم ينهون عن السوء وهو يدل على الوجوب. فالذي لا ينهى عن السوء يستحق العذاب الشديد من قبل الله تبارك وتعالى أما الناصحون والواعظون فقط هم الذين نجوا من العقاب لأنه تعالى يقول: ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾(١).

سابعاً: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾(٢).

فالذين أعطيناهم ما به يصح الفعل وسلطناهم في الأرض أدوا الصلاة بحقوقها وأعطوا ما افترض الله عليهم من الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر. وحيث قرن الله تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالصلاة والزكاة ورغّب فيه فقد أراده وإذا أرادهُ صار واجباً. فالمعروف هو الحق والمنكر هو الباطل فيكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعامتين تؤتيان لبناء مجتمع سليم.

ثامناً: قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾(٣).

﴿وَتَعَاوَنُوا۟﴾، لا شك أن هذه الصيغة تشعر وتعطي معنى الوجوب. لأن الله تبارك وتعالى أمرنا بالتعاون وحث على البر والتقوى، وهما الأساس في العلاقات الاجتماعية والإحسان في العبادات والمعاملات لما في قوله تعالى:

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾(٤).

أما العدوان وهو التعدي على حقوق الناس الحقّة، وذلك بسلب الأمن من نفوسهم وأعراضهم وأموالهم فهو منهي عنه.

تاسعاً: قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ

---

(١) سورة الأعراف: الآية، ١٦٥.

(٢) سورة الحج: الآية، ٤١.

(٣) سورة المائدة: الآية، ٢.

(٤) سورة البقرة: الآية، ١٧٧.

لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾[١].

بيان الاستدلال:

بين الله تعالى، أن الربانيين والأحبار أثموا بترك النهي عن المنكر والدلالة واضحة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلو لم يكونا واجبين لما ترتب الإثم على تركهما ولا وبّخهم الله تعالى على سكوتهم لأن التوبيخ يستتبع العمل السيء. وترك النهي عن المنكر هو أحد مصاديقه[٢].

عاشراً: قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[٣].

بيان الاستدلال:

جاءت لولا بمعنى(ألا) وهنا تفيد التعجب والتوبيخ. فقد أشارت إلى القرون الأولى والأمم المتقدمة الذين ابتلوا بأشد أنواع البلاء كقوم عاد وقوم ثمود وغيرهم من الأقوام التي عدّها القرآن وأخبر بهلاكها، حيث اجتمعوا على الكفر حتى استأصلهم الله بالعذاب وأنواع العقوبات إلاّ قليلاً منهم لأنهم كانوا ينهون عن الفساد في الأرض وهم الناهون عن المنكر. فيكون النهي عن المنكر واجب لأن فيه الخلاص من العذاب.

حادي عشر: قوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ ﴾[٤].

تقريب الاستدلال:

تشير الآية إلى أن أغلب الاجتماعات السرّية التي كان يعقدها أولئك النفر

---

(١) سورة المائدة: الآية، ٦٣.

(٢) لاحظ لذلك مركز الرسالة: المصدر المتقدم: ١٩.

(٣) سورة هود: الآية: ١١٦.

(٤) سورة النساء: الآية، ١١٤.

الضال تهدف إلى غايات شيطانية شريرة لا خير منها ولا فائدة. ولكي لا يحصل وهمٌ من أن كل نجوى أو همس أو اجتماع سرّي يعتبر عملاً مذموماً أو حراماً جاءت الآية كمقدمة لبيان قانون كلي، فأوضحت الموارد التي يجب أو يجوز فيها النجوى والأمر بالصدقة ومعونة الآخرين والعمل الصالح والإصلاح بين الناس:

﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾.

فهذه الأمور مدعاة لنيل مرضاة الله، والله سبحانه وتعالى يخص لمثل هذه الأعمال ثواباً وأجراً عظيماً، والثواب والأجر العظيم لا يتأتى إلاّ بوجوب الفعل منه تعالى.

الأخبار الشريفة الدالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

لقد ورد الكثير من الأخبار الشريفة على لزوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. حتى أصبح سكوت المعصوم(عليه السلام) عن عملٍ معينٍ دليلاً على جوازه، فلو كان محرّماً لنهى عنه(عليه السلام).

نعم، كانت سيرة المعصومين(عليهم السلام) تجسيداً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوى إلى الله تعالى بتصحيح اعتقاد الناس وتربية نفوسهم وتهذيب سلوكهم. ولنستعرض بعض تلك الأخبار:

الأول: عن محمد بن عرفة قال: سمعت أبا الحسن الرضا(عليه السلام) يقول: (لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليستعملنّ عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم)[1].

تقريب الاستدلال:

إن نزول العقاب على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من خلال:

أ ـ تسلط الأشرار على الأمة التي لا تنهى عن المنكر ولا تأمر بالمعروف، رغم أن بعض الأفراد لم يمارس هذا الأمر.

---

(١) الحر العاملي: المصدر السابق / ١٦، ١١٨، ح٤.

ب ـ لا يستجاب لهم دعاء عند الله فتعطل دعواتهم حيث يكون بينهم وبين الباري عزَّ وجلَّ حجاب.

فنستفيد من هذا الاستدلال، على أهمية ووجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لرفع العذاب الدنيوي عن العباد.

الثاني: قال(ﷺ): «إياكم والجلوس على الطرقات، قالوا: مالنا بد منها، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها. قال: فإذا أبيتم إلاّ ذلك فأعطوا الطريق حقه. قالوا: وما حق الطريق؟ قال: غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[١].

تقريب الاستدلال:

إن نهي النبي(ﷺ) عن الجلوس في الطرقات لما فيه من مفاسد وتأثير سلبي على المجتمع وبما أنهم اعتادوا الجلوس فالنبي(ﷺ) أمرهم بإعطاء الحق ومن الحق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لما فيه من تأثير إيجابي على المجتمع.

الثالث: ما ورد عن أبي جعفر وأبي عبد الله(عليهما السلام): «ويلٌ لقومٍ لا يدينون الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[٢].

الرابع: عن الإمام أبي جعفر(عليه السلام): «بئس القوم قوماً ـ قومٌ ـ يُعيبون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[٣].

الخامس: عن أمير المؤمنين(عليه السلام): «كان إذا مرّ بجماعة يختصمون لا يجوزهم حتى يقول ثلاثاً: اتقوا الله يرفع بها صوته»[٤].

---

(١) الشيخ محمد مهدي النراقي: جامع السعادات / ٢، ١٨٣، تحقيق وتعليق: السيد محمد كلانتر، تقديم: الشيخ محمد رضا المظفر، مطبعة النعمان ـ النجف الأشرف.

(٢) الحر العاملي: المصدر السابق / ١٦، ١١٧، ح١.

(٣) المصدر المتقدم: ١٦، ١١٨، ح٢.

(٤) المصدر السابق: ح٣.

تقريب الاستدلال:

نلاحظ هناك تهديد من الإمام(عليه السلام) إلى القوم أو الجماعة الذين لا يدينون بهذا الأمر العظيم واحترام هذه الفريضة الإلهية.

ثم يقول(عليه السلام) في الحديث الآخر: بئس القوم من يُعيب هذه الفريضة ويدعو إلى تركها، وهنا إشارة إلى أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومحبوبيته عند الله فيدل على الوجوب أو لا أقل على الاستحباب الأكيد في الروايتين، وهذا من العناصر المهمة لتقوى القلوب وهي المحبة والألفة ولهذا خاطبهم أمير المؤمنين(عليه السلام) اتقوا الله ثلاث مرات تأكيداً على هذا الأمر والنهي عن الفرقة والخلاف والتخاصم.

علماً أن هناك مجموعة أخرى من الروايات بهذا المضمون تؤكد على أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكننا نكتفي بهذا المقدار من الأخبار الشريفة وذلك لعدم الإطالة.

الإجماع ودليل العقل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

مما استدل به على لزوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو «الإجماع ودليل العقل».

ذكر الشهيد الأول(رحمه الله) بأنهما «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» «واجبان عقلاً ونقلاً. أما الأول: فلأنهما لطف وهو واجب على مقتضى قواعد العدل»[1].

وأورد عليه العلامة الحلي(رحمه الله) في المنتهى حسب حكاية الشيخ صاحب الجواهر(رحمه الله) بالقول: لو وجبا بالعقل لما ارتفع معروف ولما وقع منكر أو كان الله تعالى شأنه مخلاً بالواجب، والتالي بقسميه باطل فالمقدم مثله[2].

---

(١) زين الدين الجبعي العاملي المعروف بـ(الشهيد الثاني): الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية / ٢، ٤١٠، تحقيق: السيد محمد كلانتر. مطبعة الآداب ـ النجف الأشرف.

(٢) الشيخ محمد حسن النجفي: جواهر الكلام / ٢١، ٣٥٨، تحقيق وتعليق: الشيخ عباس القوجاني، تصحيح: الشيخ محمد الآخوندي.

بيان الشرطية: إن الأمر بالمعروف هو الحمل على فعل المعروف، والنهي عن المنكر هو المنع منه، فلو كانا واجبين بالعقل لكانا واجبين على الله تعالى لأن كل واجب عقلي يجب على كل من حصل فيه وجه الوجوب، ولو وجب على الله تعالى لزم أحد الأمرين: أما بطلانهما فظاهر، وأما الثاني، فلأنه حكيم لا يجوز عليه الإخلال بالواجب. وأما الأول، فلأنه يلزم الإلجاء وهو ينافي التكليف(١).

ويرد على هذا الدليل:

أولاً: ليس كل لطف واجباً على الله، إنما اللطف الواجب عليه هو ذلك الذي من شأنه تعالى كإنزال الكتب وبعث الأنبياء. أما اللطف الذي يمكن أن يتحقق من المكلفين فإن دليل وجوبه لا يقتضي ثبوته على المولى سبحانه.

ثانياً: لو سلمنا أنه لطف وأنه يجب على الله إيجاب الأمر بالمعروف، إلاّ أنه يترتب عليه لازم باطل، وهو لو كانا واجبين على الله لفعلهما ولو حدث ذلك لزم وقوعهما وهذا معناه وقوع الإلجاء الممتنع في التكليف.

فلا بد من التصرف في معنى الإيجاب بحمله على الإنذار والإرشاد لئلا يبطل التكليف، وقد فعل ذلك بإنزال الكتب وبعث الأنبياء والرسل.

نتيجة ما تقدم:

وبعد أن ثبت وظهر لنا جلياً وجوب هذه الفريضة «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، فلو قام به أحد المكلفين سقط الوجوب عن غيره، وإن لم يقم به أحد أثم الجميع واستحقوا العقاب. فهو فعل مطلوب ويريد الشارع المقدس بهذه الفريضة فقط الصالح العام والنظام الاجتماعي، ولذلك، لم يوجه تكاليفه على شخص بعينه بل تركه لجميع المكلفين إن قام به واحد سقط الوجوب عن الآخرين، وإن أهمل ممن علم أثم الجميع بسبب هذا الإهمال.

---

(١) لاحظ لذلك المصدر المتقدم.

شرائط الوجوب:

يختلف الناس فيما بينهم من حيث الطاقات والإمكانيات البدنية والفعلية والروحية، وفي ضوء ذلك يختلفون في مراتب التكليف والمسؤولية فوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يتعين على القادرين على القيام به وأدائه بالصورة التي تحقق الهدف الأسمى. وقد ذكر العلماء مجموعة من الشروط منها:

أولاً: العلم:

فالعالم الذي يعرف أن يشخّص مصاديق وموارد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكانت لديه القدرة على التمييز بين القول والفعل فهنا تتناسب درجة العلم مع الوجوب فيكون آكد على العالم ثم المتعلم وهكذا.

يقول الإمام الصادق(عليه السلام): عندما سُئل عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أواجبٌ هو على الأمة جميعاً؟ فقال: لا، فقيل له ولِمَ؟ قال: إنما هو على القوي المطاع العالم بالمعروف من المنكر لا على الضعيف الذي لا يهتدي سبيلاً إلى أي قول من الحق أو الباطل، والدليل على ذلك كتاب الله عزَّ وجلَّ قوله:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [1] فهذا خاص غير عام.

وكما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [2]، ولم يقل على أمة موسى ولا على كل قومه وهم يومئذ أمم مختلفة والأمة واحد فصاعداً كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ ﴾ [3].

---

(١) سورة آل عمران: الآية، ١٠٤.

(٢) سورة الأعراف: الآية، ١٥٩.

(٣) الحر العاملي: المصدر السابق / ١٦، ١٢٦، ح١. سورة النحل: الآية، ١٢٠.

ثانياً: القدرة على التأثير:

من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر لا بد أن يمتلك القدرة والقوة والإرادة في التأثير على المقابل بل الأفضل أن يكون صاحب بيان وله إطلاع كامل على مستويات الناس وطاقاتهم العقلية والنفسية من خلال ما يكون له تأثير تارة بالقول وأخرى بالفعل وغيرها من طرق التغيير.

عن أبي عبد الله(عليه السلام): كان المسيح(عليه السلام) يقول... لا تحدثوا بالحكمة غير أهلها فتجهلوا ولا تمنعوها أهلها فتأثموا وليكن أحدكم بمنزلة الطبيب المداوي إن رأى موضعاً لدوائه وإلاّ أمسك[1].

ثالثاً: القطع أو الاحتمال بالتأثير:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة ليست بالهيّن وذلك؟ لأنها تصطدم مع شهوات ورغبات ونزوات الناس وتصطدم بمصالح البعض ومنافعهم الشخصية الضيّقة وغرورهم وكبريائهم. فالبعض من الناس يبحث عن الاستقامة في التقصير والسلوك العبادي والأخلاقي فهو يتأثر عندما يسمع أو يرى ما يقال له أو بما يؤمر به من فعل. والبعض مكابر لا يذعن للحجة وإن كانت قاطعة عليه. والآخر من الناس منغمس في الانحراف ويبغض الاستقامة بل أنسَ الانحراف العقائدي والسلوكي حتى أصبح جزءاً من كيانه فلا يُبالي بأي نصيحةٍ، يقول الإمام الصادق(عليه السلام): «إنما يؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر مؤمن فيتعظ أو جاهل فيتعلم، وأما صاحب سوط أو سيف فلا»[2].

وخير مصداق لهذا الأمر هم الأئمة(عليهم السلام) حيث تجسد سيرتهم هذا المعنى بوضوح من خلال ممارساتهم مع من تصدى للخلافة ووقع في كثير من الأخطاء والاشتباهات في القضاء وغيره، وكذلك النصح والإرشاد إلى المسلمين من أجل حفظ بيضة الإسلام.

---

(١) المصدر المتقدم: ١٦، ١٢٨، ح٥.

(٢) المصدر المتقدم: ١٦، ١٢٧، ح٢.

رابعاً: الأمن من الضرر:

عندما يوجب الشارع المقدس فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعلم أنها دعوة شاقة تواجه أصنافاً من الناس يختلفون في استجابتهم لاختلاف رغباتهم وشهواتهم ونزواتهم وميولهم سواء العقائدية أو الفكرية أو الأخلاقية. فمنهم، من يتغير ويغير مفاهيمه وسلوكه. ومنهم، من يسخر ويستهزئ. ولعل البعض بغروره وكبريائه يستخدم المواجهة والعنف ويؤدي إلى إلحاق الأذى بالآمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فالفريضة مشروطة بالأمن وحفظ النفس من الضرر المتوجه عليه. وعن الأعمش عن جعفر بن محمد(عليه السلام) «في حديث شرائع الدين» قال: «والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان على من أمكنه ذلك ولم يخف على نفسه ولا على أصحابه»[1].

---

(١) المصدر السابق: ١٦، ١٢٩، ح٨.

الخاتمة

جاءت الكتب السماوية من أجل هداية الإنسان وإيصاله قمة التكامل والسمو وبعثها على يد أفضل خلقه هم «الأنبياء والمرسلين والأوصياء» وجعلهم أئمة وقادة للبشر منذرين ومبشرين: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾[1] حيث تمثلت بهم أخلاق السماء ليبلغوا الرسالات السماوية إلى الناس بأسلوب يُحبب العبادة والطاعة إلى الله تعالى بعدما انغمسوا بعبادة الأوثان وغيرها:

﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾[2].

ولا تتحقق هذه التعاليم والأحكام السماوية بمجرد نزولها على النبي (صلى الله عليه وآله) ما لم يقم بتبليغها إلى الأمة بل يقوم بنفسه بتطبيقها وتجسيدها في الواقع وخير وسيلة للتطبيق العملي هو (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

لذا وصف النبي (صلى الله عليه وآله) بعدة أوصاف لم يوصف بها نبي من قبله حيث قال تعالى له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾[3].

وكذلك: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[4] وغيرها من الآيات. بل جعل الله له عدل القرآن اثنا عشر إماماً ينطقون بالحق ويجسدون تعاليم السماء بأخلاقهم وحفظوا لنا الدين بتضحياتهم. يبقى الإسلام يعلو ولا يعلى عليه شيء.

---

(١) سورة الرعد: الآية، ٧.

(٢) سورة الأحزاب: الآية، ٢١.

(٣) سورة القلم: الآية، ٤.

(٤) سورة الأنبياء: الآية، ١٠٧.

فلأهمية هذه الرسالة لم يترك الرسول(ﷺ) القرآن وحده يُتلاعب به وبتشريعاته بل ترك بجانبه ثقلاً آخر وهم أهل البيت(عليهم السلام). إني تارك فيكم الثقلين ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي وأنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض[1].

فأصبح توجيه الأمة للعمل الصالح وردعها عن المنكر هو قول وفعل المعصوم(عليه السلام).

قال الإمام الباقر(عليه السلام) في حديث: «إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء ومنهاج الصالحين ـ الصلحاء ـ، فريضة عظيمة بها تُقام الفرائض «وإلى أن قال»: وتأمن المذاهب وتحلّ المكاسب، وتُرد المظالم وتعمّر الأرض وينتصف من الأعداء ويستقيم الأمر»[2].

فبرسول الإنسانية وأهل بيته(عليهم السلام) يهتدي الإنسان إلى القيم التشريعية ويطلع على أسسها وقواعدها ويزاول الأحكام في واقعه السلوكي ليرتقي إلى كهنة العبودية لله تعالى كما في قول أمير المؤمنين(عليه السلام): «إن الله سبحانه وتعالى لم يخلقكم عبثاً ولم يترككم سُدى.. أنزل عليكم الكتاب تبياناً لكلِّ شيء، وعمّر فيكم نبيه أزماناً حتى أكمل له ولكم «فيما أنزل من كتابه» ونبه الذي رضي لنفسه وأنهى إليكم محابّه من الأعمال ومكارهه ونواهيه وأوامره وألقى إليكم المعذرة واتخذ عليكم الحُجة وقدّم إليكم بالوعيد وأنذركم بين يدي عذابٍ شديد فاستدركوا بقية أيامكم...»[3].

---

(١) الحر العاملي: المصدر السابق / ٢٧، ٣٤، ح٩.

(٢) المصدر السابق: ١٦، ١١٩، ح٦.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة ٨٦.

الربا

الإنسان واحتياجاته:

يقرر الاقتصاديون أن «احتياجات الإنسان هي التي تحركه نحو كل جهدٍ وعمل».

ويقررون أيضاً: بأن «كل فردٍ في هذه الحياة يحتاج بطبيعته إلى موادٍ يستعين بها على إدامة حياته، والوصول إلى ما يتوخاه من غاياته المادية والمعنوية».

وهذه الاحتياجات كثيرة لا تصل إلى حدٍ، وليس باستطاعة أحدٍ أن يجد لها حداً طالما كانت الظروف الزمنية قاضية بذلك.

ومن هذه الزاوية تنطلق الحضارة والعمران، فالتقدم وليد الحاجة والتي تدفع أن يفكر بما يسد هذه الرغبات والمتطلبات.

وإذا ما ألقينا نظرة إلى العصور السالفة رأينا الاحتياجات لأجدادنا الماضين كانت محدودةً وبسيطة تبتني على ما هو ضروري لهم في تلك الظروف، ولكنها وعلى مرّ الزمن أخذت بالكثرة، فرغبة الإنسان إلى الأشياء أخذت مفعولها في توسع نطاق احتياجاته وأخذ شعوره يتطور من الاحتياج مما هو ضروري إلى ما هو كمالي في هذه الحياة تبعاً لتطمين راحته وإسكاتاً لرغبته.

لذلك كان بإمكاننا القول، بأن أكثر ما هو معروف لدينا اليوم مما يشمله نطاق(الحاجة) لم يكن معروفاً لدى السابقين ممن تقدمنا. وطبيعي، أن هذه النتيجة تعكس لنا أن النسبة تكون بإزدياد في المستقبل فيأتي الدور إلى الأجيال الآتية ليشعروا بالحاجة إلى أمورٍ لم تكن معروفة لدينا وهكذا دواليك.

وهذه المتطلبات والصيحات المتتالية لرغبة الإنسان لا يسدها إلاّ المال فهو الذي يؤمّن في نظره ما يصبو إليه، وهو الذي يتعهد بتحقيقها، ولكن هل يعني ذلك أن

يتخلى الفرد المسلم عن تكاليفه الشرعية ويبحث عن المال الذي يهدّئ ثورة الإنسان المالية بكل وسيلة يتمكن عليها، وإن كانت مبغوضة في نظر الشريعة المقدسة؟ وهل تكون الغاية مبررة للواسطة مهما كانت الواسطة ما دام أن ذلك يخفف عن الإنسان متاعبه في سبيل تحقيق رغباته؟

ولا بدّ من الإجابة على ذلك، بالنهي عن اتباع ما لم يسمح به الشرع إذ مهما كانت الاحتياجات والرغبات ومهما تمليه علينا الضرورات الزمنية لا بدّ لنا من الخضوع إلى النظم التي تخططها لنا الشريعة الإسلامية ما دمنا مسلّمين بأن الله عزَّ وجلَّ قد خط لنا منهجاً نسير عليه نحو الكمال.

وما دمنا نعتقد، بأن القدرة الإلهية شاءت أن يكون الإسلام خاتمة المطاف في سلسلة الشرائع السماوية المقدسة، وليس لنا أن ندّعي بأن العقلية البشرية مع ما نراه من هذا التطور لا تتلاءم مع النظم التي يسنها التشريع الإسلامي في الوقت الذي اعترفنا بأن احتياجات الماضين من السلف لم تصل إلى هذه التوسعة التي تمليها علينا ظروفنا.

فالنظام الحالي الإسلامي، إن كان قد حرّم على الفرد تناول الأموال في موارد معينة ومن طرق تعرّض لبيانها فهو على حق بالنسبة إلى تلك السنين الماضية والتي كانت الحياة فيها تسير على نحو بسيط لا تكلف الفرد مع ما نراه اليوم ما تتطلبه منه، لذلك كان علينا أن نتيح للإنسان أن يسعى بكل وسيلة ليؤمّن متطلبات الحياة وإن كان ذلك مستلزماً لاقتحام طرقٍ لا ترغب الشريعة بسلوكها.

إن هذه النظرية طعن صريح بقدرة الله عزَّ وجلَّ ونسبة العجز إليه تعالى شأنه. حيث شاء أن تكون رسالة الإسلام موجهة إلى كافة البشر وكافلة لهم نظامهم إلى نهاية هذا العالم، ومع ذلك فهو لم يقدّر احتياجات هؤلاء ولم يوفق بين طبيعة الظروف المحيطة بالأجيال في كل دور من مراحل السنين.

الشريعة الإسلامية هي القانون الإلهي، وهي من وحي الله عزَّ وجلَّ، وقد نظر المشرّع الأعظم إلى البشر في جميع مراحلهم الزمنية فاختار لهم هذا الدستور المقدّس

ليكفل لهم حياة سعيدة هانئة مهما تجددت الظروف وتقدمت الأجيال.

ولكن النقطة التي لا بدّ من ملاحظتها هي نقطة التطبيق لمبادئ الإسلام والأخذ بتعاليمه في جميع المجالات.

إن السير على هدى الشريعة المحمدية والأخذ بنظمها لكفيل بأن يضمن لنا توسعاً شاملاً وملائماً لجميع الظروف التي تمر بها البشرية وما تفرضه الظروف على الأفراد من متطلبات.

فللإسلام قواعده الثابتة ونظرياته الحكيمة. ثم بعد هذا فللمشرع الأعظم حيث يضع نظمه التشريعية يقدّر طبائع المخلوقين في جميع المراحل الزمنية ويعلم بتلك الظروف التي تحيط بهم كبشرٍ يخطو نحو الحضارة والعمران والتقدم.

فحاجات الفرد والجماعة وترتيب الحياة البشرية في نظمٍ كاملة وموآتية بجميع مراحل الحياة كل ذلك منظور للمشرّع الحكيم فعلاً فقد كانت الشريعة الإسلامية كفيلة بتنظيم الحياة البشرية بنظمها الاقتصادية لو سارت الأمم على الصراط المستقيم وأخذت من هدى خالقها ما يوضح لها معالم الطريق.

والإسلام بعد هذا وذاك لا يقف في طريق الفرد في سبيل حصوله على النفع والمال ومن ثم التملك والوصول لتحقيق رغباته.

بل هو الذي يحث الأفراد على العمل ويدفع بهم إلى سوح الجد في إقامة حياة تبتني على الكسب وتحصيل النفع، والشارع المقدس لا يرغب في حياة عاطلٍ يتسكع على حساب الآخرين ما دامت فيه القابلية على تحصيل القوت من جهوده. قال عمر ابن يزيد قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): «رجل قال لأقعدن في بيتي ولأصلين ولأصومن ولأعبدن ربي فإما رزقي فسيأتيني. فقال: هذا أحد الثلاثة الذين لا يستجاب لهم»[1].

وفي مورد آخر يعبر الإمام (عليه السلام) قائلاً: إن ظننت أو بلغك إن هذا الأمر كائن في

---

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة / ٧، ١٢٥، ح٤.

غدٍ فلا تدعن طلب الرزق...»[١].

وعن عبد الأعلى مولى آل سام قال: «استقبلت أبا عبد الله(عليه السلام) في بعض طرق المدينة في يوم صائف شديد الحر فقلت له: جعلت فداك حالك عند الله عزَّ وجلَّ وقرابتك من رسول الله(صلى الله عليه وآله) وأنت تجهد نفسك في مثل هذا اليوم؟ فقال: يا عبد الأعلى خرجت في طلب الرزق لأستغني عن مثلك»[٢].

فأمناء الشريعة المقدسة لا يريدون للفرد أن يكون كلاً على الآخرين ما دامت في الفرد قوة يمكن له استغلالها في تحصيل الرزق.

وصحيح أن الآية المباركة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٣] أوضحت لنا أن عبادة الله تأتي في المقدمة فما لم يتوجه البشر إلى خالقهم لا يقبل منهم شيء. ولكن لا على أن يترك الفرد رزقه وعياله ومن وراء ذلك مجتمعه ويغلق الباب عليه ليصلي ويصوم فيكون بذلك كلاً وعالةً على الآخرين.

وفي الوقت نفسه، فهو بمجهوده وسعيه ليس ببعيد عن حقيقة العبادة. فعن أبي خالد الكوفي، عن الإمام أبي جعفر(عليه السلام) قال: «قال رسول الله(صلى الله عليه وآله): العبادة سبعون جزءً وأفضلها جزءاً طلب الحلال»[٤].

فالفرد بسعيه المتواصل لتأمين ما تتطلبه الحياة له ولعياله قائم بما يحقق مصداق العبادة في هذا الخصوص. فلا حاجة لأن يدخل الفرد بيته ويترهبن ويحرم المجتمع. ففي هذه الحياة يعمل الإنسان ويستفيد من الوقت نفسه.

إن نفع المجتمع ومصلحته مقدمة في نظر الشرع على مصلحة الفرد.

إن الإسلام حيث يدفع بالفرد إلى ميدان العمل، ويقدس السعي وراء الكسب،

---

(١) المصدر المتقدم: ١٧، ٢٦، ح٥.

(٢) المصدر المتقدم: ١٧، ٢٠، ٢.

(٣) سورة الذاريات، اية: ٥٦.

(٤) الحر العاملي: المصدر المتقدم / ١٧، ٢٣، ح١٥.

وما يؤمن له من مفردات حياته وحاجاته لا يدع لهذا الفرد أن يطلب المال كيف يشاء، وليس له أن يستحصل ذلك على أي نحو يريد، بل قرر له قيوداً فرضها عليه. وكانت الغاية منها رعاية مصالح الباقين. فالمسلم أخ المسلم، والكل في نظر القانون الإلهي سواء من حيث الحقوق الشرعية ولا فضل لبعضهم على بعض إلاّ بما يقدمه الفرد من سلوكٍ يتميز به على الباقين بالتقوى.

أما غصب المال وتحصيله من جيوب الأفراد لإرضاء رغبات هذا الفرد ولتأمين احتياجاته فهذا ما لا يقرره الشارع المقدس ولا يرتضيه لأحدٍ مهما كانت سمته أو شخصيته الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له، والقوي عندي ضعيف حتى أخذ الحق منه[1].

إنها صرخة الحق تبقى على مدى سنين تحمل بين طياتها دروساً للأجيال الآتية يطلقها بطل الحق والعدل أمير المؤمنين الإمام علي(عليه السلام). فالحق هو مقياس العز في نظر الإمام(عليه السلام).

ومعنى هذا، أن حرية الفرد في حياته محدودة وتكمن بعدم جر الأفراد على الآخرين. فـ«لا ضرر ولا ضرار في الإسلام». وهذه فقرة أخرى من قانون الشريعة الإسلامية حيث تصور لنا اهتمام المشرع بالمصلحة العامة حينما ينطلق الرسول الأعظم(صلى الله عليه وآله) ويعلنها صرخة مدوّية في وجه سمرة بن جندب في قصة تذكرها الكتب التاريخية فقد اشترى أنصاري في المدينة من سمرة بستاناً له، وقد استثنى سمرة لنفسه نخلة من تلك البستان، وكان يتردد إليها بعد ذلك من دون أن يخبر الأنصاري فيستأذن منه في الدخول على حرمه. ويبلغ الضيق بالأنصاري فينهاه ولا يجد من مالك النخلة إلاّ إذناً صمّاء، فيرفع أمره إلى النبي(صلى الله عليه وآله) شاكياً إليه المضايقات التي يلقاها من سمرة. ولم تنفع الوسائل الترغيبيّة التي قدمها النبي(صلى الله عليه وآله) لسمرة فقد ضمن له نخلة في الجنة في قبال تنازله عن نخلته تلك، وأصرّ سمرة على العناد فلا يتنازل عما يملك ولا يعد بتعديل سيرته في الاستئذان على الأنصاري في الدخول إلى

---

(١) نهج البلاغة: ١، ٨٩، تحقيق: السيد مهدي الرجائي.

نخلته. ويضطر حينها النبي الأكرم(ﷺ) ليدفع الضرر عن الأنصاري وليلقّن الأجيال الآتية بالدرس القيّم فيأمر الأنصاري بقلع تلك النخلة ورميها بوجه سمرة وهو يقول: ما أراك يا سمرة إلاّ مضاراً[1].

ويختم ابن أبي الحديد المعتزلي القصة[2] بقوله: «قال رسول الله(ﷺ) اذهب فاقطع نخله فإنه لا حق له فيه».

وتبقى هذه الدروس القيّمة من المشرع الأعظم وأمناء دستوره المقدس آل البيت(عليهم السلام) تعلن للتأريخ بأن الإسلام لا يريد ضرراً للآخرين فهو ينظر إلى الجماعة بنظرة واحدة وهو دين المساواة والرفاهية.

وما دام الإسلام «كما أسلفنا» يحرص على السعي والعمل وتنمية المال فهل يبيح لنا أن نحصل على المال ونتجه نحو تنميته بالطرق الربوية، والتي تهيئ للفرد ثروةً متزايدة على مرور الأيام في الوقت الذي يحافظ فيه رأس المال من التضعضع والتلف؟

وقبل الجواب عن ما تقدم لنستعرض الربا قبل الإسلام وهل له وجود أم لا؟

الربا قبل الإسلام:

ولا بد لنا من استنطاق التاريخ لنرى ما إذا كان للربا وجود قبل الإسلام أو لا؟ بل أن النهي عنه هل كان في الوقت الذي لم يكن للربا وجود وتحقق قبل الشريعة الإسلامية؟

الذي يظهر من كتب المفسرين هو وجود المعاملات الربوية القرضية فقط قبل الإسلام حيث كان ذلك مشهوراً عندهم.

فعن ربا القرض يقول الرازي في تفسيره[3]:

---

(١) لاحظ لتفصيل القضية الحر العاملي: المصدر المتقدم، ٢٥، ٤٢٧، ح١.

(٢) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة: ٤، ٧٨، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

(٣) الفخر الرازي: التفسير الكبير / ٧، ٩١.

«أما ربا النسيئة فهو الأمر الذي كان مشهوراً متعارفاً في الجاهلية وذلك أنهم كانوا يدفعون المال على أن يأخذوا كل شهرٍ قدراً معيناً، ويكون رأس المال باقياً، ثم إذا حلّ الدين طالبوا المديون برأس المال، فإن تعذر عليه الأداء زادوا في الحق والأجل. فهذا هو الربا الذي كانوا في الجاهلية يتعاملون به».

وهناك صور أخرى كانت تظهر بشكل آخر، كما ذكره الطبري في تفسيره[١]:

«إن ربا الجاهلية يبيع الرجل البيع إلى أجل مسمى فإذا حلّ الأجل ولم يكن عند صاحبه قضاء زاده وأخّر عنه».

والذي يظهر لنا أن المعاملات التي كانت تشتمل على تأجيل القرض سواءً كان الأصل فيها بيعاً أو قرضاً هي التي كانت سائدة في الجاهلية.

الربا لغة:

الربا في اللغة: هو الفضل والزيادة[٢]، والربح والنمو، وكلها ترجع إلى معنى واحد كما هو ظاهر.

وقد جاءت الآيات القرآنية معبرة عن هذا المعنى في موارد مختلفة:

١ ـ قال تعالى: ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا وَيُرْبِي الصَّدَقَٰتِ ﴾[٣]. أي يضاعفها ويبارك فيها.

٢ ـ وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾[٤] أي انتفخت وتحركت بالنبات.

---

(١) ابن جرير الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن / ٣، ١٤٠، تقديم: الشيخ خليل الميس، ضبط وتوثيق وتخريج: صدقي جميل العطار، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ـ لبنان.

(٢) الشيخ فخر الدين الطريحي: مجمع البحرين / مادة (ربو)، تحقيق: السيد أحمد الحسيني.

(٣) سورة البقرة: الآية، ٢٧٦.

(٤) سورة الحج: الآية، ٥.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ [١] أي شديدة زائدة في الشدة.

٤ ـ وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ [٢] أي طافياً فوق سطحه.

٥ ـ وقال تعالى: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ [٣] أي أزيد عدداً وأوفر مالاً.

٦ ـ وقال جلَّ اسمه: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ [٤] أي الأرض المرتفعة.

الربا في المصطلح الشرعي:

والربا في نظر الشرع وإن كان قد حافظ على المعنى اللغوي فاعتبر فيه «النمو والزيادة» وأخذهما ملحوظين في العملية الربوية، ولكن النهي لم يتوجه على كل زيادة تحققها الكثرة. فهناك، كثرة قد سمح الشرع بها، ولكن من طرقها المشروعة. وما كان محطاً للنهي الشرعي من الزيادات إنما يتحقق بأحد طريقين:

الأول: ربا المعاملة:

واشترطوا لتحقق الربا في هذه الصورة اتحاد الجنس، وكون مورد المعاوضة من المكيل أو الموزون في عهد النبي(ﷺ)، أو ما جرت العادة به بعد ذلك، فكل زيادة بعد ذلك تكون زيادة ربوية. فالحنطة مثلاً تباع بمثلها في صورة عدم التفاضل أما لو بيع منها عشرة كيلوات باثني عشر منها كان كيلوان في هذه الصورة قد دفع كزيادة ربوية وهذا محرم لأنه ربا.

الثاني: ربا القرض:

ولم يشترطوا في عملية القرض أي شيء سوء حصول النفع في المعاملة القرضية،

---

(١) سورة الحاقة: الآية، ١٠.

(٢) سورة الرعد: الآية، ١٧.

(٣) سورة النحل: الآية، ٩٢.

(٤) سورة المؤمنون: الآية، ٥٠.

إذ «كل قرضٍ جرّ نفعاً إلى المقرض» فهو من الربا. فلو أقرضه عشرة بإزاء اثني عشر يدفعها له بعد ذلك كان ذلك من الربا المحرم.

الربا الاصطلاحي في القرآن الكريم:

لقد تناول القرآن الكريم الربا الاصطلاحي وندد به في موارد مختلفة:

١ ـ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾[1].

٢ ـ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ﴾[2].

٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[3].

بهذه اللهجة الشديدة والتهديد الصارخ يواجه الشارع المقدس الأمم والأجيال المتعاقبة وينهاهم عن التعامل في الربا.

فالربا بالحرف الواحد والكلام الصريح حرب مع الله ورسوله ولا هوادة بين الله وبين المرابين فإنهم بعملهم وأخذهم الفوائد الربوية يحاربون الله ورسوله. والمرابون بعد هذا في نظر الشارع المقدس كفار آثمون:

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾[4].

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

(٣) سورة النساء: الآية، ١٦١.

(٤) سورة البقرة: الآية، ٢٧٦.

أي تهديد هذا يواجهنا به الكتاب المجيد؟ وأي حرب صارخة يعلنها الشارع المقدس مع هذه الزمرة؟

إنها آيات تقشعر لسماعها الأبدان. ويا لهول الموقف حيث يواجه المرابي نفسه بين اثنين: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[١]. ولا بدّ من الترك والكف عن أموال الناس وأمره بعد هذا إلى الله وسيجد الله تواباً رحيماً. أو السير في موكب المرابين وحينئذٍ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾[٢].

لقد عودنا القرآن الكريم أن يتطرق لمواضيع كثيرة فيتناولها بالنهي والزجر ولكن لا على هذا النحو من الأسلوب الشديد والتكرار بنفس الأسلوب أو أشد في الموارد التي ذكرها القرآن الكريم.

ومن ذلك يتضح لنا، مدى العمق في مبغوضية العملية الربوية في نظر المشرّع فيما كان التهديد صادراً على هذا النحو من التشديد.

الربا في الأحاديث الشريفة:

وقد صورت الأخبار الشريفة الواردة في ذم الربا هذه العملية بأبشع صور الإجرام ولنستعرض بعضاً من تلك الأخبار:

١ ـ فعن النبي(ﷺ) قوله: «الربا سبعون باباً أهونها عند الله كالذي ينكح أمه»[٣].

وعنه(ﷺ) في مورد آخر: «درهم ربا أعظم من سبعين زنية».

٢ ـ وفي وصية النبي(ﷺ) للإمام أمير المؤمنين(عليه السلام): (يا علي الربا سبعون جزء فأيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه في بيت الله الحرام. يا علي درهم ربا أعظم عند الله

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٢٧٥.

(٢) سورة البقرة: الآية، ٢٧٥.

(٣) الحر العاملي: وسائل الشيعة / ١٨، ١٢٣، ح١٨.

من سبعين زنية كلها بذات محرم في بيت الله الحرام)[١].

٣ ـ وعن الإمام الصادق(عليه السلام) حيث بلغه عن مرابٍ كان يأكل المال من الربا فقال(عليه السلام): «لئن أمكنني الله منه لأضربن عنقه»[٢].

أي مفسدة تكمن في هذه العملية فدرهم يتناوله الفرد من الربا أشد خطراً من جرائم ثلاث:

أ ـ جريمة الزنا.

ب ـ وكون ذلك الزنا بذات محرم.

ج ـ وكونه في الشناعة كما لو فعل ذلك في بيت الله الحرام.

ويكفينا على خطره تدليلاً، اهتمام الكتاب والسنة بهذا الأمر، فإن جريمة قتل النفس المحترمة لم تنل مثل هذا الأسلوب التشريعي في النهي والزجر.

مضار الربا ومفاسده:

وقد لا يكتفي كثير من أبنائنا اليوم بمواجهة هذا الأسلوب من التشريع فيعتبر الربا عاملاً من العوامل التي تهدم كيان المجتمع وتنخر فيه. بل يطالب بالوجهة التي يرتضيها العقل قبل إصدار حكمه في قبول عملية الربا أو رفضها.

فلماذا نال الربا هذا القسط الوافر من الشرع الأعظم فلاحقته الآيات والأخبار وأحاطته بحصن منيع من العقوبات فكان من جرّاء ذلك أن أسقطت الشريعة حقوق المرابي التي منحها الشرع لكل فردٍ آخر فحرمته من تولي المناصب القضائية ومنصب الإفتاء والإمامة والشهادة، وبعد كل ذلك يقتل إن كان مستحلاً لذلك، ويعزر إن كان متهاوناً. وفي الوقت نفسه، رأينا الإمام(عليه السلام) فيما سلف من الخبر الذي قدمناه يتوعد به ويقول: لئن أمكنني الله منه لأضربن عنقه.

---

(١) المصدر المتقدم: ١٨، ١٢١، ح١٢.

(٢) المصدر السابق: ١٨، ١٢٥، ح١، باب ثبوت القتل والكفر باستحلال الربا.

وهل كان الربا محتاجاً إلى هذه الضجة التشريعية في الوقت الذي رأينا أن التشريع الإسلامي تعرض للكثير من الجنايات والمنكرات فتناولها بشكل أخف وطأة مما صنعه في الربا كالزنا واللواط والقمار والخمر والسرقة والقتل والقذف وغيرها مما كان مورداً للنهي والزجر في نظر الشارع المقدس؟

تنبيه:

وقبل الولوج في البحث لا بدّ لنا من التنبيه والإشارة إلى نقطةٍ تمهيدية لما نحن بصدد عرضه فنقول:

إن الفرد المسلم المؤمن بعقيدته ومبدئه، المعترف بوجوب الله عزَّ وجلَّ وقدرته وعدله، وأنه تعالى غير ظالم في قضائه، ولا يكلف عباده بما لا يطيقون، ولا يترك الحسن ولا يغفل القبيح.

وفي مجال تشريعه للأحكام إنما يشرّعها طبقاً لمصالح العباد في نفس أفعالهم فما فيه مصلحة ملزمة أمر به وما كان مشتملاً على مفسدة ينهى عنه، وأنه من المحال عليه، أن ينهى عن شيء، وفي ذلك الشيء مصلحة كاملة للعبد أو يأمر بشيء وفيه مفسدة تلحق العبد. كل ذلك، لأنه تعالى لا مصلحة له في كلا الشقين من الأمر والنهي المتوجهين على العباد بل ذلك يعود إلى العباد في نطاق مصالحهم ومفاسدهم لما حقق في محله من أن الأحكام الشرعية تابعة لمصالح ومفاسد في متعلقاتها لا في نفس الأمر، فهو جلّ شأنه حكيم لا يأمر ولا ينهى إلاّ بما تقتضيه حكمته من تشخيص منافع ومضار عباده بعد أن كان بهم رحيماً.

وليس بإمكاننا، إن نتصدى بعد الاعتراف بهذه الحقائق إلى السؤال عن نوعية المصالح الدافعة إلى الأمر أو المفاسد الداعية إلى النهي فلا إلزام لنا على المشرع بأن نتدخل في مناقشاته بعد أن سلمنا إليه القيادة.

وإذا أردنا أن نفتح هذا الباب معه لما كان مشرّعاً نعترف بأنه يدرك مصالحنا ومضارنا، ولما كان هناك فرق بيننا وبينه. فالمشورة والمناقشة وتصحيح ما هو خطأ كل ذلك يجوز لنا نحن كبشر معرّضين إلى عوامل عديدة من الخطأ والاشتباه

والنسيان والانجراف نحو العواطف وتلبية الرغبات النفسية بحكم كوننا بشر مخلوقين أمام الله عزَّ وجلَّ. فهو منزّه تعالى عن ذلك، ولذلك ليس لنا أن نتطاول إلى التشريع لنلاحق فقراته بالسؤال عن العلل الموجبة له.

وقد أسلفنا، أن ذلك يجوز ويمكن لو كان التشريع من عقلية بشرية كواحدٍ منّا، أما إذا كان التشريع إلهياً فليس ذلك من الممكن.

ولكن ومع ذلك فقد عودنا القرآن الكريم أن نبدأ بالسؤال لأمور نريد الوقوف على حقائقها كما صادف ذلك لإبراهيم(عليه السلام).

وهكذا الأخبار الشريفة فقد عوّد الأئمة(عليهم السلام) أصحابهم بالسؤال عن الحقائق، أو أنهم كانوا يبدأون بذلك ويعطون صوراً واضحة عن فلسفة كثير من الأحكام.

وبناءاً على ما تقدم، وإذا ما أردنا بيان صور من مضار الربا ومفاسده فلا بدّ من الكلام عن «الربا القرضي» أولاً، والأسباب التي تتصور في تحريمه ومن ثم البحث عن الربا في المعاملات «الربا المعاملي».

الربا القرضي:

وفي مجال الأسباب التي تتصور في تحريمه يمكن أن نذكر بعض الوجوه:

الوجه الأول: إن الربا يصرف الناس عن الاشتغال في ميادين التجارة، وأخذ الربح بإزاء المعوض، ومن البيّن أن المصلحة الاجتماعية والترابط بين الأفراد لا يكون إلاّ بتنظيم التجارة والصناعة وعوامل الزراعة.

وسأل السائل عن علة تحريم الربا فقال له(عليه السلام): لو كان الربا حلالاً لترك الناس التجارات وما يحتاجون إليه فحرم الله الربا لتنفر الناس من الحرام إلى الحلال وإلى التجارات...[1].

التجارة هي العمل، والعمل هو الطريق إلى تحصيل المال الحلال، وهي بعد ذلك تعطي الترابط بين الأفراد. فلا تصبح طبقة مترفهة لا تعمل، بل أقصى همتها هي

---

(١) الحر العاملي: المصدر المتقدم / ١٨، ١٢٠، ح٨، باب تحريم الربا.

إعطاء المال وإقراضه بإزاء الفوائد المتجمعة ويكون الاحتياج من جانب واحد وهو جانب المستقرضين.

أما المقرض فنصيبه الكسل وعدم الاتجاه إلى تنمية ماله من طريق البيع والشراء وما تستلزمه هذه العملية من اتصالٍ بالغير ونزول إلى معترك الحياة فتكون الحاجة متساوية من جميع الأطراف.

والإنسان بعد هذا سواءً في حياته التجارية أو الصناعية أو الزراعية تتطلب منه هذه الأمور بأن يبذل كفاءته لينال ربحه، وهذا منقوض في المعاملة الربوية فأي كفاءة يبذلها مالك المال غير دفعه المال إلى المحتاجين وأي عمل يقوم به بإزاء ذلك وأي جهودٍ يبذلها المقرض في عالم المال؟

الوجه الثاني: إن الحياة الاجتماعية للفرد هي التي تكون المعاوضة منها أساساً لانتقال المال من البعض إلى الآخرين، وهذا ما تقضي به الفطرة الإلهية، فيما يختار المشرّع المعاوضة في مقدمة ما يحقق للفرد التملك فالإنسان يستحصل من غيره بإزاء ما يدفع إليه عيناً كان العوض أو منفعةً أو عملاً.

أما إعطاء المال وأخذ الزيادة بإزاء التأجيل من دون عوض في تلك المعاملة فهذا هو تفكيك لعرى المجتمع الذي كانت مصلحته مقدمة على مصلحة الفرد.

وبهذا التعاوض يمكننا المحافظة على التوازن المالي بين الأفراد فلا يجد التضخم المالي طريقه في هذه الحياة ليتركز في جانب واحد كما يحصل تحت ظل المعاملة الربوية لاجتماع الفوائد عند المرابي مع محافظته على رأس المال وبإزاء هذا التراكم يحصل النقص تدريجاً في الجانب الآخر ومن ثم يجد الفقر مجالاً له بين الأفراد وهذا مخالف لأصول العيش في هذه الحياة.

قد يقال: ولماذا لم نقل بأن الزيادة التي يدفعها المستقرض إلى المقرض إنما ينالها المرابي بإزاء عوضٍ يدفعه إلى المحتاج، وذلك العوض هو التأجيل فإن هذه المدة التي يؤخر المالك فيها المستقرض هي التي تعاوض بهذه الزيادة المدفوعة. وفي الوقت نفسه فإن لهذا التأجيل قيمة مالية ترتفع بقدر ما يطول التأجيل أو يقصر؟

نقول في جوابه: إن هذا التأجيل لا يكون عوضاً بإزاء ما دفع لأن الإمهال والتأجيل ليس من الأمور المالية ليكون قد دفعت الزيادة بإزائه وليس هو شيئاً يشار إليه ليقبل المعاوضة ويكون بإزاء ما أخذه من الزيادة ولأن هذا التأجيل(ينفعه وقد لا ينفعه فهو إن أخذ المال لاستهلاكه في حاجاته الشخصية فإن هذا التأجيل غير نافع له قطعاً وإن أخذه لاستغلاله في التجارة أو الصناعة أو الزراعة فكما أنه يحتمل أن يعود عليه بالمنفعة كذلك «سواء بسواء» يحتمل أن يعود بالخسارة كأن المنفعة الربوية إنما تكون إما على منفعة فريق أو على المنفعة اليقينية المعلومة لفريق والمنفعة غير اليقينية المعلومة للفريق الآخر[1].

وربما يقال في توجيه أخذ الفائدة: بأنه لو بقي المال المدفوع قرضاً عند صاحبه لاستفاد به هو كما يستفيد المستقرض به ولأمكن الانتفاع به بشتى صور النفع له وبإزاء هذه الخصوصية تقاضى المالك الفائدة.

وقد أجاب الفخر الرازي في تفسيره، عن هذه الشبهة قائلاً: «إن هذا الانتفاع الذي ذكرتم أمر موهوم قد يحصل او لا يحصل وأخذ الدرهم الزائد أمر متيقن فتفويت المتيقن لأجل الأمر الموهوم لا ينفك عن نوع ضرر»[2].

الوجه الثالث: إن الربا يوجب انقطاع المعروف بين الناس في النفوس. فإن عدم إسداء الخدمات للآخرين في تقديم المعونة لهم قرضاً خالصاً لوجه الله تعالى يتمكنون به من مواجهة الصعوبات في هذه الحياة يجعل المقرض دائماً يفكر في أرباحه وتزايدها وتجمعها بعد ذلك عنده على حساب الآخرين.

ويظهر ذلك جلياً في قول الإمام الرضا(عليه السلام): وعلة تحريم الربا بالنسبة لعلة ذهاب المعروف وتلف الأموال ورغبة الناس في الربح وتركهم القرض، ولما في ذلك من الفساد والظلم وفناء الأموال[3].

---

(١) أبو الأعلى المودودي: الربا / ١٠٦.

(٢) الفخر الرازي: التفسير الكبير / ٧، ٩٣.

(٣) محمد بن علي بن الحسين المعروف بـ(الشيخ الصدوق): عيون أخبار الرضا/ ١، ١٠١، تصحيح وتعليق وتقديم: الشيخ حسين الأعلمي.

ففي القرض تجد الرحمة والتوادد موجود بين المقرض والمستقرض. فالمستقرض ينظر إلى مقرضه ويقدّر له أياديه البيضاء في تقديم المال له ليستعين به على احتياجاته من دون أن يستوفي ربحاً على ذلك فهو في النتيجة معروف أسداه إليه صاحبه. والمقرض إنما ينال ثوابه عند الله بتشغيل أمواله ومتاجرته مع الله مع المحافظة على رأس ماله من النقصان.

الوجه الرابع: إن الربا من عوامل هدم المجتمع الإنساني لأنه في الغالب يكون منتشراً بين الطبقة الفقيرة حيث أن هذه الطبقة هي التي تحتاج ولا تجد ما يسد حاجتها إلاّ الالتجاء إلى المرابين ليؤمّنوا لهم المال بإزاء الفائدة التي يستحصلونها منها وهذه العملية لا شك انها موجبة لإنقاص المال من جانب وتضخمه من الجانب الآخر.

والنتيجة الحتمية لهذا النقص والإفلاس، هو حصول الهوة بين الدائن ومدينه، فالفقير ينظر إلى صاحب المال وهو يستنزف دمه باستنزاف أمواله فتهيج في نفسه عوامل الانتقام منه بكل وسيلة يتمكن بها من تحقيق غرضه فهو وبعد ذلك متشائم من حياته ومن وضعه ومن كل شيء حوله، ومن هذه النافذة تطل الجرائم على المجتمع الآمن.

فالسرقة والفساد وحب النفس إلى الانتقام، وما إلى ذلك من وسائل كلها تنتظر هؤلاء المساكين نتيجة إفلاسهم، بينما يرفل المرابون بالنعمة التي انتقلت إليهم من جيوب المستقرضين والمعوزين، ولا يسعد هكذا مجتمع تتناقض طبقاته وتنعدم روح الرحمة بين أفراده.

وإذا ما عكسنا الوضع وفرضنا التعاون بين الطبقات الغنية والفقيرة فكان الغني يتفقد الفقير ويقدم له ما يساعده على اجتياز العقبات التي تكمن في طريقه على خط هذه الحياة. لرأينا مجتمعاً سعيداً تنمو عواطف أبنائه وطبقاته وتتلاقى قلوبهم على صعيد المحبة والألفة فيكونوا بذلك كتلة بشرية خيّره تشق طريقها إلى الرقي والكمال.

وبعد هذا كله، فمد يد العون إلى الفقراء من الطبقة الثرية بإقراضهم من غير انتظار لربح على تلك القروض طلباً لوجه الله تعالى وتحصيلاً لثوابه وجه من وجوه إنفاق المال في سبيل الله وتشغيله لنيل مرضاته عزَّ وجلَّ فهو مضاعف له عند الله. قال تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾[١]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ﴾[٢] ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾[٣].

فما هو القرض الذي يستقرضه الله منا «كما ورد في الآية المباركة»، بعد أن ثبت استغناؤه عنّا، وتحقق احتياجنا إليه عزَّ وجلَّ؟

والجواب، كما يراه المفسرون هو، الإنفاق في سبيل الله طلباً لثوابه ونيلاً لمرضاته.

وفي سبيل الله ما يقدمه الأغنياء مساعدة لفقرائهم ديناً من غررهم.

وفي سبيل الله هذه اليد الغنية ينتشل بها الفقير في أحرج ساعات الضيق والعوز.

وفي سبيله حينما يؤثر الثري أن يتاجر مع الله ليستحصل ربحه فيسعد الفقير بمد العون إليه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾[٤]. وأي تجارة أركز من هذه التجارة التي فيها ثواب مضاعف مع الحفاظ على رأس المال من التضعضع، ومن المحتّم أن مثل هذه التجارة المتكفل بها الله وبإنمائها لن تبور.

---

(١) سورة التغابن: الآية، ١٧.

(٢) سورة الحديد: الآية، ١٨.

(٣) سورة البقرة: الآية، ٢٤٥.

(٤) سورة فاطر: الآية، ٢٩.

الربا المعاملي:

وإذا ما سألنا عن الوجه الذي كانت فيه الزيادة في المعاملة نهياً عنها وإن لم تشتمل على القرض لأجبنا بما حاصله:

إن هذه الزيادة التي يدفعها أحد الطرفين إلى الآخر لا يقابلها شيء. فالحنطة المدفوعة هي بإزاء المقبوضة:

إذن، ما هو وجه خروج هذه الزيادة من تصرف أحد الطرفين لتنتقل إلى الطرف الآخر؟

فلا بد وإن يكون تملك هذه الزيادة بأحد الطرق المشروعة، وهي محصورة في أمور، وبالتدقيق لا نجدها متوفرة في هذه المعاملة.

وبالإمكان اعتبار هذه الزيادة هبة يدفعها المشتري إلى البائع، إلاّ أن مفروض ما نحن فيه لا توجد فيه نية التنازل المجاني من المشتري إلى البائع بل كان المشتري قد دفع هذه الزياردة مع الأصل في قبال ما قبضه من البائع، وقد عرفت أن ما أخذ من البائع يساوي نفس المقدار الذي يدفعه المشتري أصلاً لا ربحاً.

أما إذا فرضنا أن الأجل ملحوظ في هذه المعاملة بحيث كان دفع الزائد من المشتري بإزاء ما يؤجله البائع في قبض العوض الذي كان في قبال ما أخذه منه فقد دخلت المعاملة البيعية حينئذٍ في موارد القرض، ويعود ما بيناه سابقاً في البحث عن القرض وإن كانت المعاملة مؤطرة بأطار البيع لا القرض.

استثناء بعض موارد الربا:

وقد استثنت الإمامية بعض الموارد من العنوان الربوي. فقالوا بعدم شمول النهي الشرعي لها لذلك يجوز أخذ الفائدة فيها، وذلك لأدلة خاصة وردت من طرق أهل البيت(عليهم السلام) وهي:

١ ـ الربا بين الوالد وولده.

٢ ـ الربا بين الزوج وزوجته.

٣ ـ الربا بين المولى وعبده.

٤ ـ الربا بين المسلم والحربي إذا كان أخذ الفائدة من طرف المسلم.

وللمعترض أن يقول:

كيف تتم الملائمة بين أدلة هذه الموارد وبين الأدلة التي صرحت بتحريم المعاملة الربوية كما تقدم بيانها؟

وللجواب عن هذا السؤال نقول:

بأن خروج هذه الموارد إنما تمّ على نحو التخصيص[1]. فإن المعاملة الجارية بين هؤلاء الأصناف لا تسلم من أخذ الفائدة، إلاّ أن الشارع المقدس لمصلحة خاصة لم يرتب على هذه الموارد آثار الربا والفوائد.

ومن جهة استحسانية نرى الحكمة في تحريم الربا هو، أن فسح المجال للمرابين يكون موجباً لغلق أبواب التجارات كما صرح بذلك الحديث الشريف المتقدم عن هشام بن الحكم، أنه سأل أبا عبد الله (عليه السلام) عن علة تحريم الربا فقال (عليه السلام): «إنه لو كان الربا حلالاً لترك الناس التجارات وما يحتاجون إليه».

---

(١) التخصيص: وهو في المصطلح الأصولي عبارة عن الدليل الواقع عن الدليل الواقع في قبال دليلٍ آخر، وذلك الدليل أعم منه مورداً عموماً مطلقاً. ويكون هذا الدليل المخصص أقوى دلالةً فيكون موجباً لرفع اليد عن حكم العام في جميع ما شمله الدليل الخاص. ويمثل لذلك، بما لو دلّ دليل على إكرام العلماء فكان هذا بعمومه شاملاً لجميع الأفراد التي ينطبق عليها هذا العنوان من غير فرق بين الفقهاء أو الأصوليين أو غيرهم من العلماء، فلو جاءنا دليل آخر مصرحاً بعدم إكرام الأصوليين فهذا لا يعني أن هؤلاء ليسوا بعلماء بل يعني أنهم مع محافظتهم على هذا العنوان لا يريد المولى إكرامهم لمصلحة خاصة أخذها المشرع بعين الاعتبار فكانت سبباً في منع اكرامهم. ويقابل التخصيص عنوان. التخصص عدّ خروجاً موضوعياً، حيث يكون خروج المورد عن حيز الدليل الأول خروجاً موضوعياً وجداناً. ففي المثال السابق والذي أمر المولى فيه بإكرام العلماء يكون الجاهل خارجاً عن هذا الأمر خروجاً حقيقياً موضوعياً ويطلق على ذلك بـ(التخصص). والفرق بين التخصيص والتخصص أن خروج الأفراد في التخصيص إنما هو عن حكم العام مع كونها من جملة ما ينطبق عليها عنوانه أما في التخصص فخروج الأفراد إنما كان عن موضوع العام لا عن حكمه فقط.

ولكن هذه الحكمة إنما تتحقق في الوجهة النوعية حيث يتعامل نوع الناس بالربا وأخذ الفائدة لاتكالهم على هذه الطرق المؤمّنة من الخسارة. فالمرابي بعمله هذا يقطع بالربح ولا داعي له لزج نفسه في معامع العمل والتجارة، وأما من الجهة الشخصية وهي هذه الموارد المستثناة فإنها لا تقتضي سدّ باب التجارة إذ ليس كل والدٍ وزوجٍ ومولى يكون متجهاً ومكرساً نشاطه للتعامل مع ولده أو زوجته أو عبده ليأخذ منه الفضل والفائدة الربوية. بل في الحقيقة، إن المال في هذه الصورة لم يخرج عن حيازة الشخص فلا فرق بين مال الوالد وولده والزوج وزوجته والمولى وعبده، فهؤلاء كلهم حلقة واحدة تدور حول نفسها.

وما ذكرناه جارٍ في المعاملات القرضية لو كان أحد الطرفين قد استقرض من الآخر كالأب من ولده أو الولد من أبيه، والزوج من زوجته أو الزوجة من زوجها، وكذا بالنسبة إلى المولى وعبده وحسب. كل هؤلاء يشكلون ـ كما قلنا ـ أسرة واحدة، وفي نطاق هذه الأسس لا مانع من نمو الأموال على نحو الربح والزيادة ما دام المال لا يتسرب إلى جيوب الآخرين، بل هو لا يزال يحافظ على كونه في مكانه الأول كما لو نقل الإنسان ماله من جيبه ووضعه في جيبه الآخر.

طرق التخلص من الربا:

للتخلص من الربا طرق تعرضت لها الشريعة المقدسة وتسمى بالاصطلاح «الحيل الشرعية». ويظهر لي أن هذا التعبير هو الذي يثير على الإمامية موجة الاعتراضات من بقية الفرق الإسلامية.

فلفظ ـ الحيلة ـ ينصرف إلى أذهان الآخرين إلى المكر والخداع والختل. لذلك، لا ترى هناك مناسبة بين الشرع والحيلة والخداع، ولذا تكون حصة الفقهاء من الاعتراضات التي توجه إليهم ممن لا يدرك حقيقة القوانين التشريعية وافرة جداً. فيؤخذ عليهم بأن هذه الطرق ما أنزل الله بها من سلطان وليست هذه إلاّ من التلاعب بالشريعة المقدسة في الوقت الذي يرجى من هؤلاء أن يكونوا أمناء عليها.

إن هذه الاعتراضات لم تنشأ عن تفكير عميق من المعترضين حين يوجهونها إلى الآخرين.

فنحن حينما نحكم بشيء إلزامي وجوباً أو تحريماً أو فيما نخلّص مورداً من أحد هذين لا نطلق القول جزافاً. فليس الفقه شهوة حكم وإفتاء وتلاعب بأيد الولاة، ويدور الأمر حيثما دارت به شهواتهم ونزعاتهم، وليس للفقيه أن يطبّق ما يرغب به هؤلاء لإرضاء مصالحهم الشخصية، بل هناك طرق خاصة وعلى ضوئها يستنبط الفقيه حكم الله عزَّ وجلَّ ويطبّقه على مقتضى الاجتهاد حيث يكون بتطبيق الكبريات على الموارد الصغروية، وحيث يكون الاستنباط فيه للأحكام الشرعية من الأدلة التفصيلية. فلا شيء يخفى بعد بيان دليله ومدرك الفتوى به. والفقيه حيث يذكر طرقاً للتخلص من الربا لا يخفي بيان مداركها على الآخرين بل يقف ويبين وجهة نظره في تخليص هذه الموارد من شمول أدلة التحريم له أو تطبيق أدلة الوجوب عليه وعلى الآخرين أن يحكموا بإبطال هذه الأدلة أو قبولها تاركين طريق التهريج وإلقاء القول بدون تريث.

وإذا ما عدنا إلى الطرق التي ذكرت للتخلص من الربا، رأينا الفقهاء قد تعرضوا لموارد عديدة:

المورد الأول: قلب القرض إلى البيع:

حيث يمكن التخلص من الربا بصورته القرضية إلى إنشاء معاملة بيعية، وإن توخى أحد الطرفين أخذ الربح من الطرف الآخر، فإن الشارع المقدس لا يمنع من أخذ الربح في المبايعات، ولكنه يمنع من أخذ ربح في غير ما يكون في قباله شيء كبيع المتماثلين بزيادة وقد قلنا أن الزيادة هناك لا تخرج في قبال شيء، بينما في صورنا الآتية يكون في قبالها ماله قيمة مالية.

هذا مضافاً، إلى ما في البيع من مزايا لا توجد في القرض، وفي القرض مفاسد لا تترتب على المعاملات البيعية.

الصورة الأولى: البيع بالضميمة:

قال السيد الطباطبائي(رحمه الله) في العروة الوثقى،(مسألة ٤٨): إذا زاد أحد المتجانسين على الآخر وضم إلى الطرف الناقص ضميمة من جنس آخر كما إذا باع مداً من الحنطة ودرهماً بمدين أو درهمين أو ضم إلى كل من الطرفين جنس آخر كما إذا باع مداً أو درهماً بمدين ودرهمين صح البيع وخرج عن كونه رباً.

وقد اشتملت هذه الصورة على أمثلة عديدة نشرحها بإيضاح:

المثال الأول: أن يبيع مداً من الحنطة ودرهماً بمدين من الحنطة.

المثال الثاني: أن يبيع مداً من الحنطة ودرهماً بدرهمين.

المثال الثالث: أن يبيع مداً ودرهماً بمدين ودرهمين.

وفي مقام تعليل صحة هذا البيع نقول:

في المثال الأول: أن المد من الحنطة يقابله مدان من الحنطة وهنا تتحقق المشكلة الربوية، ولكن بضمنا إلى الحنطة درهماً فقد قمنا بضم شيء إلى الناقص من جنس آخر فخرج عن الزيادة في جنسين متماثلين كي لا تعود المحاذير السابقة، وفي الوقت نفسه خلصت المعاملة من القرض فلا ربوية في البين.

أما في المثال الثاني: فقد اشتملت المعاملة على مقابلة الدرهم والمد من الحنطة بالدرهمين فلم يكن هناك درهم بدرهمين ليكون ذلك من الربا بل درهم وحنطة بدرهمين.

أما في المثال الثالث: فقد اعتبر التخالف في الثمن والمثمن ففي قبال الحنطة من أحد الجانبين تكون الدراهم من الجانب الآخر وفي قبال الدراهم من ذلك الجانب تكون الحنطة من هذا الجانب.

قال السيد الطباطبائي(رحمه الله) معقباً مسألته السابقة بقوله: «نعم يلزم أن تكون الزيادة بمقدار له مالية صالحة للعوضية وكذا الضميمة وإن كان التفاوت بينهما بأضعاف القيمة».

وقد استدل(رحمه الله) على حلية ذلك بما ورد عن الإمام الصادق(عليه السلام) حينما سأله الراوي: فقلت له: اشتري ألف درهم ودينار بألفي درهم، فقال: لا بأس بذلك إن أبي كان أجرا على أهل المدينة مني فكان يقول هذا، فيقولون: إنما هذا الفرار لو جاء رجل بدينار لم يعط ألف درهم ولو جاء بألف درهم لم يعط ألف دينار وكان يقول لهم: نعم الشيء الفرار من الحرام إلى الحلال[١].

وفي حديث آخر يعبر الإمام(عليه السلام) قائلاً: صدقت والله ولكنه فرار من باطل إلى حق[٢] بعد أن اعترض عليه الراوي بقوله «وما هذا إلاّ فرار».

الصورة الثانية: البيع مع الهبة:

ويتحقق ذلك فيما لو تبايعا بقصد كون المثل بالمثل واعتبار الزائد هبة يدفعها أحد الطرفين إلى الآخر.

المورد الثاني: الهبة:

وقد ذكر الفقهاء أن من موارد التخلص من الربا هو الهبة.

ويكون ذلك فيما لو وهب كل من الطرفين جنسه إلى الآخر، لكن صحة ذلك موقوف على من يقر قصد المعاوضة بين الهبتين واشتراط الهبة في الهبة.

المورد الثالث: الصلح:

حيث يصالح صاحب الزيادة الآخر ويشترط عليه أن يبيعه كذا بكذا مثلاً بمثل كما يعبر عن ذلك السيد الطباطبائي(رحمه الله): أن يصالح صاحب مقدار الزيادة للآخر ويشترط عليه أن يبيعه كذا بكذا مثلاً بمثل هذا في البيع، وفي القرض: أن يصالح المقترض مع المقرض قبل القرض المقدار الذي يريد أن يأخذ منه بعوض جزئي أو بلا عوض ويشترط في ضمن هذه المصالحة أن يقرضه مبلغ كذا ويصبر عليه إلى كذا

---

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ ١٨، ١٧٨، ح١، باب: إذا حصل التفاضل في الجنس الواحد وجب أن يكون مع الناقص من غير جنسه وإن قلّ.

(٢) المصدر المتقدم: ح٢.

مدة، وإذا كان الدين سابقاً وحلّ أجله ويريد أن يؤجله إلى مدى يجوز أن يصالحه بمقدار ويشترط عليه أن يؤجله إلى تلك المدة[1].

المورد الرابع: القرض مع عدم الشرق:

حيث إنما تحرم الزيادة مع الشرط، وبدونه لا بأس به. بل يستحب ذلك للمقترض حيث أنه من حسن القضاء وخير الناس أحسنهم قضاءً.

المورد الخامس: البيع مع الخيار:

ويتصور هذا بأن يبيع الإنسان داره بألف دينار إلى المالك مثلاً، ويشترط المشتري على البائع الخيار لنفسه في فسخ هذه المعاملة متى سلّمه المال.

وحينئذٍ، فحيث يأخذ المشتري الدار أصبح له الحق في سكناها أو بيعها أو إيجارها لمن شاء، وعليه، فلو أجرها البائع بمبلغ من المال كان ذلك المدفوع ربحاً يعود إلى المشتري ولكن هذا الربح جاء من إيجار شيء مما هو تحت ملكه، وفي الوقت المحدد إذا دفع البائع والذي هو مالكها الأصلي المال إلى المشتري أخذ داره وانتهى كل شيء وإلاّ كان للمشتري تمديد الإيجار مدة يتفقان عليها مجدداً.

وربما يقال، ليس بإمكاننا الامتناع بأن هذا النوع من المعاملات منزّل على نحو المعاملات البيعية الحقيقية وإنما هو قرض واستيفاء أرباح ربوية ولكنها بشكل البيع.

وبمثل ذلك صرح الأستاذ عبد الوارث المشرف على ركن «أنت تسأل ونحن نجيب» في(مجلة العربي) الصادرة بالكويت في عددها(٦٥) جواباً على سؤال وجه إليه بهذا الخصوص. ولنطلع على السؤال والجواب:

قال السائل:

وأحب أن أعرف رأيكم في نوع من المعاملة منتشرة عندنا في السعودية دون أن يعترض عليه أحد، فإذا احتاج شخص إلى قرض قصد أحد التجار مثلاً وطلب منه أن يقرضه المبلغ الذي هو في حاجة إليه فلا يعطيه التاجر نقوداً بادئ الأمر بل يبيعه

---

(١) السيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي: العروة الوثقى / ٦، ٧٧.

مائة كيس من السكر أو من الأرز أو نحو ذلك بسعر يتفقان عليه ثم يعود فيشتريها هو نفسه بسعر أقل من ثمن البيع ببضعة ريالات ويدفع له الثمن ويكتب عليه صكاً بالمبلغ الذي باع له السلعة أول مرة وبذا يكون الفرق بين السعرين سعر البيع وسعر الشراء هو الربح أو الفوائد... ويزعم الطرفان أن ذلك ليس رباً وإنما هو بيع وشراء ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾[1] فما رأيكم في ذلك؟

وأجاب على ذلك الأستاذ عبد الوارث بقوله:

(الجواب: إذا لم يكن هذا رباً فماذا يكون الربا إذن؟ إن عملية البيع والشراء ليست إلاّ عملية صورية زائفة يراد بها الإيهام بان ما يمارسه الطرفان ليس حراماً وهو في رأينا عين الحرام بل أشد حرمة لأنه به مع الحرمة التحيّل على الحرام: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[2].

ومن الغريب أن نجد، مثل هذه الشدة في القول من الكاتب والباحث الكريم! ولماذا كل التهم منه ومن غيره مع أن(الناس مسلطون على أموالهم)[3]، وقد جعل البيع والشراء في هذه المسألة على أكياس، فقد باعها صاحبها على الطرف الآخر. غاية الأمر، أن المبلغ يكون قرضة على المشتري، وحيث انتهت هذه المعاملة واكتملت من جميع جهاتها جاء المشتري ليبيع ما تحت يده ويصرفه إلى الطرف الآخر بأقل من قيمته الأصلية وهو بذلك مسلط على ماله ولا مجال لأحد للاعتراض عليه مع وجود هذه السلطنة التي خوله الشارع المقدس من ممارستها، وهي (سلطنته على التصرف بأمواله) فله أن يبيع بأقل من السعر المقرر لأنه محتاج إلى النقد وبإمكانه أن يسدّ هذا الاحتياج ببيع ما تحت يده وتسليط الآخر على المال المباع بأقل من ثمنه.

لنناقش الأستاذ وغيره ممن يشنون حرباً معنا على هذه الطرق التخلصية:

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٢٧٥.

(٢) سورة البقرة: الآية، ٩.

(٣) محمد الريشهري: ميزان الحكمة/ ١، ٨١.

فهل يقال لمن تزوج بامرأة زواجاً دائمياً وكان ينوي أن يطلقها بعد مرور شهر من زواجهما بأن زواجه هذا باطل لأنه كان ينوي الطلاق منها بادئ الأمر فلم تتحقق عنده نية الدوام؟ كما يقال لهذا البائع أنك لم تكن بصدد البيع بل في صدد الاستقراض فأخرجته بصورة البيع؟!!

إن الشارع المقدس كما حرم الربا فقد أحل البيع ولم يفهم من الآية الكريمة: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [1] أن البيع حلال لو لم يكن بداعي التهرب من الربا. وفي المثال المذكور قد اكتملت جهات البيع فلماذا كل هذا التحامل؟

على أن هذا القول، لا يمكن الالتزام به لو أردنا أن نعتبر هذا النوع من المعاملات البيعية لا تفرق عن المعاملات القرضية ما دام الغرض من المعاملتين واحد وهو استنزاف الربح بأي شكلٍ كان فإن الفرق بينهما موجود والميزة التي تشتمل عليها المعاملات البيعية ليست بموجودة في إطار المعاملة القرضية.

هل الضرورة من مسوغات تناول المال الربوي:

ولا بدّ لنا ونحن في صدد بيان الطرق التي بها يحصل التخلص من الربا من ملاحظة الضرورة وهل أنها تبيح للإنسان أن يتناول من الربا ومتى وكيف يكون ذلك؟ فنقول:

ينقسم البحث في ذلك إلى جهتين:

الأولى: تحديد الضرورة وبيان المراد منها.

الثانية: ملاحظة أدلة الضرورة مع الأدلة التي صرحت بتحريم الربا ومن هو المقدم منهما؟

الضرورة والاحتياج:

الضرورة هي الحاجة كما تعرفها لنا الكتب اللغوية.

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٢٧٥.

قال ابن منظور: والضرورة، كالضرة، والضرار: المضارة، وليس عليك ضرر ولا ضرورة ولا ضارورة ولا تضرة ورجل ذو ضارورة وضرورة أي ذو حاجة وقد اضطر إلى الشيء أي ألجئ إليه... الخ[١].

وقال الشيخ الطريحي: ومنه، رجل ذو ضرورة أي ذو حاجة. وقد اضطر إلى الشيء أي لجأ إليه...[٢].

ويكمن هذا الاحتياج على نحوين:

الأول: يكون شخصياً.

الثاني: يكون نوعياً.

فشرب الخمر مثلاً لا شك ولا ريب في تحريمه ولكن، قد يحتاج الإنسان إليه لابتلائه بمرض يحتم عليه الأطباء تناوله بمقدار معين فيكون الاحتياج إليه شخصياً، وربما يكون ذلك المرض قد ابتلى به أغلب أهل تلك البلدة فتكون الحاجة إليه نوعية نظراً إلى هذه الغالبية التي اضطرت إلى تسويغه دفعاً لما حلّ بهم، ولا شك أن الضرورة تبيح للإنسان مباشرة ما كان محظوراً عليه لولا الاضطرار، ولكن أي ضرورة فهل الضرورة الشخصية أو الضرورة النوعية وهذا ما سيتضح لنا من ثنايا البحث الآتي.

أدلة الضرر والأدلة المحرمة للربا:

أما الأدلة التي رفعت الضرر عن عاتق المكلفين كما في «لا ضرر ولا ضرار في الإسلام»[٣]، وقوله(ﷺ): رفع عن أمتي تسع... وما اضطروا إليه...[٤]، وما شاكل هذه الأدلة من كون الضرورات تبيح المحظورات. فمن المعلوم أنها لا ترفع الموضوع

---

(١) العلامة أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور: لسان العرب / مادة (ضرر).

(٢) الشيخ الطريحي: مجمع البحرين / مادة (ضرر).

(٣) محمد الريشهري: ميزان الحكمة / ٢، ١٧٠٠.

(٤) العلامة المجلسي: بحار الأنوار / ٧٤، ١٥٣.

حقيقةً بهذا اللسان وهو نفس الفعل الضرري لكونه موجوداً حقيقةً بل أنها ترفع الحكم الضرري.

والمراد بالضرر المرفوع هو الضرر الشخصي لا النوعي. فمثلاً تناول الخمر يحل لمن ابتلى بذلك المرض، أما إذا اضطر إليه الأغلب فلا يكون هذا الاضطرار للغالبية مجوزاً لمن لا يبتلي بذلك المرض لأن الحرمة وإن ارتفعت عمن ابتلى منهم بذلك إلاّ أنه لا وجه لارتفاعها عمن لم يبتل منهم بذلك المرض، وهذا واضح لأن غير المبتلى لا يلحقه حكم المبتلى.

وفي هذا المقام لا يمكننا القول بأن الأحكام ترتفع عن المكلفين بمجرد حصول الضرورة للنوع. إذ لازم ذلك، أن يكون شرب الخمر، في الوقت الذي اضطر إليه الأغلب، حلالاً لأولئك الأصحاء الموجودين في ذلك البلد بمجرد ابتلاء الأغلب بالمرض الذي يحتم الأطباء في دفعه تناول الخمر. فيكون المدار على الضرورة الشخصية.

وهكذا الحال في تناول المال الربوي، فإن الشخص لو توقفت حياته على أخذ المال بالفائدة بحيث كانت الطرق المعاشية الأخرى مغلوقة في وجهه كان ذلك مجوزاً لتناول المال ولا شيء عليه.

على أن للفقهاء كلاماً في أن هذه الضرورة إنما تبيح التناول لمن وقع في الضرورة. أما دافع المال وهو المقرض فلا وجه لأخذه الفائدة فإنه بالنسبة إليه يكون أخذه للمال من المحرمات بخلاف المحتاج فإنه يحل له ذلك نظراً لما حل به من الاحتياج الذي سوغ له ذلك التناول.

وفي نهاية المطاف، فإن أدلة الضرورة مقدمة على الأدلة المانعة من الربا.

المرفوع بعد حكم أدلة الضرورة:

وحيث حكّمنا أدلة الضرورة على أدلة الربا فإن المرفوع إنما هو الجهة التكليفية، وهي «الحرمة في تلك المعاملة».

وأما الجهة الوضعية والتي تتمثل بفساد تلك المعاملة فهي باقية على حالها. وإن

كان البعض من علمائنا «رحم الله الماضين منهم وحفظ الباقين» يرى ارتفاع هذه الجهة أيضاً، ولكن هناك من يرى أن المرتفع لأجل الضرورة إنما هو التحريم فقط.

والتفكيك بين جهتي التكليفية حيث كون المعاملة محرمة، والوضعية وهي فساد تلك المعاملة يتوقف على ملاحظة الأدلة التي دلت على تحريم المعاملة الربوية وهل أنها بنفسها دلت على فساد المعاملة التي تحصل منها الفائدة المنهي عنها شرعاً؟

وبتعبير أوضح إن فساد المعاملة الربوية هل استفيد من أدلة أخرى غير ما استفيد منه التحريم أو أن الفساد والتحريم المترتبين على المعاملة الربوية قد استفيد من دليل واحد؟

فإن كانا مستفادين من دليلٍ واحد فلا شك أن حصول الضرورة لتناول الربا يكون موجباً لرفع التحريم وفساد المعاملة. وحينئذٍ تكون المعاملة الربوية لمن اضطر إليها حلالاً وليس في البين فساد يوجب عدمها.

وأما لو كان كل منهما مستفاداً من دليلٍ مستقل غير ما استفيد منه الآخر فإن اضطرار الإنسان إلى المعاملة الربوية إنما يرفع التحريم لا غير وأما المعاملة فتقع فاسدة.

وفي هذا الصدد وردت الفتوى لفضيلة شيخ الأزهر السابق الشيخ محمود شلتوت حيث ورد في كتابه الفتاوى ص٣٥٤ ما يلي:

والفقهاء تمشياً مع توسيع نطاق التزاحم والبعد عما يفتح على الناس باب التزاحم المادي في الضغط على أرباب الحاجات توسعوا كثيراً فيما يتناوله الربا وكان لهم في ذلك مشارب مختلفة وآراء متعددة ورأى كثير منهم أن الحرمة فيما يحرمون تتناول المتعاقدين معاً المقرض والمقترض، وإني أعتقد أن ضرورة المقترض وحاجته مما يرفع عنه إثم ذلك التعامل لأنه مضطر أو في حكم المضطر والله تعالى يقول: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾[1].

---

(١) سورة الأنعام: الآية، ١١٩.

وقد صرح بذلك بعض الفقهاء، فقالوا: يجوز للمحتاج الاستقراض بـالربح إذا كان للأفراد ضرورة أو حاجة تبيح لهم هذه المعاملة وكان تقديرها مما يـرجح إلـيهم وحدهم وهم مؤمنون بصيرون بدينهم فإن للأمة كما نعلـم أيـضاً ضرورة أو حاجـة كثيراً ما تدعو إلى الاقتراض بالربح فالمزارعون كما نعلم تشتد حاجتهم في زراعـاتهم وإنتاجهم إلى ما يهيئون به الأرض والزراعة.

والحكومة كما نعلم تشتد حاجتها إلى مصالح الأمة العامة وإلى ما تعد بـه العـدة لمكافحة الأعداء. والتجار تشتد حاجتهم إلى ما يستوردون به البضائع التي تحتاجهـا الأمة وتعم بها الأسواق ونرى مثل ذلك في البـضائع والمنـشآت التـي لا غنـى عنهـا لمجموع الأمة.

لا ريب أن الإسلام الذي بنى أحكامه على قاعدة اليسر ورفع الضرورة والعمل على العزة والتقدم وعلاج التعطل يعطي للأمة في شخص هيئاتها وأفرادها هذا الحق ويبيح لها ما دامت مواردها في أن تقترض بالربح تحقيقاً لتلك المصالح التي بهـا قيـام الأمة وحفظ كيانها.

ومع المناقشة في الفتوى:

فإن هذه الأمثلة التي ساقها الشيخ في حديثه عـن تـصوير الحاجـة إنـما هـي ممـا كانت الحاجة فيها نوعيه لاحتياج المزارعين والتجار والحكومـات ومـا شـاكلهم إلى أخذ المال بالفائدة.

وتتلخص مناقشتنا مع الشيخ(رحمه الله) من النواحي التالية:

أولاً: إن الضرورة النوعية والتي ركزت الفتوى اهتمامها عليهـا «كـما تقـدم» لا تبيح للمجموع الاقتراض بالفائدة وإن احتياج طبقة خاصة لا يوجب رفـع الحرمـة عن المجموع.

ثانياً: إن هذه الأمثلة التي ساقها الشيخ(رحمه الله) في فتواه ليـست الـضرورة فيهـا لا شخصية ولا نوعية. فالمزارعون يتمكنون من إدارة مزروعاتهم من دون أن يمدوا يد القرض إلى الغير ليتقيدوا بعجلة المرابين. والحكومات المخلصة تعـرف كيـف ترفـع

من المستوى المعيشي للشعب من غير أن تكبل أفراده بقيود القروض الثقيلة فتلقى على كاهل المجموعة المحكومة ما ترزح تحت وطأته وثقله.

وإن ازدهار حال المزارعين لا يتوقف على مد يد القرض إلى الحكومات الجائرة ليكون للكافر على المسلم سبيل: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[1].

بل هناك طرق عديدة تتمكن بواسطتها الحكومات المخلصة من الاستقراض بدون فائدة كجلب المكائن الزراعية وبقية الوسائل التي تحتاجها الزراعة وتسديد أثمانها من فائض المنتوج الزراعي لكل عام.

كل هذا والدول الثرية ومن ورائها الشركات التجارية العالمية تقبل بهذه العروض بغية تصريف ما لديها من فائض احتياجاتها.

وأن القيادة الحكيمة لكل شعبٍ هي الأعرف كيف تأخذ ساعد الأفراد من أبنائه وتنهض بهم للسير في طريق الرقي والتقدم من دون أن تكبلهم بالمذلة والالتجاء ليرزحوا تحت وطأة القروض الثقيلة لتكون وبالاً على الأمة وحجراً في طريق سعادتها وحريتها.

وإن مثل هذه الفوائد الربوية الجسيمة هي التي جعلت الشعوب تئن من وطأة الارتباطات مع الدول الأجنبية والتي تريد فرض سيطرتها بهذه الوسيلة الدنيئة.

إن للمسؤولين كما أسلفنا طرقاً عديدة كفيلة بتحسين الحالة الاجتماعية وضامنة لأن ترفع من مستوى أبناء الشعب، فلا ضرورة للمزارعين ولا لغيرهم أن يلجأوا إلى الاستقراض بالفائدة، وأن الضرورة التي تبيح للفرد أن يستقرض بالفائدة هي الضرورة الشخصية الملحة والتي تتوقف عليها حياة الإنسان وليست هي الضرورة النوعية.

إن الواجب على أولياء الإفتاء أن يعملوا جاهدين ليبيّنوا للناس مضار الأشياء التي تناولها التحريم الشرعي، وأن الشريعة الإسلامية ليست شريعة تعسفية جامدة جاءت لفئة خاصة من البشر، وفي إطار زمن معين بل هي شريعة السماء إلى الأرض

---

(١) سورة النساء: الآية، ١٤١.

إلى يومها الأخير، ولا بدّ للمشرع والحالة هذه من الالتفات إلى المراحل التطورية التي تمر بها الأجيال المتعاقبة، وفعلاً فقد عالج الإسلام جميع النواحي ووضع لمشاكلها الحلول الكافية.

وترتيباً على ذلك، فلا بدّ من بث الوعي في النفوس لتسير على خطا الإسلام ونظمه وشريعته السمحاء.

إن مجتمعنا الفاسد يتطلع إلى الغرب ليأخذ من نظمه وأحكامه ما يطبق على نفسه.

ومن هنا نقول، أن الشريعة الإسلامية لم تكن محتاجة إلى الترميم لتكون النظم الأجنبية والمصالح الجديدة هي الكفيلة بترميم التصدع الذي لحق بها. بل هي قانون إلهي يكفل سعادة البشرية ويأخذ بيد الأمة إلى ما فيه صلاحها علماً بان التعاليم الإسلامية لو طبقت لكان لهذه الأمة المسكينة في هذا اليوم غير ما هي عليه الآن من الانحطاط والتدهور.

وإننا كمسلمين لا بدّ لنا، من تطبيق تعاليمنا الإسلامية وبيان وجهة نظر المشرّع في أحكامه لا أن نعمل جاهدين لنخضع أحكامنا إلى ما تقتضيه المصالح الجديدة والتي يواجهنا بها أبناء اليوم.

إن النقطة الأساسية تتركز في هذا الصراط الذي تدور رحاه بين البعض في الآونة الأخيرة حيث تتجه الهمة في إخضاع التعاليم الإسلامية لما تتطلب المصالح الجديدة. بينما نرى الواجب علينا إخضاع تلك المصالح وأولئك الذين يدورون في إطار هذه الأفكار إلى النظم الإسلامية.

وفي الحقيقة، إننا لا نتمكن أن نقف موقف السلب في هذه المعركة، فالتطور يطالعنا في كل يوم بأمور لم يكن لها وجود على عهد المشرّع الإسلامي والفرد تحتم عليه طبيعة الاجتماع أن يخضع لما تمليه هذه المفاجئات، فالإسلام لم يرتض لتابعيه الرهبنة والانعزال بل فرض عليهم العمل والتعلم ليبعدهم عن الاتكال على الغير، ولكن لا بدّ للفرد من الالتزام في الوقت نفسه بما تقرره الشريعة الإسلامية إزاء هذه الحقائق الجديدة.

زواج المتعة[1]

أو سؤال سيظل بلا جواب:

تحت هذا العنوان نشرت مجلة العربي الغراء الصادرة في الكويت بعددها الحادي والستين الصادر في رجب ١٩٦٣ تضمن الرد على الأخ إبراهيم سليمان حول زواج المتعة ولست الآن، بهذه العجالة في صدد الكتابة عن هذا الموضوع بالتفصيل فإن موضوع المتعة ليس وليد العصور المتأخرة، بل هو مثار البحث والنقاش بين الإمامية من جهة، وجمهور العامة من جهة أخرى، على أن كل طرف لم يدخر الوسع في بيان وجهة نظره في هذا الزواج والدفاع عما يبرر تمسكه برأيه.

وقد ألفت لهذه الغاية كتب عديدة ونشرت مقالات كثيرة. وللباحث أن يراجع ما كتبه الفريقان ليعطي رأيه على ضوء ما يستنتجه.

غير أن الذي يدعو للرد على المقال المشار إليه هو تحدي الكاتب بشكل سافر على الشيعة الإمامية، ولنقرأ مثلاً ما يقوله كاتب المقال رداً على الأخ إبراهيم سليمان(أما أخذه علينا قولنا أن زواج المتعة لا يقصد به إلا قضاء الحاجة دون موجب لطلاق أو نفقة أو ميراث أو أي تبعة من تبعات الزواج فذلك أيضاً ليس من عندنا إنما هو قول كل فقهاء الشيعة الإمامية الذين ينفردون بتحليل المتعة فليرجع إلى كتبهم إن أراد).

ومعي لنقف قليلاً مع الكاتب لنفهم ما يقصده من وراء هذه الكلمات فقد نسب إلى الإمامية ما لا يلتزمون به من أن المتعة عندهم ليست إلا قضاء الحاجة دون تقيد بتبعة من تبعات الزواج، ولم يكتف بهذا العدد بل أحال القارىء إلى كتب جميع الفقهاء من الإمامية.

---

(١) مهداة إلى مجلة العربي، ونشرة في مجلة الإيمان الصادرة في النجف الأشرف، العدد الأول والثاني من السنة ١٩٦٣م، مجلة العربي العدد ٥٩.

ما هو المراد من قضاء الحاجة وهل يكون الرجل بعيداً عن قضاء الحاجة في الزواج الدائم وهل يتفضل علينا الكاتب المحترم ليدلنا على مصدر واحد من كتب الجعفريّة يصرح بأن المتعة ليست إلا قضاء الحاجة دون تقييد بتبعات تمليها عليهم الشريعة المقدسة ولا مجال لي إزاء هذه الدعوى من كاتبنا العربي إلا أن يسمح لي بقليل من وقته ليطلع على رأي الإمامية فيما تمسكوا به من حلية المتعة.

المتعة ـ عند الإمامية هي الزواج المنقطع، ولهذا الزواج حدوده والتي تكون نقطة الافتراق عن الزواج الدائم، بينما يشترك الزواجان الدائم والمنقطع في بقية المجالات، فهو يشترك مع الدائم مثلاً.

١ ـ **بالعقد**: ولا يستغني كلا الزوجين عنه ولا بد فيهما من الاشتمال على الإيجاب والقبول. ويكون القصد فيهما على نحو الإنشاء لا الاخبار. فتقول الزوجة: زوجتك نفسي في الدائم، ومتعتك نفسي في المنقطع، ويكون القبول في كلا الحالتين من الزوج.

٢ ـ **المهر**: وتستحق كل من الدائمة والمنقطعة جميع المهر على الزوج بعد الدخول أما قبل الدخول فيثبت نصف المهر لو طلق في الدائم أو وهبها المدة في المنقطع.

٣ ـ **عدم المانع**: ولا بد لكلا النكاحين الدائم والمنقطع من عدم وجود مانع شرعي من النكاح من سبب أو نسب أو رضاع أو إحصان أو غير هذه من الموانع الشرعية.

٤ ـ **العدة**: وتشترك الزوجتان الدائمة والمتمتع بها في الخضوع إلى العدة وإن اختلفت المدة بينهما فهي في الدائمة تكون: في التي تحيض ثلاثة أطهار إن كانت حرة وإن كانت أمة فطهران، وفي المنقطعة حيضتان أو خمسة وأربعين يوماً وعلى الزوجتين عدة الوفاة.

وتسقط العدة عن كليهما فيما لو لم يحصل الدخول أو كانت صغيرة كأن يكون عمرها أقل من تسع سنين أو كانت آيساً ولو قدر أن اجتمع حمل ووفاة كان أبعد الأجلين هو المفروض في حق تلك الزوجة.

٥ ـ النسل: ولا فرق عند الإمامية بين أولاد الدائمة أو المتمتع بها فالكل يلحق بأبيه.

٦ ـ الحضانة: وهي الولاية على الطفل حيث تقوم الأم بتربيته وما يتعلق بها من مصلحته والمحافظة عليه ولكل من الدائمة والمتمتع بها ذلك الحق وإن اختلفت كلمتهم في أصل مدة الحضانة مع غض النظر عن كون الأم دائمة أو منقطعة.

٧ ـ الميراث: وحيث كان ما يتولد ملحقاً بالأب فلا بد من المساواة بينهما في الإرث فيقف ولد المتعة إلى جانب أخيه من الزوجة الدائمة ليأخذ نصيبه من الميراث على حد سواء.

٨ ـ نشر الحرمة: إذ تنطبق على الولدين من الدائمة والمنقطعة جميع الآيات والعمومات الشرعية الواردة في تحريم الآباء والأمهات والأبناء والإخوة والأخوات والأعمام والعمات والخال والخالات بعضهم على البعض الآخر عملاً بما صرحت به الآية الكريمة.

﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾[١].

وأما موارد الافتراق فهي:

١ ـ ذكر الأجل ـ فلا أجل للدائم ولا بد منه في عقد المتعة.

٢ ـ العدد ـ فهو في الدائم أربعة وفي المنقطع إلى ما شاء.

٣ ـ الطلاق ـ فإن المستمتع بها لا طلاق لها بل لزوجها أن يهبها المدة المتبقية وعند انتهاء المدة تنقطع العلاقة الزوجية بين الطرفين ويكون الطلاق من مختصات الزوجة الدائمة.

٤ ـ النفقة ـ وتكون للزوجة الدائمة، أما المستمتع بها فلا نفقة لها مهما كانت المدة التي قدر لها الارتباط الزوجي فيها.

---

(١) سورة الأنفال: الآية، ٧٥.

٥ ـ المواقعة والمضاجعة ـ فليس للمتعة ليلة أو حق في المطالبة في المواقعة بل يعود أمر ذلك إليه فهو إن شاء أقدم وإلا فليس لها إلا السكوت أما الدائمة فلها الحق في ليلة من أربع مضاجعة ومرة في المواقعة في ضمن كل أربعة أشهر.

٦ ـ ميراث الزوجة ـ فإن الزوجة الدائمة تشارك بقية الورثة في أخذ مالها من الحق المفروض لها أما المتمتع بها فلا ميراث لها.

هذه هي أهم النقاط التي تفترق فيها الزوجة المتمتع بها عن الدائمة، ولم يجتهد فقهاء الإمامية في موارد الافتراق أو الاشتراك ولم يفرضوا هذه الحدود من عند أنفسهم بل أخذوا تلك عن طرقهم الخاصة والمتصلة بأهل بيت رسول الله(ﷺ) بعد التمحيص وبذل الجهد التامين في ملاحظة الأسانيد الواقعة في سلسلة الرواية وإيصالها إلى أحد أئمتهم.

وترتيباً على ذلك فالمتعة ـ كما رأينا ـ ليست من قبيل قضاء الحاجة دون الخضوع إلى تبعات الزواج الشرعي لتكون المرأة لعبة بيد الرجل تستقبل في كل ساعة ضيفاً جديداً يشبع بين أحضانها رغباته الجنسية، ألم تكن الخمسة والأربعون يوماً كافية لمدة الاستبراء عما علق بها من الزوج وإستبانة أنها حاملة أم لا؟

وإن المتتبع حائراً وهو يتصفح كتب الإمامية إذ لم يجد ما أحالنا عليه كاتب المقال من أن الإمامية لا يتقيدون بتبعات الزواج في زواجهم المؤقت، وهذه كتب الإمامية تنص على ما بيناه آنفاً فراجع كتب الشيعة[1].

---

(١) من لا يحضره الفقيه، جزء ٣، ص١٤٩، والمقنع، والهداية للشيخ الصدوق، والكافي للشيخ الكليني، جزء ٢، ص ٤٤، والانتصار لعلم الهدى الشريف المرتضى، والمراسيم لأبي يعلى سلار الديلمي، والنهاية للشيخ الطوسي، والمبسوط للشيخ الطوسي، والحدائق، جزء ٦، ص١٥٢، والتهذيب للشيخ الطوسي، جزء ٢، ص١٨٩، والاستبصار للشيخ الطوسي، جزء٢، ص٢٩، الغنية للسيد أبي المكارم، والوسيلة لعماد الدين أبي جعفر، ونكت النهاية للمحقق الحلي، وتحرير العلامة، وشرح اللمعة للشهيد، جزء ٢، ص٨٢، والمسالك، جزء ١، الجواهر، ص١٦٥، نقلنا هذا الثبت عن الغدير، جزء ٣، ص٣٠٧.

يضاف إلى ذلك جميع الرسائل العملية لفقهاء الشيعة ومن تطرق إلى البحث عن النكاح من علمائنا الأعلام.

إن كل مصادر الإمامية تنطق معبرة عن آراء أئمتهم ووجهة نظرهم في المتعة وبيان حدودها الخاصة كما ذكرناه. ولا يؤخذ على الإمامية هذه الفروق التي ذكرت بين الزواجين الدائم والمؤقت فإن الغاية من وراء تشريع هذا الزواج هو تخفيف العقبات التي تقف في طريق الجنسين في الزواج الدائم وهذا هو مقتضى الرحمة من الله لهذه الأمة كما يحدثنا عن ذلك حبر الأمة ابن عباس حين قال: «ما كانت المتعة إلا رحمة من الله رحم بها أمة محمد(ﷺ) ولو نهي عمر عنها ما اضطر إلى الزنا إلا شقي»[1].

فكيف والحالة هذه يرجعنا إلى كتب الإمامية بدعوى أنها تعبر عن آرائهم إزاء هذا الزواج المؤقت وأنه لا يتقيد بتبعات خاصة. إن أمانة النقل تقتضي التروي في الادعاء ويتدرج كاتب المقال بعد هذا فيقول:

«وأما أن المتعة حللها الله بنص القرآن:

﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ فالذي عليه أغلب المفسرين أن هذا منصرف إلى الزواج الدائم وليس إلى أجل مسمى عندهم.

كيف يدعي الكاتب دعوى انصراف الآية الكريمة إلى الزواج الدائم مع أن أكثر المصادر ذكرت نزول الآية في المتعة. قال شيخنا الأميني (حفظه الله) تعقيباً على الاستدلال بهذه الآية الكريمة ما يلي:

ذكر نزولها في المتعة أوثق مصادر التفسير:

صحيح البخاري، صحيح مسلم، مسند أحمد، جزء ٤ ص ٤٣٦ بإسنادهم عن عمران بن حصين. تفسير الرازي جزء ٣ ص ٢٠٠ ـ ٢٠٢ تفسير أبي حيان جزء ٣ ص ٣١٨ وتفسير الطبري جزء ٥ ص ٩ عن ابن عباس وأبي بن كعب والحكم

---

(١) بداية المجتهد لابن رشد: ٥٧/ ٢.

وسعيد بن جبير وقتادة وشعبة وأبي بن ثابت. وأحكام القرآن للجصاص جزء ٥ ص ١٧٨ حكاه عن عدة، وسنن البيهقي جزء ٧ ص ٢٠٥ رواه عن ابن عباس، وتفسير البغوي جزء ١ ص٤٢٣ عن جمع، وحكى عن عامة أهل العلم أنها منسوخة، وتفسير الزمخشري جزء ١ ص ٣٦٠، وأحكام القرآن للقاضي جزء ١، ص١٦٢ قال الجمهور أنها في المتعة، وتفسير الرازي جزء ٣ ص ٢٠٠ ذكر عن الصحيحين حديث عمران أنها في المتعة، وشرح صحيح مسلم للنووي جزء ٩ ص١٨١ عن ابن مسعود، وتفسير الخازن جزء ١ ص ٣٥٧ عن قوم وقال: ذهب الجمهور أنها منسوخة، وتفسير البيضاوي جزء ١ ص ٦٩ يروم إثبات نسخها بالسند، وتفسير أبي حيان جزء ٣ ص ٢١٨ عن جمع من الصحابة والتابعين، وتفسير ابن كثير جزء ١ ص٤٧٤، وتفسير السيوطي جزء ٢ ص١٤٠ رواية عن جمع من الصحابة والتابعين بطريق الطبراني وعبد الرزاق البيهقي وابن جرير وعبيد وأبي داود ابن الأنباري، وتفسير أبي السعود جزء ٣ ص ٢٥١[1].

وحين يصل الأستاذ عبد الهادي مسعود مدير الفهارس العامة بدار الكتب المصرية إلى هذه الآية الكريمة يقول: «ويحاول بعض الدارسين من معتنقي مذاهب أهل السنة أن يقول بأن المتعة هنا هي الزواج الدائم ومثل هذا الكلام مردود إذ من المحقق أن اصطلاح المتعة معروف ومقرر ومن المقطوع به أنه أبيح على عهد رسول الله(ﷺ) وعلى عهد أبي بكر وجانب من خلافة عمر وهو عند الشيعة لا يزال مباحاً إلى اليوم». إلى أن يقول: «على أننا نضيف إلى هذا بعد الدراسة الطويلة أن أكثر من تسعين في المائة من المجتهدين من سنة وشيعة أجمعوا على أن المتعة المذكورة في الآية الكريمة هي الزواج إلى أجل، وإن هذه الآية هي المرجع الأول في الاباحة أما النسخ فالمجتهدون من السنة يقررون أنه ورد بحديث عن النبي(ﷺ) ونهيه عن ممارسة هذا الحق الذي منحه القرآن الكريم وقد عودنا القرآن حين يحرم شيئاً أن يفصله ويكرره ويؤكده بل غالباً ما يضع العقوبات للمخالفين قال تعالى:﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ

---

(١) الغدير، جزء ٣، ص٣٣٠.

عَلَيْكُمْ ﴾ وترتيباً على ذلك محال أن يحرم الله تعالى علينا ما لم يبينه لنا وما لم يفصله على حد تعبيره تعالى في هذه الآية المحكمة وإذا كانت المتعة أبيحت بنص القرآن فلا بد أن تحرم ـ إذا كان ثمة تحريم ـ بهذه الطريقة من البيان والتفصيل»(١).

من هذا العرض نأخذ صورة واضحة بأن الخلاف بين المسلمين لم يقع في نزول الآية في المتعة وإن كان فهو من بعض المفسرين لا من أغلبهم وإنما الخلاف يتركز حول النسخ، فالبعض ذهب إلى نسخ هذه الآية الكريمة بالقرآن، والبعض الآخر بالسنة وليدعي النسخ من البعض أو لا يدعي فإن المهم هو بيان ما ذهب إليه الأغلب ـ كما مر عليك ـ في نزول هذه الآية في المتعة لا في الزواج الدائم كما يدعيه الكاتب في مقالته وبعد هذا نرى كاتبنا يتدرج ليثبت لنا أن المتعة وإن كانت شرعت في الإسلام إلا أنها لم تكن من التشريع الشامل لجميع الأزمنة كبقية الأحكام الشرعية حيث يكون حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة. بل أنها من قبيل تشريع خاص يتضمن الجواز فيه إلى أيام معدودة نظراً إلى ظروف خاصة أملتها على المسلمين في وقته طبيعة الحرب والغزو فأباح النبي(ﷺ) ذلك ثم لما وضعت الحرب أوزارها عاد الرسول(ﷺ) فنهى عنه، يقول الكاتب في هذا الصدد:

«وأن المتعة لم ينص فيها على الضرورة بل هي مطلقة فينقضه ما سيأتي من أحاديث ابن مسعود وجابر بن عبد الله وسلمة بن الأكوع وسبرة الجهني وابن عمر وغيرها من عشرات الأحاديث الصحيحة التي جمعها مسلم في صحيحه والحافظ ابن حجر في شرح البخاري وكلها صريحة في أن النبي إنما أباح المتعة للمحاربين لما اشتد بهم الحال في بعض الغزوات ولثلاثة أيام فقط ترخيصاً بأخف المحرمين في وقت الضرورة كمن يضطر إلى أكل الميتة أو الدم أو لحم الخنزير».

تنظير يبتني على مجازفة خطيرة أن تكون المتعة كأكل الدم أو لحم الخنزير أو الميتة

---

(١) مقدمة كتاب المتعة للفكيكي، ص١٢ طبعة القاهرة.

حيث تكون ـ الضرورات تبيح المحظورات ـ ولا أدري ما هو موقف كاتبنا المجازف لو علم بأن المتعة كانت على عهد رسول الله(ﷺ) وأيام خلافة أبي بكر وجانباً من خلافة عمر إلى أن نهى عنها. فقد أخرج البخاري عن عمران بن حصين قال: «نزلت آية المتعة في كتاب ففعلناها مع رسول الله(ﷺ) ولم ينزل قرآن يحرمها ولم ينه عنها حتى مات(ﷺ) قال رجل برأيه ما شاء» وحين يصل الرازي إلى تفسير هذه الآية يقول معقباً قول عمر أن« قال رجل برأيه ما شاء» يريد عمر بن الخطاب[١].

أما الإمام أحمد فقد جاء في مسنده نفس الموضوع ولكنه أخرج الخبر عن عمران القصير[٢].

وفي صحيح مسلم جاء عن عطاء قال قدم جابر بن عبد الله معتمراً فجئناه في منزله فسأله القوم عن أشياء ثم ذكروا المتعة فقال نعم استمتعنا على عهد رسول الله وأبي بكر وعمر[٣].

وعن ابن الزبير أخرج مسلم أيضاً قال سمعت جابر بن عبد الله يقول كنا نستمتع بالقبضة من التمر والدقيق الأيام على عهد رسول الله(ﷺ) وأبي بكر حتى نهى عنه عمر في شأن عمرو بن حريث[٤].

أما ابن رشد الأندلسي فقد نقل في كتابه بداية المجتهد جزء ٢ ص ٤٧ عن ابن عباس أنه قال ما كانت المتعة إلا رحمة من الله رحم بها أمة محمد(ﷺ) ولولا نهي عمر ما اضطر إلى الزنا إلا شقي، وفي نفس الموضع ذكر ابن رشد أيضاً قال: «سمعت جابر بن عبد الله يقول تمتعنا على عهد رسول الله وأبي بكر ونصفاً من خلافة عمر ثم نهى عنها عمر الناس» ويسأل رجل من أهل الشام عبد الله بن عمر عن متعة النساء فيقول له: «إن أباك نهى عنها فقال ابن عمر أرأيت إن كان أبي نهى

---

(١) المتعة للفكيكي، ص٤٢، ط القاهرة.

(٢) المتعة للفكيكي، ص٤٢ نقلاً عن مسند أحمد، ص٤٢٦.

(٣) نفس المصدر نقلاً عن صحيح مسلم، ص٥٣٥.

(٤) نفس المصدر، ص٤٣.

عنها وصنعها رسول الله أنترك السنّة ونتبع قول أبي»[١].

جواب بليغ من ابن عمر وتحد صارخ من الابن اتجاه الأب يدعو فيه المجيب إلى ترك الأخذ بالاجتهاد في مقابل النص فنبي الإسلام لا ينطق عن الهوى والخليفة الثاني بشر ولا تشترط العامة العصمة في الخلفاء بل وحتى في الأنبياء.

وعلى أي حال فهذه الأخبار وكثير مثلها وردت عن طرق العامة ولم يكن للجعفرية فيها نصيب لأنهم في غنى عن التمسك بهذه الأخبار بعد نزول الآية الكريمة في المتعة وعدم ثبوت النهي عن النبي(ﷺ) أو أحد الأئمة. وليتولى كاتب المقال بنفسه مهمة التوفيق بين ما ذكره من الأخبار المصرحة بأن النبي(ﷺ) رخص في المتعة لثلاثة أيام وحرمها بعد ذلك وبين ما ذكرناه من الأخبار التي أبانت لنا بوضوح أن النهي لم يصدر لا عن النبي(ﷺ) ولا عن أبي بكر بل عن عمر وقد عمل بها في الدورين الأولين وفي جانب من الدور الثالث كما مر عليك من رواية جابر بن عبد الله في قوله استمتعنا وليقل الكاتب كلمته بعد ذلك بأن المتعة لا تتعدى كونها من قبيل أكل الميتة وما شاكل لا تباح إلا في الضرورات المقتضية وليتولى الكاتب مهمة التوفيق بين نقل الأخبار عن شخص واحد يقول مرة أن المتعة رخصت لثلاثة أيام كما نقله هو عن جابر وفي المرة الثانية يقول استمتعنا على عهد رسول الله(ﷺ) وأبي بكر وعمر كما وضعنا مصدر النقل بين يديه وهو من طريق العامة أيضاً.

وما يتكلف بتصحيحه الكاتب من التوفيق بين الأخبار المنقولة عن جابر لا بد من عطفه إلى الأخبار المتضاربة عن عبد الله بن عمر فقد نقل الكاتب عنه عن السنن بأن النبي أباح المتعة لثلاثة أيام فقط[٢] بينما ينقل الترمذي في صحيحه عن ابن عمر نفسه إنكاره الشديد على أبيه في المتعة غير آبه بمقام الخلافة أولاً وبمقام الأبوة ثانياً. كل ذلك موكول إلى الكاتب ليقول كلمته في هذا الاختلاف في الأخبار وليوفق بينها

---

(١) المتعة للفكيكي، ص٤٢.

(٢) كما سيأتي عنه نقل عبارة الكاتب.

ليختار ما هو الصحيح منها ولا علاقة لنا بذلك ما دامت المصادر لهذه الطائفة من الأخبار وتلك الطائفة هي كلها من طرق العامة ـ كما عرفت ـ.

ويستمر الكاتب في التأكيد على صدور النهي عن المتعة عن النبي(ﷺ) بالذات فيقول: «وأما القول باستمرار المتعة إلى يوم القيامة لأن النبي(ﷺ) لم يحرمها في حياته فينقضه ما أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة ومالك وابن شيبة وعبد الرزاق عن علي بن أبي طالب(عليه السلام) أن رسول الله نهى عن متعة النساء يوم خيبر وأكل لحوم الحمر الأهلية» وما رواه محمد بن الحنفية أحد أبنائه من أنه ـ أي علي ـ مر بابن عباس وهو يفتي بجواز المتعة فقال له: «إن النبي(ﷺ) نهى عنها وعن الحمر الأهلية» ثم ما رواه الترمذي في جامعة عن محمد بن كعب «كانت المتعة في أول الإسلام حتى إذا ما نزلت آية: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ قال ابن عباس: فكل فرج سواها حرام وما رواه البخاري ومسلم في صحيحهما عن جابر بن عبد الله وسلمة بن الأكوع وولده أياس «كنا في جيش عام أو طاس فرخص لنا رسول الله(ﷺ) في المتعة ثلاثاً ثم نهى عنها ما حلت قبلها ولا حلت بعدها» وعن عبد الله بن مسعود «كنا نغزوا مع رسول الله وليس لنا نساء فقلنا إلا نستخصي فنهانا عن ذلك ورخص لنا في المتعة ثلاثاً ثم نهانا عنها» وعن سيرة الجهني أن النبي(ﷺ) لما قدم إلى مكة تزين نساؤها فشكا أصحابه طول العزوبة فقال استمتعوا من هذه النساء فلم يخرج منها حتى حرمها رسول الله(ﷺ) وعن الحسن قال: «والله ما كانت المتعة إلا ثلاثة أيام، أذن لهم رسول الله فيها ما كانت قبل ذلك ولا بعد ذلك» وفي السنن عن ابن عمر «نهى رسول الله عن النساء يوم خيبر الخ».

ما الذي يوجب تقديم هذه الأخبار على تلك التي تقدمت حيث صرحت بصدور النهي عن الخليفة الثاني لا النبي(ﷺ) ولو كانت مروية عن طرقنا لكان لنا في التوفيق بينها بتقديم البعض على الآخر ـ عملاً بقواعد تعارض الأخبار ـ الكلمة الأخيرة إلا أننا نمسك عن التعليق لأن موضوع تضارب هذه الأخبار يهم الكاتب أكثر مما يهم الإمامي القائل بتشريع المتعة بنص الكتاب حيث دلت عليه الآية

الكريمة ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ﴾ ويبقى هذا التشريع المطلق يتحدى الزمن من دون أن ينسخ في كتاب أو سنة وقد ناقش الأستاذ توفيق الفكيكي في كتابه المتعة هذه الأخبار التي ذكرت لتحريم المتعة وتتبع غزوات النبي فلم يجد في الخطب التي صدرت عن النبي(ﷺ) ما يدل على مثل هذا التحريم[١].

ومن يدري فلربما كان كاتبنا قد لاحظ هذه الأخبار المصرحة بصدور النهي عن الخليفة الثاني، لذلك عاد وأخذ يناقش موضوع تحريم الخليفة الثاني للمتعة فقال: «وأما القول بأن عمر هو الذي حرم المتعة برأيه فينقضه» ما رواه ابن جرير عن عمر قال: (لما ولي عمر خطب الناس فقال: «إن رسول الله(ﷺ) أذن لنا في المتعة ثلاثاً ثم حرمها والله لا أعلم أحداً تمتع إلا أقمت عليه حد الزنا إلا أن يأتيني بأربعة شهداء أن رسول الله قد أحلها بعد أن حرمها إلى آخر خطبته المعروفة والتي حرفت بما يوهم أن تحريم المتعة إنما كان بأمر عمر لا بأمر الرسول»).

رواية واحدة ينقلها الكاتب عن ابن جرير لنا إزاء هذه الرواية أن نحيل القارىء إلى ما ذكره العلامة القوشجي في كتابه شرح التجريد في البحث عن الإمامة «أن عمر(رضي الله عنه) قال وهو على المنبر أيها الناس ثلاث على عهد الرسول وأنا أنهى عنهن أعاقب عليهن متعة النساء ومتعة الحج وحي على خير العمل» إن الخليفة الثاني هنا يصرح بأن النهي كان قد صدر منه فأي تحريف في الخطبة وكلمته ـ أنا أنهى عنهن ـ صريحة في حدوث النهي من ذلك الوقت يعزز ذلك الأخبار المتقدمة والتي صرحت بصدور النهي عنه لا عن النبي(ﷺ)».

وتحت عنوان ـ أول من نهى عن المتعة ـ يقول شيخنا الأميني (حفظه الله) ووقفنا على خمسة وعشرين حديثاً في الصحاح والمسانيد يدرسنا بأن المتعة كانت مباحة في شرع الإسلام وكان الناس تعمل بها في عصر النبي(ﷺ) وأبي بكر وردحاً من خلافة عمر فنهى عنها عمر في آخر أيام خلافته وعرف بأنه أول من نهى عنها

---

(١) راجع الفكيكي في المتعة من ص ٧٧ إلى ص ٩٠ طبعة القاهرة.

فعلى الباحث أن يراجع.

صحيح البخاري باب التمتع، وصحيح مسلم ج١ ص٣٩٥، ومسند أحمد ج٤ ص ٤٣٦، وجزء ٣ ص ٣٥٦، والموطأ لمالك جزء ٢ ص ٣٠، والسنن للبيهقي جزء ٧ ص ٢٠٦، وتفسير الطبري جزء ٥ ص٩.

أحكام القرآن للجصاص جزء ٣ ص ١٧٨، والنهاية لابن الأثير جزء ٢ ص٢٤٩، والغريب للبهوري، والفائق للزمخشري جزء ١ ص٣٣١، والقرطبي ج٢ ص١٣٠، وابن خلكان جزء ١ ص ٣٥٥، والمحاضرات للراغب الأصفهاني جزء ٢ ص ٩٤، تفسير الرازي جزء٣ ص ٢٠١ إلى ص ٢٠٢.

فتح الباري لابن حجر جزء٩ ص ١٤١، وتفسير السيوطي جزء٢ ص ١٤٠، والجامع الكبير للسيوطي جزء ٨ ص ٢٩٣، وتأريخ الخلفاء للسيوطي ص ٩٣، وشرح التجريد للقوشجي في مبحث الإمامة[١].

والآن فليضع الكاتب رواية جرير المتقدمة والتي صرحت بأن النهي كان صادراً عن النبي لا عن الخليفة الثاني، أمام هذا الحشد من الأخبار وهذه المسانيد التي تبين بأن مصدر النهي كان صادراً من الخليفة الثاني، فهل يعتبرها الكاتب المحترم!!

ولا مجال لنا بعد كل هذا أن ندع الخليفة الثاني في مجنب عن موضوع النهي عن المتعة أما ما نقله الكاتب عن الإمام علي بن أبي طالب في نقله عن النبي بصورة النهي عن المتعة عنه فنحيل جوابه إلى ما نقله الرازي في تفسيره جزء ٣ ص ٢٠٠ والطبري والثعلبي عند بلوغهما إلى الآية الكريمة ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم﴾ عن علي أنه قال: «لولا أن عمر نهى عن المتعة ما زنى الأشقى»[٢].

على أن كثيراً من الصحابة والتابعين لم يتقيدوا برأي الخليفة الثاني في نهيه المذكور بل صرحوا بعدم الالتزام بمثل ذلك النهي وإن كانت الظروف الزمنية تجبرهم على

---

(١) الغدير، جزء ٣، ص٣٣٢.

(٢) أجوبة مسائل موسى جار الله للإمام شرف الدين، ص١١٧.

السكوت وعدم معارضة السلطة.

قال شخينا الأميني تحت عنوان «الصحابة والتابعون».

«ذهب جمع من الصحابة والتابعين إلى إباحة المتعة وعدم نسخها مع وقوفهم على نهي عمر عنها ولرأيهم شأن في الأمة وفيهم من يجب إتباعه.

«١» أمير المؤمنين علي بن أبي طالب«٢» ابن عباس حبر الأمة «٣» عمران بن الحصين الخزاعي «٤» جابر بن عبد الله الأنصاري «٥» عبد الله بن مسعود الهذلي «٦» عبد الله بن عمر العدوى «٧» معاوية بن أبي سفيان «٨» أبو سعيد الخدري الأنصاري «٩» سلمة بن أمية الجمحي «١٠» معبد بن أمية الجمحي «١١» الزبير بن العوام القرشي «١٣» خالد بن المهاجر المخزومي «١٤» عمر بن حريث القرشي «١٥» ربيعة بن أبيّ بن كعب الأنصاري «١٧» سعيد بن جبير «١٨» طاوس اليماني «١٩» عطاء أبو محمد اليماني «٢٠» السدي قال ابن حزم بعد عد جماعة من الصحابة والقائلين بالمتعة ومن التابعين طاوس وسعيد بن جبير وعطاء وسائر فقهاء مكة، قال أبو عمر أصحاب ابن عباس من أهل مكة واليمن كلهم يرون المتعة حلالاً، قال القرطبي في تفسيره ص ١٣٢: «أهل مكة كانوا يستمتعونها كثيراً» قال الرازي في تفسيره جزء٣ ص ٢٠٠: في آية المتعة اختلفوا في أنها هل نسخت أم لا؟ فذهب السواد الأعظم من الأمة إلى أنها صارت منسوخة. وقال السواد منهم أنها بقيت مباحة كما كانت. قال أبو حيان بعد نقل حديث إباحة المتعة وعلى هذا جماعة من أهل البيت[1].

أين كان هؤلاء وفيهم من له مكانته عند النبي(ﷺ) عن رسول الله(ﷺ) ليسمعوا منه نهيه عن المتعة بل أين كان الخليفة الأول أبو بكر عن ذلك حيث لم ينقل النهي عنه ولا ندري ما كان يصنع المسلمون في أيام خلافته فهل كان الناس في حل من المتعة أو أنهم ممنوعون عنها فإن كان الأول فكيف يتغاضى خليفة المسلمين عن

---

(١) الغدير، جزء ٣، ص٢٣٢.

منع الناس عما نهى عنه رسول الله(ﷺ) كما صنع خليفته في آخر أيام خلافته وإن كان الناس ممنوعين عنها فما يقول الكاتب في الأخبار التي صرحت بأن المسلمين تمتعوا على عهد رسول الله(ﷺ) وأبي بكر وجانباً من خلافة عمر نفسه، وهل كان عمل هؤلاء الصحابة والتابعين من الزنى ـ أعوذ بالله ـ من هذا القول وهل يتصور مسلم أن يقدم هؤلاء أو يبيحوا المتعة مع وجود نهي من رسول الله(ﷺ) في هذا الخصوص.

ولم يكتف كاتبنا بهذا المقدار دون أن يعزز وجهة نظره بدعوى قد تكون غريبة في بابها فقد ادعى على الإمام الصادق(عليه السلام) بأنه أجاب عن المتعة بأنها الزنى بعينه فقال(ومن العجيب أن لا يقول بحلية المتعة إلى الآن إلا بعض فقهاء الشيعة بل من محدثيهم من يدعو إلى نشرها بين الشباب وطلبة الجامعات فيقوم مقام الزواج التجريبي أو الزواج العقيم في بعض بلاد الغرب في حين يروى عن الإمام الصادق جعفر بن محمد سادس أئمة الشيعة الإمامية، أنه سأل عن المتعة فكان جوابه أنها الزنا بعينه).

دعوى يقف أمامها المنصف والحيرة تأخذ عليه مسالك تفكيره كيف يوفق الإنسان بين ما يذهب إليه الشيعة من حلية المتعة وبين ما يراها سادس أئمتهم بأنها الزنا بعينه ـ على حد دعوى الكاتب ـ.

ولربما عذرت كاتب المقال في ذلك حيث لم يتسن له الوقوف على حقيقة المذهب الجعفري وكيف يتلقى علماء الإمامية أحكامهم الشرعية ولذلك فيجدر بنا أن نلخص له فكرة موجزة عن هذه الجهة.

إن الشيعة الإمامية كبقية فرق المسلمين تعتبر القرآن الكريم هو المصدر الذي تأخذ منه الأحكام الشرعية ولكن ليس معنى ذلك أن يقتصر عليه فقط لأن كثيراً من الأحكام جاءت فيه على سبيل الإجمال ليترك أمر تفصيلها وبيانها إلى النبي الأكرم فهو مبلغ رسالة السماء إلى البشر ومن هنا نجد نقطة الاختلاف تنشأ بين الشيعة من جهة وبقية فرق السنّة من الجهة الآخرى.

فالشيعة يرون أن الخلافة كالنبوة من المناصب الإلهية لذلك لا بد من النص عليها وفعلاً فقد نص النبي ذلك بتقليد شؤون المسلمين بعده إلى أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب(عليه السلام) بأمر من الله عزَّ وجلَّ في حجة الوداع عندما وصل ركب الحجيج إلى غدير خم وكان هذا النص يختلف في جوهره عن كثير من الآيات لأنه تضمن تهديداً بأنه إن لم يفعل فما بلغ رسالته وقد ذكر ذلك الفريقان.

وهكذا ينتقل الأمر من بعده إلى أولاده الأئمة الاثني عشر بالنص الإلهي تنتقل من السابق إلى اللاحق من دون أن يكون لأحد في ذلك أي اختبار أو رأي ويشترط الإمامية في الإمام شروطاً لعل أهمها أن يكون معصوماً.

أما السنة فإنهم تقبلوا النبوة بالنص من الله عز وجل ولكن الخلافة عندهم لمن يختاره المسلمون بعد ذلك وقد مضى التاريخ بما فيه والمهم هو بيان الارتباط بين الأئمة الاثني عشر فإن لاحقهم يتلقى الأحكام الشرعية عن السابق وهكذا لتصل النوبة إلى النبي الأكرم وترتيباً على هذا الارتباط وبضميمة ما يتميز الإمام عندنا من العصمة فكيف نجيز لأنفسنا أن تقبل مثل هذه الدعوى عن الإمام جعفر بن محمد(عليه السلام) بينما نرى الروايات عن آبائه تناقض ما ادعى عليه.

وقد قدمنا ما نقل عن أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام) عن طريق العامة بأنه قال: «لولا نهى عمر ما زني إلا شقي» ومثل ذلك ما نقله الشيخ الكليني في الكافي من أن الإمام الباقر(عليه السلام) سأل عن المتعة فقال: أحلها الله في كتابه وسنة نبيه نزلت في القرآن ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ ...﴾ فهي حلال إلى يوم القيامة فقيل له يا أبا جعفر مثلك يقول هذا وقد حرمها عمر، فقال وإن كان فعل، فقيل إنا نعيذك بالله أن تحل شيئاً حرمه عمر فقال الباقر(عليه السلام) إنك على قول صاحبك وأنا على قول رسول الله(صلى الله عليه وآله) هلم إلا عنك القول ما قاله النبي[1].

ولا غرابة لو وقف الإمام الباقر يلاعن السائل فقد سبقه إلى مثل ذلك عبد الله

---

(١) المتعة للفكيكي، ص٤٧.

ابن عمر حيث سأل عن المتعة فأجاب أنترك السنّة ونتبع قول أبي والإمام جعفر بن محمد(عليه السلام) سادس أئمة الشيعة يقول بأن المتعة هي الزنا وهو خليفة من يقول بأن القول في المتعة ما قاله النبي من التحليل، هذا هو العجب!!

وهلا ذكر لنا الكاتب مصدر هذه الرواية وكيف غفل عنها الشيعة مع أن أكثر الأحكام مأخوذة عن طريقه(عليه السلام) لظروف خاصة ساعدته على بث الأحكام.

ويختتم الكاتب مقالته بسؤال ظن أنه سيبقى بلا جواب حيث قال:

«ويبقى بعد ذلك سؤال هل يرضى أحد القائلين بحلية المتعة أو الذين يمارسونها منهم أن تعاشر ابنته أو إحدى قريباته رجلاً أي رجل في ظل هذا الزواج الذي يقول بحليته سؤال نظن أنه سيبقى بلا جواب».

وينحصر الجواب في كلمة نعم، ولم لا يرض المسلم بمثل هذا الزواج إذا كان متمسكاً بكتابه المقدس وسنة نبيه الكريم وكان ممن لا يسيغ الاجتهاد في مقابل النص «والمهم أن طبيعة مثل هذه العلائق لا تحتاج إلى أكثر من اعتراف التشريع بها وتنشئة جيل على وفقه وإذا كنا لا نتقبله الآن ولا نستطيع التفكير الموضوعي فيه فلأننا لا نزال نعيش برواسب تحظر هذا النوع من العلائق وتعتبره سبة على القائمين فيه فمتى خفف بالتشريع وتبنته دعوات المصلحين وسائلها المختلفة تحول الشعور مع الأيام إلى صالحة حتماً»[1].

وقبل ختام هذه الأسطر أود الإشارة إلى أنني رأيت الكاتب تطرق مرة أخرى إلى الموضوع وإلى الأخبار التي أشارت إلى صدور النهي عن الخليفة الثاني وفي مقام معالجة هذه الأخبار رأيناه يعتذر عنها بضعفه في الرواية وتشكك في إسنادها على حد تعبيره يوجه نهي الخليفة مرة أخرى بأن عمر ما كان ليجترىء على النهي عنها إلا ولديه سند قوي من قول رسول الله وفعله. وأظن أن كاتبنا التفت إلى ارتباك هذه التوجيهات، لذلك قالها في ختام المقالة كلمة صريحة أبانت لنا بوضوح رأي الكاتب

---

(١) الزواج المؤقت السيد محمد تقي الحكيم، ص٢٤.

في التمسك بالاجتهاد الفردي في مقابل النص الشرعي قال «الترخيص بالمتعة في صدر الإسلام كان ترخيصاً ألجأت إليه ضرورة وظروف اجتماعية لم يعد لها اليوم وجود فلا يجوز حتى ولو لم ينه عنها عمر أو غير عمر أن نتخذ من ذلك الترخيص دليلاً على المشروعية»[١].

إنني أحيل إلى القارىء الكريم هذه الأقوال وغيرها وليقول كلمته في هذه الحجج التي ساقها كاتبنا ليبرر بواسطتها تحريم موضوع ثبتت حليته بنص الكتاب العزيز أنني لأهيب بالكاتب ومن ورائه إدارة مجلة العربي أن ينفض غبار التأريخ عن نقاط أشبعت بحثاً وتنقيباً من الطرفين وستكون لشباب المستقبل وشاباته الكلمة الأخيرة في اختيار الزواج المؤقت أو رفضه نتيجة لما يفرضه عليهما التقدم الاجتماعي من التحلل والاستهتار.

أما كان الأحرى بكاتب المقال أن يطالب الحكومات الإسلامية بتطبيق ما تمليه علينا التعاليم الإسلامية من مكافحة الخمور والوقوف في وجه هذا النشاط الخلاعي المتمثل على مسارح الرقص. ألم يكن الأجدر بكاتب المقال ـ كعربي مسلم ـ أن يطالب المسؤولين بأن يعالجوا المشاكل الجنسية والتي أخذت تتعقد يوماً بعد يوم لتجرف الشباب من الجنسين إلى الانخراط في مسالك الرذيلة.

فالمسارح والمراقص والأفلام الخلاعية ما هي إلا مدارس تطبيقية تقود بنات المستقبل إلى التحلل الخلقي ومن ثم إلى الهوة السحيقة.

إن إثارة هذه الخلافات الطائفية هي التي أوجبت أن يعود الإسلام غريباً كما قال نبينا الكريم(ﷺ) في الوقت الذي يلزم على المسلمين أن يلتفتوا إلى ما وصلت إليه حالتهم الاجتماعية ومكانتهم بين أبناء العالم.

---

(١) مجلة العربي: العدد، ٥٩.

التقية

إن نشر مفاهيم الإسلام يتطلب معرفة تلك المفاهيم وموقف الدين الإسلامي منها، وتشخيص موقعها من الفكر الإسلامي، وعمقها التاريخي، وقابليتها على استيعاب ما تفرزه عجلة التطور من مستجدات لوضع الحلول الناجعة لها.

ومن بين تلك المفاهيم التي عرفتها الأديان السماوية السابقة بل طبّقتها المجتمعات البشرية منذ عصور قديمة وإلى يومنا هو «مفهوم التقية».

فالتقية: قاعدة طبقتها العقول السليمة. إذ حكمت بضرورة تجنب الضرر الشخصي أو النوعي. بل يمكننا القول، إن التقية تنسجم مع فطرة الحيوان كما هو الملاحظ من سعي جميع الحيوانات وبالوسائل الممكنة لها نحو البقاء وهروبها من أسباب الفناء.

ومن هنا، فالتقية لم تكن قاعدة فقهية إسلامية صرفة، وإنما هي «قاعدة عقلية» وقف الإسلام منها موقف المؤيد والمساند لا موقف المشرّع. وإن ما جاء في القرآن والسنّة بشأنها إنما هو إمضاء لشرع من قبلنا من تقية آدم(عليه السلام) وإبراهيم(عليه السلام) ومؤمن آل فرعون وغيرهم أو إرشاد لحكم العقل بوجوب دفع الضرر.

وبناءاً على ذلك، أصبح بيان مشروعية التقية وإقامة الأدلة عليها وأنها من المفاهيم التي تبناها أو أمضاها أو أرشد إليها الإسلام ليس ذلك دفاعاً عن مذهب وإنما هو دفاع عن موقف إسلامي بل دفاع عن الفطرة والعقل السليم.

والبحث الماثل بين يديك، دراسة لهذا المفهوم على هدي القرآن الكريم والسنّة المطهرة لبيان مشروعيتها وشروطها وأقسامها، وأن هناك فرق بينها وبين النفاق. وخاتمة في حوادث استخدمت فيها التقية ابتداءً من أبي البشر آدم(عليه السلام). مع بيان مجموعة من مصادر العامة التي بحثت التقية ليقف القارىء الكريم على حقيقة موقع

التقية في الفكر الديني، وأن التقية ليست دعوة لترك تعاليم الإسلام أو جبناً وطمعاً في عيش أيام زائلة أو هروباً من المسؤولية كما يقول البعض في تصويرها، كلاّ وألف كلاّ إذ لم يُشرع في الأديان السماوية أمر عبثي.

سائلين المولى أن يقبل هذه البضاعة خالصة لوجهه الكريم نافعة يوم لا ينفع مال ولا بنون، إنه سميع مجيب.

التقية:

في مستهل كل بحث من هذه الأبحاث لا بد أولاً، من استجلاء معناه ليكون ذلك المعنى محل النقض والإبرام فلا بد من الرجوع إلى معاجم اللغة أولاً، والاصطلاح ثانياً، لنتعرف على معنى التقية:

التقية عند أهل اللغة:

بعد الرجوع إلى كتب اللغة، لم نجد اختلافاً بينها في معناها.

قال ابن منظور: واتقيت الشيء وتقيته أتقيه وأتقيه تقىً وتقيةً وتقاءً حذرته...، والاسم التقوى[1].

وقال الفيرزآبادي: واتقيت الشيء وتقيته أتقيه وأتقيه تقىً وتقيةً وتقاءً ككساء: حذرته...، والاسم التقوى... [2].

وقال الزبيدي: تقى الله تقيا: خافه، والتاء مبدلة من واو[3].

فالمتحصل من جميع ما تقدم، أن التقية مصدر اتقي تقي والاسم التقوى والمعنى هو الحذر.

---

(١) ابن منظور: لسان العرب/ ١٥، ٤٠٢.

(٢) الشيخ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي: القاموس المحيط / ٤، ٤٠١، ج٤، ص٥٨٢، ط١.

(٣) الزبيدي: تاج العروس / ١٩، ٢٣٥، تحقيق: علي شيري، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت.

التقية في الاصطلاح الشرعي:

لم يختلف الاصطلاح عن اللغة في جوهر المعنى، ولكن اختلف من جهة، أن لفظ التقية اسم مصدر كما يظهر من الشيخ الأنصاري(رحمه الله) «التقية: كالتقاة اسم لا تقى يتقي»[١]، أو أن التقية مصدر كما ذهب إليه السيد الخوئي(رحمه الله): «إن التقية مصدر تقي يتقي والاسم التقوى وهي مأخوذة من الوقاية وتاؤها بدل من واو»[٢].
والتقية بأي نحو لها معنيان في الاصطلاح:

الأول: عام، وهو الحذر عن كل ضرر دينياً كان أو دنيوياً ولا يرد في وجوب هذا الحذر أمر مولوي لأن العقل حكم بوجوب دفع الضرر، ويستدل لهذا المعنى ما ورد في الكتاب العزيز من الآيات الدالة على طلب التقوى بنحو الارشاد.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ﴾[٤]، وغيرهما من الآيات الكريمة.

الثاني: خاص. وهو التحرز والتحفظ من العدو وإخفاء الواقع عنه وإظهار موافقته في قول أو فعل أو إظهار غير ما تعتقد وقاية من الأذى، وهذا المعنى يتصف بالحكم الشرعي كالوجوب وهو محل البحث.

الأدلة على مشروعية التقية:

وقبل الخوض في التفاصيل لا بد من بيان الدليل على أصل مشروعيتها، أي هل أننا مكلفون بأن نمتثل التكليف في ظرف خاص لا على النحو الذي أمرنا به؟ بل بتطبيق استثنائي يفرضه الظرف والعوامل المحيطة؟ فلا بد من الرجوع إلى الأدلة الأربعة. فنلتمس الدليل من القرآن الكريم والسنة المباركة ثم العقل ونحقق في الإجماع.

---

(١) الشيخ الأنصاري: كتاب الصلاة، ٣٣٨، الطبعة القديمة.

(٢) السيد أبو القاسم الخوئي: التنقيح في شرح العروة الوثقى / تقريرات: الشهيد الشيخ ميرزا علي الغروي، ٤، الناشر: دار الهادي ـ قم.

(٣) سورة البقرة: الآية، ١٩٧.

(٤) سورة النساء: الآية، ١.

أولاً: القرآن الكريم:

بعد مراجعة آيات التقية نجدها على ثلاثة أقسام:

الأول: ينقل لنا وقائع العمل بالتقية في الأمم السابقة على الإسلام.

الثاني: لا يظهر منه وجوب العمل بالتقية إلاّ بمعية الروايات المفسرة.

الثالث: الظاهر من بعض الآيات دلالتها على المطلب بنحو جلي.

وسوف نختار أولاً، آيتين صريحتين في الدلالة. ونلحقهما بالآيات التي تحتاج إلى تفسير ونوضح القسم الأول في خاتمة البحث.

آيات واضحة الدلالة:

قوله تعالى: ﴿**لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً**﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿**مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ**﴾[2].

وسبب النزول هو، قضية عمار بن ياسر وأبويه «رضوان الله تعالى عليهم» وتعذيب المشركين لهم ولجماعة من الصحابة حتى أظهر عمار الكفر أمام المشركين وكان ذلك الإظهار سبباً في نجاته.

لا، ليس في دلالة الآيتين الكريمتين على مشروعية التقية، وأنه يجوز للمسلم في حالات طارئة أن يظهر خلاف ما يعتقد بما يلائم ذلك الظرف بشرط أن يبقى على عقيدته الحقة في الباطن[3].

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٢٨.

(٢) سورة النحل: الآية، ١٠٦.

(٣) مضمون ما ذكره المفسرون لاحظ الشيخ الطبرسي: مجمع البيان/ ٦، ٣٨٧، ط المعارف الإسلامية. وابن قدامة الحنبلي: مغني المحتاج / ٨، ٢٦٢. و١٠، ٩٧، مسألة (٧١١٦)، طبعة: دار الفكر ـ بيروت.

دفع توهم:

قد يقال أن الروايتين موردهما خاص، خصوصاً الثانية فإنها نزلت في شأن عمار ابن ياسر فلا يمكن تطبيقهما في كل مورد.

ويدفع التوهم، بالتعميم إلى بقية الموارد، وذلك يتم بأحد نحوين:

١ ـ أن لا خصوصية لعمار بن ياسر، وبتنقيح المناط يتعدّى إلى الموارد الأخرى.

٢ ـ يقال: إذا جاز إظهار الكفر تقية فإنه من باب الأولى جواز غيره الذي يقل أهمية عن إظهار الكفر. أي التمسك بفحوى الخطاب.

تنبيه:

علينا أن لا نغفل أن الآيتين ناظرتان إلى الحكم التكليفي فقط ولا يمكن أن نقول بصحة العمل الذي يؤتى به تقية استناداً للآيتين بل لإثبات الصحة لا بد من الرجوع إلى الروايات الخاصة مثل قوله(عليه السلام): «التقية من ديني ودين آبائي»[1].

بتوضيح، إن العمل المأتي به تقية إذا عدّ من الدين يكشف ذلك عرفاً عن إجزاء ذلك العمل ولا حاجة إلى الإعادة أو القضاء وهذا هو معنى أن العمل صحيح وهو حكم وضعي.

آيات تحتاج إلى السنة لبيان مقاصدها:

بمراجعة الكتاب العزيز نجد مجموعة من الآيات الكريمة تدل مشروعية التقية لكن بعد تفسيرها من قبل خزان العلم وتراجمة الوحي الأئمة(عليهم السلام)، ومن هذه الآيات:

١ ـ قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾[2].

وقد رد في صحيحة هشام بن سالم عن أبي عبد الله(عليه السلام).

---

(١) الحر العاملي: وسائل االشيعة/ ١٦، ٢٠٤، ح٤، باب وجوب التقية مع الخوف إلى خروج صاحب الزمان (عليه السلام).

(٢) سورة القصص: الآية، ٥٤.

قال: «بما صبروا على التقية»[١].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾[٢].

جاء في نفس الصحيحة المتقدمة قوله(عليه السلام): «الحسنة التقية والسيئة الإذاعة»[٣].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٤].

قال أبو الحسن(عليه السلام): «أشدكم تقية». كما في صحيحة عبد الله بن حبيب[٥].

٤ ـ قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[٦].

قال(عليه السلام): «التي هي أحسن: التقية»[٧].

٥ ـ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٨].

قال(عليه السلام): «اصبروا على المصائب، وصابروهم على التقية... الخ»[٩].

ثانياً: السنة المباركة:

إن الروايات الواردة في التقية كثيرة بنحو ملحوظ، ولكننا سوف ننقل بعض الروايات التي تدل على أصل مشروعية التقية الذي هو ما نروم إثباته، وبعض آخر تدلّ على وجوب العمل بالتقية. ولا يخفى على اللبيب وجه نقل هذه الروايات.

---

(١) المصدر المتقدم: ١٦، ٢٠٣، ح١، الباب السابق.

(٢) سورة القصص: الآية، ٥٤.

(٣) الحر العاملي: المصدر المتقدم.

(٤) سورة الحجرات: الآية، ١٣.

(٥) الحر العاملي: المصدر المتقدم/ ١٦، ٢١٢، ح٣١، الباب السابق.

(٦) سورة فصلت: الآية، ٣٤. وسورة المؤمنون: الآية، ٩٦.

(٧) الحر العاملي: المصدر المتقدم، ح٢.

(٨) سورة آل عمران: الآية، ٢٠٠.

(٩) الحر العاملي: المصدر المتقدم: ح١٦.

الطائفة الأولى:

١ ـ صحيحة حريز عن أبي عبد الله(عليه السلام) قال: «التقية ترس الله بينه وبين خلقه»[١].

٢ ـ صحيحة هشام بن سالم، قال سمعت أبا عبد الله(عليه السلام) يقول: «ما عبد الله بشيء أحب إليه من الخبء، قلت: وما الخبء؟ قال: التقية»[٢].

٣ ـ صحيحة زرارة عن أبي جعفر(عليه السلام) قال: «التقية في كل ضرورة وصاحبها أعلم بها حين تنزل به»[٣].

٤ ـ صحيحة إسماعيل الجعفي ومعمر بن يحيى بن سالم ومحمد بن مسلم وزرارة قالوا: «سمعنا أبا جعفر(عليه السلام) يقول: التقية في كل شيء يضطر إليه ابن آدم فقد أحله الله»[٤].

٥ ـ رواية محمد بن مروان عن أبي عبد الله(عليه السلام) قال: «كان أبي(عليه السلام)، يقول: وأي شيء أقر لعيني من التقية، إن التقية جنّة المؤمن»[٥].

إلى غير ذلك من روايات هذه الطائفة.

الطائفة الثانية:

١ ـ صحيحة عبد الله بن أبي يعفور عن أبي عبد الله(عليه السلام) قال: «اتقوا على دينكم واحجبوه بالتقية فإنه لا إيمان لمن لا تقية له، إنما أنتم في الناس كالنّحل في الطير، لو أن الطير يعلم ما في أجواف النحل ما بقي منها شيء إلاّ أكلته، ولو أن الناس علموا ما في أجوافكم أنكم تحبونا أهل البيت لأكلوكم بألسنتهم ولنحلوكم في السر

---

(١) الحر العاملي: المصدر السابق/ ١٦، ٢٠٧، ح١٣، باب الباب السابق.

(٢) المصدر السابق: ح١٥.

(٣) المصدر السابق: ١٦، ٢١٤، ح١، باب وجوب التقية في كل ضرورة بقدرها.

(٤) المصدر السابق، ح٢.

(٥) المصدر السابق: ح٥، باب وجوب التقية مع الخوف.

والعلانية، رحم الله عبداً منكم كان على ولايتنا»[١].

وهذه الرواية تنفي الإيمان عمّن لا تقية له فتكون صريحة في الوجوب.

٢ ـ صحيحة معمر بن خلاّد قال: ـ سألت أبا الحسن(عليه السلام) عن القيام للولاة فقال: قال أبو جعفر(عليه السلام): «التقية ديني ودين آبائي ولا إيمان لمن لا تقية له»[٢].

وهي كالأولى في دلالتها، وهكذا وجه دلالة باقي الروايات الآتية.

٣ ـ صحيحة عبد الله بن أبي يعفور قال سمعت أبا عبد الله(عليه السلام) يقول: «التقية ترس المؤمن، التقية حرز المؤمن، ولا إيمان لمن لا تقية له»[٣].

٤ ـ صحيحة أبي بصير عن أبي عبد الله(عليه السلام)، قال: «لا خير فيمن لا تقية له، ولا إيمان لمن لا تقية له»[٤].

٥ ـ رواية الحسين بن خالد عن الرضا(عليه السلام) قال: «لا دين لمن لا ورع له ولا إيمان لمن لا تقية له، وإن أكرمكم عند الله أعلمكم بالتقية، فقيل له: يا ابن رسول الله إلى متى؟ قال: إلى يوم الوقت المعلوم وهو يوم خروج قائمنا، فمن ترك التقية قبل خروج قائمنا فليس منا...»[٥].

وسيأتي المزيد من أمثال ما تقدم من الأخبار تحت عنوان دليل وجوب التقية.

ثالثاً: العقل:

إن من خصائص الغرائز البشرية والضروريات التي يحكم العقل بها، حيث أن كل إنسان يرى ضرورة الدفاع عن نفسه والمحافظة على حياته، وأن التعرض لكل

---

(١) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ ٢٤، ١١٢، ح٤، باب نادر في تأويل النحل بهم (عليهم السلام).

(٢) الحر العاملي: المصدر المتقدم/ ١٦، ٢٠٤، ح٤، الباب السابق.

(٣) المصدر السابق: ح٧.

(٤) العلامة المجلسي: المصدر المتقدم/ ٧٢، ٣٩٧، ح٢٦، باب التقية والمداراة.

(٥) السيد البروجوردي: جامع أحاديث الشيعة/ ١٤، ٥٠٦.

هلكة وخطر أمر لا يرضى الوجدان الصحيح به. فالعقل يرى لزاماً على كل فرد أن يأمن جانب الضرر، سواء كان الضرر معلوم التحقق أو مظنوناً أو محتملاً، وأن لا يعرض نفسه للمهالك بل يدفع ذلك عنها بكل وسيلة يستطيع بها إخفاء الواقع والحق ليتخلص من ضرر العدو متخذاً الطرق القريبة السهلة ريثما يتم الأمن بها، والسيرة العقلائية حافلة بالشواهد العملية حيث في حالات الخوف يخفون الواقع ويظهرون الموافقة لمخالفيهم فترة من الزمن تقديماً للأهم على المهم. كما يحدثنا القرآن عن أصحاب الكهف وإبراهيم الخليل والكليم موسى والصديق يوسف(عليهم السلام) وغيرهم.

رابعاً: الإجماع:

لا خلاف بين الفقهاء بل من المتسالم عليه عندهم، أن التقية واجبة. حتى أنها عدت من ضروريات المذهب.

نعم، إن القدر المتيقن من هذا التسالم والاتفاق، أن التقية واجبة في الجملة. إذ وقع اختلاف في بعض الموارد وأنها مما تجب فيها التقية أم لا. بل حتى العامة «بناءً على مبناهم في الإجماع» يذكرون الاتفاق على مشروعية العمل بالتقية.

قال الشوكاني: «أجمع أهل العلم على أن من أكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل، أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان ولا تبين منه زوجته ولا يحكم عليه بحكم الكفر»[1].

وقال جمال الدين القاسمي الشامي: ومن هذه الآية:

﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾[2] استنبط الأئمة مشروعية التقية عند الخوف، وقد نقل الإجماع على جوازها عند ذلك الإمام مرتضى اليماني[3].

---

(١) محمد بن علي بن محمد الشوكاني: فتح القدير/ ٣، ١٩٧، الناشر: عالم الكتب.

(٢) سورة آل عمران: الآية، ٢٨.

(٣) جمال الدين القاسمي الشامي: محاسن التأويل للقاسمي/ ٤، ١٩٥. ولاحظ لذلك: واقع التقية عند المذاهب والفرق الإسلامية من غير الشيعة الإمامية: ثامر هاشم حبيب العميدي/ ٣٧.

ضوابط للعمل بالتقية:

بعد أن تعرّفنا على الأدلة الصريحة والواضحة على أن العمل بالتقية مشروع بل قد يجب، لا بد من ذكر بعض الضوابط التي لا بد من مراعاتها كما يصح العمل بالتقية.

إن التقية شرعت لدفع الضرر المتوجه إلى نفس المتقي أو عرضه أو ماله أو إلى إخوانه المؤمنين بحيث يكون ضرراً معتداً به. فلو وجد المكلف في نفسه القدرة الكافية على استخدام إحدى وسائل التخلص، وبما لا يترتب ضرر ولا حرج كما في استخدام التورية مثلاً، فهنا لا تشرع التقية بحق ذلك المكلف. وهذا المعبر عنه بالعمل بالتقية مع وجود المندوحة.

ثم أنه لا فرق في الضرر المتوجه بين أن يكون ضرراً شخصاً أو نوعياً، إذ أن التقية وسيلة وقائية لحفظ الأمور الشخصية للمكلف أو لعامة المسلمين بل قد يكون العمل بالتقية أكثر وضوحاً عندما يعود الضرر لشريحة كبيرة من المسلمين.

ولا تصدق التقية في المناسبات التي يعلم العدو مذهب الشخص وأنه من الشيعة ومن أحكامهم إسبال أيديهم في صلاتهم أو يتركون كلمة ـ آمين ـ بعد الحمد فلو أظهر الشيعي التقية أمام المخالف لما كان عمله صحيحاً لأن مشروعية التقية تثبت في ظروف يكون بإظهار خلاف الواقع مخافة على النفس فيوهم العدو حقيقة الأمر ويجاري ما يعتقدون ليختلط الحابل بالنابل. أما مع اطلاع المخالف على حقيقة الرجل المذكور فلا تصح التقية ولا تنفع ولا تفيد.

اللّهم، إلاّ أن يكون تركه للتقية موجباً لتحريك غضبهم كما لو علموا بأنه يجوّز نكاح المتعة وهو عندهم من المنكرات التي يجب عندهم شرعاً أو عقلاً أو عصبية المنع عنها فهنا لا يجوز إظهار ذلك لأنه يؤجج الضغينة.

ولما كانت التقية حكم استثنائي واضطراري فإن الضرورات تتقدّر بقدرها فلا ضرورة بحق الزيادة فمن اضطرته التقية مثلاً على ارتكاب محرم عليه أن يقتصر على مقدار وجنس ما يراد به من ذلك المحرم من دون زيادة.

وخوف الضرر سواءً كان خوفاً شخصياً أو نوعياً إذا كان خوفاً عقلائياً بحيث

كان معلوم الوقوع أو مظنوناً أو محتملاً دينياً كان أو دنيوياً يشرع فيه العمل بالتقية لأن العقل قاض بدفع الضرر في كل هذه الأقسام.

إلى هنا، تم بيان ضوابط عامة لكل موارد التقية، ولا بد من ذكر بعض الموارد التي لم يشرع فيها التقية بل قد تحرم ومن ذلك:

١ ـ التقية في الدماء:

شرعت التقية لحقن دماء المسلمين وصيانة نفوسهم كما دلت عليه فيما تقدم من الروايات وما سيأتي فلا تشرع التقية لحفظ دم مكلف مقابل جعل دم مكلف آخر مهدوراً.

٢ ـ التقية في الإفتاء والقضاء:

يحرم على المفتي والقاضي إصدار فتوىً أو حكم مخالف لما أنزل الله بذريعة التقية، بل لا بد، من الفرار من التقية بأي وجه حتى لو أدى تركها إلى قتله، فقد وصف سبحانه وتعالى من يحكم بغير ما أنزل الله تارة بالكافرين، وأخرى بالظالمين وثالثة بالفاسقين[1].

٣ ـ التقية المؤدية إلى فساد الدين أو المجتمع:

لا شك في حرمة استخدام التقية المؤدية إلى هدم الإسلام أو المجتمع أو النيل من المفاهيم والأحكام المقدسة أو محو الآثار.

وفي سماء التشيع نجوم ساطعة للتضحية وإعلان الحق في المواقف الحرجة ولنقف على ذلك فنظرة واحدة إلى كتاب شهداء الفضيلة تكفي دليلاً على ما نقول.

أقسام التقية:

تقدم في معنى التقية أنها تارة: تكون في الأفعال، وأخرى: في الأقوال.

أما التقية في الأفعال: فمن أمثلتها، التكفير أثناء الصلاة، وترك نكاح المتعة، وأن هذه التقية تجب على الإنسان في موارد ابتلائه بها دفعاً للضرر وخشية على نفسه

---

(١) راجع ولاحظ لذلك سورة المائدة: الآيات: ٤٤ و٥٠ و٥٢.

وعرضه أو جماعته أو أهل بلده... الخ وكذا تلحقها الأحكام الباقية كما سيأتي.

وأما التقية في الأقوال: فمن أمثلتها، التأمين بعد الحمد في الصلاة، أو إظهار كلمة الكفر، وغيرهما، وهذه تجب كما ذكرنا في القسم الأول.

وهناك تقية أخرى في ألأقوال وهي، الأحكام التي ترد على خلاف الواقع بلسان الأئمة(عليهم السلام) حينما ينضم إلى مجلس المذاكرة والسؤال من شخص لا يأمن الضرر منه فهنا الإمام(عليه السلام) يبين خلاف الحقيقة ويرسل الحكم على طبق ما يذهب إليه العدو. على هذا، لا بد من التثبت في تلك الأخبار، وهذا التثبت يسمى بـ(معرفة جهة الصدور)، ومفاده، إن كل فرد إذا أراد أن يأخذ معالم دينه من الأخبار الصادرة عنهم(عليهم السلام) لا بد وأن يحرز هذه الجهة أي أن الحكم إنما جاء من الإمام(عليه السلام) لبيان الواقع لا لأجل التقية أو غيرها من الجهات كالامتحان. فما عُلم أن حكمه(عليه السلام) كان تقية وأنه أورد لا لبيان الواقع فالعمل به غير جائز.

وأما لو احتمل المكلف أن كلامه(عليه السلام) صدر لجهة التقية فلا بد من الرجوع إلى جملة من الأسس والقواعد المستفادة من كلمات أهل البيت(عليهم السلام) في تمييز الأخبار ونقدها ومعرفة ما صدر منها تقية أم بنحو الإرادة الجدية.

ومن الأسس شذوذ الخبر وعدم شهرته أو موافقة العامة أو الاعتقاد بدليل آخر، ولمعرفة تفاصيل ذلك يلاحظ بحث التعادل والترجيح في الكتب الأصولية.

تتميم:

لو احتمل المكلف أن الحكم الصادر من الإمام(عليه السلام) كان لجهة التقية فأجرى الأصول العقلائية كأصالة عدم التقية وعمل على طبق مفاد ذلك الخبر ثم بعد مدة انكشف له الخلاف وظهر أن ما جاء به الإمام(عليه السلام) كان على خلاف الواقع فهل يكون ذلك الحكم في حق المكلف حكماً واقعياً ثانوياً أو ظاهرياً كسائر الأحكام الظاهرية؟

الظاهر هو الثاني، فإن استناد المكلف إلى نفي التقية إنما كان بناءاً على أصالة الظهور والحقيقة وهي أصول مجعولة في موارد الشك من دون أن يكون لها نظر إلى

الواقع فإذا انكشف الخلاف بعد ذلك وأنها لم تطابق الواقع فمن قال بالإجزاء في الأحكام الظاهرية عن الواقعية قال بعدم إعادة العمل هنا. أما من ذهب إلى عدم الإجزاء كما هو رأينا فلا مناص من الإعادة.

أما قصة علي بن يقطين حينما وشوا عليه عند الرشيد فأخذ الرشيد يتتبع أفعاله في الخلوات وما يسبغه من الوضوء على مذهب الشيعة أم السنة فكتب الإمام(عليه السلام) حين ذاك كتاباً إلى علي بن يقطين يأمره بالتقية بالإضافة إلى الوضوء وعلى هذا الإشعار أخذ علي بن يقطين يسبغ وضوءه، على طبق مذهب السنة إلى أن اطلع عليه الرشيد ذات يوم بنحو خفي. عند ذلك كتب الإمام(عليه السلام) إليه: «ابتدأ من الآن يا علي بن يقطين وتوضأ كما أمرك الله.. فقد زال ما كنا نخاف منه عليك والسلام»[1].

إن هذه التقية التي أمر بها علي بن يقطين ليست تقية في الأقوال باعتبار أن الإمام(عليه السلام) أمر بها، بل هي تقية في الأفعال، وأن الإمام(عليه السلام) لما رأى علي بن يقطين ووضع الرقابة عليه عرف إن فعله ينبغي أن يكون تقية نظراً إلى الخطورة التي ستلحقه بالتقية من باب الكشف عن حاله ومجارات فعله لعمل أولئك، وإذا كان الأمر من باب التقية في الأفعال فالنزاع في وجوب الإعادة لا يأتي فيه لأنه موضوع ثانٍ أو أن الرواية ليست بصدد البيان من تلك الجهة.

أحكام التقية:

البحث عن أحكام التقية يقع في مقامات أربعة، كما ذكر ذلك الشيخ الأنصاري(رحمه الله)[2]:

الأول: في الحكم التكليفي.

وثلاث: في أحكامها الوضعية.

المقام الأول: من حيث حكمها التكليفي وأنها جائزة أو لا؟

---

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ ١، ٤٤٥، ح٣، باب جواز الوضوء ثلاثاً ثلاثاً للتقية.

(٢) الشيخ الأنصاري: رسالة في التقية/ آخر الطبعة الحجرية.

المقام الثاني: في حكمها الوضعي من حيث أنها مبطلة للعمل أم لا؟ بمعنى، أن ذلك الفعل أو القول كالتكتف والتأمين الذي يؤتى به في مورد التقية أو الترك الذي يحصل في أثناء العمل وكان الفعل أو الترك قبل الحاجة إلى التقية موجباً لبطلان العمل لو أتى به المكلف مما كان شرطاً أو مانعاً فهل تركه أو إتيانه في مورد التقية موجب لبطلان العمل أيضاً كما كان يوجبه قبل الابتلاء أو يختص بطلانه في غير موارد التقية، وأما فيها فلا؟

المقام الثالث: في حكمها الوضعي من حيث الإعادة والقضاء، وإن ذلك العمل المأتي به تقية. فالفاقد لجزء أو الواجد لمانع هل تجب إعادته بعد ارتفاع وزوال العذر أو لا يجب وأن العمل منجز وصحيح؟

المقام الرابع: في حكمها من حيث الصحة والفساد من غير هذه الجهة بل من جهة أخرى لا تعود إلى الإعادة والقضاء وذلك، كما لو طلق ولم يكن في المجلس شهود وكان طلاقه تقية أو عقد بصيغة لم تعترف بها الإمامية، ولم ترتب آثار الصحة عليها فهل يكون ذلك صحيحاً أو لا؟

وهذه المقامات الثلاثة التي تعود إلى الحكم الوضعي يلازم بعضها بعضاً أو مترتبة.

فالجهة الأولى منها، وهي صحة العمل وبطلانه في حال التقية لو تمت وظهر أن العمل باطل انكشف أمر المقام الثاني، وأن الإعادة واجبة وكذا ينكشف حال الثالث، فيقال بالفساد بالنسبة إلى الآثار الأخرى وبالعكس لو قيل بالصحة.

فكان الأحرى بالشيخ الأنصاري(رحمه الله) أن يجعل البحث واقعاً في مقامين:

الأول: في الحكم التكليفي.

الثاني: في الحكم الوضعي. من حيث الصحة والبطلان، وطبيعي أن الآثار الأخرى والمباحث التي أفرد لها مقام خاص كلها تترتب على ذلك، وعلى أي حال:

المقام الأول: وهو البحث عن التقية من حيث حكمها التكليفي. فقد ادعى

الشيخ الأنصاري(رحمه الله)[١] أنها قابلة للاتصاف بالأحكام الخمسة من «الوجوب والحرمة والكراهة والاستحباب والإباحة» جرياً على ما جاء به الشهيد الأول(رحمه الله) وغيره ممن كتب في التقية مما ارتكز في أذهانهم من أن الشيء بحسب ذاته وطبعه الأولي قابل لأن يتصف بأحد الأحكام الخمسة، أو باعتبار العناوين الثانوية اللاحقة له.

وقد مثل للواجب، بما لو كان ترك التقية موجباً لترتب الضرر على نفسه أو ماله أو عرضه بحيث لا يأمن من العدو لو لم يفعل ذلك ولا ريب أنها تصير واجبة على المكلف.

ومثّل للمحرم منها، بما إذا كان فعل التقية موجباً لترتب الضرر على إخوانه أو أهل بيته أو أهل بلدته مما يكون ذا نفسٍ محترمة. فإن تركه للتقية في هذه الموارد من اللوازم الحتمية باعتبار أن تشريع التقية في قانون الإسلام إنما كان لغرض المحافظة على النفس والمال وعدم هدرهما من دون فرق بين أن يكون نفسه أو نفس غيره مما يجب احترامها. فلو أراد الشخص أن يأتي بها في المقام للزم هدر دم رفيقه وإتلاف شخصه عن عالم الوجود وهذا منافٍ للغرض المذكور.

نعم، لو كان تركه لها موجباً لترتب الضرر على نفسه كما أن اتيانه لها مما فيه ضرر على غيره لكان من موارد تعارض الضررين ولا بد من لحاظ القواعد المسلّمة هناك[٢].

أما بقية الأحكام الخمسة فأمثلتها ضعيفة:

فالمستحب مثل له، بما إذا كان الضرر من ترك التقية لا يلحقه فعلاً وإنما يعقبه بعد مدة إما ضرر بنفسه أو ماله أو غيرهما. ففي هذه الصورة يستحب له أن يتقي دفعاً للضرر اللاحق له ولو لم يكن فعلاً.

ولكن الإنصاف خلافه، إذ التقية بعد أن كانت لدفع الضرر عن النفس فلا

---

(١) الشيخ الأنصاري: رسالة في التقية.

(٢) هناك قاعدى فقهية لا خلاف في صحتها وهي، ارتكاب أخف الضررين لدفع أعظمها. لاحظ لذلك الشيخ محمد سرور الواعظ: مصباح الأصول/ ٢، ٥٦٢ في التنبيه السابع في (قاعدة لا ضرر) المسألة الأولى، تقريرات: آية الله العظمى السيد أبو القاسم الخوئي.. وانظر الغزالي: المستصفى/ ١، ٨٩.

يفرق الحال فيها بين الضرر الفعلي، أو ما يأتي بعد ذلك إذ لا فرق بين العاجل والآجل فإن جميعه ضرر يجب التوقي عنه. وعليه فلا تقية مستحبة بل هي واجبة بحسب المثال.

والمكروه مثل له، بما إذا كان ترك التقية وتحمل الضرر أولى من فعلها فإن عدمها حينئذٍ يكون أرجح من فعلها.

والمباح منها، ما لو كان التحرز عن الضرر وتحمله متساوياً له في نظر الشارع، فلا ضرر يلحقه لو ترك التقية كما لا ضرر لو فعلها، وقد مثل لذلك بإظهار كلمة الكفر وجعل الخبر دالاً عليه ولم يصرح إلاّ بشيء منه ولكن المرحوم المامغاني(رحمه الله) قال: ويحتمل قوياً أن الرواية هي المعروفة.

«قال قلت لأبي جعفر(عليه السلام) رجلان من أهل الكوفة أخذا فقيل لهما: ابرءا من أمير المؤمنين(عليه السلام) فبرىء واحد منهما وأبى الآخر فخلي سبيل الذي برىء وقتل الآخر. فقال: أما الذي برىء فرجل فقيه في دينه، وأما الذي لم يبرأ فرجل تعجل إلى الجنة»[1].

ووجه الدلالة على الإباحة، أن الإمام(عليه السلام) ساوى بين من أظهر التقية وبين من لم يتق، وهذا معنى الإباحة إذ لو كانت التقية واجبة أو راجحة أو مرجوحة لما جازت المساواة.

مناقشة دلالة رواية البراءة على إباحة التقية:

المستفاد من الرواية، أن التسوية بين من تبرأ ومن لم يتبرأ كان لأحد أمرين:

أحدهما: باعتبار أنهما معذوران. فإن هناك رواية أخرى وردت عنه(عليه السلام) تقول: «أما أنه سيظهر عليكم بعدي رجل رحب البلعوم مندحق البطن إلى أن يقول، وإنه سيأمركم بسبي والبراءة مني فأما السب فسبوني فإنه لي زكاة ولكم نجاة، وأما البراءة فلا تتبرأوا مني فإني ولدت على الفطرة وسبقت إلى الإيمان والهجرة»[2].

---

(١) الحر العاملي: المصدر المتقدم/ ١٦، ٢٢٦، ح٤، باب جواز التقية في إظهار كلمة الكفر.

(٢) المصدر المتقدم: ١٦، ٢٢٨، ح١٠، الباب السابق.

فالرواية تدل، على أن البراءة غير مشروعة حتى في مورد التقية، فكأن ذلك الرجل الذي تبرأ قد اجتهد بحسب رأيه ورأى أن الرواية المذكورة معارضة برواية أخرى دلت على الجواز فطرح كليهما. أو أنه لم تصل إليه رواية المنع والتحريم فقدم حفظ نفسه على البراءة فتبرأ من الولاية اعتماداً على ذلك فكان فقيهاً بحسب رأيه معذوراً في عمله بينما الرجل الآخر الذي قتل رأى عدم البراءة أهم من نفسه أو اطلع على دليل المنع فقاوم نفسه ولم يتبرأ لذا عجل بروحه إلى الجنة لمعذوريته وأين هذا من الدلالة على الإباحة.

ثانيهما: إن الذي تبرأ ولم يقتل قد اجتهد في رأيه كما عرفته في السابق. وأما الثاني، فقد رأى أن حفظ النفس متأخر عن مورد البراءة ولكنه مع ذلك لم يتبرأ كما فعل الكثير من أصحاب الحسين(عليه السلام) وقدموا أنفسهم للموت حجة له، وبهذه الجهة أعذر الإمام(عليه السلام)، الأول فقال له فقيه، وأما الثاني، فحيث قدم نفسه قال الإمام(عليه السلام)، في حقه أنه تعجل بروحه إلى الجنة وكلا الوجهين لا يدلان على البراءة وعدمها في هذا المورد من موارد الإباحة فجهة التسوية كان لأمرٍ آخر كما عرفت.

إن الأمثلة التي جاء بها الشيخ(رحمه الله) وجعلها ضابطاً للحرمة والوجوب والكراهة وبقية الأحكام كانت غير جامعة ومانعة بالإضافة إلى مواردها.

ضوابط لاتصاف التقية بالأحكام الخمسة:

بإمكاننا أن نجعل ضوابط موجزة ومختصرة لكل من الأحكام الخمسة. لا يشذ عنها مورد ولا يتأخر عنها مقام، واعتقد أن ما نذكره الآن غير مضافٍ لما قلناه في أوائل البحث من أن التقية من حيث أدلتها تلازم الوجوب والإلزام فإن ذلك كان من حيث دليلها بالعنوان الأولي، أما هذا التقسيم فكان بالإضافة إلى مواردها وما يلحقها من عناوين ثانوية، لذا صح اتصافها بالأحكام الخمسة.

ضابطة الواجب:

فنقول: إن التقية إما لدفع ضرر أو جلب منفعة، وكلا الأمرين قابل للاتصاف بالشدة والضعف، فالضرر الشديد الذي لا يتحمل عادة بحسب شأن الرجل وحاله

مما يلزم عليه دفعه، وكذا النفع الكثير العام لأهل نحلته لو فرض توقف حصوله على إعمال التقية فإن في كلا الموردين مما تلزم فيها التقية وتصير واجبة. ويمكن إرجاع جلب المنفعة إلى دفع الضرر. فإن الحرمان من المنفعة يعد في النظر العرفي ضرراً، هكذا قاله شيخنا الأستاذ(دام ظله)[1].

ضابطة المستحب والمباح:

أما لو كان الضرر اللاحق للإنسان أو النفع الذي يترتب على فعله ليس بالمرتبة الشديدة بل كان أقل من تلك المرتبة من دون فرق بين عاجله وآجله فإن ذلك مستحب وليس بواجب، وأما لو تساوى الأمران وكان كل من لحوق الضرر أو جلب المنفعة وعدمها سيان بالإضافة إلى الشخص على نحو لا يضر بحاله لو أقدم على تحمل الضرر فلا ريب أن التقية حينئذٍ تكون مباحة.

ضابطة الحرام والمكروه:

وأما ضابطة الحرام والمكروه منها فذلك كما لو تخيل الرجل أن بأعماله التقية في المقام كثير خيرٍ للإسلام يدفع عن المسلمين أنواع الضرر ويجلب لهم المنافع والفوائد وظن أن جميع ذلك يتم لو اقتدى بإمامهم وصلّى في مسجدهم وتابعهم في عملهم، ولكن الحقيقة والواقع كان على عكس ما تخيّله فإن الإهانة التي تحصل من جراء عمله على شخصه أو صنفه أو نوعه لا تتحمل عادة لا سيما لو كان قدوة لدى علماء الشيعة فإن إعماله للتقية حينئذٍ يكون من المحرمات الشديدة. أما المكروه، فالمورد الذي يتأتى منه هذا المعنى لا بصورته الواسعة.

وبناءاً على ما تقدم، يمكن أن يدعى قابلية التقية للاتصاف بالأحكام الخمسة.

حكومة أدلة التقية عند الشيخ الأنصاري(رحمه الله):

إن الشيخ(رحمه الله)[2] بعد أن ذكر التقسيم فرّع أمراً جاء فيه:

---

(١) شيخنا الأستاذ آية الله العظمى الشيخ حسين الحلي (قدس سره).

(٢) الشيخ الأنصاري: المصدر المتقدم.

إن التقية حاكمة على دليل الواجبات والمحرمات. وقد فصل فيه بين الواجب من التقية فادعى حكومته على تلك الأدلة التي تكفلت بيان الجزئية والشرطية والمانعية، وأما المستحب منها، فليس له حكومة على تلك الأدلة إنما اللازم هو الاقتصار على مواردها التي دل الدليل عليه كما ثبت في تشييع جنائزهم وعيادة مرضاهم والصلاة في مساجدهم[1] فترفع اليد عن دليل الواجب أو المحرّم للنص وأما ما عداه فلا.

وينبغي لنا، ملاحظة التقية وهل أنها تقتضي دوماً ترك واجب أو فعل محرم أو تقتضي بالإضافة إلى ذلك ترك ما هو مستحب أو فعل مكروه؟

الظاهر عندنا الثاني، فإن التقية ربما تستلزم ترك ما هو مستحب في الشريعة الإسلامية أو تقتضي فعل ما هو مكروه وغير محبوب الفعل فيها كما لو فرضنا أنها استلزمت ترك القنوت الذي لم تقل به العامة فإن ذلك من موارد ترك المستحب.

ولكن الأمر في هذين سهل، أي في ترك المستحب أو فعل المكروه لو اقتضى ذلك التقية إذ دليل كل منهما الذي أفاد استحبابه وكراهته قد دلّ على الترخيص في ترك المستحب وفعل المكروه بالدلالة الالتزامية فكأن نفس الدليل أفاد جواز الترك أو الفعل فلو اقتضى الأمر في مورد تركه أو فعله تقيةً وإن بلغ مرتبة الضرورة فأدلة التقية غير محتاج إليها بل يكتفى بنفس دليل ذلك المستحب والمكروه.

أدلة تقدم التقية على الأدلة الأولية للتكاليف:

إن الواجب من التقية الذي يبيح ترك الواجب ويسوغ فعل المحرم فقد استدل الشيخ الأنصاري (رحمه الله)[2] على حكومته على الأدلة الأولية بأدلة ثلاثة:

---

(١) الحر العاملي: المصدر المتقدم/ ٨، ٤٣٠، ح١، باب استحباب الأذان للعامة والصلاة بهم وعيادة مرضاهم...

(٢) الشيخ الأنصاري: المصدر المتقدم.

١ ـ حديث رفع الضرر.

٢ ـ حديث الاضطرار.

٣ ـ العمومات الواردة في التقية.

أما الدليل الأول: حديث رفع الضرر[١]:

فالاستدلال فيه واضح، بعد أن كان الضرر لاحقاً للإنسان لو فعل ذلك الجزء أو ترك ما هو محرم، ولا ترتفع الخطورة عن الشخص إلاّ بترك الأول وإعمال الثاني، فحديث لا ضرر يشمله ويرفع حكمه من ناحية إلزام الإتيان بذلك الجزء أو النهي عن ذلك الفعل فلا محالة يتقدم على دليل الواجب والحرام بناءاً على شمول لا ضرر للمحرمات أيضاً على ما هو مذكور في محله[٢].

الدليل الثاني: وهو حديث الاضطرار[٣].

فلعل الأمر فيه أوضح إذ بعد أن كان الإنسان مضطراً لفعل المحرم كشرب النبيذ. أو لترك الواجب كترك السورة ولا يستطيع الفرار من العدو إلاّ باتخاذ هذه العملية من التقية فحديث الرفع آتٍ في حقه وموجب لرفع المؤاخذة والتكليف عنه.

الدليل الثالث: عمومات التقية:

لا بد وأن نذكر جملة منها لمسيس الحاجة إليها:

منها ما ورد: «أن التقية ديني ودين آبائي ولا إيمان لمن لا تقية له»[٤].

---

(١) توجد روايات كثيرة بلسان رفع الضرر أدعى الشيخ النراقي(ﰋ) في المستند ٢، ٣٨٥ تواترها. ويرى الشيخ الأنصاري(ﰋ) في رسائله أن الرواية المتضمنة لقصة سمرة بن جندب مع الأنصاري هي أصح ما في الباب سنداً وأوضح دلالة.

(٢) الشيخ محمد سرور الواعظ: مصباح الأصول/ ٢، ٥٣٣، قاعدة لا ضرر، التنبيه الأول، تقريرات: آية الله العظمى السيد أبو القاسم الخوئي.

(٣) روي عن النبي(ﷺ) رفع عن أمتي تسعة أشياء الخطأ والنسيان... وما اضطروا إليه.. الخبر ـ وسائل الشيعة، ج١٥، ص٦٥ من أبواب جهاد النفس.

(٤) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ ١٦، ٢١٠، ح٢٤، باب وجوب التقية مع الخوف...

منها: «إن تسعة أعشار الدين في التقية ولا دين لمن لا تقية له»[١].

ومنها: «التقية ترس المؤمن والتقية حرز المؤمن ولا إيمان لمن لا تقية له»[٢].

ومنها: عن أبي عبد الله (عليه السلام): «كان أبي يقول وأي شيء أقرّ لعيني من التقية إن التقية جنّة المؤمن»[٣].

ومنها: عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: «اتقوا على دينكم واحجبوه بالتقية فإنه لا إيمان لمن لا تقية له إنما أنتم في الناس كالنحل في الطير ولو أن الطير يعلم ما في أجواف النحل ما بقي منها شيء إلاّ أكلته ولو أن الناس علموا ما في أجوافكم إنكم تحبونا أهل البيت لأكلوكم بألسنتهم ولنحلوكم في السر والعلانية رحم الله عبداً منكم كان على ولايتنا»[٤].

ومنها ما ورد: «التقية ترس الله بينه وبين خلقه»[٥].

ومنها: «التقية دين الله عزَّ وجلَّ، قلت: من دين الله؟ فقال: أي والله من دين الله لقد قال يوسف أيتها العير إنكم لسارقون والله ما كانوا سرقوا شيئاً»[٦].

ومنها ما ورد إنه: «لا دين لمن لا تقية له ولا إيمان لمن لا ورع له»[٧].

ومنها: ما ورد أنه قال أبو عبد الله (عليه السلام): «يا معلى: اكتم أمرنا ولا تدعه فإنه من كتم أمرنا ولا يذيعه أعزه الله في الدنيا وجعله نوراً بين عينيه يقوده إلى الجنة. يا معلى: إن التقية ديني ودين آبائي ولا دين لمن لا تقية له. يا معلى: إن الله يحب أن يعبد في

---

(١) المصدر المتقدم: ح٣.

(٢) المصدر السابق: ح٧.

(٣) المصدر السابق: ح٥.

(٤) المصدر السابق: ح٨.

(٥) المصدر السابق: ح١٣.

(٦) المصدر السابق: ح١٩.

(٧) المصدر السابق: ح٢٣.

السر كما يحب أن يعبد في العلانية، والمذيع لأمرنا كالجاحد له»[١].

ومنها: عن الرضا(عليه السلام) قال: «لا دين لمن لا ورع له ولا إيمان لمن لا تقية له وإن أكرمكم عند الله أعملكم بالتقية. قيل يا ابن رسول الله: إلى متى؟ قال: إلى قيام القائم(عجل الله فرجه) فمن ترك التقية قبل خروجح قائمنا فليس منا»[٢].

ومنها ما ورد أنه: «لا خير فيمن لا تقية له ولا إيمان لمن لا تقية له»[٣].

وغير ذلك مما ورد في تفاسير بعض الآيات التي فيها شيء من العمومات[٤].

وقد ذكر الشيخ الأنصاري(رحمه الله) رواية استشهد فيها على التوسعة وهي موثقة سماعة «عن الرجل يصلي فدخل الإمام، وقد صلّى الرجل ركعة من صلاة فريضة؟ قال: إن كان إماماً عادلاً فليصل أخرى وينصرف ويجعلها تطوعاً، وليدخل مع الإمام في صلاته كما هو، وإن لم يكن إمام عدل فليبن على صلاته كما هي ويصلي ركعة أخرى ويجلس قدر ما يقول(أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله) ثم يتم صلاته معه على ما استطاع فإن التقية واسعة وليس شيء منها إلاّ وصاحبها مأجور عليها إن شاء الله»[٥].

فإن المراد بالتوسعة حتى في المورد الذي لا يستلزم ترك واجب أو فعل محرم وإلاّ فأي وجه للتقية هنا إلاّ باعتبار إظهار صورة العمل الموافق لهم، وهو ليس كذلك في الواقع فيكون حينئذٍ من قبيل التورية فراراً عن الكذب.

ولكن العلاّمة المامغاني(رحمه الله) اعتذر عن الوقوف على هذا الخبر بالرغم من أن الشيخ يذكر الرواية في الصفحة الأولى من رسالته وقد ذكر في حاشيته جملة من

---

(١) المصدر السابق: ح٢٤.

(٢) المصدر السابق: ح٢٦.

(٣) المصدر السابق: ح٣٠.

(٤) تقدم ذكر بعضها في الدليل القرآني الثاني على أصل مشروعية التقية.

(٥) الشيخ الأنصاري: رسائل فقهية/ ٩٢، تحقيق: لجنة تحقيق تراث الشيخ الأعظم.

الأخبار قريبة من هذه الرواية دلت على التوسعة والعموم.

منها: ما صنعتم من شيء أو حلفتم عليه في يمين في تقية فأنتم فيه في سعة[١].

ومنها: عن الصادق(عليه السلام) قال: «... واستعمال التقية في دار التقية واجب ولا حنث ولا كفارة على من حلف تقية يدفع بذلك ظلماً عن نفسه»[٢].

ومنها: «إذا حلف الرجل تقية لم يضره إذا هو أكره أو اضطر إليه. وقال: ليس شيء مما حرم الله إلاّ وقد أحله لمن اضطر إليه»[٣].

ومنها: «لا دين لمن لا تقية له والتقية في كل شيء إلاّ في النبيذ والمسح على الخفين»[٤].

وغيرها من الأخبار. ويمكن مراجعة كتب الحديث الشريف للاطلاع على المزيد منها.

وقد ادعى الشيخ الأنصاري(رحمه الله)[٥] أن العمومات تشمل الواجب من التقية دون المستحب ويكون المستحب من التقية غير مشمول لواحد من هذه الثلاثة «حديث لا ضرر، وحديث الاضطرار، والعمومات». وإنما المستحب يبقى تحت رحمة النص فأين ثبت في مورد دليل بالخصوص يؤخذ به كما ورد في تشييع جنائزهم، وعيادة مرضاهم، والصلاة في مساجدهم. فيقدم على دليل الواجبات والمحرمات وما لم يرد فيه ذلك لا يصير مقدماً على دليل الواجب.

مناقشة الشيخ الأنصاري:

إن عمومات التقية التي مرت عليك بكثرتها وما تبقى منها لو تصفحتها وتمعنت

---

(١) الشيخ هادي النجفي: موسوعة أحاديث أهل البيت (عليهم السلام)/ ١٢، ٣٤٦، دار إحياء التراث العربي.

(٢) الحر العاملي: المصدر المتقدم/ ١٦، ٢١٠، ح٢٢، الباب السابق.

(٣) المصدر المتقدم: ٢٣، ٢٢٨، ح١٨، باب جواز الحلف باليمين الكاذبة للتقية...

(٤) المصدر السابق: ١٦، ٢١٥، ح٣، باب وجوب التقية في كل ضرورة...

(٥) الشيخ الأنصاري: رسالة في التقية/ ضمن الطبعة الحجرية.

النظر فيها ولاحظت فقراتها واحدة بعد واحدة لوجدت قسماً منها مختصاً بالواجب، وقسماً بالمستحب من التقية، والقسم الآخر فيه عموم لبقية الأحكام. إلاّ أن هناك قرينة صرفت شمول تلك العمومات عن التقية المحرمة والمكروهة بل والمباحة.

أما تلك القرينة فهي، الحث الكثير على كتمان الحق عند عدم الأمن من الضرر وسلب الإيمان وصفة التورع عمن تركها في مواردها وهذا لا يناسب ما لو كان تركها لازماً أو راجحاً أو متساوي الطرفين فإن الحث ينبغي أن يكون على الترك حينئذٍ.

ولدى النتيجة ظهر، أن التقية لا تكون إلاّ واجبة أو مستحبة. إما لانصراف الأدلة عن التقية المحرمة والمكروهة والمباحة، أو لاختصاصها بهما، ومهما بلغ الحال، فإن معنى شمول روايات التقية التي هي عمدة الأدلة للواجب أو المستحب ليس للقدر الجامع من الطلب فإنه ممنوع كما عرفته في أوائل بحث الأوامر. بل المراد من ذلك الدلالة على أصل مشروعيتها، وأن كلاً من التقية الواجبة والمستحبة مشروعة وجائزة، وإذا ثبت هذا المعنى، فلماذا لا يكون دليل الواجب ودليل المستحب من التقية حاكماً على دليل الواجبات والمحرمات بعد أن كان كل منهما ثابتاً له المشروعية بالعمومات المذكورة؟ وليس ببعيد أن يراد من الحكومة في المقام غير ما تردد على الألسنة من غير الشارحة أو الرافعة للموضوع تعبداً وغير ذلك مما ارتكز لدى الأذهان، بل المقصود منها حكومة الأدلة الثانوية على الأدلة الأولية. مثلاً، الماء بحسب عنوانه الأولي مباح الشرب وسائغ في كل مورد، ولكن بعنوان أنه مضطر إليه أو أمر به الطبيب أو ما شاكل ذلك من العناوين الثانوية يكون لازماً أو واجباً وتزول إباحته في ظرف طرؤ العنوان الأخير عليه. ولا بد، وأن يكون الموضوع نفسه حاصلاً عندما يعرض العنوان الثانوي من دون تبدل وتغير، وليس بثمة منافاة بين الدليلين بأحدهما تعرض للشيء من حيث ذاته وعنوانه الابتدائي بينما الثاني تعرض لذلك الشيء باعتبار عنوان آخر غير الأولي، فإن الشيء ربما يكون محكوماً بجملة من الأحكام باعتبار عناوين متعددة ولا منافاة في ذلك في وجه حكومة أدلة التقية على الأدلة الأولية.

إذا اتضح لك تفسير الحكومة بهذا المعنى، فالثابت منها في تمام حكومة الثانوية على الأولية إما أن يكون العنوان الأولي بحسب حكمه لازماً ويكون الثاني أيضاً لازماً بنحو المعاكسة. كما في شرب الخمر لو اضطر إليه فيكون واجباً، أو ترك السورة في الصلاة لو اضطر إليه فيكون الفعل محرماً. فلا ريب في تقديم ما هو معنون بالعنوان الثانوي على الأولي، وإما أن يكون العنوان الأولي بحسب حكمه مباحاً ويكون الثاني مثله غير لازم أو لازم كما لو صام نافلة والتمسه صديقه على طعام فإن إجابة الصديق مستحبة وترك الصيام بعنوان إجابة الصديق أكثر استحباباً. لذا يقدم على الأولي، وأما فرض التعاكس وأن الشيء بعنوانه الأولي واجب وبعنوانه الثانوي مباح أو مستحب فليس من موارد الحكومة كما لو كان الرجل صائماً في شهر رمضان والتمسه صديقه على الطعام في الأثناء فإن الإفطار لا يقدم على الإمساك. بدعوى أنه عنوان ثانوي. إذ ليس لهذا العنوان الثانوي قوة الغلبة والتقدم على الأول فلا يكون من موارد الحكومة أصلاً.

ومن هنا يتضح حال ما نحن فيه، فإن الواجب من التقية إنما يقدم على أدلة الواجبات والمحرمات لكونه عنواناً ثانوياً مقدماً على ما هو بعنوانه الأولي وكلاهما لا يتعارضان ولكن لا يجتمعان في الثاني شيء من الغلبة لذا يتبع.

وأما المستحب من التقية، فليس فيه قوة وغلبة تستوجب تقديمه على أدلة الواجبات والمحرمات كالتماس الصديق لصديقه بالأكل في شهر رمضان، ولما فشلت ناحية التقديم صار العمل بالتقية بنحو الاستحباب تحت رحمة النص والأدلة الخاصة، ومن هذه الجهة، كانت التقية المستحبة غير حاكمة على أدلة الواجبات والمحرمات فالبرغم من أن العمومات الواردة في التقية تفيد أصل مشروعيتها كما في الواجب منها في عموم اعتماده على عمومات التقية، في التقية المستحبة فصح التفصيل الذي ذكر (رحمه الله) بين الواجب والمستحب.

ويرد ما جاء به الشيخ (رحمه الله) بما حاصله:

إن حكومة العناوين الثانوية على الأولية إنما تتم وتوجب رفع المشروعية الأولى

في مورد يكون الدليل على الإلزام والاستحباب مستقلاً. فيكون الدليل الثاني الدال على الإلزام مثلاً بالعنوان الثانوي مقدماً على دليل ذلك الشيء بحسب عنوانه الأولي. وأما في المقام، فليس دليل التقية الواجبة دليلاً مستقلاً ليفرق بين الواجب منها دون المستحب ويلتزم بحكم الأول دون الثاني بل الدليل واحد دلّ على أصل المشروعية في كل من الواجب والمستحب، والمورد كان للوجوب دون الاستحباب، وليس للمورد قابلية التقديم والحكومة على العناوين الأولية، وإنما الحكومة بين الأدلة، وهذا واضح، ولا بد من تفسير الحكومة بمعنى آخر.

هل يصح العمل مع مخالفة التقية:

إن التقية في الحقيقة تشريع جديد وشبيه بالنسخ المؤقت ينتهي أمده إذا ارتفع الابتلاء عن الشخص وعادت الحالة الاختيارية له وهو لا يتلاءم مع التشريع الأولي ولا يجتمع معه وهو حكم واقعي ثانوي يوجب إعدام الأول. ففي الظرف الذي لا يرتفع ضرر الإنسان إلاّ بالمسح على الخفين لا يثبت في حقه المسح على البشرة أصلاً بل حكمه الواقعي هو المسح على الخفين، وهذا أشبه بالقوانين المجعولة للأجانب عندما يدخلون مملكة أجنبية فإنه، وإن كان خاضعاً لقوانين مملكته إلاّ أن دخوله في هذه المملكة يحتم عليه العمل بما تفرضه المملكة الأجنبية عليه من دون نظر إلى قوانين بلاده، إذن، هو أقرب للنسخ وأنه قانون جديد لا يتلاءم مع الأول. نظير ما ورد في قاعدة الإلزام في جعل ما يعتقده المخالفون حكماً واقعياً في حقهم وفي حقنا نعمل به، وإن كنا نعتقد بطلانه كما لو مات الرجل وخلف بنتاً ليست بإمامية وأخاً مذهبه «المذهب الإمامي» وقد قضت المذاهب الأخرى بإعطاء النصف للبنت والباقي للعصبة من أخ الميت أو عمه إن عُدم الأخ، بينما القانون الإمامي يقضي بإعطاء جميع التركة للبنت على سبيل الفرض والرد فهذا الآخ الذي ينال نصف التركة كان أكله للمال سائغاً بمقتضى قاعدة الإلزام إلاّ أن المستفاد منها ليس أن المال مع كونه باطلاً يصح له ظاهراً أكله والتصرف به بل أن المال واقعاً صحيح وتثبت ملكيته له بمقتضى القاعدة، وبديهي أن واقع هذا الأمر ثانوي لا أولي.

وكذا لو طلقت المرأة على مذهبهم من غير شهود وأراد الشيعي تزويجها فإن قاعدة الإلزام تقضي بجواز ذلك لكن لا على أنها تبيح نساء الغير وتفيد أن المرأة مع كونها امرأة الغير يجوز تزويجها فإنه بعيد عن الذوق الفقهي بل قاعدة الإلزام تفيد أنها خلية واقعاً وليس لها زوج أصلاً فيجوز حينئذٍ تزويجها.

والتقية من هذا القبيل لا تفيد أدلتها أن العمل غير الصحيح الفاقد للمسح على البشرة الباطل عند الإمامية مكلف به ظاهراً نظراً للابتلاء وأنه صحيح ما دام الخوف موجوداً بل إن نفس العمل الفاقد للممارسة قد شرع في حق ذلك الشخص وألغى تشريعه الأولي وحكمه الأول فإذا جاء العبد به فقد وقع صحيحاً وإذا ارتفع الضرر عنه عاد له التشريع الأول.

ويترتب على ذلك، أن لا إعادة ولا قضاء على المكلف عند ارتفاع الضرر في الوقت أو خارجه وفي ذلك تفاصيل أخرى تخرج البحث عن الإيجاز[1].

بقي في المقام شيء:

إنه بناءاً على ما ذكره الشيخ[2] (رحمه الله) من أن التقية المستحبة التي ورد النص بها مثل تشييع الجنائز وعيادة المرضى والصلاة معهم تكون حاكمة على الأدلة الأولية فلو فرضنا أن التقية استلزمت ترك السورة وورد النص في ذلك وتقدمت أدلة التقية بالحكومة على دليل الواجب وجاز له الترك حينئذٍ فلو عدل عن هذا وأراد إتيان السورة في صلاته باعتبار أن التقية مستحبة ولا يجب العمل بها فهل تصح صلاته أو لا؟

الظاهر، أنه لا تصح إذ بعدما قلنا من أن التقية تشريع جديد لا يتلاءم مع الأول من دون فرق في ذلك بين الواجب منها والمستحب ففي ظرف ابتلائه بالعدو لا تشريع عنده بالإضافة إلى نفس السورة فلو أراد أن يأتي بها كان بتشريع منه وهو باطل.

---

(١) لاحظ لذلك مفصلاً الشيخ ميرزا علي الغروي: التنقيح في شرح العروة الوثقى/ ٤، ٢٣٦ وما بعدها، ط٢.

(٢) المصدر السابق. التنقيح في شرح العروة الوثقى/ ٤، ٢٣٦ وما بعدها، ط٢.

والذي تحصل من هذا، أن التقية بجميع أقسامها تكون حاكمة على الأدلة الأولية باعتبار أن التشريع الثانوي لا يجتمع مع الأولي.

ثم أن الشيخ[١] (رحمه الله) مثّل للمستحب عند ورود النص بتشييع جنائزهم والصلاة معهم في مساجدهم وعيادة مرضاهم. والظاهر، أنه لا اختصاص لذلك بالاستحباب دوماً بل الداعي يختلف في هذه الأمور فربما تبلغ الضرورة في عيادة المريض إلى حد لو تركها لأدى إلى ضرر لا يتحمل عادة أو لجلب منفعة مهمة كثيرة ولا ريب أنها تكون واجبة، وربما تقل الضرورة عن ذلك فيكون الاستحباب، وعلى أي حال فالمناقضة إنما هي في المثال لا غير.

عدول عما سبق:

التقية، وإن كانت تشريعاً جديداً وقانوناً أشبه بقانون الطوارىء لدى كل مملكة، إلاّ أن هذا التشريع الجديد يتلاءم مع الأول ويجتمع معه وليس بينهما مانعة جمع كما كنا نتصوره قبل هذا وهو من الأفعال الاختيارية. فإن التقية من قبيل أحد فردي الواجب التخييري، ولتوضيح التخيير يقال:

إن التزاحم بين الخطابين:

تارة: يحصل في مرحلة الامتثال مثل إنقاذ الغريقين، ويكون كل واحد منهما واجداً لملاكه وخطابه ولكن العبد في مرحلة الامتثال لا يستطيع أن يمتثل كليهما لعدم قدرته وعجزه فلا محالة من أن العقل يخيّره في امتثال أي منهما وترك الآخر مع عدم وجود المرجحات العقلية من أهمية أحدهما أو غيرها من المرجحات، ولا ريب أن التخيير هنا عقلي.

وأخرى: يكون التزاحم في مرحلة التشريع وعالم الجعل فإن الشارع المقدس ربما ينظر إلى ملاكين أحدهما قائم بالإطعام وثانيهما بالصيام في خصال الكفارة ولا يستطيع أن يأمر بكليهما لكفاية أحدهما بتحقق الملاك فلا محالة يأمر بك منهما على

---

(١) الشيخ الأنصاري: رسالة في التقية.

سبيل الواجب التخييري والعبد إذا قام بأحدهما فقد سقط الخطاب عن الثاني لسقوط ملاكه كما هو مشروح في الكفاية[1]، وهذا تخيير شرعي بين الفردين وتزاحم في مرحلة التشيع دون الامتثال.

إن التقية من قبيل الثاني وتزاحم في مرحلة التشريع، وهي إحدى فردي التخيير الشرعي وتوضيحه:

إن الشارع المقدس مثلاً، لاحظ الوشوء بالإضافة إلى المكلفين في حالة عدم ابتلائهم بالعدو فرأى فيه ملاكاً واحداً قائماً بالمسح على البشرة فأمر به سائر المكلفين ثم نظرة أخرى إلى الوضوء نفسه بالإضافة إلى المكلفين حال ابتلائهم بالعدو الذي يخشى الضرر منه فوجد هناك مصلحتين:

إحداهما: قائمة بالوضوء المقترن بالمسح على البشرة.

ثانيتهما: الوضوء المقترن بالمسح على الخفين.

وهذان الملاكان متزاحمان في نظر الشارع إذ كل منهما يريد الأمر وتعلق الطلب به ولا مجال لاتساعهما في هذا المقام إلاّ أن يأمر بكليهما على سبيل الواجب التخييري وبأيهما قام سقط الخطاب عن الثاني كما هو الحال في سائر الواجبات التخييرية.

وهذا المعنى يتجلى، في مورد إباحة التقية وتساوي كل منهما للآخر. وحينئذٍ، لو قام بالمسح على الخفين سقط الوجوب عن الثاني، وكذا بالعكس بالتقية بعد أن فرضناها أحد فردي الواجب التخييري ففي مورد الإباحة يتساوى الملاكان ويكون المكلف حراً في امتثال أي منهما فإن أراد العمل بالتقية كان ما جاء به صحيحاً وإن أراد بالآخر كان أيضاً صحيحاً لما عرفت وهذا كما في خصال الكفارة.

وأما لو صارت التقية واجبة، فالعمل بها متعين كما لو تعين أحد فردي الواجب التخييري كالإطعام إن عجز عن الصيام، وهذه عناوين أخرى تطرأ على أحد أفراد

---

(١) الشيخ محمد كاظم الخراساني بالمعروف بـ(الآخوند الخراساني): كفاية الأصول/ ١٧٤ وما بعدها، مبحث الأوامر، فصل في الوجوب التخييري، ط٤.

الواجب التخييري، وكذا لو صارت التقية محرمة فإن العمل يكون على طبق التشريع الأول وهذا لا يوجب خروجه عن كونه أحد فردي الواجب التخييري.

نعم، في هذا الحال لا يستطيع العبد أن يتقرب بما هو محرم فعلاً مهما كان المحرم «التقية أو الحكم الأولي» فإن صيرورة أحدهما واجباً لا بد وأن ينشأ عن حرمة الآخر. أما لو صارت التقية مستحبة فإنها من قبيل أفضلية أحد فردي الواجب التخييري. فللإنسان أن يترك الأفضلية. إذ لا يخرج الآخر عن أصل مشورعيته وعن كونه أحد فردي الواجب. فلو ترك التقية في ظرف استحبابها وأتى بالعمل الخالي عن التقية فإنه يقع صحيحاً حيث جاء بما هو أحد فردي الواجب التخييري، وكذا لو صارت التقية مكروهة، فإن الأفضلية تكون في العمل الذي جاء به على طبق التشريع الأولي. أما العمل على طبق التقية فهو أقل فضيلة، فلو ترك الأفضل وجاء بالفاضل لا يكون عمله باطلاً بل صحيح على طبق مشروعيته. أما مورد باحة التقية فقد عرفت تساويها مع التشريع الأولي فللإنسان أن يختار أي الجانبين ويمتثله فيقع صحيحاً ويسقط الآخر.

والنتيجة، إن التقية مما قام الدليل على مشروعيتها، وأن هناك موارد لا تصح أو تحرم فيها التقية أي أنها تتصف بالأحكام الخمسة.

ومن المناسب وقبل أن نختم البحث لا بأس بأن نذكر شواهد تاريخية للممارسة الإنسان للتّقية. بالإضافة لما تقدم من الأدلة على مشروعيتها لتكون منطلقاً لإثبات أن التقية لم تكن وليدة الفكر الشيعي كما يحلو للبعض أن يصفها بل مارستها أمم من قبلهم فنقول:

واجه الإنسان منذ أن وجد على سطح الأرض ظلم أخيه الإنسان ولدفع هذا الضرر أخذ يتوسل بطرائق عديدة منها إظهار الموافقة وكتمان المخالفة في الظروف القاسية أي أن الإنسان اضطر إلى الكتمان حفاظاً على حياته أو عرضه أو ماله. وهذا من الركائز الفطرية التي استند إليها الإنسان. كما تقدم مفصلاً في الدليل العقلي، ولإثبات هذا الأمر نستعرض مجموعة من النصوص الدينية والتاريخية، وليس

الغرض إلاّ إقامة الحجة على من اتهم الشيعة بانفرادهم بالتقية، وإثبات أن التقية أمر حق لا تختص به الشيعة كما قالوا زوراً وبهتاناً، وإليك بعض الشواهد.

١ ـ التقية في زمان أبي البشر آدم(عليه السلام):

يحدثنا القرآن الكريم أن أول جريمة سفك دم حرام هي قتل الأخ أخاه حسداً وعدواناً. وحدثنا التاريخ عن هذا الحدث ونصت رواياته: أن هابيل كان وصياً لآدم، ولكن بعد شهادته انتقلت الوصية إلى أخيه شيث فمارس التقية خوفاً من بطش قابيل وعدوانه فقد روى الطبري في تاريخه[١] ونقله أبو الفرج الجوزي[٢] وابن الأثير في كامله[٣]: أن آدم(عليه السلام) مرض أحدَ عشر يوماً وأوصى إلى ابنه شيث وأمره أن يخفي علمه عن قابيل وولده لأنه قتل هابيل حسداً منه له حين خصه آدم(عليه السلام) بالعلم فأخفى شيث وولده ما عندهم من العلم ولم يكن عند قابيل وولده علم ينتفعون به.

٢ ـ التقية في زمان إبراهيم الخليل(عليه السلام):

أشار القرآن الكريم إلى جانب من مواقف بطل التوحيد عندما كان يقارع الشرك ويرد مزاعم المشركين وأنه واجه من الحوادث ما دفعه إلى التقية حفاظاً على حياته ودينه. فالبخاري، يروي بعدة طرق، نذكر الرواية مع ما فيها، قال: لم يكذب إبراهيم(عليه السلام) إلاّ ثلاث كذبات، ثنتين منهن في ذات الله قوله: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم، وقال: بينا ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة، فقيل: إن ها هنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه وسأله عنها فقال من هذه؟ قال: أختي فأتى سارة قال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وأن هذا

---

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: تاريخ الطبري/ ١، ١٠٧، ط القاهرة ـ ١٩٣٩م.

(٢) أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك/ ١، ٢٢٧، ط١ ـ بيروت.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ/ ١، ٤٩، ط بيروت، ١٩٦٥م.

سألني عنك فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني...»[١].

ومثل ذلك روى مسلم في صحيحه باب فضائل إبراهيم الخليل (عليه السلام)[٢].

ويمكن تفسير ما ورد على لسان إبراهيم (عليه السلام) بالتقية حيث أخفى دينه وعقيدته وحفظ نفسه.

٣ ـ مؤمن آل فرعون:

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ ﴾[٣].

ذكر ابن كثير في قصصه: أن هذا الرجل هو ابن عم فرعون وكان يكتم إيمانه من قومه خوفاً منهم على نفسه.

وهل أن كتم الإيمان وإظهار الكفر خوفاً على نفسه إلاّ التقية!!.

وتوجد حوادث كثيرة عن التقية في الزمان الذي سبق الإسلام بالإضافة إلى ما تقدم، مثل التقية في أصحاب الكهف والتقية في زمان عيسى (عليه السلام).

وأما التقية في الإسلام فنذكر منها، موقف عمار بن ياسر الذي قتلته الفئة الباغية كما أخبر النبي (صلى الله عليه وآله) وهو أحد السابقين الأولين.

٤ ـ عمار بن ياسر:

ذكر الزمخشري في الكشاف بعد قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ ﴾[٤]. روي أن أناساً من أهل مكة فتنوا، فارتدوا عن الإسلام بعد دخولهم فيه وكان فيهم من أكره وأجرى كلمة الكفر على لسانه وهو معتقد بالإيمان منهم

---

(١) محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري/ ٤، ١١٢، كتاب بدء الخلق، باب قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾.

(٢) مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم/ ٤، ١٨٤٠، باب فضائل إبراهيم، ط دار إحياء التراث العربي.

(٣) سورة غافر: الآية، ٢٨.

(٤) سورة النحل: الآية، ١٠٦.

عمار بن ياسر وأبواه ياسر وسمية وصهيب وبلال وخباب وسالم عذبوا.. فأما عمار فأعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً[١].

والمراغي في تفسيره قال: فمن نطق بكلمة الكفر وقاية لنفسه من الهلاك وقلبه مطمئن بالإيمان لا يكون كافراً، بل يعذر كما فعل عمار بن ياسر حين أكرهته قريش على الكفر فوافقها مكرهاً وقلبه مليء بالإيمان وفيه نزلت آية: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ ، ويدخل في التقية مداراة الكفرة والظلمة والفسقة والإنة الكلام لهم والتبسم في وجوههم وبذل المال لهم لكف أذاهم وصيانة العرض منهم ولا يعد هذا من الموالاة المنهي عنها.

بل هو مشروع فقد أخرج الطبراني قوله(ﷺ): ما وقى به المؤمن من عرضه فهو صدقة[٢].

وبمراجعة كتب التفسير وغيرها تجدها متفقة على نزول آية:

﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ... ﴾، بشأن عمار بن ياسر وأصحابه الذين وافقوا المشركين على ما أرادوا وأعذرهم الله تعالى بل بعضهم توسع في حديثه عن التقية فالتمس الدليل على مشروعيتها وذكر أحكامها بكل صراحة وفي الهامش تجد مجموعة من هؤلاء[٣].

---

(١) أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل/ ٢، ٤٣٠، ط دار المعرفة.

(٢) تفسير المراغي: ١، ١٣٧، ط٢.

(٣) الفخر الرازي: التفسير الكبير/ ٢٠، ١٢١، ط٣. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن/ ١٠، ١٨١، ط دار إحياء التراث. البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل/ ١، ٥٧١، ط٢. ابن العربي: أحكام القرآن/ ٢، ١١٧٧ ـ ١١٨١، ط دار المعرفة، (وفيه تفصيل عن التقية). ابن قدامة: مغني المحتاج/ ٨، ٢٦٤، وكذا ١٢، ٢٦٢، ط١. ابن حجلا العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري. محمد ابن يوسف الإباضي: تيسير التفسير/ ٧، ٩٧، ط سلطنة عمان. محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير/ ط١ ـ بيروت. علي بن محمد الخازن: تفسير الخازن/ ١، ٢٧٧. أبو حيان الأندلسي: تفسير البحر المحيط/ ٥، ٥٣٨، ط٢ ـ بيروت. وغيرهم الكثير.

إلى هنا تم ما أردنا ذكره من شواهد وهناك الكثير في بطون الكتب، ولكن الذي نؤكد عليه بناءاً على ما تقدم، أن التقية لم تنبثق عن الخلاف القائم بين مذاهب المسلمين ولم يكن العمل بها مختصاً بالشيعة وليس هم الأساس.

نعم، ما كان اقتران التقية باسم الشيعة إلاّ لأن هذه الطائفة إحدى الضحايا التي اضطرتها الظروف القاسية لممارسة التقية فقد صبّ عليهم أعداءهم العذاب صباً.

ولكن مع ذلك الظرف العصيب، أصحر رجالات الشيعة بالحقيقة ووقفوا أمام حكام الجور حين كان بالإصحار فائدة، حتى صبغوا صفحات التاريخ بدمائهم الزكية وضاقت بهم غياهب السجون.

وللوقوف على تلك الحقائق لاحظ كتاب شهداء الفضيلة تجد القول الفصل في مواقفهم وما لاقوا من الحكام.

سهم الإمام(عليه السلام)

قال الشريف السيد المرتضى:(الخمس واجب في كل الغنائم المستفادة بالغزو من أموال أهل الشرك. وهو أيضاً واجب فيما يستفاد من المعادن والكنوز ويستخرج من البحار. ويجب أيضاً في كل ما فضل من أرباح التجارات والزراعات والصناعات عن المؤونة والكفاية من طول سنة على الاقتصاد.

وسهم الله تعالى الذي أضافه إلى نفسه «بالآية القرآنية» وسهم الرسول(صلى الله عليه وآله)، وهذان السهمان بعد الرسول للإمام القائم مقامه، مضافاً إلى سهم الإمام الذي يستحقه بالقربى وباقي السهام ليتامى آل محمد(عليهم السلام) ولمساكينهم وأبناء سبيلهم. فكأنه «أي الخمس» يقسم على ستة أسهم ثلاثة منها للإمام(عليه السلام) وثلاثة منها لآل الرسول(عليهم السلام)[1].

والأقوال فيه كثيرة، ولكنها ترجع إلى قولين رئيسين:

القول الأول: أنّه ملك شخصي للإمام(عليه السلام).

القول الثاني: أنّه ملك لمنصب الإمامة، ويتولى الإمام(عليه السلام) صرفه في شؤونها[2].

قال المحقق الحلي(رحمه الله) في شرائعه: (**الفصل الثاني: في قسمته**: يقسم ستة أقسام ثلاثة للنبي(صلى الله عليه وآله)، وهي سهم الله وسهم رسوله وسهم ذوي القربى وهو الإمام(عليه السلام)، وبعده للإمام القائم مقامه. وما كان قبضه النبي(صلى الله عليه وآله) أو الإمام ينتقل إلى وارثه...الخ)[3].

---

(١) السيد المرتضى: رسائل المرتضى/ ١، ٣٠٦، الناشر: دار القرآن الكريم ـ قم.

(٢) أي منصب الإمامة.

(٣) المحقق الحلي: شرائع الإسلام/ ١، ١٣٥، تحقيق: مع تعليقات السيد صادق الشيرازي، ط الثانية ١٤٠٩هـ، الناشر: انتشارات استقلال ـ طهران..

الظاهر من هذه العبارة، هو كون سهم الإمام(عليه السلام) راجعاً إلى المنصب الشريف ولأجل ذلك عبّر(رحمه الله) بقوله: وبعده للإمام القائم مقامه، ولم يجعل الوارث هو الذي يصل إليه المال. واستثنى من ذلك صورةً وهي: ما لو قبضه الإمام السابق فإنه يكون ملكاً لورثته لا للإمام اللاحق.

ولكن، لا يخفى أنّ القبض بمجرده لا يكون موجباً للملكية الشخصية مع فرض كون المال للمنصب إلاّ إذا قصد بقبضه تطبيقه على نفسه فإنه حينئذٍ يكون ملكاً شخصياً له وينتقل إلى ورثته.

وعلى كل حال، فإن كون السهم المذكور ملكاً شخصياً للإمام(عليه السلام) ليس المراد منه الملكية الشخصية الصرفة من قبيل الأموال التي يحصل عليها بالتكسب والميراث مثلاً بل يكون تحصيلها على النحو الآتي: وهو، أن يكون الحال فيه حال الوقف على الطبقات في كون الطبقة السابقة مستحقة للوارد الذي يحصل من الوقف في حياتها سواءً قبضه أم لم يقبضه وبعد حصوله وتحقّقه عند الشخص من تلك الطبقة ينتقل إلى وارثه، وإن لم يكن الوارث من الموقوف عليهم.

وإذا تمّ هذا فإنه ينفعنا في زمان الغيبة. فإن مشكلتنا تنحصر في سهم الإمام المهدي(عليه السلام)، والذي نعتقد بوجوده حياً فهو ليس بميِّت لنتكلم بنوعية الانتقال إلى ورثته بل هو حي يرزق وقد عرفت أنّ ملكه لهذا السهم كالوقف على الطبقات فهو يستحق هذا المال وحيث صار المال له فلا بد من البحث في مرحلتين:

الأولى: فيمن يتصرف به عنه؟ ومن ذلك الذي يقوم مقامه؟

الثانية: في جهة الصرف ومواقعها وهل يشترط لذلك شروط أو لا؟

أما البحث عن المرحلة الأولى: فهو أنّ المجتهد في زمان غيبته(عليه السلام) هو الذي يتصرف فيه، ولذلك طرق ثلاثة:

الطريق الأول: أنّ هذا المال بعد أن صار ملكاً للإمام(عليه السلام) على النحو الذي بيّناه، فإنّ التصرف بذلك المال يتوقف على إحراز رضا الإمام(عليه السلام) في ذلك المصرف، ومن جملة ما يتوقف عليه إحراز الرضا هو كون المتصرف وكيله أو

معتمده. إما لأنّ غيره لا عبرة بإحرازه الرضا لأنه لا يمكنه تشخيص موارد رضا الإمام(عليه السلام)، أو أنّ الفقيه أبصر بمصارفه باعتبار كونه من أهل الخبرة وديدن العقلاء هو الرجوع إلى أهل الخبرة كلٌّ بحسب اختصاصه.

الطريق الثاني: هو أنّ أدلة نصب الفقيه هي بنفسها تدل على أنّ المجتهد وكيل عن الإمام(عليه السلام) حتى في ماله الشخصي الذي جعله الله تعالى له في الأرباح والغنائم وغيرهما وحتى ميراث من لا وارث له والأنفال لأنّ الأدلة المذكورة تسند المنصب للمجتهد، ومن هذا الإسناد، نفهم الوكالة المذكورة. أما لو كان المتصرف غير المجتهد فمعنى ذلك أنّا قد جعلنا وكيله في معزل عن هذه القضايا ولأجل ذلك نتوقف في إحراز رضا الإمام(عليه السلام) بهذا الإجراء المذكور. فلا يقال حينئذٍ، بأنه لا حاجة إلى إجازة المجتهد لما عرفت أنّ العلم بالرضا من جانبه موقوف على كون الصارف والمتصرف هو وكيله ومعتمده لا كلّ واحدٍ وإن كان من شيعته.

إن قلت: ما الفرق بين المجتهدين وبقية الأشخاص من الشيعة فالكل سواء في تعيين مصرف ذلك السهم المبارك؟

قلت: الفرق واضح لأنّ غرضه(عليه السلام) هو إحياء نحلته وتقويم مذهبه ولا بد لهذا الأمر من المجتهدين الذين هم المروجون لمذهبه.

الطريق الثالث: أن نقول: إنّ الإمام(عليه السلام) ولي علي الغُيّب ولهذا كان نائباً عنهم في التصرف بأموالهم ومن المتعيَّن أنّ المجتهد الجامع للشرائط هو نائب له(عليه السلام) في زمان غيبته ودليل نيابته عن الغُيَّب ونفوذ تصرفه في أموالهم يشمل في الوقت نفسه الإمام(عليه السلام) لأنه فعلاً من الغائبين فينوب المجتهد في التصرف بأمواله كما ينوب عن بقية الغائبين في التصرف بأموالهم حسب ما تقتضيه مصالحهم، ولو قلنا بأنّ ذلك وإن لم يكن من باب الولاية له عليهم إلاّ أنه من باب النيابة والوكالة عنهم حيث خصه الشارع المقدس بها.

ولا يلزمنا لإمضاء هذه النيابة والوكالة حصول الإنشاء من الغائبين والقبول من المجتهد بل هي نيابة جعلها الشارع له عليهم فهو يتصرف في أموالهم ومنهم

الإمام(عليه السلام).

أما البحث عن المرحلة الثانية: وهي جهة التصرف في ذلك المال.

الظاهر أنه لا بد للمجتهد من رعاية رضا الإمام(عليه السلام) فلا يسوغ له صرف ذلك المال في مقام لم يحرز رضا الإمام في الصرف فيه، لأن الميزان هو أن هذا المالُ مالُ شخصٍ موجود ولكنه غائب لا يمكننا الوصول إليه فلا بد في التصرف بماله من إحراز رضاه في ذلك ولأجل هذه الناحية تشعّبت آراء الفقهاء إلى قولين:

الأول: أن هذا مالُ شخصٍ موجودٍ وهو الإمام(عليه السلام) ولا بد من حفظه له حتى يأذن الله تعالى له بالخروج.

الثاني: وجوب التصدّق به عنه لأنه من صغريات المال المعلوم المالك، ولا يمكن الوصول إلى صاحبه فيكون ملحقاً بمجهول المالك ويكون حكمه هو التصدق بذلك المال عنه كما هو الحال في مجهول المالك.

إلاّ أنك قد عرفت، أنّا لم نقل بهذا الإلحاق، وقلنا: إنّ الحكم في معلوم المالك بالتصدّق إنما هو لكونه موضوعاً مستقلاً لا علاقة له بمجهول المالك لاختلاف الكبرى في كلٍ منهما كما تقدم بيان ذلك تفصيلاً عند البحث عن المال المعلوم المالك ولا يمكن إيصاله له.

ودعوى الإجماع، على أن ما لا يمكن إيصاله إلى صاحبه المعلوم بحكم مجهول المالك غير نافعة فيما نحن فيه لتحقق الخلاف فيه وتعدد الأقوال على وجهٍ لا يمكن ضبطها.

وعلى فرض القول، بأنّ المال المعلوم المالك الذي لا يمكن إيصاله إليه ملحق بمجهول المالك فإن ولاية ذلك المال سواءً كان مجهول المالك أو معلومه يرجع إلى الإمام نفسه لما بيّناه في البحث عن مجهول المالك من تحكيمنا رواية داود بن يزيد والتي يقول فيها(عليه السلام) «فأنا والله ماله صاحب غيري»[1] على بقية الروايات التي قد

---

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ ٢٥، ٤٥٠، ح١، باب جواز الصدقة باللقطة...

يفهم منها عدم مراجعة الإمام(عليه السلام). وحينئذٍ، فيكون المرجع في سهم الإمام(عليه السلام) هو الإمام في زمن الحضور والمجتهد في غيبته. وإذا رجع المال إلى المجتهد فهو أعرف بمصارفه حيث يراعى رضاه. ولا تقييد للمجتهد بالتصدق بذلك المال عن الإمام(عليه السلام).

وأما على القول برجوع السهم المذكور إلى المنصب وهو جهة الإمام(عليه السلام)، وأنّ كل من يتصدى لتولي ذلك المنصب الروحاني تسلّم له هبة المخصصات لتدعيم الجهود التي يتولاها من ترويج الدين والمحافظة عن كيانه ومنها الصرف على فقراء نحلته أو عماله أو غير هذه من الأمور التي تعود كلها بالنفع على الجهة المذكورة.

فحينئذٍ فالإمام(عليه السلام) حيث كان موجوداً فهو الذي يتولى ذلك الصرف، وفي غيبته يتولى المجتهد تلك الصلاحيات التي كانت للإمام(عليه السلام).

ولكنّا في هذه الحالة نحتاج، إلى دعوى شمول ولاية المجتهد لمثل هذه التصرفات ويكون الحال فيه حال الأموال الموقوفة التي لا متولي لها فعلاً.

والخلاصة: أنّ سهم الإمام(عليه السلام) لا بدّ من تسليمه إلى المجتهد في زمان الغيبة سواءً قلنا بأنّه ملك شخصي له بالمعنى الذي بيّناه أو كان ملكاً للمنصب والذي لا يبعد أن يكون هو المتعيّن فلا يجوز لمن بيده الحق أن يتصرف فيه بدون المراجعة المذكورة.

أسئلة لا بد من الإجابة عليها:

وهنا لا بد أن نجيب على بعض التساؤلات التي ترد في المقام وهي:

السؤال الأول: أنّ المذكور في سورة الأنفال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[1].

ستة أصناف فكيف أصبح الخمس سهمين: سهم الإمام(عجل الله فرجه) وسهم السادة؟

---

(١) سورة الأنفال: الآية، ٤١.

وفي مقام الجواب عن السؤال المذكور نقول:

ورد في تفاسير الفريقين، وفي الأحاديث الواردة من الطريقين أنّ الخمس يقسم إلى ستة أصناف، وكان رسول الله(ﷺ) يقبض سهم الله وسهم رسوله ويعطي سهم ذي القربى، وقد ورد في بعض الروايات العامة أن سهم الله وسهم رسوله واحدٌ بمعنى أن أمرهما بيده(ﷺ)، ونورد هنا بعض الشواهد:

١ ـ ما ذكر الطبري في جامع البيان حيث قال:(حدثنا أبو كريب، قال: ثنا وكيع ابن الجراح عن أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية الرياحي، قال: كان رسول الله(ﷺ) يؤتى بالغنيمة فيقسمها على خمسة. ثم يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه فيأخذ منه الذي قبض كفه فيجعله للكعبة، وهو سهم الله، ثم يقسم ما بقي على خمسة أسهم فيكون سهم للرسول، وسهم لذي القربى، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل)[1].

٢ ـ وأيضاً ما ذكر في المصدر السابق[2]: حدثنا أبو كريب، قال ثنا أحمد بن يونس، قال: ثنا أبو شهاب عن ورقاء عن نهشل عن الضحاك عن ابن عباس، قال: جُعل سهم الله، وسهم الرسول واحداً، ولذي القربى.

٣ ـ ما ذكر في السمرقندي في تفسيره: وقال أبو العالية الرياحي كان رسول الله(ﷺ) يؤتى بالغنيمة فيقسمها على خمسة أسهم أربعة لمن شهدها، ويأخذ الخمس فيجعله على ستة أسهم: سهم لله تعالى فيجعل للكعبة، وسهم للرسول، وسهم لذوي القربى يعني: لقرابة النبي(ﷺ)، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل.

---

(١) ابن جرير الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن/ ١٠، ٦.

(٢) المصدر المتقدم: ١٠، ١٠.

وقال بعضهم: سهم الله ورسوله واحد[١]. وكذلك ما روي عن ابن عباس.

٤ ـ يلاحظ ما ورد في(تفسير الثعلبي ٤، ٣٥٧). و(تفسير السمعاني ٢، ٢٦٥). و(تفسير البغوي ٢، ٢٤٩). و(أحكام القرآن لابن العربي ٢، ٤٠١). و(المحرر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز لابن عطية الأندلسي ٢، ٥٣٠). و(الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل للزمخشري ٢، ١٥٩). وغير ذلك من مصادر التفسير.

وأما مصادر الحديث فيلاحظ:(نيل الأوطار للشوكاني ٨، ٩٠). و(كشاف القناع للبهوتي ٣، ٩٥)، و(المحلى لابن حزم ٧، ٣٢٧)، و(السنن الكبرى للبيهقي ٦، ٣٣٨)، و(مجمع الزوائد للهيثمي ٥، ٣٤٠)، و(المجموع لمحي الدين النووي ١٩، ٣٧٣).

وأما فقهاء الإمامية فقد أطبقوا على أن سهم الله وسهم رسوله(صلى الله عليه وآله)، وسهم ذي القربى بعد الرسول كلها للإمام(عليه السلام) والنصوص بذلك مستفيضة منها:

١ ـ ما ورد في جامع أحاديث الشيعة: «ويجري هذا الخمس على ستة أجزاء فيأخذ الإمام منها سهم الله، وسهم الرسول، وسهم ذي القربى، ثم يقسم الثلاثة السهام البقية بين يتامى آل محمد ومساكينهم وأبناء سبيلهم»[٢].

٢ ـ وكذا ما ورد فيه: «محمد بن الحسن الصفار في بصائر الدرجات عن عمران ابن موسى عن موسى بن جعفر(عليهما السلام) قال: قرأت عليه آية الخمس فقال: ما كان لله فهو لرسوله وما كان لرسوله فهو لنا»[٣].

٣ ـ وكذا ما ورد فيه: «علي بن إبراهيم بن هاشم عن أبيه عن حماد بن عيسى عن

---

(١) أبو الليث السمرقندي: تفسير السمرقندي/ ٢، ٢٢، تحقيق: الدكتور محمود مطرجي، دار الفكر ـ بيروت.

(٢) السيد البروجوردي: جامع أحاديث الشيعة/ ٨، ٥٢٩.

(٣) المصدر السابق: ٨، ٥٦٤.

بعض أصحابنا عن العبد الصالح(عليه السلام) قال: ... ويقسم الخمس على ستة أسهم: سهم لله عزَّ وجلَّ، وسهم لرسول الله(صلى الله عليه وآله)، وسهم لذي القربى، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لأبناء السبيل منهم، فسهم الله وسهم رسول الله(صلى الله عليه وآله) لرسول الله وسهم الله لأولي الأمر بعد رسول الله وراثة، فله ثلاثة أسهم سهمان وراثة، وسهم مقسوم له من الله فله نصف الخمس كملاً»[١].

٤ ـ وكذا ما ورد فيه: «وفي رواية علي بن الحسين: ويجري هذا الخمس على ستة أجزاء فيأخذ الإمام منها سهم الله، وسهم الرسول، وسهم ذي القربى»[٢].

وأما المقصود بذي القربى فقد اتفقت كلمات المسلمين على أن المراد بهم هم أقرباؤه، ولكن اختلفوا في تحديد المصداق:

فذهبت العامة إلى أنهم بنو هاشم وبنو المطلب وفي بعض الكتب(وهم أهل بيته الذي حرّمت عليهم الصدقة وهم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس، وقد قال النبي(صلى الله عليه وآله) لفاطمة وولديها وزوجها: «اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»[٣].

أقول: آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس هؤلاء يستحقون سهم السادة، وقد تظافرت النصوص من الفريقين أنّ الصدقة محرّمة على بني هاشم إكراماً لهم عمّا في أيدي الناس. وأما سهم ذي القربى فقد فسره(صلى الله عليه وآله) بالنص المتقدم أنهم أهل البيت(عليهم السلام)، والنصوص القرآنية الأخرى من قبيل آية المودة.

وذكر عبد الله بن قدامة في المغني: أنّ سهم ذي القربى يستوي فيه الغني والفقير لأنه كالميراث والوصية للأقارب، وقد أعطى رسول الله(صلى الله عليه وآله) سهم ذي القربى إلى

---

(١) المصدر السابق: جامع أحاديث الشيعة ٨، ٥٦٤.

(٢) المصدر السابق: جامع أحاديث الشيعة ٨، ٥٧٨.

(٣) عبد الرحمن بن قدامة المقدسي: الشرح الكبير على متن المقنع/ ٦، ٢٣٠، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع ـ بيروت.

عمه العباس وهو لم يكن محتاجاً[١].

والظاهر، أن إعطاءه إياه كان على أساس حكم ولائي منه(صلى الله عليه وآله)، أو من سهمه.

وقال عبد الرحمن بن قدامة:(أن أبا بكر وعمر منعا سهم ذي القربى عن أهله وأنّ ذلك ذكر لأحمد فسكت ولم يذهب إليه)[٢].

وقال عبد الله بن قدامة: «وحرّك رأسه ولم يذهب إليه، ورأي «كذا في المصدر ولعله والرأي» أنّ قول ابن عباس ومن وافقه أولى لموافقته كتاب الله وسنة رسول الله(صلى الله عليه وآله) فإن ابن عباس لمّا سأل عن سهم ذي القربى، فقال: إنا كنا نزعم أنه لنا، فأبى ذلك علينا قومنا. ولعلّه أراد بقوله «أبى ذلك علينا قومنا»: فعل أبي بكر وعمر(رضي الله عنهما) في حملهما عليه في سبيل الله ومن تبعهما على ذلك، ومتى اختلف الصحابة وكان قول بعضهم يوافق الكتاب والسنة كان أولى. وقول ابن عباس موافق للكتاب والسنة»[٣].

وأما عند الإمامية، فالمراد بذي القربى هو المعصوم(عليه السلام) فقد روى الكليني(رحمه الله) عن: «علي بن إبراهيم عن أبيه عن حماد بن عيسى عن إبراهيم بن عثمان عن سليم بن قيس الهلالي، قال: خطب أمير المؤمنين... قد عملت الولاة قبلي أعمالاً خالفوا فيها رسول الله(صلى الله عليه وآله) متعمّدين لخلافه ناقضين لعهده مغيّرين لسنته، ولو حملتُ الناس على تركها وحولتها إلى مواضعها وإلى ما كانت في عهد رسول الله(صلى الله عليه وآله) لتفرق عني جندي... وأعطيت من ذلك سهم ذي القربى الذي قال عزَّ وجلَّ: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾[٤]، فنحن والله عنى بذي القربى الذي قرننا الله بنفسه وبرسوله(صلى الله عليه وآله)

---

(١) عبد الله بن قدامة: مغني المحتاج/ ٧، ٣٠٦.

(٢) عبد الرحمن بن قدامة: المصدر المتقدم/ ١٠، ٤٩٤.

(٣) عبد الله بن قدامة: المصدر المتقدم/ ٧، ٣٠١.

(٤) سورة الأنفال: الآية، ٤١.

فقال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [(١)]، كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم[(٢)].

وذكر الحر العاملي (رحمه الله): (عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: كان أبي يقول: لنا سهم الرسول وسهم ذي القربى)[(٣)].

وفي جامع أحاديث الشيعة: (عن أحدهما (عليهما السلام) في قول الله تعالى:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [(٤)]، قال: «خمس الله عزَّ وجلَّ للإمام، وخمس الرسول للإمام، وخمس ذي القربى لقرابة الرسول والإمام، واليتامى يتامى آل الرسول، والمساكين منهم، وابن السبيل منهم فلا يخرج إلى غيرهم)[(٥)].

وكذا ورد فيه: عن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر (عليه السلام) يقول: في سورة الأنفال جدع الأنوف... فقرن الله سهم ذي القربى بسهمه وبسهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهذا فضل بين الآل والأمة... فبدأ بنفسه ثم برسوله ثم بذي القربى[(٦)].

وممّا ذكرنا، يظهر الوجه في تقسيم الخمس في زماننا إلى سهمين سهم الإمام (عجل الله فرجه الشريف) وسهم السادة وهم فقراء بني هاشم وأيتامهم وأبناء سبيلهم.

وأما السؤال الثاني: وهو أن الوارد في الآية محل البحث خمس غنائم الحرب فكيف يمكن تعميمها إلى خمس أرباح المكاسب؟

وفي الجواب عن هذا السؤال نقول:

---

(١) سورة الحشر: الآية، ٧.

(٢) الشيخ الكليني: الكافي/ ٨، ٥٨، خطبة لأمير المؤمنين (عليه السلام).

(٣) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ ١١، ٨٧، ح١٢، باب ٣٩، ط الإسلامية.

(٤) سورة الأنفال: الآية، ٤١.

(٥) السيد البروجوردي، المصدر المتقدم/ ٨، ٥٦١، ح١٦٥٤، ويلاحظ حديث ١٦٥٥.

(٦) المصدر المتقدم: ٨، ٦١٢، ح١٧٣٧.

لا بد من البحث عن معنى الغنيمة لغةً، واستعمالاتها عند العرب، ثم استعراض بعض كلمات المفسرين، وبعض النصوص الواردة عن النبي(صلى الله عليه وآله) في وجوب الخمس في غير غنائم الحرب، وبعض النصوص الواردة عن أهل بيت العصمة(عليهم السلام) والتي تصرّح بوجوب الخمس في أرباح المكاسب. وبعد التوكل على الله نقول:

أولاً: الغنيمة لغةً:

ذكر ابن منظور: الغنم: الفوز بالشيء من غير مشقة. والغنم والغنيمة والمغنم: الفيء، وفي الحديث: الرهن لمن رهنه، له غنمه وعليه غرمه غنمه: زيادته ونماؤه وفاضل قيمته.. وغنم الشيء غنماً: فاز به[1].

وقد استعمل الغنم في مقابل الغرامة، والغرامة هي الخسارة المادية، فيكون ما يقابلها هو الربح المادي. مضافاً إلى أنّ الرهن ليس من غنائم الحرب، فهذا يدل على أن الغنيمة هي مطلق الفائدة وغير مقيدة بغنائم الحرب.

وقال الفيروزآبادي في قاموسه: «وغنيمة وغنماً: الفوز بالشيء بلا مشقة»[2].

وقال الزبيدي في التاج: والغنم: «الفوز بالشيء بلا مشقة»[3].

وهكذا الراغب الأصفهاني في مفرداته: «والغنم: إصابته والظفر به، ثم استعمل في كل مظفور به من جهة الأعداء وغيرهم»[4].

ثانياً: استعمالات الغنيمة عند العرب:

وقد استعملها العرب في مطلق الفائدة مادية أو معنوية ومن أمثلة ذلك:

١ ـ ما ورد في نهج البلاغة في خطبة(٧٦): «اغتنم المهل». وفي الخطبة(١٢٠): «من أخذها لحق وغنم».

---

(١) ابن منظور: لسان العرب/ ١٢، ٤٤٥، (مادة غنم).

(٢) الفيروزآبادي: القاموس المحيط/ ٤، ١٥٨، (مادة غنم).

(٣) الزبيدي: تاج العروس/ ١٧، ٥٢٧، (مادة غنم).

(٤) الراغب الأصفهاني: المفردات/ ٣٦٦، (مادة غنم).

٢ ـ وقال(عليه السلام) في كتابه(٥٣) إلى مالك الأشتر: «ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم».

٣ ـ وفي كتابه(عليه السلام)(٤٥) لعثمان بن حنيف: «فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً، ولا ادخرت من غنائمها وفراً».

٤ ـ وفي كتابه(عليه السلام)(٤١): «واغتنم من استقرضك في حال غناك».

٥ ـ وقال(عليه السلام) في بعض كلماته القصار، رقم(٣٣١): «إن الله جعل الطاعة غنيمة الأكياس».

ثالثاً: الغنيمة في كلمات المفسرين:

١ ـ قال القرطبي في تفسيره[١]: «إن الغنيمة في اللغة ما يناله الرجل أو الجماعة بسعي» ومن ذلك قول الشاعر:

وقد طوفت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإيابِ

٢ ـ ذكر الرازي في تفسيره[٢]: «الغنم: الفوز بالشيء... والغنيمة في الشريعة ما دخلت في أيدي المسلمين من أموال المشركين على سبيل القهر بالخيل والركاب».

٣ ـ ذكر الآلوسي في تفسيره[٣]: «إنّ الغنم في الأصل معناه كل ربح ومنفعة».

والمتحصل من كلمات المفسرين، أنّ العامة وفقهاءهم خصوا الغنيمة بصورة ما يغنمه المسلمون في حال الحرب على أساس أنّ آية الخمس وردت في سياق آيات الحرب، وهذا التخصيص بلا مخصِّص؛ لأن من المعلوم أنّ المورد لا يخصّص الوارد، فإن كثيراً من التشريعات وردت في وقائع جزئية وهو ما يعبِّر عنه المفسرون بأسباب النزول، ولكنّ الحكم عام شامل لكل الأفراد والأزمان.

وينقض على ما ذكره المفسرون من وحدة السياق بآية التطهير فإن ما قبلها وما

---

(١) أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي: الجامع لأحكام القرآن/ ٨، ١.

(٢) الفخر الرازي: التفسير الكبير/ ١٥، ١٦٤.

(٣) الآلوسي: روح المعاني/ ١٠، ٢.

بعدها يتعلق بنساء النبي(صلى الله عليه وآله) مع أنه باتفاق المسلمين أنّ آية التطهير لا تشمل نساء النبي(صلى الله عليه وآله) وإنما هي خاصة بأهل بيت العصمة(صلوات الله عليهم أجمعين).

وأما حلاً فقد ذكر الشيخ مكارم الشيرازي في تفسيره الموسوم ب(الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل)[1] نظائر لذلك:

منها: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[2].

هذه الآية ذات حكم كلي في وجوب الالتزام بأوامر النبي(صلى الله عليه وآله)، مع أن سبب نزولها هو الأموال التي تقع بأيدي المسلمين من دون حرب ويطلق على ذلك اصطلاحاً الفيء.

ومنها: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[3].

مورد الآية المباركة، النساء المرضعات والأمر موجه لآباء الأطفال الرضع أن يعطوا المرضعات أجورهن حسب وسعهم. وكون الآية واردة في هذا الأمر الخاص لا يمنع من عمومية القانون الذي جاءت به، وهو عدم التكليف.

أي: عدم التكليف بما لا يقدر عليه وهذا يطبّق في كل الفروع الفقهية من الصلاة وشرائطها والصوم والحج والجهاد وحتى في المعاملات.

الخلاصة: إن الآية محل البحث جاءت في سياق آيات الجهاد إلاّ أنها تقول: إن أية فائدة أو ربح تحصلون عليه «منه غنائم الحرب» فعليكم أن تعطوا خمسه. وخاصة أن ـ ما ـ موصولة، و ـ من شيء ـ لفظان عامان ليس فيهما قيد ولا شرط وهما يؤكدان هذا الموضوع.

رابعاً: ما ورد من السنّة من طريق العامة في وجوب الخمس في غير غنائم الحرب.

---

(١) الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل/ ٥، ٤٣٩.

(٢) سورة الحشر: الآية، ٧.

(٣) سورة البقرة: الآية، ٢٣٣.

١ ـ ما ورد في مسند أحمد ١، ٣١٤:(عن ابن عباس، قال: قضى رسول الله(ﷺ) في الركاز: الخمس).وكذا في سنن ابن ماجة ٢، ٨٣٩، ط ١٣٧٣هـ.

٢ ـ ما ورد في صحيح مسلم ٥، ١٢٧: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله(ﷺ): «وفي الركاز الخمس.. فقيل له: ما الركاز يا رسول الله؟ فقال: الذهب والفضة الذي خلقه الله في الأرض يوم خلقت».

وكذا في صحيح البخاري ٨، ٤٧، باب في الركاز الخمس.

٣ ـ ما ورد في مسند أحمد ٣، ٣٣٥: عن الشعبي عن جابر بن عبد الله، وأيضاً في المسند ٣، ١٢٨: عن أنس بن مالك قال: «خرجنا مع رسول الله(ﷺ) إلى خيبر فدخل صاحب لنا إلى خربة يقضي حاجته، فتناول لبنة ليستطيب بها فانهارت عليه تبرا، فأخذها فأتى بها النبي(ﷺ) فأخبره بذلك قال: زنها. فوزنها فإذا مائتا درهم فقال النبي: هذا ركاز فيه الخمس».

٤ ـ وما ذكره ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث ٢، ٤٣٢(مادة سيب)، قال) «وفي كتاب(أي: كتاب رسول الله(ﷺ)» لوائل بن حجر: وفي السيوب الخمس).

والسيوب: الركاز. وقيل: السيوب: عروق من الذهب والفضة تسيب في المعدن، أي: تتكون فيه وتظهر. قال الزمخشري: والسيب: الركاز، جمع سيب يريد به المال المدفون في الجاهلية أو المعدم لأنه من فضل الله تعالى وعطائه لمن أصابه.

٥ ـ لما وفد عبد القيس لرسول الله(ﷺ)، فقالوا: إنّ بيننا وبينك المشركين وإنا لا نصل إليك إلاّ في الأشهر الحرم فمرنا بجمل الأمر إن عملنا به دخلنا الجنة وندعوا إليه من وراءنا. فقال(ﷺ): آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع... وتعطوا الخمس من المغنم[1].

---

(١) محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري/ ١، ١٩، و٣، ٥٣، و٤، ٤٤. ومسلم بن الحجاج بن مسلم: صحيح مسلم/ ١، ٣٥. وأحمد بن شعيب النسائي: سنن النسائي/ ٨، ١٢٠. والإمام أحمد بن حنبل: مسند أحمد/ ١، ٣٦١.

قال الشيخ جعفر السبحاني في الاعتصام بالكتاب والسنة ص ١٠٠:(ومن المعلوم أن النبي(ﷺ) لم يطلب من بني عبد القيس أن يدفعوا غنائم الحرب، كيف؟ وهم لا يستطيعون الخروج من حيّهم في غير الأشهر الحرم خوفاً من المشركين، فيكون قد قصد المغنم بمعناه الحقيقي في لغة العرب، وهو ما يفوزون به فعليهم أن يعطوا خمس ما يربحون).

٦ ـ كتب(ﷺ) لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن:(بسم الله الرحمن الرحيم... هذا... عهد من النبي رسول الله لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن أمره بتقوى الله في أمره كله، وأن يأخذ من المغانم خمس الله)[١].

٧ ـ كتب(ﷺ) إلى شرحبيل بن عبد كلال، ونعيم بن عبد كلال، والحارث بن عبد كلال قيل ذي رعين، ومعافر وهمدان:(أما بعد: فقد رجع رسولكم وأعطيتم من المغانم خمس الله)[٢].

٨ ـ كتب(ﷺ) لجهينة بن زيد:(إنّ لكم بطون الأرض وسهولها وقلاع الأودية وظهورها على أن ترعوا نباتها وتشربوا ماءها على أن تؤدوا الخمس)[٣].

وتوضيح الاستدلال بهذه الكتب:

إن الغنائم المطلوب في هذه الرسائل النبوية أداء خمسها: إما أن يراد ما يستولى عليه أحد من طريق النهب والإغارة، أو ما يستولى عليه من طريق المحاربة بصورة الجهاد، أو ما يستولى عليه من طريق الكسب والكد.

والأول: ممنوع بنص الأحاديث[٤].

---

(١) أحمد بن يحيى بن جابر المعروف بـ(البلاذري): فتوح البلدان/ ١، ٨٤، باب اليمن.

(٢) مجموعة الوثائق السياسية ٢٢٧، رقم ١١٠.

(٣) المصدر المتقدم: ٢٦٥، رقم ١٥٧.

(٤) يشير إلى ما رواه العامة: (من انتهب نهبة فليس منا) و(إنّ النهبة لا تحل) سنن ابن ماجة: كتاب الفتن ٢، ١٢٩٨، ح٣٩٣٧ و٣٩٣.وفي صحيح البخاري: ٣، ١٠٧، باب النهب بغير اذن صاحبه. ومسند أحمد: ٥، ٣٢١ (عن عبادة ابن الصامت: بايعنا النبي(ﷺ) على أن لا ننتهب. وفي الأول لا ننهب).

والثاني: يكون أمر الغنائم فيه بيده(ﷺ) مباشرة[١] فهو الذي يأخذ كل الغنائم ويضرب لكل من الفارس والراجل ماله من الأسهم بعد أن يستخرج الخمس بنفسه من تلك الغنائم، فلا معنى أن يطلبه من الغزاة، فيكون المعنى الثالث هو المتعيّن[٢].

وهذا المعنى وردت به الروايات المتضافرة عن أهل البيت(صلوات الله عليهم أجمعين)، وسنذكر طرفاً منها في النقطة التالية:

خامساً: ما ورد من طريق أهل البيت(عليهم السلام) في أن أرباح المكاسب فيها الخمس:

١ ـ ما ذكره الحر العاملي:(محمد بن يعقوب عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن الحسين بن عثمان عن سماعة قال: سألت أبا الحسن(عليه السلام) عن الخمس؟ فقال: في كل ما أفاد الناس من قليل أو كثير)[٣].

٢ ـ وذكر أيضاً:(محمد بن الحسن بإسناده عن محمد بن علي بن محبوب عن محمد ابن الحسين عن عبد الله بن القاسم الحضرمي عن عبد الله بن سنان قال:

قال أبو عبد الله(عليه السلام) على كل امرىء غنم أو اكتسب الخمس مما أصاب لفاطمة(عليها السلام) ولمن يلي أمرها من بعدها من ذريتها الحجج على الناس فذاك لهم خاصة يضعونه حيث شاءوا)[٤].

٣ ـ وذكر أيضاً: عن محمد بن الحسن الأشعري قال: «كتب بعض أصحابنا إلى أبي جعفر الثاني(عليه السلام) أخبرني عن الخمس أعلى جميع ما يستفيد الرجل من قليل وكثير من جميع الضروب وعلى الصناع؟ وكيف ذلك؟ فكتب: الخمس بعد المؤنة[٥].

هذا نزر من كثير، نكتفي بهذا المقدار خوفاً من الإطالة.

---

(١) ولا يملك المحارب عدا سلب القتيل، وإلاّ عدّ سارقاً.

(٢) الشيخ جعفر السبحاني: الاعتصام بالكتاب والسنّة/ ١٠٤.

(٣) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ ٦، ٣٥٠، ح٦، باب ٨ من أبواب ما يجب فيه الخمس، ط الإسلامية.

(٤) المصدر المتقدم: ٦، ٣٥١، ح٨.

(٥) المصدر السابق: ٦، ٣٤٨، ح١، باب وجوب الخمس في ما يفضل عن مؤنة السنة...

خلاصة البحث ومحصله:

إن رسول الله(صلى الله عليه وآله) كان يأخذ سهم الله تبارك وتعالى ويعطي سهم ذي القربى إلى أهل بيته وهم فاطمة وبعلها وبنوها(صلوات الله عليهم)، وكان يعطي فقراء بني هاشم وأيتامهم، وأبناء سبيلهم النصف الثاني من الخمس.

ولكن بعد التحاقه(صلى الله عليه وآله) بالرفيق الأعلى زوى من تصدى هذا الحق، وهو سهم الله وسهم رسوله وسهم ذي القربى، وغصبوه، والسبب في ذلك سياسي بالدرجة الأولى، لكي لا يكون لأهل البيت استقلال مالي عن الدولة ويكونون في عوز حتى تضعف شوكتهم، ولا يكون لهم قوة على مناهضة الدولة؛ لأنّ أية حركة ضد الدولة من أهم مقوماتها القوة الاقتصادية ومن المعلوم أنّ الخمس في ذلك الزمان لو كان يصل إلى أهله فهو يوازي ميزانية دولة في عصرنا الحاضر. وقد سجل التاريخ لنا أنّ الخليفة عثمان بن عفان أعطى خمس أفريقيا لمروان بن الحكم، والظاهر أنّ الخليفة طبّق الآية عليه. إلى غير ذلك من اقتطاعاته حيث اتخذ مال الله دولاً وعبيده خولاً.

وأما سهم السادة فأيضاً غصب كأخيه وأصبح بيد الحاكم، لكي لا تكون هناك ميزة لبني هاشم ولكي يمحو القداسة عنهم ويكونوا بحاجة دائمة إلى السلطة.

ثم جاء فقهاء السلطة فأرادوا أن يصححوا أعمال الخلفاء على أساس أن «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»، فجعلوا من مصادر التشريع سنة الصحابي. واستمر غصب هذا الحق إلى يومنا هذا، إلاّ من عرف الحق وتمسك به وهم شيعة آل البيت(عليهم السلام).

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين وصلّى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

بحث في الولاية

الولاية لغة:

وردت الولاية في اللغة بالفتح ـ وَلاية ـ وبالكسر ـ وِلاية ـ. أما الوَلاية ـ بالفتح ـ فقد جاءت بمعنى الربوبية والنصرة، وبذلك يصرح القرآن الكريم:

﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ (١) فقد أخبر سبحانه أن النصرة والإعزاز لله في ذلك الموقف الذي يتنازع فيه المؤمن والكافر يوم القيامة فينصر عبيده ويخذل الكافرين جزاء كفرهم وعدم طاعتهم، فهو، إذن الذي يتولى أمر عباده.

وأما الوِلاية بالكسر فإنها الإمارة والسلطنة والسيطرة على الآخرين كما ورد في مجاميع اللغة كلسان العرب والقاموس ومجمع البحرين(٢).

الولاية في المصطلح الفقهي:

أما الفقهاء، فإن الولاية عندهم هي «سلطنة على الغير عقلية أو شرعية نفساً كان أو مالاً أو كليهما بالأصل أو العارض»(٣).

أقسام الولاية:

للولاية تقسيمات عديدة تنشأ من الاعتبارات المختلفة، ولكن أهم ما يلحظ فيها بالنظر الأولي هو تقسيمها إلى الولايتين التكوينية، والتشريعية.

---

(١) سورة الكهف: الآية، ٤٤.

(٢) انظر لذلك ابن منظور: لسان العرب. والفيروزآبادي: قاموس المحيط. والطريحي: مجمع البحرين/ مادة (ولي).

(٣) السيد محمد بحر العلوم: بلغة الفقيه/ ٢٧٨، ط إيران.

الولاية التكوينية:

وهي كون الولي متصرفاً في جميع ما يشتمل عليه هذا الكون من السماوات والأرضين وما فيهن وما بينهن، وهذه الولاية ثابتة لله عزَّ وجلَّ كما نبهت ونصت على ذلك الآيات الكريمة التالية:

١ - ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [(١)].

٢ - ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢا﴾ [(٢)].

٣ - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [(٣)].

٤ - ﴿قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ﴾ [(٤)].

٥ - ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾ [(٥)].

وقد توالت الآيات الكريمة في أكثر من مورد من القرآن المجيد تنوه بقدرة الله سبحانه وأنه على كل شيء قدير لا يقف أمام إرادته شيءٌ فقد قال تعالى:

﴿وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [(٦)]. السماوات والأرض جميعاً قبضتها بيديه ولم يختلف بذلك أحد من العقلاء.

النبي والولاية التكوينية:

وإذا ما استثنينا من الولاية التكوينية بهذا النطاق الواسع بعض الموارد التي اختص بها الله تعالى وجعلها من مختصاته كما جاء في قوله عزَّ وجلَّ:

---

(١) سورة يس: الآية، ٨٢.

(٢) سورة الفتح: الآية، ١١.

(٣) سورة البقرة: الآية، ٢٥٣.

(٤) سورة الأحزاب: الآية، ١٧.

(٥) سورة الرعد: الآية، ١١.

(٦) سورة الحج: الآية، ٦.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾[1] فإن إعطاء كثير من الصلاحيات في القدرة على كثير من الأمور لبعض من اختاره الله من الأنبياء والمرسلين وخلفائهم طبقاً للمصالح التي اقتضت تسليحهم بمثل هذه الصلاحيات، ولكن ذلك كان بإذن منه وبإرادته جلت عظمته فظهرت على أيديهم المعاجز والكرامات التي لا تخضع إلى قوانين مادية كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى وتفجير المياه من الصخور وغير ذلك مما يدل على بلوغ النفس البشرية إلى مدارج من التقرب إليه لعلو تلك النفس ووصولها إلى أعلى مراتب الكمال وإذا بها مصداق للحديث القدسي: [يا عبدي أطعني تكن مَثلي، أنا أقول للشيء كن فيكون، وأنت تقول للشيء كن فيكون][2].

فالنفس المطمئنة الخاضعة لعظمته عرفت من الصميم فضل الخالق، وقدرته فانقطعت إليه تشكره لا خوفاً من ناره ولا طمعاً في جنته ولكن وجدته أهلاً لعبادته فحلقت إليه.

وهذا النموذج من الخضوع للذات المقدسة والعبودية له ليست عبادة التجار والتي تبتني على الأخذ والعطاء بل هي عبادة الفناء في المعبود والالتذاذ بهذه العبودية والانصهار في الذات.

إلهي، ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك لكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك[3].

الطاعة الواقعية والفناء في ذات الله ورحابه يتمثلان في هذه الفقرات الوجيزة. فهل عزيز على الله بعد هذه الطاعة وبعد هذه الرفعة النفسية أن يطلع عباده المقربين على الأسباب التي يتمكن بها العبد المخلص من إخضاع كل شيء لإرادته والتي هي

---

(١) سورة لقمان: الآية، ٣٤.

(٢) الإمام زين العابدين: شرح رسالة الحقوق/ ٤١٠، تحقيق وشرح: حسن السيد علي القبانجي.

(٣) الشيخ الكليني: الكافي/ ٦٧، ١٨٦.

منبثقة من إرادة الله تعالى لا لمصلحة تعود لنفس الشخص المؤمن بل لمصالح يعود نفعها إلى المجتمع وحفظ النظام.

وفي الحديث عن رسول الله (ﷺ): «إن الله عزَّ وجلَّ يقول: ما تقرب إليّ عبد أحب إليّ مما افترضه عليه وإنه ليتقرب إليّ بالنافلة حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها إن دعاني أجبته وإن سألني أعطيته»[1].

ويعرض القرآن الكريم صوراً دقيقة لبعض هذه النماذج من الذوات المؤمنة الخيّرة.

فقد جاء في قصة نبي الله سليمان بن داود: إنه حينما أراد أن يحضر عنده عرش بلقيس ملكة سبأ استعان بقومه قائلاً: ﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾[2].

وكان قد سخر الله لسليمان مُلْكَ الإنس والجن فتبرع هذا المارد أن يقوم بهذه المهمة فيحضر له عرش بلقيس قبل أن يترك مجلسه الذي كان قد جلس فيه للقضاء والحكم، وقد روي أنه كان يجلس فيه من الصباح إلى الظهيرة ولكن سليمان استكثر هذه المدة فهو يريد أن يؤتى له بالعرش بأسرع من ذلك فمن يتطوع لتلبية هذه الرغبة: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ﴾[3].

لقد عرض من عنده علم من الكتاب أن يلبّيَ لسليمان رغبته قبل أن يطبق جفن عينه وهي أقصى حدٍ للسرعة.

ولنكتفي بهذا القدر، ولنعلم أن من عنده علم من الكتاب هو شخص وهبه الله هذه القدرة الخارقة ومكّنه من القيام بمثل هذه الأعمال الجسيمة لإيمانه المطلق بالله

---

(١) الشيخ الكليني: المصدر المتقدم/ ٢، ٣٥٢.

(٢) سورة النمل: الآيتان، ٣٨ و٣٩.

(٣) سورة النمل: الآية، ٤٠.

فكانت إرادته منبثقة من إرادة الله تعالى يستمد منه هذه القوة الخارقة.

وقيل، إنه الخضر (عليه السلام) أحد الأنبياء أو آصف بن برخيا. ولم يعين الكتاب الكريم اسم هذا الشخص ولا ذلك العلم من الكتاب والذي بواسطته تمكن من القيام بهذا العمل الخارق للعادة، بل اكتفى ببيان أن هذا الشخص قد حقق لسليمان هذه المعجزة والذي هو أمر خارق خارج عن قدرة البشر وما هو مألوف في حياتهم العادية.

والأمر أيسر من هذا كله حين ننظر إليه بمنظار الواقع. فكم في هذا الكون من أسرار لا نعلمها وكم فيه من قوى لا نستخدمها؟ وكم في النفس البشرية من أسرار، كذلك وقوى لا يَهْتَدي إليها؟ فحيثما أراد الله هدى من يريد إلى أحد هذه الأسرار وإلى واحد من القوى جاءت الخارقة التي لا تقع في مألوف الحياة وجرت بإذن الله وتدبيره وتسخيره حيث لا يملك من لم يرد الله أن يجريها على يديه أن يجريها، وهذا الذي عنده علم من الكتاب كانت نفسه مهيأة بسبب ما عنده من العلم أن تتصل ببعض الأسرار والقوى الكونية التي تتم بها تلك الخارقة التي تمت على يده لأن ما عنده من علم الكتاب وصل قلبه بربه على نحو يهيؤه للتلقي ولاستخدام ما وهبه من قوى وأسرار[1].

الولاية التشريعية:

ويراد بها تسليط الحاكم على الناس فيما يعود إلى تدبير أمورهم وشؤونهم العامة والخاصة.

وينظر الفقهاء إلى هذه الولاية بالنظر الأولي فلا يرون مجالاً لأحدٍ من الناس مهما كانت سمته أن يتسلط أو يتصرف في شؤون الباقين فالله هو مالك الرقاب وهو خالقهم وإليه يرجع الأمر كله وله وحده التصرف في هذا الكون على رحبه بما فيه من عوالم، ومخلوقات.

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن/ ٦، ١٤٨ من تفسير سورة النمل.

وحيث كانت هذه السلطة من الأمور الحادثة لغير الله لو أردنا منحها إلى البشر فعند الشك يقرر الفقهاء: أن الأصل يقتضي عدمها حسبما قرر من القول بأصالة عدم الجعل في مثل هذه الموارد ما لم يثبت خلاف ذلك.

الولاية العامة ضرورتها ولزومها:

وليس بالإمكان أن يقف الفقهاء مكتوف الأيدي إزاء الولاية العامة والاقتصار في هذه الحياة بما يفرضه الأصل الأولي ـ والذي تقدم بيانه ـ فالولاية بطبيعتها تفرض ضرورتها على المجتمع الإنساني إذ لا يمكن أن نتصور اجتماعاً تنتظم أفراده وصفوفه ويشق طريقه في هذه الحياة من غير والٍ يتصدى لتنظيم أمورهم الدينية والدنيوية فالحياة بمجموعها تشكل أخطبوطاً معقداً ولا يتمكن الإنسان بمفرده أن يحل هذه المشاكل التي تحيط به ليشق طريقه.

إذن، فلا بد للفرد من يعينه على السير في هذا الخط المتعرج، وهكذا نجد الأفراد يحتاج كل فرد منهم إلى من يأخذ بيده.

وحينئذٍ، فمن مجموع ذلك تنبثق الحاجة إلى وجود شخص يحكم ويفرض سيطرته على هذه المجموعات البشرية ليأخذ من الظالم حق المظلوم ويقف في طريق المجرمين لتسير الحياة على النحو الهادىء، وحينئذٍ، فتعيش المجموعة لتتنعم بالهدوء والاستقرار.

ولذلك، كان القول بوجود هذه الولاية ضرورياً في نظر كافة فقهاء المسلمين إلاّ ما شذ منهم كالحشوية[1] ومن قال بمقالتهم.

إذن، فلا بد للفقيه أن يخرج عن النطاق الذي ضربه الأصل حوله من منع تسلط

---

(١) وهو تعبير عن كونهم لا يتحاشون عن التشبيه والتجسيم والحشو بكلام الرجل والتستر بالسلف الذين يقولون بالتفويض... وهم أصحاب الرأي، تركوا آثار الرسول وحديثه وقالوا بالرأي وقاسوا الدين بالاستحسان، وحكموا بخلاف الكتاب والسنة وهم أصحاب بدعة جهلة ضلال وطلاب دنيا بالكذب والبهتان. انظر لذلك صالح الورداني: دفاع عن الرسول ضد الفقهاء والمحدثين/ ٢١٣. ونفس المؤلف: مدافع الفقهاء، التطرف بين فقهاء السلف وفقهاء الخلف/ ٦١.

الحاكم على الآخرين نظراً للضرورة المذكورة.

ولهذا نراهم خرجوا عن هذه الكلية المقررة بالقول بإعطاء الصلاحيات الواسعة النطاق لبعض الأشخاص ممن تنطبق عليهم عنوان الولاية تبعاً للأدلة التي تنص على مثل هذا الاستثناء.

وقد قرروا أن من جملة من منح هذه الصلاحيات الواسعة هو النبي(ﷺ) والأئمة المعصومين من أهل البيت(عليهم السلام) ذلك لأن الله هو الذي منحهم هذه الولاية والتي تشمل أولوية التصرف في نفوس الناس وأموالهم من غير توقف على إذن من أحد الناس وقد استدلوا على ذلك بالأدلة السمعية والعقلية.

الدليل العقلي على الولاية العامة:

يقول جمهور الشيعة والمعتزلة بلزوم هذه الولاية لحفظ النظام الاجتماعي مدعين:

إن العقل هو الحاكم بمثل هذا اللزوم، وفي هذا الصدد يقول السيد المرتضى(رحمه الله) وهو يتحدث عن ضرورة الإمامة ووجود الإمام: «الذي يدلك على ذلك: ما ثبت كونها لطفاً في التكليف العقلي لا يتم من دونها فجرت مجرى سائر الألطاف في المعارف وغيرها في أنه لا يحسن التكليف من دونها»[1].

وحيث يفسرون هذا اللطف يقررون:

إن النظام الاجتماعي للناس لا بدّ له من رئيس يقوّم اعوجاجهم، وينتصف للمظلوم بأخذ حقه من الظالم، ويهدىء الفتن، ويصلح الأوضاع الفاسدة. وبالعكس لو لم يكن في البين رئيس يقوم بأعباء هذه الأمور لوقع بين الناس الهرج والمرج ولاختلت الأوضاع وتدهورت وكانوا إلى الفساد أقرب من الصلاح.

وفي هذا الصدد يقول الشيخ ابن تيمية:

«يجب أن يُعرف أن ولاية الناس من أعظم واجبات الدين بل لا قيام للدين إلاّ

---

(١) السيد المرتضى: تلخيص الشافي/ ١/ ٦٩، ط: النجف الأشرف.

بها فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلاّ بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض ولا بدّ لهم عند الاجتماع من رأس، حتى قال النبي(ﷺ) إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمِّروا عليهم أحدهم «إلى أن يقول»: فأوجب(ﷺ) تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر تنبيهاً بذلك على سائر أنواع الاجتماع ـ إلى قوله ـ فالواجب اتخاذ الإمارة ديناً وقربة[1].

ويؤكد الشيخ ابن تيمية على هذا المعنى حيث يقول: «وكل بني آدم لا تتم مصلحتهم لا في الدنيا ولا في الآخرة إلاّ في الاجتماع والتناصر. فالتعاون والتناصر على جلب منافعهم والتناصر لدفع مضارهم، ولهذا يقال: الإنسان مدني بالطبع فإذا اجتمعوا فلا بدّ لهم من أمور يفعلونها يجلبون بها المصلحة وأمور يجتنبونها لما فيها من المفسدة ويكونون مطيعين للآمر في تلك المقاصد والناهي عن تلك المقاصد فجميع بني آدم لا بدّ لهم من طاعة آمر وناه فمن لم يكن من أهل الكتب الإلهية ولا من أهل دين فإنهم يطيعون ملوكهم فيما يرون أنه يعود لمصالح دنياهم مصيبين تارة، ومخطئين أخرى[2].

وعلى ضوء ما يقرره العقل تنبثق الضرورة للولاية ليعيش أفراد المجتمع وهم ينعمون بحرية وأمن لا يتعدى البعض منهم على الآخر، وأن هذه ضرورة تقتضيها طبيعة العيش في هذه الحياة الواسعة العريضة وإن ترك الناس سدىً بغير راعٍ يرعى شؤونهم إنما هو تعريض لهم للمفاسد والأخطاء.

الأدلة السمعية على الولاية:

يقرّب القائل بالولاية العامة للنبي(ﷺ) والأئمة من أهل البيت(عليهم السلام) من بعده وجهة نظره تلك بالآيات الكريمة حيث يستفاد منها منحهم هذه الصلاحيات الواسعة النطاق الشاملة لجميع المراحل الدينية والدنيوية.

---

(١) الدولة ونظام الحسبة عند ابن تيمية: ٢٧ ـ ٢٨.

(٢) الدولة ونظام الحسبة عند ابن تيمية: ٢٧ ـ ٢٨.

ولاية النبي(ﷺ) من الكتاب:

١ ـ يقول تعالى﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾[1].

٢ ـ وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾[2].

٣ ـ وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾[3].

٤ ـ وقال تعالى: ﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾[4].

٥ ـ وقال عزَّ من قائل: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾[5].

بهذه الآيات الكريمة يرسم القرآن الكريم خطوط الولاية العامة بالنسبة إليه(ﷺ).

فالآية الأولى: صرحت بأن النبي(ﷺ) أولى المؤمنين من أنفسهم، وقد فسرت بأن مقتضاها هو أن النبي له أولوية التصرف في شؤون المؤمنين من أنفسهم، ومن جملة ما للنفوس المؤمنة التصرف في الأموال وغيرها مما يعود إلى الإنسان فهو أولى بها منها.

وإن شئت قلت: أن المستفاد من الآية الكريمة هو أن ميل النبي(ﷺ) مقدم على ميل المؤمنين عندما يريد ويريدون. فمثلاً، لو أراد الشخص بيع داره من زيد وأراد النبي(ﷺ) بيعها من شخص آخر كان ما يريده النبي(ﷺ) مقدماً.

وببيان أوضح: إن عدم ذكر متعلق الأولوية هو الذي يعطينا هذه الصلاحيات

---

(١) سورة الأحزاب: الآية، ٦.

(٢) سورة المائدة: الآية، ٥٥.

(٣) سورة الأحزاب: الآية، ٣٦.

(٤) سورة النساء: الآية، ٥٩.

(٥) سورة الحشر: الآية، ٧.

الواسعة ويخرج الآية عن الاقتصار بها على موردها أو قصرها على موارد الاختلاف بين النبي(ﷺ) وغيره أو ما شاكل هذا مما اعترض به على الآية الكريمة:

أما الآية الثانية: فقد كانت صريحة في الولاية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾[(١)].

ويرى العلامة الطباطبائي(رحمه الله): «إن هذه الآية المباركة شملت من السياق ما يدل على وحدة ما في معنى الولاية حيث تضمن العد في قوله: الله، ورسوله، والمؤمنون، وأسند الجميع إلى قوله(وليكم) وظاهره كون الولاية في الجميع بمعنى واحد»[(٢)].

وإذا علمنا من الخارج أن ولاية الله على البشر بضميمة بقية الآيات الكريمة مما ورد في السور الأخرى أن طاعة الله فرض وأن الحكم له وحده لا شريك له فله أن يتحكم في النفوس «وحاشاه أن يتحكم فيما ليس بصالح العباد» لعلمنا أن تلك الولاية حصلت بالتبع لنبيه الكريم(ﷺ) عبر تلك الولاية التي نسبها الله إلى نفسه. ولو كانت ولاية النبي(ﷺ) هي غير تلك الولاية التي كانت لله في مجال التشريع لكان الأنسب أن يتكرر لفظ الولاية في كل هذه الموارد الثلاث. فهذا العطف في السياق يستدعي توحيد نوعية الولاية بين المعطوف والمعطوف عليه.

وهناك البعض من المفسرين، من يفرق بين ولايته تعالى والولايتين للنبي(ﷺ) والمؤمنين بالأصالة لله وبالتبع للباقين بحسب التقدم والتأخر في ظاهر الآية بالعطف.

ويجاب على ما تقدم، أن هذه التفرقة بحرف العطف لا تضر في المعنى المطلوب لأنّا نعترف بأن ولاية النبي(ﷺ) والمؤمنين مستمدة من ولاية الله تعالى. فالولاية لهم امتداد لتلك السلطنة على النفوس البشرية. فالولاية عامة للنبي(ﷺ) على نحو أن له الولاية في الجميع في الحكم والقضاء وبقية الشؤون:

---

(١) سورة المائدة: الآية، ٥٥.

(٢) السيد محمد حسين الطباطبائي: تفسير الميزان/ ٦، ١٠.

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾[١].

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾[٢].

وتمضي الآيات المباركة في القرآن الكريم لتشيد بسلطة النبي الأكرم(ﷺ) فقد كرر في أكثر من عشرين مورد في مختلف السور الأمر بإطاعة الرسول(ﷺ) قارناً في كثير منها إطاعته بطاعة الله وأن من أطاعه فقد أطاع الله من غير فرقٍ بين الطاعتين فحيث يأمر بشيءٍ لا بد من الامتثال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[٣]، وحينئذٍ فمن يطع الرسول فقد أطاع الله.

ولاية الإمام(عليه السلام):

قال الله تعالى في كتابه المجيد﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾[٤].

وفي تفسير كلمة ـ أولي الأمر ـ الذين أوجب الله طاعتهم على المكلفين يقول الشيخ الطبرسي(رحمه الله): وأما أصحابنا فإنهم رووا عن الباقر والصادق(عليهما السلام) أن أولي الأمر هم الأئمة من آل محمد(ﷺ) وأوجب الله طاعتهم بالاطلاع كما أوجب طاعته وطاعة رسوله[٥].

وينهج مفسروا الإمامية هذا النهج فيرون: اختصاص هذا العنوان بالأئمة المعصومين(عليهم السلام)، والذين هم خلفاء النبي الأكرم(ﷺ).

وبنفس الملاك الذي أوجب الله طاعة رسوله أوجب طاعتهم. فالله واجب الاطاعة. ومن خصائص ألوهيته أن يسن الشريعة. فشريعته واجبة التنفيذ وعلى الذين آمنوا أن يطيعوا لله ابتداءً وأن يطيعوا الرسول بما له من صفة الرسالة من الله.

---

(١) سورة الحشر: الآية، ٧.

(٢) سورة الأحزاب: الآية، ٣٦.

(٣) سورة النساء: الآية، ٦٤.

(٤) سورة النساء: الآية، ٥٩.

(٥) الشيخ أبو علي الطبرسي: مجمع البيان/ في تفسيره للآية الكريمة.

فطاعته إذن من طاعة الله الذي أرسله بهذه الشريعة وبيانها للناس كافة.

وبنفس هذا البيان يرى الإمامية وجوب طاعة الأئمة بعد أن كان وجودهم كخلفاء امتداداً للمبدأ الرسالي وواسطة لتبليغ الأحكام الشرعية باعتبارهم أمناء الشريعة بعد الرسول الأعظم(ﷺ).

أما مفسروا العامة، وفي مقدمتهم الفخر الرازي كما جاء في تفسيره لهذه الآية الكريمة حيث يذهب إلى أن أولي الأمر: هم الخلفاء الراشدون، ونقل قولاً بأنهم العلماء الذي يفتون بالأحكام الشرعية ويعلمون الناس دينهم.

ونقل قولاً ثالثاً: بأن المراد من هذا العنوان هم الأمراء والسلاطين[١].

ويقول ابن تيمية: «وأولوا الأمر صاحب الأمر وذووه وهم الذين يأمرون الناس وذلك يشترك فيه أهل اليد والقدرة وأهل العلم والكلام، ولهذا كان أولوا الأمر حقيقة صنفين: العلماء والأمراء، فإذا صلحوا صلح الناس وإذا فسدوا فسد الناس»[٢].

ولكن الإمامية يصرون على رأيهم، من أن أولي الأمر هم المعصومون من أهل البيت(عليهم السلام) وذلك، لأن غير الأئمة ليسوا بمعصومين. لذلك لا يجوز على الله أن يأمر بلزوم طاعة من لم تثبت عصمته. فما لم تثبت العصمة لشخصٍ فإن أدنى ما يفرض فيه وقوعه في الغلط إن أغضينا النظر عن المحرمات وغيرها فلا معنى لتفويض أمر العباد إلى مثل هذا الشخص لأن مثل ذلك قبيح وحاشاه أن يأمر بالقبيح.

ويتوقف البعض من العلماء، في إعطاء مثل هذه الصلاحيات الواسعة للإمام(عليه السلام). مقرباً وجهة نظره: بأن الفقيه يبحث هذه الولاية المذكورة من جهات ثلاث:

---

(١) الفخر الرازي: التفسير الكبير/ في تفسيره لهذه الآية.

(٢) ابن تيمية: الحسبة/ ٩٧.

الأولى: يبحث فيها أن للإمام كل تصرف بالنسبة إلى الغير سواءً كان ذلك التصرف في النفوس، أو الأموال حسبما تتعلق به إرادته وكما ينفذ تصرف الإنسان بحسب إرادته في نفسه وماله في غير معصية موجبة لعدم نفوذه فله أن يزوج البالغة الرشيدة بغير إذنها أو يبيع مال إنسان بغير إذنه كما كان ذلك لكلٍ منهما في نفسه أو ماله.

الثانية: ويكون البحث فيها في لزوم إطاعة الإمام لو تصرف في شيءٍ أو أمر به وعدم اللزوم.

الثالثة: ويبحث فيها عن أن تصرفات المكلفين في إقامة الحدود وتولية الأوقاف، وما شاكل ذلك هل تحتاج إلى إذنه(عليه السلام) بحيث لو لم يأذن لما جاز لذلك الغير أن يتصرف ويقوم بمثل هذه الأعمال؟

أما الجهة الأولى: فقد نوقش فيها باعتبار، أن الأدلة الخاصة المذكورة في محلها إنما هي في مقام ما لو أمر الإمام أو نهى فلا بد من تنفيذ أوامره ونواهيه. فتدخل المسألة في باب وجوب الإطاعة وحرمة المخالفة الراجعين إلى لزوم نفوذ أوامره ونواهيه لا غير، وأما أن له أكثر من هذا فهو مما لا يستفاد من الأدلة عدا ما جاء في قوله تعالى: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ ﴾ (١)، «فيكون المراد الأولوية عند التزاحم في التصرف وتقدم إرادته عند التخالف في الإرادة بحيث لو أراد شيئاً، وأراد الإمام غيره قدمت إرادته لكونه إنما يأمر بشيء أو ينهى عن شيء إنما هو لمصلحة ملزمة راجعة إليه. ضرورة أنه في مرتبة المكمل لنقص المولى عليه الذي اقتضى اللطف وجود مكمل متبوع في أوامره ونواهيه بل ولو كان لمصلحة نفسه لرجوعها أيضاً إلى مصلحة النوع المقدمة على مصلحة الشخص»(٢).

ويجاب عن ذلك: بأن الإطلاق في الآية الكريمة والأخبار المتقدمة الذكر يعطي

---

(١) سورة الأحزاب: الآية، ٦.

(٢) السيد محمد بحر العلوم: بلغة الفقيه/ ٢٧٩، الطبعة القديمة.

لكل من النبي والأئمة(عليهم السلام) الصلاحيات الواسعة النطاق حيث تشمل جميع المقامات بحيث أن لهم التصرف وبكل أنحائه مع العبد.

يقول الشيخ الأنصاري(رحمه الله) في هذا الصّدد: «وبالجملة فالمستفاد من الأدلة الأربعة بعد التتبع، والتأمل أن للإمام(عليه السلام) سلطنة مطلقة على الرعية من قبل الله تعالى، وأن تصرفهم نافذ على الرعية ماضٍ مطلقاً»[1].

أما الجهة الثانية: وهي لزوم إطاعتهم فيما لو أمروا بشيءٍ ونهوا عنه فقد حدده السيد بحر العلوم(رحمه الله) في بلغته بقوله:

(لا إشكال في ثبوتها لهما «النبي والإمام» بالمعنى الأولي «وهو لزوم الإطاعة وحرمة المخالفة عن الأمر والنهي» فإن الأدلة المتقدمة «من قوله تعالى أطيعوا الله ورسوله» كلٌ منها وافٍ في الدلالة عليه كافٍ في إثباتها له بعد أن كانت إطاعتهم إطاعة الله تعالى)[2].

الجهة الثالثة: وهي توقف تصرفات الغير على إذنهم فإن بعض الفقهاء لا يستفيد مثل هذه الولاية للإمام(عليه السلام) بحيث يفرض على كل مكلف أن يحصل على الإذن من الإمام(عليه السلام) في كل ما يريد التصرف فيه بنحو يكون الفرد خاضعاً في تصرفاته كما يخضع العبد لمولاه خصوصاً وأن الأصل الأولي لا يقتضي منح هذا النحو من الصلاحيات الواسعة.

والحقيقة، أن الفقيه مقيّد بالأدلة التي ترد من الشارع المقدس ليسير على ضوئها في الأحكام الشرعية.(وقصارى ما دلت عليه الأدلة لزوم الرجوع إليهم في المصالح العامة التي لا يريد الشارع فعلها من مباشر معين كإقامة الحدود والتعزيزات والقضاء في الناس رفعاً للخصومة فيما بينهم، والتصرف في مال الفقير، والمجانين مصلحة لهم والإلزام بأداء الحقوق ونحو ذلك. وبالجملة، ما علم وجوب الرجوع

---

(١) الشيخ الأنصاري: المكاسب/ ٣، ٥٤٨، تحقيق: لجنة تحقيق تراث الشيخ الأعظم.

(٢) السيد محمد بحر العلوم: المصدر المتقدم/ ٣، ٢١٧.

فيه إليهم وتوقف التصرف على إذنهم أو علم عدمه بدليلٍ ولو بنحو العموم أو الإطلاق فلا كلام فيه وحيثما يشكُل في موردٍ قيل يرجع به إلى ما تقتضيه الأصول العملية)[١].

ويختتم الشيخ الأنصاري(رحمه الله) البحث بعدم وجود دليل خاص صريح يستفاد منه كلية الرجوع إلى الإمام في جميع التصرفات قال(رحمه الله): فلا إشكال في عدم جواز التصرف في كثير من الأمور العامة بدون إذنهم ورضاهم لكن لا عموم يقتضي أصالة توقف كل تصرف على الإذن.

نعم، الأمور التي يرجع فيها كل قوم إلى رئيسهم لا يبعد الاطراد فيها بمقتضى كونهم أولوا الأمر وولاته[٢].

وموضوع الرجوع إلى الإمام(عليه السلام) في المسائل التي يرجع فيها كل قوم إلى رئيسهم والتي تعرض الفقهاء لها إنما هي مستوحاة من بيان الإمام(عليه السلام) نفسه لاحتياج الناس إلى وجود الإمام. فقد نقل الفضل بن شاذان عن الإمام الرضا(عليه السلام) في حديث قال فيه: فإن قال قائل، فلم جعل أولي الأمر وأمر بطاعتهم، وهنا يتصدى الإمام(عليه السلام) إلى الاجابة ليعطي فكرة عن الدواعي التي تفرض الحاجة إلى وجود مثل هؤلاء المصلحين.

ومنها: «أنا لا نجد فرقة من الفرق ولا ملة من الملل بقوا وعاشوا إلاّ بقيِّم ورئيس ولما لا بد لهم منه في أمر الدين والدنيا فلم يجز في حكمة الحكيم أن يترك الخلق مما يعلم أنه لا بد لهم منه ولا قوام لهم إلاّ به»[٣].

ولاية الفقيه ـ الحاكم الشرعي:

الفقيه الذي يطلق عليه عنوان الحاكم الشرعي ـ عند الشيعة ـ هو الذي يصلح

---

(١) المصدر المتقدم: السيّد محمد بحر العلوم ٣، ٢٢٠.

(٢) الشيخ الأنصاري: المصدر المتقدم/ ٣، ٥٥.

(٣) الشيخ الصدوق: عيون أخبار الرضا/ ١، ١٠٨.

لتولي المرجعية والتقليد وقد اشترطوا لهذه الصلاحية عدة شروط كان من أهمها: البلوغ، والعقل، والإيمان، والعدالة، والذكورة، والحرية، والاجتهاد، والحياة، والأعلمية، وعدم كونه مقبلاً على الدنيا، وعدم كونه ولد زنا.

وقد أضاف البعض، بأن يكون خبيراً وبصيراً في إدارة الشؤون والاجتهاد المطلق.

ولكن لم تسلم هذه الشروط من المناقشة.

وبحثنا هنا لا يتولى هذه الجهة بل يتناول الأبعاد التي تتناولها صلاحية الحاكم الشرعي، وهل أن ما للإمام(عليه السلام) من الولاية العامة يكون له باعتباره المنصوص عليه في قوله(عليه السلام) «فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله»[1]؟

نعم: قام الدليل على تجريده من بعض الصلاحيات كالحدود والتعزيرات وما شاكل لتوقفها في زمان الغيبة.

أو أن ما جعل له من الصلاحيات يدور في نطاق ضيق محصور في ضمن الولاية الخاصة من الرجوع إليه في التقليد وفض المنازعات وقطع الخصومات؟

قسّم الشيخ الأنصاري(رحمه الله) البحث في ولاية الحاكم الشرعي في جهتين:

الجهة الأولى: قد تناول البحث فيها عن تصرفات الحاكم الشرعي الاستقلالية بكل ما يراه فهو ولي كالإمام(عليه السلام).

الجهة الثانية: إن تصرفات الغير تتوقف على إذنه في كل مورد يتوقف تصرف الغير على إذن مولاه.

أما الجهة الأولى: وهو منح الحاكم الشرعي صلاحياته الواسعة باعتباره من حكام الشرع، فقد استدل عليه ببعض أدلة القائلين بولاية الفقيه العامة، مستندين إلى دليلين: أحدهما عقلي، والآخر سمعي.

---

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ ٢٧، ١٤٠، ح٩، باب وجوب الرجوع في القضاء والفتوى إلى رواة الحديث من الشيعة.

أما الدليل العقلي: فهو ما تقدم نظيره في منح الإمام(عليه السلام) صلاحياته الواسعة بنفس النظرة المذكورة، وذلك، لأن الشريعة المقدسة بما تشتمل عليه من تنظيمات أحكامية ومالية وسياسية جاءت لتكون باقية إلى اليوم الذي يختار لهذا الكون نهايته، وبقاء هذه القوانين لا بد منها لأجل بقاء النوع الإنساني وتكامله.

ونحن والحالة هذه لا بد لنا من إيكال أمر التنفيذ إلى من يقوم بأعباء هذه المسؤولية الدينية.

ولا يخلو الحال إما أن يوكل الأمر إلى جميع المكلفين لتكون المسألة من خصوصيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. أو تكلف فئة خاصة تخضع لشروط تؤهل من يجتمع فيه للقيام بأعباء هذه المسؤولية الكبرى.

أما الأول، فلا سبيل إليه فإن ذلك يستدعي وجود نظام غوغائي يتخلله الهرج والمرج. فلا يستقيم ذلك، إذن فلا مجال لنا إلاّ الطريق الثاني، وهو اختيار الشخص اللائق.

ويتعبير آخر، إن ما قرب به الفقيه الشيعي وجهة نظره بالنسبة لضرورة ثبوت السلطتين الدينية والدنيوية للإمام(عليه السلام) عقلاً كذلك نفسه يعرض للاستدلال عقلاً على لزوم وجود فقيه له جهات الإمامة التي هي امتداد للنبوة في نظر الشيعة.

كذلك المرجعية الدينية، فهي امتداد للإمام(عليه السلام) في كل وقت وهي تنفذ وتطبق وتثبت القيم الاجتماعية والأخلاقية مما يخص أمور المسلمين الداخلية والخارجية الدينية والدنيوية مما يرجع لمصالحهم وما يتوقف عليها نظم البلاد وانتظام العباد.

على أننا لو تأملنا لرأينا أن العقل الذي يحكم بضرورة نصب الله للإمام(عليه السلام) يستوحي من وراء ذلك حفظ البلاد وانتظام أمر الفساد، ككل رئيس يعود إليه الأمور المتعلقة بالانتظامات كذلك نفس هذا اللازم يراه في غيبة الإمام(عليه السلام). بعد ما يرى الشيعة أن الإمام(عليه السلام) غائب غيبة كبرى. إذ لولا ذلك لاختل نظام القادة. فلا بد من زعيم للدولة الإسلامية يرشدها إلى الخير والإصلاح.

ولكن الانصاف، بعد ملاحظته أن هذا الدليل يقتضي أن يكون الفقيه في مقام

الإمام(عليه السلام) في المحافظة على الشريعة وبيان أحكامها لا كونه كالنبي(صلى الله عليه وآله) أو الأئمة(عليهم السلام) في كونهم أولى الناس.

وأما الدليل السمعي: فهي مجموعة من الأخبار منها:

١ ـ قوله(صلى الله عليه وآله) ثلاثاً: «اللهم ارحم خلفائي. قيل يا رسول الله: ومن خلفاؤك؟ قال: الذين يأتون بعدي يروون حديثي وسنتي»[1].

ووجه الاستدلال، أن لفظ الخليفة ظاهر في كون الشخص المستخلف له كل صلاحيات المستخلف ومن جملة الموارد التي يقوم بها هي الولاية والحكومة والسلطنة المذكورة.

ولأنه لو قيل فلان خليفتي من غير تقييد فهم عرفاً منه «بل كان معناه»: أنه قائم مقامه في كل ما كان له أن يفعل إلاّ ما خرج تنزيلاً للخلف منزلة السلف فيما يقتضيه الوظيفة التي منها الولاية.

وقد أورد على هذه الرواية بعدة إيرادات:

الأول: إنها ضعيفة سنداً، وذلك من جهة الارسال.

وردّ، بانجبار سندها بالشهرة.

الثاني: إنها محمولة على التبليغ، وأن المراد بالخلفاء هم خصوص الأئمة(عليهم السلام) وليس موردها الفقهاء الذين هم مورد بحثنا.

وفيه تأمل.

٢ ـ عن إسماعيل بن جابر عن أبي عبد الله(عليه السلام) قال: «العلماء أمناء الرسل»[2].

فقد يدّعى، بأن قوله ـ أمناء الرسل ـ يفيد كونهم لرسول الله(صلى الله عليه وآله) في جميع

---

(١) الحر العاملي/ المصدر المتقدم/ ٢٧، ٩١، ٥٠، باب وجوب العمل بأحاديث النبي(صلى الله عليه وآله) والأئمة(عليهم السلام).

(٢) الشيخ الكليني: الكافي/ باب صفة العلم وفضله وفضل العلماء، ولكن ليس فيه كلمة (الرسل)، نعم هناك رواية عند السكوني (الفقهاء أمناء الرسل).

الشؤون المتعلقة برسالته وأوضحها زعامة الأمة، وبسط العدالة الاجتماعية وما لها من المقدمات والأسباب واللوازم.

ولكن يناقش في الرواية سنداً ودلالةً.

أما من حيث الدلالة فقد يرد على هذا الاستدلال بوجوه:

الأول: لا نسلّم ثبوت هذه الولاية للرسل أجمع حتى يقال بتعدية تلك الولاية من الرسل إلى أمنائهم.

وما يقال: من كفاية عمومها إلى الرسول(ﷺ).

مدفوعة: بلحاظ مناسبة الحكم والموضوع بعدم إرادة هذه الخصوصية من الرسول بعد الإتيان بصيغة الجمع.

فهذه قرينة واضحة على عدم إرادة هذه المنزلة من الرسل.

الثاني: نحن نسلّم بأن العلماء أمناء الرسل، ولكن أي شيء هي الأمانة فلا يفهم منها ذلك. وإرادة الولاية أول الكلام.

الثالث: إن معنى الأمين هو الثقة في نفسه الذي لا يخون كما ذكر في المعاجم اللغوية.

وعليه، فيكون المعنى إن العلماء لا يخونون الوديعة المجعولة من قبل الرسل وليس هي إلاّ الأحكام التي نزلت عليهم وبلغوها. وبالتالي فالعلماء هم أمناء الله في بلاده وعباده وكتابه ودينه وحلاله وحرامه وناسخه ومنسوخه ورخصه وعزائمه وعامه وخاصه ومحكمه ومتشابهه ومجمله ومفصله، لكونهم حملة لكتابه وحفظة لأحكامه.

ولكن قد يقال، إن المراد من العلماء هم الأئمة الأطهار(عليهم السلام) فإن لفظ العالم يطلق عليهم(عليهم السلام) دون من تعلم الفقه والأصول. فهم المراد والمقصودون من هذه الرواية وإلاّ لزم تخصيص الأكثر.

توضيح ذلك، إنه لا يمكن إرادة لفظ ـ العلماء ـ جميع العلماء إذ أنه يشمل علماء

الحساب والهندسة والتاريخ والجغرافيا، فلو أريد منه خصوص الفقهاء لزم تخصيص الأكثر، وهو قبيح في بيان المقاصد في المحاورات فلا محالة يحمل على إرادة الإمام(عليه السلام).

فإنه يقال، إنه مضافاً، إلى أن مناسبة الحكم والموضوع تقتضي عدم إرادة هذه الأصناف من هذه اللفظة فإن المتتبع للأخبار يجد أن لفظة العالم في أخبارهم(عليهم السلام) هم من يجذب العقول الناقصة من تيه الضلال إلى جناب حضرته، ويخلصوا الخلائق عما التفتوا إليه من اتباع الشهوات الباطلة واقتناء اللذات الزائلة، ويبعثوهم على أداء ما خلقوا لأجله بالتنبيه على عظمة نِعم الله عليهم وكثرة إحسانه إليهم وترغيبهم فيما عند الله مما أعده لأوليائه وتحذيرهم عما أعد لأعدائه.

وقد أشير إلى هذا المعنى في أكثر من رواية:

قال أمير المؤمنين(عليه السلام): «ألا أخبركم بالفقيه حق الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يؤمنهم من عذاب الله ولم يرخص لهم في معاصي الله ولم يترك القرآن رغبة عنه إلى غيره الخ الرواية»[1].

قال شيخ العارفين بهاء الملة والدين «ليس المراد بالفقه الفهم وهو العلم بالأحكام الشرعية العملية عن أدلتها التفصيلية فإنه معنى مستحدث. المراد به البصيرة في أمر الدين والفقه وأكثر ما يأتي في الحديث بهذا المعنى... والفقيه هو صاحب البصيرة وإليه إشارة النبي(صلى الله عليه وآله) بقوله: «لا يفقه العبد كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله ويرى للقرآن وجوهاً كثيرة»[2].

فلا يراد من الفقيه في قوله(عليه السلام) في موثقه السكوني: الفقهاء أمناء الرسل ما لم يدخلوا في الدنيا[3] إلاّ هذا المعنى.

---

(١) المصدر المتقدم: ١، ٣٦، ح٣، باب صفة العلماء.

(٢) المصدر المتقدم: ٢، ٢٩.

(٣) المصدر المتقدم: ١، ٤٦، ح٥، باب المستأكل بعلمه والمباهي به.

وهناك نصوص أخرى، تشير إلى أن العالم هو العالم الرباني فإن من لاحظ باب مجالسة العلماء وصحبتهم في الكافي يرى عدم إرادة غير العلماء الربانيين الذي يدعون إلى الله عزَّ وجلَّ فلاحظ وتدبر.

نعم، ورد في بعض الأخبار عنهم(عليهم السلام) أنهم قالوا: «نحن العلماء وشيعتنا المتعلمون»(١). ولكنه محمول على التنزيل.

وهناك روايات كثيرة تذم العلماء، وحينها نقطع بعدم إرادة الأئمة(عليهم السلام) من لفظة العلماء في حديثهم وأخبارهم.

وأما من حيث السند:

ففيه محمد بن سنان، وقد اختلف العلماء في توثيقه وتضعيفه والظاهر ضعف الرجل لما طعن به غير واحد من الرجاليين والمتقدمين. فالرواية غير معتبرة السند.

٣ ـ عن أبي البختري عن أبي عبد الله(عليه السلام) قال: إن العلماء ورثة الأنبياء وذاك أن الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً وإنما أورثوا أحاديث من أحاديثهم، فمن أخذ بشيء منها فقد أخذ حظاً وافراً، فانظروا علمكم هذا عمن تأخذونه؟ فإن فينا أهل البيت في كل خلف عدولاً ينفون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين(٢).

ووجه الاستدلال بها، إن الورثة ينتقل إليهم ما للمورّث من الأشياء، ومنها الولاية المطلقة، فهي تنتقل إليهم. وهم الفقهاء لا محالة. قال ابن الأثير في أسماء الله تعالى: «الوارث هو الذي يرث الخلائق بعد فنائهم ومنه الحديث»: «اللهم متعني بسمعي وبصري واجعلهما الوارثين مني، أي ابقهما صحيحين سليمين إلى أن أموت»(٣).

---

(١) نقلاً عن السيد أبو القاسم الخوئي: مصباح الفقاهة/ ٣، ٢٨٩.

(٢) الحر العاملي: المصدر المتقدم/ ٢٧، ٧٨، ح٢، باب وجوب العمل بأحاديث النبي(صلى الله عليه وآله) والأئمة(عليهم السلام)...

(٣) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث/ ٥، ١٧٢.

ولكن يرد على الاستدلال بهذه الرواية من وجوه:

الأول: ما تقدم من الوجه الأول من الإيراد على الرواية الثانية.

الثاني: إن المنتقل إلى الوارث عبارة عما تركه الميت فلا بد في انتقال شيء منه إلى وارثه من إحراز ذلك وأنه داخل فيما تركه كالمال ونحوه.

وأما الصفات القائمة بالشخص كالشجاعة أو العدالة وغيرها فلا معنى لانتقاله إلى الوارث كما هو ظاهر، والوجدان يكذبه. والولاية في المقام لا يعلم أنها داخلة في عنوان ما ترك أو أنها من قبيل الأوصاف القائمة بنفس النبي(ﷺ) أو الإمام(عليه السلام). فلا تتم دلالة الحديث على ثبوت الولاية المطلقة للفقيه.

الثالث: إن هذه الرواية قد صرحت بما هو الموروث حيث أنها ذكرت أنهم ورثوا أحاديث.

فليس الورث عبارة عن الولاية أو غيرها.

والحق في فهم المقصود من هذه الرواية، إن الفقهاء ورثة الأنبياء وحملة علمهم وأحكامهم فلا بد لهم من معرفة أحوال الناس حتى يجدوا أهل هذا العلم ليأخذوا منهم، لأن مدعي العلم بعد النبي(ﷺ) كثير والجميع ليسوا قائلين بالصواب ولا آخذين من مشكاة النبي(ﷺ) بل أكثرهم يدعونه بمجرد الأهواء طالبين للتقدم والرياسة تابعين للشيطان والنفس الأمّارة بالسوء.

وإنما القائلون بالحق الآخذون له من منبع الرسالة هم أهل البيت(عليهم السلام) الذين عصمهم الله تعالى من الخطأ والخطل وطهرهم من الأرجاس والزلل، واختارهم لإرشاد الخلائق إلى الطريقة الغراء وهدايتهم إلى الشريعة البيضاء في كل عصر واحداً بعد واحد لئلا يكون للناس عليه حجة فوجب أخذه عنهم إلى قيام الساعة، وقد نبه(عليه السلام) على هذا المعنى في ذيل الرواية بقوله: «فإن فينا أهل البيت... الخ».

إن قلت: إن هذه الرواية تنافي ظاهراً ما دلّ من الآيات والروايات على إيراثهم.

قلت يمكن الجواب عنه: بأن الأنبياء لم يكن من شأنهم وعادتهم جمع الأموال كما

هو شأن أبناء الدنيا، وهـذا لا ينـافي إيـراثهم مـا كـان في أيـديهم مـن الـضروريات كالمساكن والمركوب والملبوس ونحوها.

أو أن المراد، أن الأنبياء من حيث أنهم أنبيـاء لم يورّثـوا ذلـك. يعنـي أن إيـراث النبوة ومقتضاها ليس ذلك.

ولكن مع ذلك، فإن سند هذه الرواية لا يخلو عن اشكال. فإن فيها أبو البختري واسمه وهب بن وهب فقد قال العلامة الحلي(رحمه الله): إنـه كـان قاضـياً كـذّاباً عاميـاً، ونقل الكشي(رحمه الله) عن الفضل بن شاذان أنه من أكذب البرية. وقـال الـشيخ(رحمه الله): إنه ضعيف عامي المذهب[1].

وقال النجاشي عنه: روى عن أبي عبد الله(عليه السلام) وكان كذاباً[2].

بقي الكلام في مشهورة أبي خديجة حيث ورد فيها: «قل لهـم: إيـاكم إذا وقعـت بينكم خصومة أو تدارى في شيء من الأخذ والعطاء أن تحاكموا إلى أحد من هـؤلاء الفساق اجعلوا بينكم رجلاً قد عرف حلالنا وحرامنـا فـإني جعلتـه علـيكم قاضـياً وإياكم أن يخاصم بعضكم بعضاً إلى السلطان الجائر»[3].

ووجه الاستدلال بها، من جهة توهم أن القاضي له الولاية عـلى أمـوال النـاس وأعراضهم.

ويندفع، بـأن القـضاء غـير الولايـة، ولا ولايـة للقـاضي عـلى أمـوال النـاس وأعراضهم.

وأما الاستدلال بإطلاق الحجة على العلماء في التوقيع المتصور حيث قال(عليه السلام): «فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله»[4] فلا دلالة فيه على الولاية.

---

(١) لاحظ لذلك الشيخ الكليني: المصدر المتقدم/ ٢، ٢٥.

(٢) أحمد بن علي النجاشي: رجال النجاشي/ ٤٣٠.

(٣) الحر العاملي: المصدر السابق/ ٢٧، ١٣٩، ح٦، باب وجوب الرجوع في القضاء والفتوى...

(٤) الحر العاملي: المصدر المتقدم/ ٢٧، ١٤٠، ح٩، الباب السابق.

لأن الحجة مناسبة للإفتاء والقضاء لأن معناها تنجز الأحكام على الناس بهم، ولا تتناسب الولاية على التصرف في الأموال والأنفس كما لا يخفى.

فالمحتمل، أن الفقيه ليس كالإمام(عليه السلام) في وجوب الإطاعة إلاّ في تبليغ الأحكام فيما إذا كان واجداً لشرائط التقليد فلا تجب إطاعته في الأمر بإرسال الأخماس والزكوات ونحوهما.

هذا تمام الكلام في الولاية بالمعنى الأول.

وأما ثبوت الولاية بالمعنى الثاني:

فقد استدل عليه ببعض ما أسلفناه وأسلفنا الجواب عنه كقوله(عليه السلام): «العلماء ورثة الأنبياء».

ومنها: التوقيع المبارك المنسوب إلى صاحب الأمر(عجل الله فرجه)، نقله الصدوق عن محمد بن محمد بن عصام عن الكليني عن إسحاق بن يعقوب قال: سألت محمد بن عثمان العُمري أن يوصل لي كتاباً قد سألت فيه عن مسائل أشكلت عليّ فورد التوقيع بخط مولانا صاحب الزمان(عجل الله فرجه): «أما ما سألت عنه أرشدك الله وثبتك...» إلى أن قال: «وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنهم حجتي عليكم، وأنا حجة الله...إلى آخره»[1] وعن الشيخ(رحمه الله) روايته في كتاب الغيبة[2].

والرواية من جهة إسحاق بن يعقوب وهو أخو الكليني، وفي خبر الإكمال؛ «والسلام عليك يا إسحاق بن يعقوب»[3]، وهذا لم يوثق في كتب الرجال. قال صاحب القاموس(رحمه الله): لم أقف فيه إلاّ على رواية غيبة الشيخ بإسناده عن محمد بن يعقوب.

---

(١) الحر العاملي: المصدر المتقدم.

(٢) الشيخ الطوسي: الغيبة الطوسي/ ٢٩١، تحقيق: الشيخ عبد الله الطهراني، والشيخ علي أحمد ناصح، مؤسسة المعارف الإسلامية ـ قم المقدسة..

(٣) الشيخ الطوسي: المصدر المتقدم/ ٢٩٣.

وفي سند الشيخ ابن عطام، وإن لم يذكر في كتب الرجال بمدح ولكن كونه من مشايخ الصدوق ونقله عنه مرتضياً عليه لعل ذلك يكفي في الاعتماد غليه.

ولكن يبقى الإشكال في إسحاق بن يعقوب.

اللهم إلاّ أن يقال، إن نقل الكليني عنه يدل على اعتماده عليه.

ولكن في النفس منه شيء وهو أن الكليني لم يذكر الرواية في الكافي.

ودلالتها تارة من ناحية قوله(عليه السلام): أما الحوادث الواقعة... إلى آخره.

وتقريبها، إن الأمور المستحدثة في العالم لا بد من الإستئذان فيها من الرواة والعلماء، وذلك، أن الإمام(عليه السلام) حكم بإرجاع نفس الوقائع إلى الرواة لا الرجوع في حكمها إليهم.

مضافاً، إلى أن الرجوع في الأحكام إلى الفقهاء من أصحابهم(عليهم السلام) كان في عصر الغيبة من الواضحات عند الشيعة، فيبعد السؤال عنه أو إلى عده من المشاكل كما في صدر الحديث.

وهذا بخلاف ثبوت الولاية للعلماء فإنه أمر مشكل غير معلوم فلا مانع من الاستفسار والسؤال.

فالمظنون، أن السؤال كان بهذا العنوان. فإرادة السائل الاستفسار عن تكليفه أو تكليف الأمة في الحوادث الواقعة لهم.

وأخرى، من ناحية التعليل، «فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله عليهم»، فإن ظاهر المقابلة بين حجية نفسه وحجيتهم تساوي اللفظين بحسب المفهوم والانطباق.

والإمام حجة عندنا في المراحل الثلاثة في الإفتاء والقضاء وإعمال الولاية، ولا يجوز التخلف عنه في هذه المراحل بلا إشكال. كذلك للفقهاء، فإنه كلما ثبت من الشؤون الثلاثة للإمام(عليه السلام) يثبت للفقهاء أيضاً من قبل الإمام(عليه السلام).

ويكن المناقشة في الاستدلال بكلا المقطعين:

أولاً: إن جعل الولاية الفعلية لجميع الفقهاء في عصر واحد محل منه، وهذا ما

يعبر عنه بالإشكال الثبوتي. بل يمكن أن يقال، أن هذا الكلام من الإمام(عليه السلام) على سبيل القضية الحقيقية وليس بجعل ابتدائي من الإمام الثاني عشر(عجل الله فرجه). خاصة مع ملاحظة باقي ما يستدل على ولاية الفقيه، فيقتضي ثبوت هكذا معنى في زمانهم(عليهم السلام).

ثانياً: لو رجعنا إلى التوقيع وتأملناه يظهر لنا، أن كتاب إسحاق بن يعقوب إلى الناحية المقدسة كان مشتملاً على أسئلة كثيرة معهودة للسائل كحرمة الفقاع، وأمر المنكرين للإمام(عجل الله فرجه) من أهل بيته، وقضية أموال شيعته وإلى غير ذلك.

فكل جواب منه(عليه السلام) أشير إلى سؤال منها. فقد يكون قوله(عليه السلام): «وأما الحوادث الواقعة» لعلها إشارة إلى حوادث وقعت في السؤال ولا يعلم ما هي. فحينئذٍ يشكل الحمل على الاستغراق.

اللهم إلاّ أن يقال، إن عموم التعليل يقتضي كونهم حجة في جميع الحوادث. فتأمل.

ثالثاً: إن مناسبة الحكم والموضوع تقتضي وجود قدر متيقن من الجواب، وهو الأحكام الشرعية للحوادث، فإن رواياتهم(عليهم السلام) مناشيء ومدارك لاستنباط الأحكام الشرعية الكلية. فالأخذ بالإطلاق مع وجود القدر المتيقن مشكل، فتأمل.

رابعاً: إن الظاهر من الحجية هو الاحتجاج بالنسبة إلى كشف الأحكام الكلية الواقعية ولا تناسب الولاية كما لا يخفى.

وتعليل الإمام(عليه السلام) بكونهم حجتي بإضافة الحجة إلى نفسه(عليه السلام)، لعله من جهة أنه(عليه السلام) هو المأمور أولاً ببيان أحكام الله تعالى والفقهاء نواب عنه في ذلك، أو من أجل أن الإمام(عليه السلام) يستشهد بالعلماء يوم القيامة في تبليغ الأحكام كما يستشهد الأنبياء بالأوصياء.

فالتعبير بحجتي من أجل ذلك، ومن أجل أن وجوب الرجوع في الأحكام إليهم إنما ثبت بأمرهم(عليهم السلام) فهم واسطة في ذلك وبه يصح أن يقال إنهم حجتي.

وأما ما ذكره الشيخ الأعظم الأنصاري(رحمه الله)، من أن الظاهر وكول نفس

الحادثة إليه ليباشر أمرها مباشرة أو استنابة لا الرجوع في حكمها إليه.

مدفوعة، لأن المذكور في الحديث هو الأمر بالمراجعة في الحوادث إلى العلماء لا إرجاع نفس الوقائع إليهم ليتصرفوا فيها بل يجب عليهم السؤال عن حكمها لأنه(عليه السلام) قال: «ارجعوا فيها إلى رواة أحاديثنا» ولم يقل: ارجعوها إلى رواة أحاديثنا.

وهذه العبارة في إفادة ذلك أمر عرفي. ونظيره يقع في المحاورات كثيراً فيقال راجع فلان في الأمر الفلاني أي شاور معه واستفسر حكمه.

وعلى أي حال، فإن سند الرواية مخدوش فلا يحصل الوثوق بها.

فالمتحصل، إن الفقيه لم تثبت له الولاية بالمعنى الثاني إلاّ في بعض موارد ذكرها الفقهاء.

هذا والحمد لله على توفيقه

بيان توضيحي لزوال الشمس

غالباً ما يعبر الفقهاء[١] عن الزوال بأنه[٢]: «وجود الظل بعد انعدامه» في بعض المناطق، وبـ «زيادة الظل بعد نقصانه» في المناطق الأخرى[٣].

ولمعرفة ذلك والوصول إلى حقيقة هذا التعريف لزوال الشمس لا بد لنا من بيان خمس مقدمات:

المقدمة الأولى: في بيان بعض المصطلحات:

خط الاستواء: وهو دائرة وهمية درجته صفر يقع في منتصف المسافة بين قطبي الأرض يمر من نقطة المشرق إلى نقطة المغرب وينصّف الكرة الأرضية إلى نصفين(شمالي) و(جنوبي).

خط نصف النهار: وهو الخط الوهمي المار من نقطة الجنوب إلى نقطة الشمال والمنصّف للكرة الأرضية إلى(مشرق) و(مغرب).

---

(١) كما جاء ذلك عن كثير (منهم) كالعلاّمة الحلي: قواعد الأحكام ٢، ٢٤٦. والشيخ الطوسي: النهاية٤ ١،٣٣. والمحقق الكركي: جامع المقاصد ٢، ١٢. والسيد محمد العاملي: المدارك ٣، ٦٤. والمحقق السبزواري: ذخيرة المعاد ٢، ١٩٠، والفاضل الهندي: كشف اللثام ٣، ٢٤، والشيخ يوسف البحراني: الحدائق ٦، ١٥٦، والسيد محمد جواد العاملي: مفتاح الكرامة ٥، ٥٢، والشيخ محمد حسن النجفي: جواهر الكلام ٧، ٩٧، وغيرهم.

(٢) لا يخفى أن هذا التعبير فيه مسامحة وتجوز إذ أن الزوال للشمس وأما وجدان الظل أو زيادته فهو كاشف عن تحقق الزوال وليس هو نفس الزوال.

(٣) سيأتي لاحقاً أن العبرة في وجدان الظل.. أو زيادته.. ليس بالمكان فحسب بل للوقت دخالة في ذلك، إذ أن البلدان التي يكون الزوال فيها بوجدان الظل ذلك في يوم أو بيومين فقط حسب الموقع دون سائر أيام السنة.

خط الأفق: وهو الخط الوهمي المنصّف للكرة الأرضية إلى(أعلى) و(أسفل).

الخطوط الطولية: وهي أنصاف دوائر وهمية شاقولية متساوية تتقاطع عند القطبين وبالتالي فهي ليست متوازية، عددها ٣٦٠ خطاً، يبتعد أحدها عن الآخر درجة، والمسافة بينهما ليست ثابتة. وأكبر مسافة تعادل ١١١ كم. ويعتبر خط غرينتش الذي يمر في إنكلترا هو الخط الأساسي لها وقيمته هي(٠) طول وتتزايد باتجاه شرقي خط غرينتش حتى تبلغ(١٨٠) وتزايد قيمتها باتجاه غرب خط غرينتش حتى تبلغ(١٨٠) غرباً وتسمى ناقص(١٨٠).

الخطوط العرضية: هي دوائر وهمية أفقيه عددها ١٨٠ دائرة تبدأ من خط الاستواء الذي قيمته(٠) ـ وهي موازية له ـ ثم تزداد شمالاً وجنوباً فتصل إلى نقطة القطب الشمالي والتي تساوي(+٩٠) أو(٩٠) شمال والقطب الجنوبي وهو(ـ٩٠) أو(٩٠) جنوب وتفصل بين هذه الدوائر المتوازية مسافات متساوية تعادل حوالي ١١١ كم.

المقدمة الثانية: يبلغ محيط الكرة الأرضية(٣٦٠)، ومن الطبيعي أنها لدى التقسيم أرباعاً يكون كل ربع منها(٩٠).

المقدمة الثالثة: إن الشمس عندما تكون على خط الاستواء يكون ذلك اليوم هو يوم التحويل حيث تبدأ مسيرتها بعد ذلك إلى الشمال ويكون ذلك في السنة مرتين.

المقدمة الرابعة: إن الشمس حيث تكون في يوم التحويل على خط الاستواء تبدأ بعد هذا اليوم بالميل إلى جهة الشمال مثلاً ولكنها لا تصل إلى القطب الشمالي وهو على رأس(٩٠) بل غاية ما تصل إليه(٢٣.٥) وتسمى هذه المنطقة بالميل الكلي ثم تعود الشمس مرة أخرى إلى خط الاستواء لتأخذ طريقها من جديد إلى جهة الجنوب لتصل إلى الميل الكلي على رأس(٢٣.٥) من جهة الجنوب ثم تعود مرة أخرى إلى

خط الاستواء لتسير إلى جهة الشمال وهكذا[1].

المقدمة الخامسة: من خلال سير الشمس من خط الاستواء إلى الشمال، ومن ثم رجوعها إلى خط الاستواء ومنه إلى الجنوب، ومن الجنوب راجعة إلى خط الاستواء من جديد تحدث عندنا الفصول الأربعة «الصيف والخريف والشتاء والربيع»[2].

بيان ذلك: إذا بدأت الشمس في مسيرها من خط الاستواء نحو الميل الكلي الشمالي يبدأ فصل الربيع ويسمى ذلك بـ ـ الاعتدال الربيعي ـ. وحيث تصل إلى الميل الكلي الشمالي وهو على رأس٢٣.٥ يكون ـ الانقلاب الصيفي ـ. وهو أطول أيام السنة لساكني الجهة الشمالية. وبرجوعها إلى خط الاستواء يبدأ فصل الصيف. وبعد ستة أشهر تصل الشمس إلى خط الاستواء مرة أخرى بعد انطلاقها منه لتبدأ مسيرها بالاتجاه إلى جهة الجنوب، وبذلك يبدأ فصل الخريف ويسمى بـ ـ الاعتدال الخريفي ـ. وبعد مسيرة ثلاثة أشهر تصل الشمس إلى الميل الكلي الجنوبي على رأس(٢٣.٥) من خط الاستواء ويسمى بـ ـ الانقلاب الشتوي ـ، وهو أطول أيام السنة لساكني تلك الجهة وبرجوعها ينتهي فصل الخريف ليبدأ بسيرها إلى خط الاستواء فصل الشتاء وعند وصولها إلى خط الاستواء يكون ذلك اليوم يوم التحويل، وفيه يتساوى الليل والنهار.

وبعد أن فرضوا بين خط الاستواء وبين كل ربع(٩٠) فقد فرضوا خطوطاً موازية لخط الاستواء وبعيدة عنه على كل درجة وسميت بالخطوط العرضية وبهذا تمكنوا من معرفة بُعدِ البلدان عن خط الاستواء، فيقال البلدة الفلانية تبعد عن خط الاستواء بكذا مقدار من الدرجات وهكذا.

---

(١) وتكون الشمس تقطع المسافة بين الخط والميل من كل طرف بثلاثة أشهر، لذلك كانت السنة ١٢ شهراً.

(٢) مما تقدم يتضح لنا أن الشمس تكون على خط الاستواء في السنة مرتين تبدأ منه إلى الشمال فتقطع ثلاثة أشهر صاعدة وثلاثة نازلة إليه لتصل إليه فتبدأ مسيرتها نحو الجنوب فتعود بعد طي ستة أشهر ذهاباً وإياباً وبها تنتهي السنة.

أما لمعرفة تباعد البلدان بعضها عن الآخر فقد احتاجوا إلى فرض خطوط أخرى وجعلوا مبدأها بلدة ـ غرينتش ـ في لندن لأنها كانت نهاية العمارات وفرضوا أنصاف دوائر وهمية تبدأ وتنتهي بالقطبين وهي(١٨٠) نصف دائرة إلى مشرق غرينتش(١٨٠) نصف دائرة إلى مغربها وسميت هذه الخطوط الطولية وهي موازية لخط نصف النهار المار على القطبين الشمالي والجنوبي.

النتيجة:

بناءاً على ما تقدم، فإن البلدان على قسمين:

القسم الأول: يقع بين خط الاستواء والميل الكلي «الشمالي أو الجنوبي».

القسم الثاني: يقع بعد الميل الكلي «الشمالي أو الجنوبي».

أما ما كان من القسم الأول: فإن الشمس في مسيرها من خط الاستواء شمالاً أو جنوباً متجهةٌ إلى الميل تمر بخطوط العرض لتلك البلدان وحيث تصل إلى كل درجة عرضية فتكون فوق رؤوس أهل تلك البلدان فينعدم الظل عندهم فيها إذا وصلت الشمس إلى خط نصف نهار تلك البلدة ويكون الزوال فيها بأول حركة للشمس حيث يوجد الظل بعد الانعدام، وتكرر هذه الحالة[1] برجوعها من الميل إلى خط الاستواء.

فيظهر من ذلك: إن الشمس ينعدم ظلها مرتين في السنة في كل بلدة تقع بين خط الاستواء والميل وهو عندما تكون الشمس فوق خط العرض الخاص بذلك البلد ـ يوم في صعودها إلى الميل ويوم في نزولها إلى خط الاستواء ـ أما بقية الأيام يكون الزوال فيها كحال سائر البلدان الواقعة بعد الميل من الجانبين وزوالها بزيادة الظل بعد نقصانه على البيان الذي سيأتي في القسم الثاني من البلدان.

---

(١) وهي حالة زيادة الظل بعد انعدامه إذ تتكرر ظاهرة كون الشمس فوق رؤوس أهالي البلدان الواقعة بين خط الاستواء والميل عند وصولها إلى الدرجة العرضية لتلك البلدان مرتين في السنة الأولى عند صعود الشمس من خط الاستواء إلى الميل، والثانية عند نزولها من الميل إلى خط.

أما البلدان الواقعة تحت نفس الميل من الجانبين الشمالي والجنوبي ـ أي على رأس٢٣.٥ ـ فإن الظل ينعدم فيها مرة واحدة في السنة وهو حين وصول الشمس إليها.

وأما البلدان التي تكون من القسم الثاني: وهي التي تقع بعد الميلين الشمالي والجنوبي فالنتيجة الحتمية فيها عدم انعدام ظل الشمس فيها طيلة أيام السنة، وذلك لأن الشمس لا تتعدى الميل لتكون على رؤوس أهل تلك البلدان الواقعة بعد الميل، بل هي منحرفة عنهم دائماً.

وينتج من ذلك: إنه لا بد من بقاء ظل للشاخص في تلك البلدان حين وصول الشمس إلى الخط الطولي لها وبعد تحركها عن خط نصف النهار يزداد الظل لاتجاه الشمس إلى المغرب ويكون ذلك علامة الزوال في تلك البلدان.

وبعبارة أخرى: إن البلدان الواقعة بعد الميلين الجنوبي والشمالي يكون زوالها عند زيادة الظل للشاخص بعد نقصانه دائماً لأن الشمس عند هؤلاء لا تصل إلى الخطوط العرضية المارة بهم لتكون على رؤوسهم فينعدم الظل حين وصولها إلى خط نصف النهار لتلك البلدة، بل هي دائماً منحرفة عنهم وتصل أشعتها فقط إليهم.

فيظهر من هذا، أنه لا بد في هذه البلدان من بقاء ظل للشاخص حين وصول الشمس إلى خط نصف النهار لتلك البلدة ويزداد ذلك الظل بعد تحركها عن خط نصف النهار باتجاه المغرب ويكون ذلك علامة الزوال في تلك البلدان.

وأما في البلدان الواقعة بين الميلين ٢٣.٥ وخط الاستواء:

ففي اليوم الذي تصل فيه الشمس إلى خط العرض الخاص بها يكون الزوال لتلك البلدان الواقعة على تلك الدرجة هو وجود الظل بعد انعدامه فيها عند تجاوز الشمس خط نصف النهار.

وفي بقية الأيام يكون الزوال كما هو في البلدان الواقعة بعد الميل من الجانبين الزوال فيها هو زيادة الظل بعد نقصانه على التقريب الذي مرّ بيانه.

والحمد لله رب العالمين

اليتيم في القرآن والسنة[١]

لقد نال الطفل الأهمية البالغة في الشرائع السماوية المقدسة فكان محطاً للعناية الإلهية تحوطه بعين اللطف والرعاية، ذلك لأن الأطفال هم الأساس لبناء المجتمع وعلى عواتقهم تقع مسؤولية هذا البناء الشامخ. فالتربية الصالحة لزهور الغد كفيلة بخلق جيلٍ تحقق للأمة سعادتها وهناءها.

أما إهمالهم وعدم رعايتهم فنتيجته الحتمية هو إيجاد جيلٍ ينمو في كيان الأمة مما يؤدي إلى تدهورها وسقوطها.

ومن خلال هذه العناية بالطفل نرى اللطف الإلهي يتجلى في صورة أخرى فيعالج مشكلة يعاني منها المجتمع في جميع الأدوار والمراحل تلك هي مشكلة (اليتامى) حيث يفقد الأطفال اليد التي تحنو عليهم وتتلطف بهم فيكونوا عرضة لأعاصير هذه الحياة العاتية وموردا لتجمع الرذائل والموبقات وبذلك تفقد الأمة من أعضائها ما بهم تشد أزرها ويخسر المجتمع أفراداً كانت الاستفادة منهم حتمية لو حصل لهم من يبادلهم العطف واللطف والرعاية الطيبة.

من هو اليتيم؟

اليتيم كما تطالعنا به كتب اللغة هو المفرد من كل شيء يقال ـ بيت يتيم ـ و ـ بلد يتيم[٢] ـ. ومن الناس من فقد أباه ولم يبلغ مبلغ الرجال. ومن البهائم من فقد أمه فكان يتيماً.

---

(١) نلفت عناية المطالع الكريم أن المؤلف السيد الشهيد (قدس سره) له كتاب عن اليتيم بعنوان (اليتيم في القرآن والسنة) وهو كتاب مهم غني في مواضيعه، ويبدو أن هذا الموضوع هو انطلاقة بحث لذلك الكتاب.

(٢) انظر لذلك ابن منظور: لسان العرب/ (مادة يتم)، والفيروزآبادي: القاموس المحيط/ مادة (يتم).

وحيث كانت الكفالة في الإنسان منوطة بالأب كان فاقد الأب يتيماً دون فاقد الأم. أما في البهائم فالكفالة منوطة بالأم، لذلك كان فقدها موجباً لانفراد الحيوان الصغير وإطلاق عنوان اليتيم عليه.

ولم يحدد اللغويون نهاية لهذا العنوان، إلاّ أنه في اصطلاح الفقهاء يتمشى هذا الاسم مع الطفل فإذا بلغ بإحدى العلامات التي قررتها الشريعة المقدسة من السن أو إنبات الشعر أو المني الدالة على وصوله إلى مدارك الرجال أو وصول البنت إلى مدارك النساء زال عنه أو عنها اليتم.

جمعه أيتام ويتامى ويتيمة وميتمة ويتائم، وعن بعض العرب هو في ميتمةٍ وأرامل.

اليتيم في الشرائع السابقة:

واليتيم بعد هذا، طفل فقدَ كفيله، ولكنه لم يفقد الرحمة الإلهية حيث أحاطته باللطف. فكانت له الحصة الوافرة في التشريع من الحث على ضرورة التزامه وبعدم التجاوز على حقوقه والترغيب في جلب وده. والتلطف به لئلا يشعر بالوحدة والانعزال ولئلا يكون فريسة لشهوات أولئك الذين لم تجد الرحمة إلى قلوبهم سبيلاً.

ولم يكن هذا المعنى من مختصات شريعتنا الإسلامية المقدسة بل كانت هذه سنة الله في خلقه قل أن يكون للإسلام كيان.

فرعاية اليتيم والمحافظة عليه كانت من جملة بنود الميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل. فالقرآن الكريم يحدث النبي الأكرم(ﷺ) عن هذا الميثاق ويوضح له فقراته في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾[1].

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٣.

هذه البنود في هذا الميثاق لا خصوصية فيها للاختصاص ببني إسرائيل دون غيرهم من البشر. إنها الركائز الحقيقية لدين الله الحنيف في جميع شرائعه المقدسة:

﴿لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

التوحيد بالله وعدم الشرك هو البند الأول في هذا الميثاق الإنساني وهو كل شيء في هذه الحياة فلا عبادة لغير الله ولا خضوع لغير ذاته المقدسة فإليه لا بدّ من الاتجاه في كل صغيرة وكبيرة وفي السراء والضراء، أما الاتجاه إلى غيره والعبادة لسواه فهو الشرك به: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [1]، حيث لا يستقيم نظام الكون لو فسحنا المجال لشريك له عزَّ وجلَّ بل لا بدّ من السير على النهج الذي يضمن للحياة استقامتها وللمجتمع سعادته وهذا ما لا يحصل إلاّ بتوحيد الله والعبودية له:

﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [2].

وإذا ما انتقلنا في الآية الكريمة نجدها تطالع الرسول الأكرم(ﷺ) ببيان الفقرة الثانية من ذلك الميثاق فإذا بها تصرح: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا﴾.

وإذا ما أحكمت الفقرة الأولى وعُرف أن الوحدانية لله عزَّ وجلَّ لا شريك له كانت الفقرة الثانية تشرح لهم عرى الوحدة الاجتماعية وفي مقدمتها الإحسان إلى البشر.

فبالإحسان إلى البشر تتماسك أواصر المجتمع وبالعطف على الضعيف تموت العوامل الهدامة لبناء الأمة فتحل بمواردها المحبة والسلام والعطف والرعاية من البعض إلى الآخرين حيث يتحسس القوي أحوال الضعيف فيبادله الآخر عطفه ومحبته وبذلك يجد الخير طريقه في القلوب الآمنة الوادعة دون أن تكون موطناً للحسد والنفاق والحقد وبقية الموبقات التي تجر على المجموعة البشرية الآلام

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.

(٢) سورة الإخلاص، الآيات: ١ ـ ٤.

والمصائب، ولكن للإحسان درجات يتقدم البعض فيها على الآخر طبقاً للأهم ورعاية لتأخير المهم.

فالإحسان حسن ولكنه في الدرجة الأولى لا بدّ أن يكون إلى الأبوين لأنهم أصل الإنسان، وعلى هذا الأصل يتكىء الفرع فهما «الأبوان» مصدر العاطفة ومنبع الحنان ومهد اللطف والرعاية.

ولا بدّ من مقابلة جهودهما المبذولة بالبر والإحسان وقد صرح القرآن الكريم بالإيصاء بهما في غير موضع، وكذلك السنة النبوية الشريفة تطبيقاً لـ «قاعدة لزوم شكر المنعم» وهل هناك أقرب إلى الولد من أبويه ينعمان عليه لو استثنينا المنعم الحقيقي والذي هو الله جلت عظمته؟

أما الفقرة الثالثة في هذا الميثاق فقد كانت: ﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾.

فالإيصاء بقرابة الإنسان وهم الحواش من جملة ما يحقق البر والإحسان ويحقق الرحمة والتآلف بين أفراد المجتمع السعيد.

فالمجتمع ليس إلاّ هؤلاء الأفراد المجتمعون وسعادته تتوقف على ما يربط بينهم وما يفرقهم من التودد والتحابب فيما بينهم وهذا ما يتمثل في صورة الإحسان والخير، ولكن حواشي المحسن مقدمون على غيرهم بعد أبويه إنهم رحم المنفق ولحمته وهم أولى به من غيرهم.

وأما الفقرة الرابعة في هذا الميثاق الإلهي هو: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾.

وحيث تم الإيصاء بالإحسان بوشائج النسب ولحمته من الأصل والحواشي كانت الآية الكريمة تنحو بفقراتها الميثاقية إلى الإيصاء بما يتعدى الأصل والأسرة النسبية.

فشملت موارد الإحسان الأفراد الآخرين من أسرة الإنسان الكبرى في هذه الحياة، وهم أبناء نوعه من البشر دون أن تقصر بالإحسان على من يتصل به بسبب من أبٍ ورحم بل هناك في الناس من يحتاج إلى الإحسان وتتوقف حياته على الرعاية به خصوصاً إذا كان يتيماً واليتامى هؤلاء الناس الأبرياء الذي شاءت الحكمة الإلهية

أن تحجب عنهم اليد الكفيلة فعوضتهم بأيدٍ أخرى محسنة تحوطهم بكل معنى الرعاية والمحبة فجعلت الرحمة الإحسان من جملة القواعد التي يتركز عليها دين الله القويم. فكان من جملة ما اشتمل عليه الميثاق اللذين أخذه الله على بني إسرائيل، وفي الحقيقة على البشر بأجمعهم لئلا يفقد اليتيم من يرعاه فيبقى نتيجة الإهمال عضواً عاطلاً وكلاً على المجموعة الخيرة.

وينتقل الدور من الإيصاء والترغيب إلى التطبيق والإظهار العمليين فيظهر الله للجماعات مدى التأثير الذي يخلفه هذا العمل الإنساني «فعن رسول الله(ﷺ) أن عيسى بن مريم(عليه السلام) مرّ بقبر يعذّب صاحبه ثم مرّ به من قابل فإذا هو ليس يعذب فقال يا رب مررت بهذا القبر عام أول فكان صاحبه يعذب ثم مررت به العام فإذا هو ليس يعذب فأوحى الله عزَّ وجلَّ إليه أن أدرك له ولد صالح فأصلح صريقاً وآوى يتيماً فغفرت له بما عمل ابنه»[١].

وهذه طريقة ناجحة لترغيب الأفراد في التسابق على أعمال الخير فقد غفر الله لعبده المعذب لأنه أدرك له ولد صالح فأصلح طريقاً وآوى يتيماً فكان جزاؤه من الله النجاة من العذاب لينال بذلك ثمار تربيته أما جزاء ذلك الولد فأمره إلى الله وهو اللطيف بعباده.

وكما كان الترغيب أداة لحث البشر على التسابق المذكور نرى الكتاب المجيد سلك طريقة تحذيرية يخوّف بها الأفراد وليخشوا على أطفالهم لو ظلموا اليتامى وتجاوزوا على حقوقهم بأن يكون الجزاء هو نفس ما أجروه على أيتام الناس بابتلاء أيتامهم فليحذروا اليوم الذي يسيء الناس إلى أطفالهم كما أساؤوا إلى أيتام الناس ويبدو لنا هذا المعنى جلياً في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾[٢].

---

(١) السيد حسين البروجوردي: جامع أحاديث الشيعة/ ١٦، ٢٤٤.

(٢) سورة النساء، الآية: ٩.

فعن الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام): «إن الله أوعد في مال اليتيم عقوبتين ثنتين أما أحدهما فعقوبة الدنيا قوله: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ ... ﴾.

قال: يعني بذلك (ليخش) إن أخلفه في ذريته كما صنع بهؤلاء اليتامى[1].

فلرعاية الأيتام آثار وضعية دنيوية فكل شخص عرضة للموت وأبناؤه عرضة لليتم فليتق الله في هؤلاء لئلا يُساء إليهم كما تجاوز، وبالعكس إن رعايتهم وتفقدهم والمحافظة على الواجبات يكسبه النفع الدنيوي بالنسبة إلى الذرية لو تركهم كفيلهم وقد لفه رداء الموت.

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾[2].

لقد حفظ لهذين اليتيمين كنزهما المذخور جزاء لصلاح أبيهما. وذكرت (كتب التفسير) أنه كان بين هذا الأب واليتيمين سبعة آباء، وهكذا كان صلاح الآباء مثمراً في حفظ حقوق الذرية ورعاية ما أودع لهما من كنزٍ مالي أو علمي على اختلاف فيما ذهب إليه علماء التفسير من نوعية ذلك الكنز.

إن هذه الآثار الدنيوية هي النتائج المترتبة على حسن نية المرء في حياته تجاه الآخرين فكما تدين تدان وجلت عظمته حيث يقول: ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴾[3].

ولا بدّ للمرء أن يحب لغيره ما يرغبه لنفسه ويدفع عنهم ما لا يرغب فيه لينتظم بذلك سلك الاجتماع ويأمن الباقون من الشرور التي تصدر من الأفراد وبذلك تسير الحياة هادئة مطمئنة فيؤدي كل فردٍ ما يناط به.

---

(١) الشيخ الطبرسي: مجمع البيان/ ٣، ٢٥.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٨٢.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧.

اليتيم في الإسلام:

لقد اعتنى الإسلام بأمر اليتيم وحث على رعايته وحذر من التجاوز على حقوقه وقد ظهر ذلك جلياً في الآيات والأخبار والتي تشكل بدورها مجموعة كبيرة تلفت نظر الأفراد إلى هذه الناحية.

ولا غرابة في هذا الحشد الكثير من الآيات والروايات لو لاحظنا طبيعة القوم في أول الدعوة وظروف المنطقة في الجزيرة العربية مما كان يستدعي ذلك.

لقد أطلّ الإسلام بنوره على الجزيرة العربية والقوم لا همّ لهم إلاّ الغزو والنهب وتقدم القوي على الضعيف ليكون طعمة سائغة له فيرزح تحت الضغط الذي يواجهه من الطبقة المتجاوزة.

الطبقة المتكالبة لا عمل لها سوى الغزو والحرب والنهب من وراء ذلك لتعيش على رأسمال الغنيمة المغتصبة فلم يجد الضعيف ملجأً من هذه القوى العاتية فكيف باليتيم والذي يأتي في الرعيل الأول من مسيرة الضعفاء.

مجتمع قاسٍ لا يرى كرامة للإنسان مهما كانت شخصيته ما دام لا يتمكن من حفظ نفسه أمام السيف والقوة.

واليتيم من بين هذه المجموعة الضعيفة كان له الحظ الوافر من الخضوع لتجاوز الأقوياء فلم يجد من يمد له يد العون ليحفظ له حقوقه ويراعي له شؤونه.

ولكن الإسلام مبدأ الرحمة والعطف والذي جاء ليأخذ بيد الضعفاء فيرفع بهم إلى المستوى الذي يجدون فيه حقوقهم كاملة غير منقوصة مهما كلف الثمن فهو مبدأ العدل والمساواة.

لذلك لم نجد غرابة لو كانت حصة اليتيم وافرة في مقام التشريع فيلقى الأهمية البالغة في لزوم المواظبة على رعايته والمحافظة على حقوقه سواءً في الكتاب المجيد أو في السنة على لسان أمناء الوحي.

اليتيم والموسوعة التشريعية:

لقد تناولت الموسوعة التشريعية أمر اليتيم من الجهتين الاجتماعية والمالية فشرعت له في هذين المجالين ما يحقق رعايته كفردٍ فقَدَ كفيله فأصبح محتاجاً إلى من يبادله الحب والحنان والتربية الصحيحة ليكون فرداً صالحاً لا تؤثر عليه حياة اليتم. وما يحفظ له ماله الذي كان عرضة للاستيلاء عليه من جانب الأقوياء.

اليتيم وحقوقه الاجتماعية:

لقد تنوع الأسلوب التشريعي في بيان حقوق اليتيم الاجتماعية فقد كانت التعليمات تصدر إلى النبي الأكرم(ﷺ) بالإيصاء على رعاية هذه الفئة ومعاملتها بما ينسيها مرارة اليتم، وإن كانت في الحقيقة هذه التحذيرات موجهة إلى أبناء الأمة برعاية هذه الفئة الضعيفة، ولكنها اتخذت من الرسول الأعظم(ﷺ) مركزاً للخطاب مذكّرة إياه الأدوار التي عاناها يوم كان يتيماً فقد أباه وهو طفل فقيّظ الله له عمه أبا طالب(عليه السلام) ليقوم على رعايته وتربيته.

لقد شاءت الحكمة الإلهية أن يذوق قائد الأمة الإسلامية ومحررها مرارة اليتم، وتمثّل أمامه أدوار الحرمان التي تمر على اليتيم في تلك المنطقة.

لذلك كانت الوصايا موجهة إليه لتأخذ من نفسه مأخذاً واقعياً فيبدأ بحفظ حقوق هذه الفئة ويطبّق ذلك تطبيقاً دقيقاً لتكون تلك المعاملة درساً إلى الآخرين.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾[1].

لقد أحسست أيها المشرع بهذا الشعور يوم ودع أبوك هذه الدنيا فكنت مسرحاً لهذه الحوادث فآواك الله بما أودعه في قلب عمك أبي طالب ليكفلك ويضفي عليك من الحنو ما ينسيك مرارة الألم، وذلك العم الحنون الذي جاهد على رعاية ابن أخيه في الوقت الذي كانت العرب تنظر إليه كسير الجناح يتيماً لا أب له.

---

(١) سورة الضحى، الآية: ٦.

إن أبناء الجزيرة فقدوا القيم الرفيعة في معاملة الطبقات الضعيفة فهم لا يرون شرفاً أعلى من القوة فالقوي سيد قومه ما دامت فيه القدرة على اغتصاب الآخرين.

ولقد اعتنى الإسلام فغير هذه المفاهيم الخاطئة وأصلح ما كان منها فاسداً فاختار من بين هذه المجموعة الضعيفة يتيماً كان محطاً للرحمة الإلهية في تبليغ رسالة السماء إلى أبناء الأرض ليعطي صورة واضحة عن القيم والملكات وليزيل عن الأذهان الصور الخاطئة والتي كانت تعبر عن الانحراف الذهني لأبناء الجزيرة المتكالبة.

قال تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾[(١)].

إنها نعمة عليه فقد آواه بأن كفله عماً رؤوفاً رحيماً وهداه بإتمام العقل وجعله بالمنزلة اللائقة لتحمل أعباء الرسالة والسفارة السماوية لأبناء الأرض.

وبعد أن أعادت الآية الكريمة صور الماضي على ذهن النبي الأكرم(ﷺ) كان الأسلوب يأخذ اتجاهه بشكل تحذيري جديد.

قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾[(٢)].

درس بليغ في التحذير من قهر اليتيم فلماذا هذا التطاول عليه من قبل الأقوياء الذين لا هم لهم إلاّ التغلب على الضعفاء، وهو خطاب للمشرع الأعظم ليتلقاه الجموع فيقف القوي عن التعدي على حقوق الآخرين.

ولماذا هذا القهر، وقد وجد اليتيم في الإسلام حصناً يحميه عن التطاول على حقوقه الاجتماعية والمالية.

أكرم اليتيم ولا تقهره. ففي كنف الإسلام يأمن الضعيف وفي رعاية التشريع يجد اليتيم تلك اليد التي تحنو عليه وتمسح على رأسه لتزيل غبار الذل فتضفي عليه جواً من الرحمة والحنان.

---

(١) سورة الضحى، الآية: ٧.

(٢) سورة الضحى، الآية: ٩.

وبعد ذلك كله، ففي هذه الآية الكريمة عرض لصورة من صور الضعف في نظر ذلك المجتمع المتأخر والذي لا يجد الضعيف يتيماً كان أو سائلاً في النفوس ما ينسيه أو يخفف عنه آلام الوحدة والانفراد.

فكيف يراد من هذا المجتمع أن يتحسس والشريعة المقدسة تريد له أن يكون كالبدن إذا اشتكى بعضه اشتكى كله وهو بعد هذا هيكل واحد يكمل بعضه بعضاً ويشد البعض منه أزر البعض الآخر.

ولم تقف الآيات القرآنية عند هذا الحد من بيان صور التحذير وتوجيه النصح في رعاية حقوق الطبقات الضعيفة بل كانت الدروس تتلاحق لتقف في وجوه المعتدين فظهرت نواياهم فيما يتصدون له من إقامة مفاهيم خاطئة يعتبرونها مقياساً لحياتهم الاجتماعية ولكن التنزيل المقدس يواجههم بالصراحة ويقرر فيها قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾[1].

ويحسب الإنسان أنه قد ترك سدى يطلق لنفسه عنان الشهوات ويختار لنفسه ما يشاء دون أن يحاسب على أفعاله فهو مخطىء حينما ينسج له مقاييس وهمية يبنى عليها واقعه الاجتماعي ليهرب من مواجهة الحقيقة ويبرر بذلك موقفه من موجات الظلم المتلاحقة الصادرة منه. إلاّ أن يد الرحمة تقف له بالمرصاد تحاسبه على كل صغيرة وكبيرة وتصحح له مفاهيمه الخاطئة.

يصرح الإنسان بأن كرامته من الله وإهانته منوطتان بتوفير الرزق أو تقتيره عليه: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾[2].

لقد جعل الإنسان هذا المقياس ركيزة يبنى عليها واقعه الاجتماعي حيث يصرح بأن توفير الخير عليه هو لكرامته عند الله بينما يعتبر تقتير ذلك إهانة له من الله.

---

(١) سورة الفجر، الآية: ١٤.

(٢) سورة الفجر، الآية: ١٥ ـ ١٦.

ولكن الحقيقة تكمن وراء كل هذا اللف والدوران إنه يجابه بها من القرآن الكريم حيث يقول عزَّ وجلَّ: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ [١]. إنه ظن خاطىء يلجأ إليه الإنسان في ذلك المعيار الذي كونه لكرامته وإهانته. إن الله جلت عظمته بيده كل شيء ورحمته أوسع من كل هذه الخيالات والتصورات فلا يوفر الرزق لكرامة الإنسان عنده وفي الوقت نفسه لا يقتر ويضيق الإنسان لمهانته عنده بل يعطي ويمنع حسب ما تقتضيه الحكمة الإلهية.

وإنما الإهانة لها أسباب توجهها ومن تلك الأسباب هو أن الإنسان يتجاوز على حقوق الآخرين: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾.

إنهم يمنعون الضعيف حقه ولا يكرمون اليتيم فيلجؤوه إلى الاستجداء والتسول ولهذا كانت المهانة متحققة نظراً لهذا السبب ولما سيأتي موضحاً بعد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [٢]، لذلك كان ربك بالمرصاد.

فهو في مقام الحساب الدقيق لا يترك الإنسان يقرر لنفسه مفهوماً خاطئاً يبرر من وراء ذلك أعماله التعسفية.

ويبقى الإنسان على هذه الحالة والظلم من أعماله وأفعاله ينصب به على الضعيف ولا يلتفت إلى النصائح التي كانت تواجهه من قبل القرآن الكريم فلم يتعظ بها ويحل اليوم الموعود وقد وصفه الله بعد هذه الآيات الكريمة تعقيباً لبيان حالة الغفلة التي تلف الإنسان وهو يتهرب من الواقع.

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ [٣].

وهل تنفعه الذكرى وقد فاتت الفرصة من بين يديه وكان بإمكانه أن يسارع إلى

---

(١) سورة الفجر، الآية: ١٧.

(٢) سورة الفجر، الآية: ١٨.

(٣) سورة الفجر، الآيات: ٢١ ـ ٢٣.

فعل الخير فيكرم اليتيم ولا يحاض على طعام المسكين ولا يأكل المال أكلاً لّما فيراعي الطبقة الضعيفة بما يمليه عليه الواجب في مجاليه الاجتماعي والمالي.

ولكن الإنسان ذلك المغرور المتخايل يطلقها صرخة مدوية وهو يحاسب النفس الأمارة بالسوء: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [(١)] ماذا قدم لحياته؟ وقد وقفت أمامه الطبقات الضعيفة تحاسبه وتطالب بحقوقها:

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [(٢)].

وفي الخبر عن النبي(ﷺ) أنه عاد علياً(عليه السلام) وكان يشتكي من ألم في عينه فإذا هو يصيح فيعوده النبي(ﷺ)، فيقول له: «أجزعاً أم وجعاً؟ فقال يا رسول الله: ما وجعت قط أشد منه. فقال: يا علي إن ملك الموت إذا نزل لقبض روح الكافر نزل معه سفود من نار فنزع روحه فتصيح جهنم. فاستوى علي(عليه السلام) جالساً، فقال يا رسول الله: أعد عليَّ حديثك، فقد أنساني وجعي ما قلت. قال: ثم قال هل يصيب ذلك أحداً من أمتك؟ قال: نعم حاكم جائر وآكل مال اليتيم ظلماً وشاهد زور»[(٣)].

هؤلاء الثلاثة يشكلون جبهة واحدة وعملها هو التعدي على حقوق الضعفاء والتجاوز على الآخرين.

واليتيم في التعدي عليه صورة ناطقة من صور التسلط القوي على الضعيف وتغلب الظلم على العدل وتقديم الباطل على الحق.

ومرة أخرى يقف القرآن بالمرصاد يحاسب الإنسان فيما يدعيه وباتجاره لنفسه من طرق المراوغة والهروب عن الحقيقة.

وفي هذا الصدد يسأل الحرث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف النبي(ﷺ) في ذنب أذنبه فيستفتي الرسول(ﷺ): «فأمره أن يكفر. فقال: لقد ذهب مالي في

---

(١) سورة الفجر، الآية: ٢٤.

(٢) سورة الفجر، الآيتان: ٢٥ ـ ٢٦.

(٣) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ ٦، ١٧٠.

الكفارات والنفقات منذ دخلت في دين محمد(ﷺ)»[١]: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾[٢].

وفي إطار هذا الجواب، تتمثل نفسية هذا المخلوق الشحيح يهرب من طرق الخير الموصلة إلى النتائج الحسنة.

ولكن هل يترك وشأنه يكيل الدعاوى جزافاً وبغير حساب إنه يتساءل لقد ذهب مالي وأنفقت كثيراً ومن وراء هذا الجواب يريد الهروب من الطريق المنير المشرق: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾[٣].

لماذا أهلك ماله؟ ألم تكن له حاسة البصر يرى بهما طريقه ويتوصل بهما إلى عظمة الله وقدرته فيتدبر هذه القدرة الجبارة ويتعظ من وراء ذلك بما أودعه الله في عينيه من نعمة النظر ويفكر بعد ذلك فيما يوصله إلى ما فيه خيره وسعادته؟!

﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾[٤]، وبهذه الأعضاء يتمكن من التغيير عما يجيش في النفس فاللسان عضو وظيفته نقل ما ينطبق في النفس إن خيراً فخير وإن شراً فشر. فهو المرآة الحقيقية لما تخبئه النفس بين طياتها من الخير والشر. وبالشفتين تتم مقاطع الكلام فيمكنه بذلك إظهار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحذير القوم ومحاسبتهم بعد ما يحاسب نفسه بما عليها إزاء الآخرين.

فقد منحه الله هذه النعم فكان بإمكانه أن يهيئ له ما ينقذه من العذاب الأبدي فيلتفت إلى ما أتلفه من المال وفيما أنفقه في خير أو في شر.

﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[٥].

ومن وراء هذه النعم فلقد أوضح الله لعباده وأبان لهم طرق الخير وميّزها عن

---

(١) المصدر المتقدم: ٩، ١٧٠.

(٢) سورة البلد، الآية: ٦.

(٣) سورة البلد، الآية: ٨.

(٤) سورة البلد، الآية: ٩.

(٥) سورة البلد، الآية: ١٠.

طرق الشر وأودع فيهم القوة والطاقة العقلية ليتمكنوا بها من تمييز الحق من الباطل والخير من الشر. فما عليه أن يقف مكتوف اليد بين هذين المسلكين أو يفضل نجدَ الشر على نجدِ الخير فيدّعي أنه أهلك مالاً لبداً.

ولا مجال له بعد ذلك إلى الإنفاق بل لا بدّ له أن يختار ما فيه صلاحه ليكون وسيلة لفعل الخير وعمله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[1]، كل ذلك كان مقدوراً له وكانت الوسائل المذكورة من العين واللسان والعقل وغيرهما من الحواس مساعدة له في اختيار ما يؤمّن له حياته الأخروية فلماذا لم يتدبر؟!

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾[2].

لماذا بعد كل هذه النعم المتوفرة لم يقتحم العقبة التي لا بدّ للفرد من اجتيازها ليصل منها إلى حيث الراحة والسعادة بدلاً من الجحيم الدائم؟ وإنها العقبة في طريق الإنسان يقتحمها ليخلص من جهنم بتعبيد طريقه بسلوك هذه المراحل التي تشرع الآية الكريمة ببيانها: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾[3].

هذه الفقرات التي تتركز عليها حقيقة الإنسان والتحسس بشعور العطف نحو الطبقات الضعيفة ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ أولى المراحل في اقتحام العقبة وأول خطوة يرفعها الإنسان نحو إخوة سعيدة يكون جزاؤه فيها النعيم الدائم عتق العبد في سبيل الله ليشمّ نسائم الحرية فيذوق طعم الانطلاق والتحرر ويخلص من نير العبودية والذل.

وإذا ما خطا الإنسان هذه الخطوة الخيّرة كان القرآن الكريم يوضح للفرد الخطوات التالية في سبيل تذليل المصاعب ليقتحم العقبة.

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ٣.

(٢) سورة البلد، الآيتان: ١١ ـ ١٢.

(٣) سورة البلد، الآيات: ١٣ ـ ١٦.

﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾[1].

إنه يوم الجوع الأسود وهو يوم المرارة والألم حيث تنسدُّ في وجه اليتيم أبواب الرحمة فيئن من ألم الجوع ويتحمّل في سبيل لقمة العيش في ذلك اليوم المظلم يتبرع المحسن فيطعم صغيراً تلاقفته عواصف الظلم الهوجاء ليهدّأ في نفسه سورة الجوع ويلبي نداء الضمير بمد يد العون لينال بذلك الجزاء باقتحامه العقبة الكؤود.

﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾.

ويشتد التحامل على الذين يمنعون حق اليتيم ويقهرونه فتصفه الآيات القرآنية بأبشع صفة يستحقها الظالم الجائر.

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾[2].

دع اليتيم وقهره كان سبباً في أن يكون القاهر مكذباً بالدين، فالمتمسك بالدين لا يقهر اليتيم ولا يمنعه حقه. والمتمسك بالدين لا يبيت مبطاناً وهناك من يتلظى بآلام الجوع.

ولكن هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي إلي تخيّر الأطعمة، ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له بالقرص ولا عهد له بالشبع، أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى وأكباد حرى أو أكون كما قال القائل:

وحسبك عاراً أن تبيت ببطنة ... وحولك أكباد تحن إلى القدِّ

أأقنع من نفسي بأن يقال هذا أمير المؤمنين ولا أشاركهم مكاره الدهر أو أكون أسوة لهم في خوية العيش[3].

---

(١) سورة البلد، الآية: ١٤ ـ ١٦.

(٢) سورة الماعون، الآية: ١ ـ ٣.

(٣) نهج البلاغة: ٣، ٧٢، شرح الشيخ محمد عبده.

هكذا فلتكن القادة... ولمثل ابن أبي طالب(عليه السلام) تكون إمارة المؤمنين... إنه القلب العطوف وهو الرحمة والعاطفة وهو التوجيه الصحيح والمثالية في هذه الحياة البائسة كيف يتخير الأطعمة ولعل بالحجاز أو اليمامة أو في أي بقعة أخرى من بقاع هذه الأرض يوجد بائس لا طمع له بالقرص وكيف يستسيغ أن يبيت مبطاناً وحوله بطون خاوية تتلهف إلى لقمة تسد بها الجوع وتخفف بها آلامه.

إنه(عليه السلام) لا يقنع لنفسه أن يكون أمير المؤمنين وهو بعيد عن واقعهم وبعيد عن مشاكلهم إنه كفرد منهم يحس بما يؤلمهم ويفرح بما يسرهم هذه النفسية الجبّارة وهذه الهمّة العالية وهذه الرحمة العارمة وغيرها من صفات الخير أهلّته لأن يكون موضعاً للعناية الإلهية يوم نزلت في حقه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[1].

التجارة مع الله:

وقد ذكرنا أن القرآن الكريم تنوعت دعوته إلى مساعدة اليتيم وتأمين احتياجاته، ومن بين تلك الأساليب التي تجلب انتباه الباحث هو الآيات الكثيرة والتي يشتمل عليها الكتاب المجيد والتي يشتد فيها التشويق إلى الإنفاق في سبيل الله وبذل المال ابتغاء مرضاة الله عزَّ وجلَّ وبذلك يكون المنفق قد سدّ حاجة اجتماعية بمساعدته للطبقات المحتاجة. قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ﴾[3].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٧.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٢٩.

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٣].

ولم تكن هذه الآيات المذكورة إلا مجمل ما تعرض إليه القرآن في التشويق إلى الإنفاق بل هناك أمثالها تحتوي عليها السور القرآنية الكريمة، وهي بمجموعها تشكل أسلوباً في الحث على المساعدة ودفع الأفراد إلى سبيل الخير والمحبة.

وبهذا الأسلوب كانت الآيات تستنهض همم الأغنياء إلى مساعدة البائسين من الأصناف البشرية المذكورة.

ولكن الروعة الفنية تظهر في سلوك هذا النوع من الحث على المساعدة بهذا الإطار الدقيق. فالآيات الكريمة تساير ركب المجموعة البشرية في تحريك جوانب العاطفة الكامنة عند الأفراد فتبدأ معهم بلهجة يلاحظ القارىء عليها آثار الشدة وأن التدليس يحتاج إلى العبد في ترغيبه إلى هذه المشاريع الخيّرة بل على العكس من ذلك فإن الله إنما يمنّ عليه بإرشاده إلى ما فيه خيره وصلاحه.

يقول تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾[٤].

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٣٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦١.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦٥.

(٤) سورة محمد، الآية: ٣٨.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [١].

وإذا ما التفت الفرد إلى هذه الحقيقة وعرف أنه هو الفقير في الحقيقة إلى تقديم الخير إلى المجموعة الضعيفة لينتفع بهذا الإحسان. رأينا هناك حقيقة أخرى تنكشف للفرد تدفعه بشكل عنيف إلى اعتناق مبادىء الإسلام. قال تعالى:

﴿ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ [٢].

إنها ليست مسألة خسارة من جانب المنفقين وأنها ليست عملية كاسدة. فإن ما يقدمه العبد يجده مضموناً عند الله وهو بهذه العملية يتاجر مع الله عزَّ وجلَّ وهي تجارة رابحة ومضمونة تجر لصاحبها الربح الوفير.

إن العمليات التجارية هي الطريقة التي يسير عليها الناس في حياتهم السوقية لتأمين العيش والكسب والنفع، ولذلك اختارت الآية الكريمة هذا الأسلوب لتصل إلى النتائج المطلوبة من النافذة التي يطلّ عليها الفرد في حياته اليومية. إنها صورة حية مستوحاة من الحياة العملية الدارجة حيث يلتفت الفرد إلى ما يقصد من وراء هذه الاتفاقية بين العبد وخالقه. قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [٣].

وهنا صورة أخرى من صور الحياة التي يمارسها الفرد، إنها حياة الزراعة والنمو وهي حياة الربح والاستفادة. فالحبة الواحدة إذا بارك الله فيها تقدم لزراعها سبع سنابل، وفي كل سنبلة تنبت مائة حبة. إن النسبة الحقيقية هي واحد في مقابل سبعمائة وهو ربح وفير يناله الزارع من الأرض الميتة.

إن الإنفاق في سبيل الله مثله كمثل الحبة فما ينفقه المليء لانتشال الضعيف من

---

(١) سورة الحديد، الآية: ١٠.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٩.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦١.

براثن المرض والجهل والفقر ومن ثم تحويله إلى المجتمع عضواً صالحاً يستفاد من مواهبه ومن ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾.

وربما يستكثر البعض أن يكون العمل الإنساني مثمراً بهذه الكثرة التي تثمر بها الحبة ولكن الله يضاعف لمن يشاء، وهل يحد فضل الله وإحسانه؟ وهل تقف رحمته عند حد؟ إنها العناية الإلهية لتؤلف بين هذه القلوب الإنسانية فيهب الخير والثواب إزاء عمل يخدم به صاحبه الآخرين ليكون أداة لتشجيع الباقين. وتتوالى الصور الحية والتي يعرضها القرآن الكريم ليهيج مشاعر الإنسان لتوجيهه نحو عمل الخير ومن جملة هذه الصور المعروضة قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾[1].

وإذا ما أذكى نغم الآيات الكريمة هبَّ العزم على الخير في تلك النفوس التي استجابت لنداء الحق وقرَّب إلى أذهانهم نتائج أعمالهم الطيبة كحبة أثمرت سبعمائة حبة أو كجنة أتت أكلها ضعفين وأنهم بذلك يرجون بصفقة تجارية مع الله عزَّ وجلَّ.

هرع الناس إلى النبي الكريم(ﷺ) يسألونه عن خصوصيات هذا الإنفاق الذي اهتمت به الآيات الكريمة على هذا النحو من التشويق والترغيب، قال تعالى:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾[2].

والسؤال في هذه الآية إنما هو عمن ينفق عليه كما يحدّث بذلك علماء التفسير.

قال الطبرسي في مجمع البيان في تفسيره لهذه الآية: «والسؤال عن الإنفاق يتضمن السؤال عن المنفق عليه فإنهم قد علموا أن الأمر وقع بإنفاق المال فجاء

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٥.

الجواب بيان كيفية النفقة وعلى من ينفق»[١].

وقال الزمخشري في كشافه: فإن قلت: كيف طابق الجواب السؤال في قوله «ما أنفقتم» وهم قد سألوا عن بيان ما ينفقون وأجيبوا ببيان المصرف؟ قلت: قد تضمن قوله «ما أنفقتم من خير» بيان ما ينفقونه وهو كل خير وبني الكلام على ما حداهم وهو بيان المصرف لأن النفقة لا يعتد بها إلا أن تقع موقعها[٢].

إن ما سلكه القرآن من الترغيب والتشويق الظاهرين على صفحات الآيات الكريمة هو الذي كان سبباً لهذا السؤال. وكانت لليتامى حصة من ذلك الشيء المنفق باعتبارهم من جملة الضعفاء وكان الإنفاق عليهم خيراً:

﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾[٣].

حقيقة الإنفاق المرغوب:

لم يواجه القرآن الكريم الأفراد بادىء الأمر بما يرغب فيه من بيان صفة الإنفاق وكيفيته المحبوبة إلى الشارع المقدس. بل تدرّج مع البشر يحثهم إلى فعل الخير ومساعدة الطبقات الضعيفة وتهيئة النفوس لتلقي هذا النوع من العمل الإنساني المفيد، وإذا ما اكتملت هذه الجهات وكانت النفوس قد تضامنت إلى هذه الخطوات الخيّرة رأينا واجهة أخرى تفتح أمام الأفراد ليطلوا منها على معنى دقيقٍ تضمنته الآيات الكريمة في سبيل تهذيب النفوس وصقلها بما يجمع بين عنواني الرحمة والقيام بوظائف العبودية لله عزَّ وجلَّ ليكون الأجر مضاعفاً وليكون المكسب وفيراً قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[٤].

---

(١) الطبرسي: مجمع البيان، ٢، ٧٠.

(٢) الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل/ ١، شرح ص ٣٥٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٥.

(٤) سورة الإنسان، الآيتان: ٨ ـ ٩.

صحيح أن إطعام الطعام هو أحد مصاديق الإحسان لأن أول ما يحتاجه الضعيف هو القوت لسد جوعه والمحافظة على حياته، ولكن عباد الله لا يطعمون الطعام طمعاً في السمعة ومباهاةً في الفخر والتفاخر كما كانت تضعه العرب في إكرام الضيوف، فكانوا ينفقون في هذا السبيل ليحصّلوا من وراء ذلك العز والرفعة في نفوس الآخرين، ويخاطب أحدهم عبده وكان قد أجج ناراً لتجلب الضيوف في جنح الليل المظلم «إن جلبت ضيفاً فأنت حر».

لا بل عباد الله المكرمون يطعمون الطعام ويأوون الضعيف ويكونون يد مساعدة لكل من يستحق المساعدة لا لشيء بل لوجه الله وابتغاء مرضاته فهم يقومون بذلك بنفس طيبة لحب الله وفي ذات الله. يقول تعالى عنهم:

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾.

إن الغاية من هذه الأعمال هي التقرب إلى الله والعبودية له تعالى وأن ما يقيمه الإنسان إنما هو شوقاً للخير في ذاته المقدسة فلا يشرك معه أحداً ولم تكن الغاية هي السمعة والتفاخر والتنابز بأمور لا تعبّر عن الواقع الإنشائي:

﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾.

إن آل البيت هم أرفع من أن تجلبهم البهارج الدنيوية فلا يقصدون بأعمالهم النافعة أن تكون مدعاة للألقاب الفارغة الجوفاء ولا يريدون بما يقدموه جزاءً ولا شكوراً.

قال الرازي في تفسيره[1] إنها نزلت في حق علي (عليه السلام).

وذكر الزمخشري في كشافه: (روي عن ابن عباس أن الحسن والحسين مرضا فعادهما رسول الله (صلى الله عليه وآله) في ناس معه فقالوا يا أبا الحسن لو نذرت على ولدك فنذر علي وفاطمة وفضة جارية لهما إن برءا مما بهما أن يصوموا ثلاثة أيام، فشفيا وما معهم شيء، فاستقرض علي من شمعون الخيبري اليهودي ثلاثة أصوع من شعير، فطحنت

---

(١) الفخر الرازي: التفسير الكبير/ ٣، ٢٤٤.

فاطمة صاعاً واختبزت خمسة أقراص على عددهم فوضعوها بين أيديهم ليفطروا، فوقف عليهم سائل فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد مسكين من مساكين المسلمين أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة فآثروا وباتوا ولم يذوقوا إلاّ الماء فأصبحوا صائمين، فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديه وقف عليهم يتيم فآثروه، ووقف عليهم أسير في الثالثة ففعلوا مثل ذلك، فلما أصبحوا أخذ علي (رضي الله عنه) بيد الحسن والحسين وأقلوا إلى رسول الله (ﷺ) فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال ما أشد ما يسوئني ما أرى بكم؟ وقام فانطلق معهم فرأى فاطمة في محرابها قد التصق بطنها بظهرها وغارت عيناها، فساءه ذلك فنزل جبرائيل وقال خذها يا محمد هنأك الله في أهل بيتك فأقرأه السورة[1].

هؤلاء هم آل البيت المحمدي. وهؤلاء هم أبطال الإسلام يعيشون مشاكل الأسرة الضعيفة والطبقة المسكينة ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ويتحسسون مواطن الألم ويشاركون الأصناف المعذبة كل ذلك في ذات الله ومحبته.

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾[2].

هذه صورة تعرضها الآية الكريمة عن البر وحقيقته ولكنها ممزوجة بالإيمان بالله وكون الإنفاق منشأه حب الله وتقرباً إليه، وهذه الدروس البليغة يلقيها القرآن ليهذب النفوس ويصهرها بإطار الإيمان والعبودية لله عزَّ وجلَّ لتكون بعيدة عن الصور الدنيوية والتي لا يكون العلم فيها للخير لأنه خير ولأنه إحسان بل لأنه وسيلة للرفعة ومدعاة للفخر والاعتزاز.

---

(١) الزمخشري: المصدر المتقدم/ ٤، شرح ١٩٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

اليتيم وحقوقه المالية:

عنوان اليتيم ليست له ملازمة مع الفقر فهناك أيتام ولهم من الأموال ما ليس للكبار فيها شيء، نعم الغالبية في الأيتام هو تركهم بلا معيل ويكونون إلى الإنفاق في حاجة مستمرة. وهؤلاء الأيتام الذي يترك لهم الآباء مقداراً من المال تكون مشكلتهم مع الناس والأولياء والأوصياء من جهات أخرى هي جهات الاستيلاء على ذلك المال وغصبه والتصرف به.

لذلك نالت هذه الناحية قسطاً آخر من آيات التشريع حيث راعت حقوق اليتيم المالية مساوية له ببقية أفراد المجموعة البشرية فهو لا يتعدى كونه إنساناً وهو مالك كبقية الحلال.

قال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾[1].

إيتاء اليتامى أموالهم يكون بالصرف عليهم منه في حالة صغرهم، أما في حال البلوغ واستئناس الرشد فيكون ذلك بتسليمه لهم، وإذا ما أمرت الآية الكريمة بالمحافظة على أموال اليتيم وعدم التجاوز عليه تناولت ناحية أخرى فعالجتها بالنهي عنها حيث كانت جارية عندهم وهي تبديل مال اليتيم، فقد نقل عن بعض المفسرين إن أوصياء اليتامى كانوا يأخذون الجيد من مال اليتيم والغالي منه ويبدلونه بالرديء.

إن هذه الصور من التلاعب كانت جارية في ذلك الزمان عندهم فكان النهي المذكور تعبيراً عن الواقع الذي كانوا يعيشونه.

وفي مقام عرض الصور التي كانت تدور في ذلك المحيط ويجري عليها أبناء الجزيرة المتأخرة نرى الآية الكريمة تطالعنا بما هو أعظم من التبديل حيث كون لليتيم بشيء ولو كان رديئاً ولكن هناك فئة كانت تتجاوز على الأصل فتأكل مال

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢.

اليتيم لا لشيء إلاّ لأنه يتيم: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ [(١)] فهو بدلاً من أن يتمتع بأمواله يتمتع بأموال الآخرين فلا سلطة للضعفاء على أموالهم أمام اليد القوية لذلك كانت نفوس الأقوياء تلاحق الطبقات الضعيفة فتتناول ما ترك لهم ميراثاً ليواجهوا به متاعب الحياة القاسية: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [(٢)].

وهذه صورة واضحة عن الإثم العظيم الذي يقترفه الإنسان بتجاوزه على ما يملكه الغير حيث يجحف ويضر بالغير: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [(٣)]. وهو تحذير تصويري حيث صورت الفرد والنار تستعر في جوفه فيعلم أهل الموقف بأن هذا هو جزاء آكل مال اليتيم، وقد روي عن الإمام الباقر(عليه السلام) أنه قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله): «يبعث أناس من قبورهم يوم القيامة تؤجج أفواههم ناراً فقيل له يا رسول الله من هؤلاء؟ قال: الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً... الآية»[(٤)].

اليتيم حال القسمة:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [(٥)].

وقد اختلفت كلمة المفسرين في هذه الآية فقيل أن المراد بها حضور هؤلاء الضعفاء مجلس القسمة لميراث الميت. فقد يتفق أن يحضر أقرباء الميت من اليتامى والمساكين رجاء أن ينالهم شيء من ذلك المال.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ٢.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٠.

(٤) السيد حسين البروجوردي: جامع أحاديث الشيعة/ ١٧، ٣٩٢.

(٥) سورة النساء، الآية: ٨.

وقد أوضحت الآية الكريمة ضرورة رعاية هؤلاء الذين تُمتُ لهم مع الميت وشائج الرحم ولم تشملهم فرائض الميراث لوجود طبقات أسبق تستحق قبلهم التوريث، وبتعبير أوضح: إن المطلوب من الطبقات القريبة أن تلاحظ بعين العطف الطبقات البعيدة تحقيقاً لصلة الأرحام.

أما الخطاب في كلمة (فارزقوهم) فقيل إنهم «كما بينا» الورثة نظراً لما سيناهم من الرزق فليتلطفوا على هؤلاء الضعفاء.

وهناك من يذهب إلى أن المخاطب في هذا هو المورّثون وهم من تحضرهم الوفاة فقد أمروا أن لا يغفلوا ذوي قرباهم حين الوصية امتثالاً لما أوصى الله به من رعاية الأرحام وتفقدهم.

ولأي من التفسيرين يميل الباحث فإن الآية الكريمة لا شك أنها لاحظت بالإطار العام جانب المعوزين ولم تتركهم حتى في حالة عدم استحقاقهم الشرعي وخاطبت الورثة أو المورّث «على الخلاف فيه» بلزوم رعاية المحتاجين من أرحامهم ليحققوا بذلك غاية نبيلة إنسانية وتكون النتائج الحتمية لهذه العملية هي تقوية أواصر المحبة والود بين أفراد الأسرة الواحدة والتي تجمع أفرادها لحمة النسب والقرابة.

وكانت اليتامى على كلا التفسيرين من جملة من شملهم العطف الإلهي في هذه الوصية الكتابية المقدسة.

يتامى آل محمد(ﷺ):

ويشمل العطف الإلهي طائفة خاصة من الأيتام ممن يتصل بالنسبة لآل بيت رسول الله(ﷺ) فيميزهم عن بقية الأيتام فيخصص لهم سهماً معيناً في الخمس الذي فرضه الله في الأصناف السبعة الآتية «غنائم دار الحرب، المعادن، الكنوز، المكاسب، أرض الذمي المشتراة من المسلم، الحرام المختلط بالحلال، الغوص». وكان لهؤلاء الأيتام سهم من ستة يستحقونه في هذه الأموال.

قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ﴾[١].

وهذه الأصناف الثلاثة «اليتامى، والمساكين، وأبناء السبيل» كانت نقطة اختلاف بين فقهاء العامة والإمامية. فالعامة يرون أن هذه الأصناف الثلاثة تستحق سهم الخمس ولو لم تكن من آل بيت الرسالة من ينتسب إليهم، أما الإمامية فقد خصوا أولئك بأيتام آل محمد(ﷺ) وحرموه عن بقية الأيتام طبقاً لما استفيد من الأخبار الواردة عن أمناء الشريعة المقدسة آل بيت الرسول الأعظم (ﷺ) معللين ذلك بأن الشارع المقدس حرّم الصدقة على ذرية رسول الله(ﷺ) وجعل لهم البديل الخمس. ففي موثق عبد الله ابن بكير عن بعض أصحابه عن أحدهما(عليهما السلام): «واليتامى يتامى آل الرسول، والمساكين منهم، وأبناء السبيل منهم فلا يخرج منهم إلى غيرهم»[٢].

وفي حديث آخر، عن أحمد بن محمد عن بعض أصحابنا: «والنصف لليتامى والمساكين وأبناء السبيل من آل محمد الذين لا تحل لهم الصدقة ولا الزكاة عوضهم الله مكان ذلك بالخمس فهو يعطيهم على قدر كفايتهم»[٣].

إن الله منع ذرية رسوله من أن يتناولوا أوساخ الناس من الصدقات والزكوات ولكنه منحهم الخمس كما صرحت به الآية الكريمة تعويضاً لهم عمّا فاتهم مما يشترك به جميع الطبقات الضعيفة عدى من يتصل بآل بيت الرسالة بنسب.

قال عزَّ وجلَّ: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾[٤].

فما أفاء الله به على رسوله من أموال الكفار من أهل القرى، فهو لله يأمركم فيه

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤١.

(٢) الحر العاملي: المصدر المتقدم/ ٩، ٥١٠، ح٢، باب قسمة الخمس وأنه يقسم ستة أقسام...

(٣) المصدر المتقدم: ٩، ٥٢١، ح٢، باب وجوب قسمة الخمس على مستحقيه...

(٤) سورة الحشر، الآية: ٧.

وللرسول بتمليك الله له ولذي قربى رسوله وهم بنو هاشم واليتامى والمساكين وأبناء السبيل منهم.

فعن المنهال عن الإمام زين العابدين(عليه السلام) قال: «قلت قوله ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل. قال(عليه السلام): هم قربانا ومساكيننا وأبناء سبيلنا»[1].

وعلى خلاف ما تقدم ذهب فقهاء العامة إلى عدم تخصيص اليتامى وبقية الأصناف بيتامى آل البيت.

وعلى أي حال:

فعند نزول الآية المباركة بادر كل من عنده يتيم بعزل طعامه وشرابه واجتنبوا أمورهم نظراً لما في هذا التحذير من عقاب صارم ينتظر آكل مال اليتيم.

ومن الطبيعي، أن يوجب هذا الوضع التشويش والاضطراب في قلوب المسلمين لأن ذلك مما يبعد هذه الطبقة عنهم وليس ذلك في صلاح هؤلاء الأطفال، لذلك تصدوا للسؤال من النبي(صلى الله عليه وآله) عن أمر اليتامى ومخالطتهم وفيهم من لا يمكنهم تركه. فجاءت الآية الكريمة تخفف عنهم هذه الشدة وتسهل عليهم معاشرتهم ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ﴾[2].

وكان الجواب في هذه الآية هو التخطيط لما يجب عليهم اتباعه بالنسبة إلى اليتيم فلا داعي لهذا التجنب ولا داعي لهذه الهوة التي أحدثوها فيما بينهم. فكل ما فيه صلاح لليتيم فلا بدّ من رعايته وإذا كانت ثمة مصلحة في مخالطتهم والتعايش معهم فهو إخوانكم والمخالطة مع الإخوان مما يؤكد عرى المحبة والمودة.

والإصلاح في الآية مطلق لا يقتصر على جهة معينة بل يشمل إصلاح أموال اليتامى باستثمارها وتنميتها والعمل بها في ميادين التجارة والكسب لتوفر على اليتيم ربما زيادة في ماله.

---

(١) السيد حسين البروجوردي: المصدر المتقدم/ ١٣، ١٩٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٠.

وفي الوقت نفسه تشمل إصلاح اليتيم من ناحية التربية والتهذيب. إن الآية الكريمة تريد أن يكون اليتيم تحت نظر الولي وكل كافل له كالأخ الصغير تحوطه عناية الأخ الأكبر فهو يقوم برعاية شؤونه المالية والأخلاقية ويخالطه ويعاشره بنحو لا يكون في البين طمع من الكبير في أموال الصغير بل رعاية وتوجيه بحسن نية وإخلاص ممزوجين بعطف أخوي.

يتامى النساء:

قال تعالى: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴾[1].

وهناك جانب آخر تناولته الآيات الكريمة فعالجت به مشكلة كانت تواجه يتامى النساء الصغيرات حيث يقعن فريسة بيد الأوصياء فيرغّب الوصي في التزوج بها من غير أن يعين لها صداقاً (مهراً).

إن اليتيمة كغيرها من النساء لها الحرية الكاملة في اختيار من تشاء وفي تعيين المهر الذي يكون قد قرر لها عوضاً عن البضع الذي تهبه لمن تشاء والوصي كأحد الخاطبين لا تمنعه الشريعة المقدسة من الإقدام لخطبة اليتيمة لو كان مستكملاً للشروط التي يقررها الشارع المقدس في الزوج ولكن النفوس غير المؤمنة تأبى أن تخضع للواقع ويترك الأثر جانباً بل كانت تصر على أن تكون اليتيمة ألعوبة يتلاقفها من هي تحت يده من دون أن يكون لها اختيار في أمرها وفي صداقها.

ولكن الشارع المقدس وهو الرحيم الودود لا يترك الباب مفتوحاً أمام الأقوياء ليتجاوزوا على الضعفاء دون أن يردعهم ولو إلى ما فيه خير الأمة وصلاحها. وذهبت كتب التفسير إلى أن هذه الآية الكريمة جاءت مستكملة للآية الشريفة في

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٧.

سورة النساء من قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾[1].

فالارتباط وثيق بين هاتين الآيتين ليكون الترتيب ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتوهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا ... الآية ﴾[2].

وقد قيل في تفسير هذه الآيات الكريمة أنها نزلت فيمن يتطاول على مال اليتيم ويجعله عرضة لرغباته الجنسية فيشرع بالتزويج بما يشاء من النساء ويكون ميله على أموال اليتيم لينفقه في سد العجز المالي الذي يلحقه من جراء هذا العمل فكانت الآيات الكريمة ناهية عن التجاوز عن الأربع خوفاً وتفادياً من هذا الخطر الذي يجري على الأيتام.

وقيل في تفسيرها وجوهاً أخرى تعود كلها بالإطار الخاص والعام على اليتيم بالنفع حيث تتجه الوصايا بالمحافظة على أمواله ولزوم رعايتها وعدم التجاوز عليها.

تسليم أموال اليتامى:

أما من ناحية تسليم المال إلى اليتيم فقد حدد الشارع المقدس له وقتاً خاصاً يكون بإمكان الولي أو الوصي التخلي عن هذه المسؤولية الملقاة على عاتقه بدفع ما تحت يده إليه قال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ ﴾[3].

المرحلة النهائية للمحافظة على أموال اليتيم قد بين الشارع خطوطها في هذه

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣.

(٣) سورة النساء، الآية: ٦.

الآية المباركة وهي بلوغ اليتيم سن الرشد بشرط أن يكون اليتيم ناضجاً وقادراً على إدارة شؤونه والتصرف بأمواله على النحو الذي يدير كامل أمواله بنفسه، وقد عبرت الآية الكريمة عن ذلك بقوله: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾، وعندها فيمتنع على الولي أن يبقى على المباشرة السابقة لتلك الأموال بل لا بدّ من تسليمها إلى أصحابها الشرعيين. والشريعة المقدسة لم تحرم الولي في دور ولايته عن التناول من تلك الأموال شيئاً جزاء ولايته.

ولكن لا إنها تطلق له العنان ليتناول على نحو الإسراف وبغير ما قرره الله في هذا الخصوص من المقدار المسموح عما تقرره له أحكام الشريعة، إلاّ أن الآية الكريمة أهابت في الوقت نفسه بالأغنياء أن لا يمتد بهم الجشع فيأخذوا الأجر على مثل هذه الولاية فخاطبتهم بقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾.

رفقاً بهؤلاء الضعفاء الذين تقتضي الرحمة الإنسانية أن يمد الأثرياء إليهم يد المساعدة ليخففوا ما بهم من الضائقة فلو كان الولي غنياً وميسوراً فليستعفف لئلا ينقص من مال اليتيم شيء، فالأمر هنا على جهة المساعدة والرفق.

﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

أما من كان فقيراً وليست له القابلية المالية فله أن يتناول من ذلك المال جزاء عمله ولكن بشرط أن لا يتجاوز الحد المقرر له: ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾، وهو قدر كفايته وجزائه الذي يقرر له، وقيل: فليأكل من مال اليتيم قرضاً ويرده لو تمكن من دفعه.

الإشهاد على التسليم:

إن الرحمة الإلهية لم تختص بطائفة دون طائفة فالله عزَّ وجلَّ رؤوف رحيم وتشمل عنايته جميع الأفراد، والتشريع المقدس كما أوصى باليتيم من جميع جهاته، لم يدع جهة مرحلة تسليم المال إليه.

إن مرحلة تسليم الأموال إلى الأيتام بعد وصولهم إلى سن الرشد والنضوج ليس إلاّ وضع الحد النهائي لسلطة الولي أو الوصي وبدء مرحلة السلطة لأصحاب

الأموال حيث وصلت إمكانياتهم إلى هذا الدور من الصلاح والقابلية للقيام بإدارة أنفسهم من دون أن يكون في البين ولي أو وصي يقوم بذلك، وتبدأ في هذه المرحلة جهة اهتم لها الشارع المقدس فنبّه الأولياء عليها تلك هي احتمال ما قد يحصل من المعاكسات في مثل هذه الأدوار من توجيه اللوم إلى الولي أو الوصي من جهة اليتيم برميه بالاختلاس أو التقصير وعدم القيام بما يلزم من التصرف أو المحافظة بالمال على نحو يكون قد وصل المال إليه كما هو، واليتيم بعد هذا كله بشر ومهما كان فقد تصدر منه بعض الأفعال غير المرغوب بها.

لذلك كانت الآية الكريمة تدفع بالأولياء وتهيب بهم أن يلتزموا جانب الحيطة والتدبير لأنفسهم بالإشهاد والاطلاع على عملية تسليم المال إلى ذوي علاقته فراراً عما قد يقع فيه نتيجة إحسانه وأتعابه: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾[1].

إن الشريعة المقدسة قانون إلهي، فكما جاءت لتحفظ حقوق الطبقة الضعيفة وتسنّ لهم ما يحميهم من تجاوزات الأقوياء كانت في الوقت نفسه تحافظ على حقوق الآخرين رعاية للمصلحة العامة وملاحظة للصالح العام، والأفراد بنظر القانون سواء لا بدّ من رعاية حقوق الجميع فلا يتجاوز قوي على ضعيف وفي الوقت ذاته لا يتطاول ضعيف على قوي. إن القوانين الإلهية ليست فيها أثر لفئة على آخرين، والعناية الإلهية لا توجه إلى البعض ليكون الآخرون محرومين من الفيض الإلهي بل لا بدّ من رعاية المجموع، وإن كان ذلك الفرد قوياً توجه إليه التُّهم: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾، ورقيباً عليكم في أعمالكم ليحافظ كل طرف على ما هو مقرر في حقه فالتشريع كما يدفع بالولي ويرغّبه ويحذّره بالنسبة إلى حقوق اليتيم المالية والأخلاقية ويغريه بالثواب الكثير على ذلك، كذلك يحذره من تهاونه وعدم الالتفات إلى أخذ الحيطة لنفسه على نحو يجره ذلك إلى مزالق هو في غنىً عنها نتيجة عقوق الأفراد.

لذلك كانت عملية الإشهاد على التسليم مما تقتضيها الظواهر الطبيعية لكل قضية يرام من ورائها تسليم الحقوق المالية إلى أصحابها.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦.

اليتيم البائس

(١)

لقد غفرت للزمن كل ذنوبه وأغضيت الطرف عن زلاته معي بعد أن ساعدني في تحصيل ما طلبته منه في العمل الذي يلائم دراستي ولم يضطرني إلى دراستها.

وقد شكرت المصادفات الحسنة التي ساقت لي «العم أحمد» فنبهني على ما أقدمت عليه من بعد تلك الممانعة الشديدة التي لقيها مني نتيجة لفشلي الذريع صباح ذلك اليوم، الفشل الذي واجهني عندما تقدمت للعمل في الشركة التجارية.

إن أول عمل قمت به هو أنني أخرجت أمي من المستشفى وجئت بها إلى البيت بعد أن وزعت مقداراً من المال الذي استقرضته لهذا الغرض على الممرضات والخدم حيث جرى العرف بأن يقدم ذوو المريض المشافي للممرضات والخدم بعض الهدايا، واعتزازاً بشخصيتي وخاصة بعدما صرت موظفاً ومن رجال الدولة رأيت المناسبة تحتم عليّ ذلك، ومن القبيح أن تخرج أمي شأنها شأن بقية الفقراء.

إن بعض العادات المتعارفة بين الناس قد جرّ الوبال على رؤوس أصحابها وإلا فإنك تصور حالي وأنا اليتيم الذي لا يملك شيئاً اضطر للاقتراض لأوزع هباتي على الفقراء من الخدم وغيرهم في الوقت الذي هم أحسن حالاً مني.

أم أولئك الذين تلقوا الهبات بلا شك أكثر إمكانية مني فلكل منهم راتباً معيناً يتقاضونه أول كل شهر، أضف إليه العطيات التي ينالونها من أرباب المرضى.

أما أنا فقير معدم وبعد لم استلم من مرتبي الشهري شيئاً، وقد استقرضت عليه مبالغ كثيرة ومع هذا أجريت ذلك.

الشخصية وما هي الشخصية لتظهر اليوم في طيات كلامي معتزاً بها، والوظيفة

وما هي الوظيفة لتكون موجبة لتغيير نفسيتي، كلما في الأمر إنني عيّنت بمحض الصدفة كاتباً في أحد شعب البنك فلماذا كل هذا الطيش؟ ولماذا كل هذا الغرور؟ ولماذا كل هذا الاعتداد بالشخصية؟

قف وتأمل، فإنك لا تزال ذلك اليتيم الذي يتحاشى الناس من مجالستك والذي قدر له الطرد مراراً عديدة وذاق آلام الوحدة ضروباً كثيرة ألست أنا ذلك الذي:

إن دخلت الندي في حالة اليتم	رموني بأعين من حقود
وإذا ما جلست بين صحابي	تعتريني وساوس المطرود
فكأني جرثومة يتحاشى الناس	من هيكلي ورث برود

وما الكرسي الذي تنوي الجلوس عليه والمنضدة التي تربض خلفها، وما شاكلها لا تكون مدعاة للتغيير ما كنت عليه فأنت أنت ذلك اليتيم المطرود أينما حللت وحيثما سرت.

إن مساعدة اليتيم حسنة ولكن لا بهذا الطريق الذي سلكته يوم أخرجت أمي من المستشفى.

جئت بأمي من البيت وقدّر لها أن تعود إلى دنيا الأحياء بعد أن تحسنت صحتها بدلاً من أن تذهب إلى العالم الآخر لاحقة بشريك حياتها المفقود.

واستقبلها سريرها الخشبي باسم الوجه فاحتضنها بشوق ولهفة بعد فراق كان مدته عشرة أيام.

والتفَّ حول سريرها أطفالها الصغار وهم يملؤون البيت بهجة وسروراً بقدوم أمهم، وسرى الخبر إلى بيوت الجيران فتوافدوا عليها يهنئونها بسلامة العودة إلى وكرها الأمين وعادت البهجة تملأ البيت وزالت تلك الوحشة التي كانت قد خيمت على أطرافه طيلة المدة التي كانت رقدت أمي على سرير المرض في المستشفى.

عملية فرغت منها واسترحت. وبقيت أمامي عملية ثانية لا بد من الإسراع

إليها وهي متابعة وظيفتي لترتيب شؤوني الجديدة هناك ولأعلم مقري الجديد وما يراد مني من عمل.

ذهبت إلى المديرية تصحبني إضبارة الأوراق مما يتعلق بالشروط مني وقدّمتها إلى المدير وبقيت منتظراً ما عساه يوجهني، وأخذت أوراقي تمر على الموظفين المختصين بهذه الشؤون لفحصها وتدقيقها إلى أن حطّت رحلها في مدرج كبير تحفظ فيه مثل هذه الملفات، وبعد طي هذه المرحلة استدعاني المدير إليه.

دخلت عليه وإذا به قد تجاوز الأربعين من سنيه وكلمني كلاماً رقيقاً ليس فيه شيء من الزهو والكبرياء. قال لي بعد أن أخذت مكاني في أحد جوانب الغرفة.

لا يخفى عليك يا أخي إنني لست من أولئك الأشخاص الذين تغرّهم المطامع وتسيل لعابهم لمرأى الأوراق المالية بل على العكس من ذلك إنني رجل عمل أحب العمل وأحب العاملين، وقد تكدست أمامي طلبات كثيرة تقدم بها غيرك من الشباب إلا أنهم رجعوا خائبين وهذه أمامي توصيات كثيرة من ذوي الجاه والثروة وكل منهم يتشفع لأحد الطالبين، وقد قدر لهذه البطاقات أن ترقد في سلة المهملات وعجزت أذني من المكالمات الهاتفية حول هذه الوظيفة الصغيرة إلا أنني ضربت الجميع عرض الجدار وقدّمتك عليهم لأنني توسمت فيك نشاطاً وجداً بعد ما اطلعت بنفسي على مؤهلاتك الدراسية حسبما كانت تشير إليه شهاداتك المدرسية، لذلك أرجو أن لا تخيب آمالي فيك فتواظب على وظيفتك بهمة ونشاط وتستمر عليها استمراراً يؤهلك للرقي في سيرك، وأن هذه الوظيفة على أنها صغيرة ولكنها تحتاج إلى كثير من التحذّر لأننا في هذه البناية مؤتمنين على أموال الناس فلا بد من المحافظة على الأمانة وإيصالها إلى أصحابها.

ودعتُ المدير وانصرفتُ إلى الفرع الذي سوف ألتحق به، وكلي لسان شكر من أخلاقه الفاضلة ونظراته الصائبة وتمنيت لو أننا نحصل على عدد قليل من أمثاله ولو كان الأمر كذلك لما وصل حالنا إلى مثل هذا التدهور الذريع.

وتنحصر مهمتي في عملي الجديد في التوقيع على الأوراق المالية التي يريد

أصحابها أن يسحبوا مالاً من البنك وبعد أن أوقع عليها تأخذ الورقة دورها إلى غيري من الكتبة لتحط أخيراً وتقف بين يدي أمين الصندوق بانتظار تسليم المال إلى صاحب الورقة.

وكان الأسبوع قد أشرف على الانقضاء، لذلك كان من اللازم عليَّ أن أبدأ عملي من ابتداء الأسبوع القادم.

(٢)

ها أنذا أطمئن من هذه الجهة فإن العمل قد هيئ لي ولا بد من الالتفات إلى الجهة الثالثة، وهي أمنيتي التي أنا حريص على تحقيقها.

ذلك أنني لا بد لي من الانتقال إلى الدراسة المسائية بعد أن شغلت وقتي نهاراً، وقد أخبرني «العم أحمد» يوم التقيت به أن المدرسة التي انتقلت إليها مؤخراً قررت التدريس مساءً بالإضافة إلى الدراسة النهارية.

إنها أعمال يجب عليّ إنهاءها قبل زوال الأسبوع لأستعد في القيام بها أول الأسبوع القادم. لذلك ذهبت إلى ناظر مدرستنا الجديدة لأخبره بما عزمت عليه.

لقد ضحك الناظر بأداء الأمر عندما فوجىء بطلبي لنقل دراستي إلى القسم المسائي بدلاً من النهاري فما هذه الأعمال التي تصدر مني كل يوم نقل وانتقال ولكنه فرح كثيراً عندما أخبرته بالتحاقي بعملي الجديد وأخذ يسمعني ألفاظاً تدل على التشجيع والعمل ويهب بي أن أشق طريقي في هذه الحياة على خير ما يرام.

وودعت الناظر بعد أن طمأنني على اعتبار انتهاء القضية والبدء بالدراسة من ابتداء الأسبوع القادم.

اتجهت إلى البيت بعد أن تركت المدرسة وأنا مسرور جذلان مما ألاقيه من تساهل ومما حصلت عليه أخيراً.

فهذه أمي عادت إلى البيت متقدمة الصحة ووظيفتي تنتظرني وقد حصلت عليها دون تعب شديد وسأرتب موارد عيشي ليعود الهدوء إلى عشنا الصغير

وسأواصل دراستي ولتفعل الأيام بعد هذا ما تشاء.

وترامى إلى سمعي حديثها وهي تنبؤهم عن نجاحي في الحصول على الوظيفة الجديدة، وهي وإن كانت صغيرة إلا أنها تترك أثرها في نفوس النساء، وعلى الأخص ممن كتب لها القدر أن تتأخر عن ركب الحضارة فبقيت، وهي من طلاب المدرسة القديمة.

تغيرت نظرات العجائز من خالاتي بالنسبة لي وأخذن يرفعنني بنظرات كلها الإجلال والاحترام.

رباه ماذا حصل لليتيم البائس ليقابل بهذا الاحترام إنها أيام قليلة غيّرت ما كنت عليه سابقاً فتبدل وضعي عن ذي قبل إنها صرف وظيفة بسيطة وراتب ضئيل لا يتجاوز الستة عشر ديناراً كان لها الأثر التام في كل هذه التغيرات.

وحسبت أن الدهر أغض عن تصرفاته بالنسبة لي وقد طوى صفحة الماضي وبدأ معي بصفحة بيضاء ناصعة.

بدأت أخلع ملابسي وأخذت أرتب كتبي لأرى الناقص منها وما احتاجه لأهيئ نفسي للدراسة المقبلة.

وبدا لي وأنا في هذه الحالة أن أتسلق السلم لأرقى فوق السطح لأن إخوتي الصغار قد أخذوا بعض كتبي ليتلهوا بها هناك صعدت إلى السطح وأشرفت منه على الفضاء الواسع أمامي وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب حمراء قانية فإذا بها كباخرة تلتهمها النيران وهي تغوص رويداً إلى قعر البحر... بقيت مدة أطيل النظر من هذا المنظر الغريب وأنا ذاهل عن نفسي أفكر في السعادة التي بدأت تضمني فالأمور تجري على خير ما يرام بعد هذه الأيام وبعد هذه الأحداث الثلاثة «أمي، الوظيفة، المدرسة» يا لها من عوامل مرّة جلبت لي الخير والسرور.

واليتم، إنه شبح سأتناساه بعد انخراطي في سلك رجال الدولة، وإن كان ذكره يخيفني ويجلب عليّ المآسي، ونحن في الوقت الحاضر في غنىً عنها.

ولم أدرِ كم بقيتُ في وقفتي تلك وأنا أتأمل الأفق البعيد إلا أن الذي علمته هو أنني انتبهت على ضوضاء وعراك منشؤوها بيت جارتنا «أم خالد»، وهي تكيل الشتائم لولدها «خالد» فترميه بالكسل تارة وبانحطاط الأخلاق أخرى لأنه رسب في امتحانه بعد أن كان نصيبه الإكمال في آخر السنة وعلى طريقة المكملين أجّل امتحانه إلى أوائل الفصل الدراسي وأهلّ الفصل الدراسي وإذا بـ«خالد» يقدم امتحانه فتكون نتيجته الفشل.

لذلك كانت أمه تسمعه السب اللاذع وتريه من سجع الشتائم ما تتمكن على إخراجه منها العريض.

كل ذلك لم يكن لي فيه شأن لأن الحديث بين أم وولدها ولا علاقة لي معهما ولا نصيب لي في الحديث.

إلا أن الذي جلب انتباهي ثانياً وشوش عليّ أفكاري اللذيذة هو ما ترامى إلى سمعي من كلماتها، وهي تهم بضرب ولدها بخشبة أو شيء آخر لمحته على البعد قالت له.

يخرب بيتك على رأسك يا خالد.

موعيب عليك أنت باقي كسلان ترسب في دروسك و«اليتيم صار من الحكومة».

إن لفظ اليتيم قد نكأ جرحي القديم فعادت إليّ هواجسي وأفكاري السوداء وقد تألمت مما وصفتني به هذه العجوز الثرثارة.

ويلاه يا رب... أيلاحقني هذا الشبح أينما توجهت وأينما حللت وهل هي عقوبتك يا رب تنزلها على هذا العبد الضعيف البائس...؟

أم هي جناية بدرت مني يوماً ما فكنت بموجبها مستحقاً لهذا العقاب الصارم...؟

أم هي جناية صدرت من أبي فنلت أنا جزاءها بنفسي؟

عفوك، اللهم عفوك، فإن كانت جنايتي فإن حلمك أوسع من ذلك، وإن كانت جناية أبي فما جرمي لشيء لم تصنعه يداي...

أبي أيها الملاك الطاهر لقد خلقتني أضحوكة بيد القدر وسخرية يلهو به القريب والبعيد...

أبي لقد استرحْتَ يوم نفضت يدك من تراب هذه الدنيا التعسة وخلّفتني أقاسي الآلام والمصائب من بعدك...

أبي فأنت الربيع المفقود...

وأنا الخريف تهددني أعاصير الشتاء...

أبي إن الآباء يتركون لأولادهم ثروة ضخمة ليستعينوا بها على مقابلة هذه الحياة وأنت لم تخلف لي سوى هذا الوسام الرفيع يلاحقني أينما سرت وحيثما حللت...

رحماك يا أبي عد لي من عالمك المجهول وطوقني بذراعيك واسبغ عليَّ حناناً من فيض الأبوة فاليتم مرٌّ مذاقه...

يا أبي إنما اليتم على الإنسان عار...

ولو مشى في الصعيد...

لقد رضيت في وقتها أن تنسب لي هذه الثرثارة كل صفة ذميمة إلا هذا العنوان. ذلك لأنني لو كنت كسولاً لما كنت متضيراً من أن ينسب لي بأنني كسلان ولو كنت شريراً لما كنت أخشى أن ينسب لي بأنني شرير، ولكنني يتيم...

وليس ذلك ذنبي بل هو أمر قهري لحقني فما هو القصور الذي بدا مني لأحقّر به، وها هو شبحه يطاردني لينغص عليه عيشي الهادئ...

وألتفت إلى نفسي وإذا بالليل قد نشر أجنحته السوداء فاحتضن البلدة فغابت عن عيني معالم الأفق البعيد...

(٣)

كانت وظيفتي على أنها صغيرة مدعاة لانتباهي إلى الحياة فعرفت أن الحياة سياسة رسمتها أنامل القدر بشيء من الإتقان بعد أن كنت اعتقد أن الحياة أمر فوضوي.

وقد جمعت لي الحياة قضايا عديدة في وقت واحد أب قصير العمر ذهب إلى عالمه المجهول وأم أنهكها المرض فخارت قواها وأصبحت طريحة الفراش وإن تحسنت صحتها نوعاً ما.

وعوز شديد لا هوادة فيه فكانت كل هذه وغيرها موجبة لهربي من المجتمع والتشاؤم من الناس ومن البيئة والظروف.

كما أنها تشقينا بمصادفة تسعدنا بأخرى.

وهذا هو شأن الحياة وأن المجربين الذين واجهوا الحياة ولاقوا مصائبها عرفوا بأن الحياة صعود ونزول أو كما يقولون: (مد وجزر).

تنصحونا بأنه لا ينبغي للإنسان أن يفقد توازنه في كلا الحالتين فتراه في حالة الصعود تتوالى عليه عوامل الفرح والسرور فتفقده رشده وفي حالة النزول تهيمن عليه أشباح الخيبة والفشل فتفقده صوابه.

إذن: لا بد من نقطة توقف في ملتقى هذين العاملين يقف عندها الإنسان لينظر إلى الحالتين بأعصاب متماسكة رصينة.

وإننا لا نلوم حزيناً إذا حلّت به نكبة فأفقدته أمواله، ولا نلوم آخر إذا طار عقله من الفرح يوم أن علم أن رقم بطاقته هي الفائزة بالجائزة الكبرى في إحدى اليانصيبات فإن لكلتا الحالتين تأثيرها على النفس البشرية.

إلا أنها نصائح يبذلها المجربون لينبهوا الحزين بأن الحظ ربما يقف منه بمقربة خطوات، ويقول لذلك المار تمهل فلربما تنزلق قدمك فتلتقفك الهاوية وأنت طائش ذاهل.

أيها الزمن لقد نسيت أو بالأحرى تناسيت أفعالك المرة معي ساعة ضمتني غرفتي في مقري الجديد.

جلست خلف المنضدة الخشبية وأمامي أقلام ومحابر وأوراق وملفات وحسبت لنفسي حسابها حين لامست يدي الزر الكهربائي لأنبه الفراش بأن يرفع هذه الأوراق المكدسة من أمامي.

وبدأت أشهر براحة نفسية حين رفعت رأسي لأرى صنوفاً من الناس يقفون أمامي وهم بانتظار التفاتتي لأحيلهم إلى غيري من الموظفين بجرة قلم تستقر على هذه الصكوك التي يحملونها بأيديهم وتحركت في نفسي غريزة الانتقام والتشفي فبدأت تعمل عملها فتوغر صدري على هؤلاء الناس، وإذا بي أحس بنفور منهم وتمتمت وأنا أتناول من أحدهم ورقته لأدققها وأوقع عليها بعد ذلك قائلاً في سري قفوا أمامي صاغرين فلطالما كلت قدماي من الوقوف ولطالما مرت عليّ الساعات والعرق يتصبب من جبيني وأنا رهين الأقدار انتظر عطفكم والتفاتة أحدكم نحوي.

وتدخلت عوامل الخير فكان لها أثرها في تغيير حالتي فإذا بي ألتفت إلى نفسي أخاطبها.

مهلاً أيتها النفس الثائرة ورويداً لتخففي من هذه السورة الشيطانية فما أنت إلا نفس ذلك اليتيم الذي ذاق الأمرّين في حياته إلى أن كتب له القدر أن يصل إلى ما أنت عليه فلماذا كل هذا العلو والارتفاع وتحتك هوة سحيق قد تشاء الأقدار أن تنزلين إليها بعد اليوم.

والنفس النبيلة هي التي تصفح عندما تصل إلى غايتها.

وإلا فما الفرق بينك وبين نفسية ذلك الخائن الذي يبيع ضميره لغيره ويستغل من نفوذه ما يوصله إلى غصب حقوق الآخرين وينتحل من كرسيه شخصية تفرض نفوذها على غيره من البشر.

أيتها النفس الثائرة مهما نسيت وتناسيت فلا بد من أن تتذكري دائماً أن الأخلاق الفاضلة والسيرة الحسنة هي التي كانت سلّماً لك لتصلي بواسطتها إلى هذه

النتيجة فلماذا تحطّمين هذا السلّم وأنت بعد لم تقطع من الطريق إلا القليل فأنت في أشد الحاجة إلى هذا الذي كان سبباً في تقدمك وتأخر غيرك من ذوي الجاه والمنزلة.

مرّ هذا وغيره في خاطري فعرفت أن الخلق السامي هو الذي يرفع صاحبه إلى مصاف العلماء، لذلك لا بد لي من مجاملة الناس ومسايرتهم إن أردت أن أكون القائد لهذه الكتيبة الصغيرة التي هي وديعة أمي في عنقي وأن الانحراف عن الطريق موجب لرجوعي إلى الوراء بدلاً من التقدم، والليالي المظلمة التي مرت عليّ ستعاد.

هناك رفعت رأسي أخذت أعمل بهمة ونشاط والابتسامة لا تفارقني وإذا بالجميع وعلى وجوههم تنطبع آيات الشكر والرضى من هذا الموظف الجديد.

ولقد هيأت لي مهنتي هذه أن أرى ألواناً من الناس وضروباً من النفوس ترى فيهم الثري والفقير والشريف والوضيع والرجل والمرأة والشيخ والشاب والعجوز والفتاة ومنهم من يغريك بسحر حديثه، ومنهم من تنفر من فضاضة منطقه السقيم.

ولعل الدهشة تعقد لسانك فتكف عن السؤال بأنه كيف هيأت لي مهنتي الجديدة هذا الجيش الزاخر من المتناقضات لذلك كان من اللازم عليّ أن أجيب بأن الظروف قد تسوق أمامي شخصاً ثرياً ذا شخصية ضخمة ليقف أمامي فيناولني شيكاً يريد أن يسحب بموجبه مبلغاً من المال ولربما يتقاعس ذلك الثري فيرسل صكه بيد أحد الخدم أو يبقى جالساً في سيارته ليرسل سائقه فهذا هو الفقير الذي يقتله الضيم «الضمأ» بينما ترى المال فوق ظهره محمول، وذلك هو الثري الذي جمع ثروته بشتى الأنواع ليودعها في صناديق البنوك.

ولربما أرى بين الواقفين شريفاً جاء ليسحب مبلغاً من ماله الذي جمعه ليرضي الله والإنسانية، وعلى العكس فقد أرى أمامي خائناً وقد خان على أمواله من التلف لأنه بدوره جمعها من حقوق الآخرين غصباً أو نهباً أو ما شاكلها من الطرق الوحشية.

وهناك على مقربة مني يقف شيخ كبير وقد ابيضت حاجباه من الكبر وبيديه عصىً يتوكأ عليها وبالأخرى يناولني ورقته الخضراء وهو يرميني بنظرات من وراء

منظاره الرابض على أرنبة أنفه بينما يقف إلى جانبه شاب وسيم الطلعة لم يتجاوز العقد الثالث من سني حياته.

وهذه عجوز بدينة وقد تركت وجهها للمساحيق بعد أن أنَّ الدهر والتكلف باد عليها وعلى مظهرها الخارجي تراها بانتظار دورها لتستلم مالاً ورثته عن زوج خلف عالمها هرباً منها ومن تصنّعها ومساحيقها التي شوهت مظهرها.

وبين هؤلاء قد تقع عينك على فتاة رشيقة قد أفنت من عمرها ثمانية عشر ربيعاً وقد بدت أنوثتها طبيعية ساذجة لا يشوبها أي تكلف وعناء.

هكذا كانت وظيفتي كشاشة السينما تعرض عليّ هذه الصور المتناقضة وأنا أتأملها بدقة وإتقان.

وقد بدأت أشعر بالعيون ترفقني وأنا منهمك في عملي وبدأت أعرف المجاملة وتأثيرها في نفوس الناس وبموجب هذه المجاملة وهذه الابتسامة الهادئة التي لا تفارقني كونّت لي أشخاصاً يعطفون عليّ وهم يتفقدون حالي بأسئلتهم عن صحتي وراحتي.

لم يقتصر حالي على هذا فقط بل بدأت أشعر بلذة غريبة وأنا أكلم إحدى الفتيات وأنهي لها عملها بسرعة بعد أن قدّمتها على غيرها من المراجعين فيكون جزائي على ذلك بسمة عذبة وعبارات كلها الشكر نتيجة إحساني لها.

رباه، لقد عشت إلى هذه اللحظة محروماً من الأصدقاء ومحروماً من محادثة غيري من هاتيك الفتيات الجميلات وكان الناس ينظرون إليّ في عجب إذا تحدثت إليهم وقد خيّل إليّ أنني لست كفؤاً لمحادثتهم كأنني حيوان منبوذ في غابة بعيدة المدى.

ولشدّ ما كنت أهفو إلى صديق من الأصدقاء وأغبط هؤلاء الناس الذين يسيرون اثنين اثنين يتبادلون التحية والضحك والإفضاء بمتاعب الحياة في حين أعود محروماً يائساً من هذه المتعة اللذيذة لأن الطبيعة حرمتني من ذلك فلا هي هيأت لي أختاً كبيرة لأصاحبها إلى دار السينما كأي أخ آخر ولا هي سمحت لي بالاتصال بأي فتاة تملأ هذا الفراغ الموجود عندي.

الاتصال بفتاة أخرى أمر يوجب الضحك ويدعو إلى الاستغراب فهل يُسمح لليتيم مثلي أن يتمتع بمباهج الحياة؟ وهل يسوغ له أن يتأبط ذراع فتاة تبادله آيات الحب؟

إنه لأمر يقارب المستحيل أو هو المستحيل نفسه.

إن الحب يقتصر على ذوي الجاه والثروة أما أنا البائس المحروم فلي من وحدتي ما يشقيني ويقلق راحتي.

وكثيراً ما ملكني الاستغراب وأنا أسمع بكلمة الحب ولقد سمعت قصصاً كثيرة للمحبين ووقفت على مشاهد غرامية كثيرة إلا إنني لم أكن أعرف معناه ولم أفهم له أي تأثير ولطالما سمعت من بعض المحبين وهو يخاطب حبيبته قائلاً:

لقد رميتني بسهام لحظك فها أنذا صريع نظراتك القاتلة.

ولم أفهم مراده فما هي سهام اللحاظ على أثرها يكون الشخص صريعاً؟

إنها رموز لا أفهم لها معنى!!

وكم من مرة رجعت وأنا أردد قائلاً:

ترى من هو ذلك المحظوظ الذي تهيئ له الليالي هذا الكنز الدفين؟

ومن يا ترى ذلك الذي سيأخذ بيده مفتاح ذلك القلب الصغير؟

ومن هو ذلك الذي سيتناول فيتأبط ذراع اليتيم؟

ومن هو ذلك الذي سيُدخل على قلب المحروم ما يسره وما يرضيه؟

كل هذه أفكار كانت تدور في مخيّلتي يوم كنت أتسكع راجعاً من المدرسة أو في الطريق إليها.

أما اليوم فإن عملي الجديد لكفيل بأن يريني أنواعاً من الناس.

من مدرسة آل أبي سفيان
بطانة معاوية

أعلام الكتاب:

١ ـ سَمرة بن جُندب. ٢ ـ عمرو بن العاص. ٣ ـ وحشي بن حرب.

٤ ـ عمارة بن الوليد. ٥ ـ مروان بن الحكم. ٦ ـ زياد بن أبيه.

٧ ـ بُسر بن أرطاة. ٨ ـ المغيرة بن شعبة. ٩ ـ عروة بن الزبير.

١٠ ـ أبو هريرة. ١١ ـ الضحاك بن قيس. ١٢ ـ عبيد الله بن زياد.

(١)

سَمرة بن جُندب

تنام دمشق الحالمة، وتهدأ الأصوات، وقصر الخليفة كعادتِه في كل ليلة تدب فيه الحركة، ويسري فيه النشاط وتنساب داخله الأنغام، وتدار فيه كؤوس الخمر لتزيل عن النفوس بعض ما لاقته من التعب، ولتخفف عنها أعباء الهموم بما ينسيها عناء ذلك اليوم، ولكن ـ أبا يزيد ـ في هذه الليلة لا يشارك المجموعة مجونها، وأفراحها فهو منصرف عن هذه الضجة وعن هذا الجو اللاهي.

إنه في دوامة التفكير منذ أيام فقد خلا له الجو وتحققت آماله العريضة بعد أن لبى ابن أبي طالب نداء ربه في المحراب ونجحت تلك المؤامرة القذرة باغتياله على يد أثيمة، وعصابة مجرمة. لقد آن الأوان لمعاوية أن يلفق لنفسه ما يريد وما دامت الأمور قد ألقت بأزمتها إليه.

ولكن من يا ترى سيكون بطل مسرحياته الجديد؟

لقد ترك ابن أبي سفيان كل أسباب اللهو، والطرب في هذه الليلة.فلم تك تشغله هذه الأمسية الساحرة.

وبدأ يستعرض الوجوه التي ستمثل الأدوار ليختار من بينها من يجيد اللعبة.

ويلتفت إلى ابن العاص وقد ارتسمت علامات الضجر على وجهه، فيقول: إيه أبا عبد الله ما تقول؟

إن الناس يتحدثون عن أبي تراب فيقولون: إن الله أنزل فيه قرآناً زاعمين إنه فدى ابن عمهِ محمد، ونام على فراشه عندما أجمعت كلمة قريش وحلفائها على قتله

فنزلت فيه هذه الآية: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ (١) لقد شغلني هذا الأمر وسلب راحتي فما لابن أبي سفيان ولا لآل أبي سفيان مثل هذا الشرف ولماذا لا تتحدث أندية مكة، ومجالس العرب فيقال: أن لنا ولو آية واحدة؟

وإذا لم يكن لنا من كتاب الله بشيء فلماذا يكون ذلك لمثل ابن أبي طالب؟

وهو من تعلم!

لقد ذهب محمد، واسمه تتناقله المآذن، والناس في الصلوات، وذهب علي، والناس يتحدثون عنه بهذه الآية، وغيرها.

وسيبقى التاريخ يسجل لهم كل هذا، وغيره، ويسجل لنا ما تشاهده من هذه الأندية، والليالي الحمراء.

إيه يا أبا عبد الله ما تقول؟!

ويبقى أبو يزيد، وعيناه متجهتان نحو بطل المكر والخداع ابن العاص ليتلقى منه مخرجاً يخفف به عن نفسه ما لحقها من هموم.

وليس ذلك على ابن العاص ببعيد فقد عوده النصح، والحيلة. ويتشاغل ابن العاص، ويتصنع التفكير ليهيء الجواب المرضي لولي نعمته، وشريكه في مسارح التزوير، والخداع.

وسرعان ما تنقشع سحابة التفكير ليغتر ثغر المراوغ المستشار عن إبتسامة خبيثة ماكرة، ثم يعقبها بضحكة عالية تنبئ عن وجود المخرج، والحل.

وتظهر علامات الفرح على قسمات وجه معاوية ويزحف عن مجلسه يتجه إلى ابن العاص ليسمع منه فقد عوده صاحبه على انقاذه من المأزق وهو يعلم بمكره ولكنه يريد ذلك إرضاءً لنزوات نفسه.

وأخذ يلح عليه بالحديث وابن العاص يتصنع التفكير وأخيراً هتف به يقول!

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٧.

ما ورائك يا أبا عبد الله؟

ويجيبه ابن العاص بهدوء: لقد وجدت الحل يا معاوية فليس لتمثيل أدوار مسرحياتنا التي تنوي تمثيلها لأهل الشام إلاّ سمرة بن جندب..!!

الشيخ الهرم الذي يسيل لعابه على الدرهم والدينار..

واستوى عمر في جلسته وظهرت عليه امارات الجد في الحديث عندما بدأ يحدث معاوية قائلاً..

اسمع مني يا أبا يزيد إن سمرة شيخ كبير وقد شهد رسول الله وسمع حديثه وهو شديد الحب إلى المال يقدمه على كل شيء وهو أطوع إليك من بنانك قل له ليعلن إلى الملأ من أهل الشام بأن الآية المتقدمة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ﴾.. لم تنزل في علي بن أبي طالب.

ولم يتمالك معاوية من إطلاق ضحكة عالية وهو يفرك بيديه فرحاً مسروراً.

ويسترسل ابن العاص في حديثه.

تمهل يا معاوية فأدوار المسرحية لم تكمل بهذا الدور بل لا بد من إكمال الشوط فهذا المقدار لا يكفي من الحط من قدر أبي تراب.

وتلهف أبو يزيد وعاد لكله ليستمع إلى محدثه.. ولعبت أصابع عمرو بلحيته عبثاً واسترسل يقول..

وعلى سمرة أن يدعي أن هذه الآية نزلت في عبد الرحمن بن ملجم لنضفي بذلك هالة من التقديس على عبد الرحمن فتبرر بذلك عملية قتله لعلي.

وهناك مفاجأة أخرى يا معاوية أكمل بها هذه المسرحية احتفظ بها لأفاجأ سمرة إذا جمعنا المجلس.

ولم يتمالك معاوية من إطلاق ضحكة عالية وهو يخاطب حاجبه عليّ بسمرة، عليّ بسمرة احضروه إلى مجلسي.

وسرعان ما أحضر سمرة إلى مجلس معاوية وأخذ مكانه وانتظم العقد ليحكموا

أمراً دبر بليل.

ولم يتمكن سمرة من إخفاء اضطرابه فماذا وراء رسل معاوية في مثل هذا الليل..

ويلتفت معاوية فيهدأ من سمرة ويلاطفه قائلاً:

لقد أزعجناك بإرسالنا إليك في مثل هذا الوقت ولكن طب نفساً فإنا ما أردنا بك إلاّ الخير.

وجاء دور ابن العاص فقطع حديث معاوية ليخاطب سمرة والجد بادٍ على محياه.

إيه يا سمرة أنت تعلم أن أبا تراب قد مضى ولكن شبحه لا يزال ماثلاً أمام أمير المؤمنين معاوية وأعماله تتجدد كل يوم وهذا ما ينغص علينا العيش وعلى أمير المؤمنين بالذات.

وتنفس سمرة الصعداء فقد علم ما يراد منه وهو الذي لا يقل عن محدثِهِ مكراً ودهاءً.

قال سمرة:

نعم، يا أبا عبد الله أنا طوع إشارة الأمير..

وابتسم معاوية.. وهو يقول:

بارك الله فيك يا شيخ..

وعاد ابن العاص ليتم حديثه.

ما تقوم يا سمرة في أن تحدث الناس غداً إذا اجتمع المصلون في المسجد الكبير ونودي بالصلاة جامعة.

قل لهم إن هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[1]، قد نزلت في عبد الرحمن بن ملجم.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٧.

ولم يدع ابن العاص مجالاً ليجيب سمرة على هذا الطلب أو يسمح له بالتفكير بل أتبع حديثه، ويريد أمير المؤمنين منك أن تروي أن هذه الآية:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ۝٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴾[1].

قد نزلت في علي بن أبي طالب وكانت هذه هي المفاجأة التي وعد بها ابن العاص معاوية لتكميل المسرحية.

لحظات حرجة!!

تمر على ابن جندب... إنه لا ينكر واقعه المرير وأنه كغيره ممن يضمه ديوان التلفيق والتزوير في مدرسة آل أبي سفيان، ولكن هذا العرض طلب من نوع جديد.

إن معاوية لم يطلب منه حتى الآن تزوير الأحاديث عن النبي (ﷺ) ليوهم على الناس أنها نزلت في فضل معاوية وآل أبي سفيان، أما أنه يطلب منه في هذه المرة تزوير القرآن فهذا شيء جديد يصطدم به سمرة.

وسمرة ليس بالفقيه الورع الذي يوقفه ورعه عن مثل هذا التطاول عن كتاب الله ولكنه يعلم أن آية: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ ﴾ نزلت في الأخنس بن شريق لأنه كان يظهر للنبي (ﷺ) المحبة والرغبة في دينه ولكنه كان يبطن له خلاف ما يظهر وقد مرّ بقوم من المسلمين من ثقيف فحرق زرعهم وعقر حمرهم فنزلت فيه هذه الآية.

ويعلم سمرة أيضاً أن الآية الكريمة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ نزلت في علي بن أبي طالب حينما فدى النبي بنفسه وبات على فراشه يوم أراد المشركون قتل رسول الله (ﷺ) والخلاص منه فلم يأبه بسيوف المشركين تبحث عن رسول الله فكان جزاء الفداء أن نزلت فيه هذه الآية.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

إزدحمت هذه الأفكار في مخيلة سمرة وراحت أصابعه تبعث في لحيته المتدلية على صدره والحيرة تأخذ عليه مسالك التفكير فهو بين يدي مشكلة خطيرة فماذا يصنع.

يقدم على تنفيذ ما طلب منه ومن وراء ذلك المال الذي يسيل عليه لعابه.

أو يرفض وممن ذلك إنه يخسر معاوية وهو ولي نعمته.

وكاد جانب الرفض يتغلب لولا أنه تذكر قصة طريفة كانت الباعث لإقدام سمرة على تنفيذ رغبة معاوية في تحريف الآيات المذكورة وتغيير شأن النزول فيها.

أطلق سمرة لأفكاره العنان فتذكر تلك الحادثة التي تشهد له بما تنطوي عليه نفوس أهل الشام من خضوع لمعاوية، أنها بعد واقعة صفين وكان قد سافر رجل كوفي إلى الشام على بعير له بعد إنصرافهم من صفين ويلمح أحد الأشخاص ذلك البعير فيهم به سوءً ويتعلق به مطالباً بأنه ناقته، وقد أخذها الكوفي منه بصفين ويتطور النزاع إلى إسماع معاوية فتدخل القضية في مجريات إثبات كل شخص لما يدعيه، وكانت الدعوى من قبل الشامي وعليه إثبات مدعاه بالبينة وفوراً فقد احضر خمسين شاهداً وشهدوا بأن هذه الناقة للشامي وقد أخذها الكوفي منه بصفين.

وأصدر الخليفة حكمهُ بأخذ ما بيدهِ على أنه ناقة وتسليمها إلى الشامي.

ويلتفت معاوية إلى الكوفي وقد أخذ منه البعير فتنظر منه تعليقة على حكمه.

قال الكوفي: أصلح الله الأمير إنه جمل وليس بناقة...

ويجيبه معاوية يقول بأنه حكم صدر منه وقد مضى وتفرق القوم وخرج الكوفي من مجلس القضاء يجر أذيال الخيبة وقد خسر جمله.

ولكن معاوية أرسل خلفه ليضاعف له في ثمن بعيره ويحمّله رسالة إلى الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام) قال له بلغ علياً إني أقابلهُ بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل.

تذكر سمرة هذه القصة وأخذ يحاسب نفسه فيما يريد الإقدام عليه فما الذي يقف في طريقه لتنفيذ رغبة معاوية.

إن معاوية لم يأمره بالتوجه إلى مدينة الرسول (ﷺ) ليعلن عليهم تحريف الآيات وتزويرها وفيهم من شهد رسول الله وعرف مواقع التنزيل.

إن معاوية طلب منه أن يلفق هذه الآيات أمام مجموعة لا تفرق بين الناقة والجمل أو أريد لتلك المجموعة أن تتغابى لتوهم الكوفي بهذه الإطاعة العمياء لخليفتهم معاوية.

ولم تخف هذه الأفكار على معاوية وإذا به يلتفت إلى سمرة ليقول:

بماذا تفكر يا سمرة ولك عليّ مائة ألف درهم معجلة.

لقد جاء دور المال وسال لعاب سمرة له فقد حرك معاوية عصبهُ الحساس وحانت الفرصة فعلى سمرة أن يستفيد منها، ويصطنع سمرة هيئة من يستعظم الأمر ويتوقف ليزيد معاوية في العطاء وهكذا يكون فقد بدأت المساومة بين سمرة من طرف، ومعاوية ومساعده عمر بن العاص من جهة أخرى لتصل إلى الأربعمائة ألف درهم يدفعها معاوية من بيت مال المسلمين لمرتزق قد باع ضميرهُ ليحرف كتاب الله..!!

وقبل سمرة أخيراً بهذا العرض واطمأنت نفسه وليشهد منبر المسجد الجامع غداً نوعاً جديداً من اللعب بمقدرات الشريعة الإسلامية ولتدار بعد ذلك الأقداح فلقد ملّ رفاق الليل انشغال الخليفة عنهم هذه الليلة وليعرف المغنون عمالقة اللهو والطرب ـ معاوية وعمر وسمرة ـ نخب هذه الصفقة، وليكن بعد ذلك ما يكون فالمال يتدفق إلى خزينة الدولة يأخذه معاوية من الناس باسم الخلافة الإسلامية ويبعثره هنا وهناك ليشبع رغباته الحاقدة ضد البيت الهاشمي الرفيع وليرتكب في سبيل تحقيق هذه الرغبات كل مستحيل وحتى ولو كان ذلك من قبيل تحريف الكتاب واللعب بالسنة النبوية..

أليس هو ابن من يقول..

تلاقفوها يا بني أمية فوالذي يحلف به أبو سفيان لا جنة ولا نار.

وسمرة من هو..

أنه يبيع الخمر، وقد قال ابن عباس..

ذكر لعمر أن سمرة باع خمراً فقال.. قاتل الله سمرة إن رسول الله (ﷺ) قال، لعن اليهود حرمت عليهم الخمر عليهم الشحوم مجلوها فباعها.

ومن جهة أخرى فقد أطاع معاوية حتى قال..

لو أطعت الله كما أطعت معاوية لما عذبني أبداً.

ولملم الليل أطرافه وانفض سماره وهبّت دمشق على فجر يوم جديد وارتفعت الشمس وغص ديوان الخليفة بالمرتزقة ووسّع لسمرة في صدر المجلس لينتقل الجميع بعد ذلك إلى المسجد الجامع فلسمرة اليوم حديث يلقيه على مسامع القوم..

وحان الوقت فصعد سمرة المنبر وأشاد بآل أبي سفيان، وقام بتمثيل مسرحيته وصدّق البعض نزول الآيات كما بينه سمرة واستنكر آخرون ولكن بدون إظهار ذلك.

وطار معاوية من الفرح فقد تم له ما أراد وظن أنه انتقص من شخصية الإسلام الثانية فلفق له مأجور ما يشتهيه ويرغب فيه أيساره أعداء الإسلام، ولكنه نسي أن الأقلام المأجورة يحاسبها التاريخ وسرعان ما يظهر زيفها.

وحفظ معاوية لسمرة عواطفه فولاه البصرة لينشر هناك وفي أوساط أمير المؤمنين صفحات الخزي والعار وليثبت أركان الدولة الأموية.. إلاّ أن معاوية اضطر إلى عزله بعد سنة من تنصيبه لأنه خشي من تفاقم الأمر واختلال الأوضاع. فإن سمرة كان حباباً لسفك الدماء.

فعن أبي سوار العدوي أنه قال..

لقد قتل سمرة من قومي في غداة سبعة وأربعين رجلاً قد جمع القرآن.

ولم يكتف بهؤلاء بل أضاف إليهم أعداداً هائلة فكانت ضحاياه في مدة ولايته القصيرة على البصرة ثمانية آلاف ومن خلال هذه الحوادث تظهر لنا نفسية هذا

السفاك، وقد أجاب يوماً زياد بن أبيه، وقد سأله عن مدى ولائِه للبيت الأموي قائلاً..

ما تقول يا سمرة هل تخاف أن قتلت أحداً بريئاً.

فيجيبهُ: لو قتلت إليهم مثلهم ما خشيت.

سمرة بن جندب يستحل قتل الأبرياء من المسلمين لا في جهاد ولا في قيام بعمل في سبيل الله بل لإرضاء أسياده من آل أبي سفيان.

سمرة بن جندب الرجل المضار بشهادة رسول الله من فقد ذكرت مصادر التاريخ أن أحد الأنصار اشترى منه بستاناً فاستثنى سمرة له من البستان نخلة فكان بعد ذلك يتردد دون إذن الأنصاري في الدخول إليها وربما كانت في البستان عائلة الأنصاري ويبلغ الضيق بالأنصاري منتهاه فيرفع أمره إلى النبي (ﷺ) شاكياً إليه ما يلقاه من سمرة.

ويراجع النبي (ﷺ) سمرة فيرغبه في بيع نخلته ولكنه يمتنع وترتفع المساومة وإذا بالنبي (ﷺ) يضمن لسمرة نخلة في الجنة مقابل نخلته، ولكن سمرة يصر على عنادهِ فلا يتنازل.

ويضطر النبي الكريم (ﷺ) وبدافع من المصلحة العامة ليدفع الضرر عن الأنصاري فيأمر بقلع النخلة ويرميها بوجه سمرة فإنه لا حق فيها بعد هذا العناد ويقول كلمته التي أصبحت بعد هذا قاعدة من القواعد الفقهية.

«ما أراك يا سمرة إلاّ رجلاً مضاراً».

ويلتفت إلى الأنصاري قائلاً:

اذهب فاقلعها وإرم بها إليه فإنه «لا ضرر ولا ضرار».

وينتشر الخبر بين الناس أن سمرة رجل مضار بشهادة النبي (ﷺ) له وتبقى هذه الكلمة تلاحقه لتظهر نواياه الخبيثة أمام المجتمع.

لقد فضل سمرة نخلته على نخلة من الجنة بضمان رسول الله (ﷺ) له بذلك

وتبقى هذه الكلمة تقض مضجع سمرة فيتحين الفرص ليقابل الرسول الأعظم بـما يشفي غليله منهُ.

وتدور الأيام متلاحقة وتتبعها ليالٍ سوداء حالكة فيموت معاوية ويقوم بـالأمر ولده يزيد تحيط به بطانة سوء لاهية لا تجد من عمل إلاّ إحياء مجالس الليل يدور فيها الخمر وتتردد فيها أنغام الموسيقى والرقص والغناء.

ويقوم الحسين بن علي(عليه السلام) ليعلنها صرخة مدوية ترددهـا الأجيـال المتعاقبـة فيخبط التاريخ بأحرف من نور بأن سبط النبي (صلى الله عليه وآله) لا يعطي بيـده للباطـل إعطـاء الذليل ولا يقر لآل أبي سفيان إقرار العبيد.

إن مثل يزيد اللاهي الماجن لا يصلح لأن يتزعم المسلمين فـلا بـد مـن القيـام بوجهه ولا بد من إرجاع المسيرة الإسلامية إلى الخط الصحيح.

ومن لذلك غير أبي الضيم ريحانـة رسـول الله (صلى الله عليه وآله) أبـو الـشهداء الحـسين بـن علي(عليه السلام).

ويسير موكب الحق متجهاً نحو العراق ليحط رحاله في كـربلاء وليقـدم بعـدها القرابين أضاحي غالية في سبيل اعلاء كلمة لا إله إلاّ الله.

لقد خرج والي يزيد على الكوفة عبيد الله بن زياد إلى حرب الإمام الحسين(عليه السلام) ويتقابل الطرفان في كربلاء.

ويجد سمرة الفرصة مواتية فينخرط في جملة المحاربين ليكـون عـلى شرطـة ابـن زياد يستنفر الناس للخروج إلى حرب الحسين(عليه السلام).

وهكذا تنتهي حياة مملوءة بالدس والتلفيق على الشريعة المقدسة وبنهايته يسجل التاريخ..

«إن سمرة وقف إلى جانب الزمرة الخائنة والتي قاتلت ابن بنت رسول الله(صلى الله عليه وآله) لا لشيء إلاّ أنه قام بوجه الظلم ووقف في طريـق الظـالمين لـيحطم الوثنيـة في ربـاع العرش الأموي المنهار».

(٢)

عمرو بن العاص

ارتفع الضحى فأرسلت الشمس لتنير شعاب مكة وربوعها وفي رحبة واسعة تحيط بها البيوت تجتمع بعض الفتيات ليقتلن الوقت بالحديث.

تميل سلمى فتهمس في إذن رفيقتها نبأً لا تجد هذه ضرورة في إخفائه عن صويحباتها.

فتقول..

لقد أخبرتني سلمى أن ليلى تنتابها آلام المخاض ولم تتمالك إحدى الفتيات من أن تبتسم بخبث قائلةً:

ليت وليد ليلى يكون أنثى لتدفنه ليلى فتضم بين جنباتها هذا الحمل المشوم. وترد عليها صاحبتها:

وهل تقف ليلى عند هذا الحد فليكن وليدها الجديد ذكراً أو أنثى أنها مستمرة على عملها تستقبل مجموعة وتودع آخرين.

وعلى مقربة من هذه التشكيلة تمر عجوز تحث الخطى ولكن الحديث العابر يجلب انتباهها فتتشاغل بقناعها لتديره حول وجهها الذي جعدته السنوات.

لقد أثارت أم خالد هذه الغمزات من صبايا لم يحن لهن الدخول في مثل هذه الأحاديث يتعرضن لصديقتها ليلى لذلك التفتت إليهن قائلةً:

ما بالكن يا بنياتي وهذه الأحاديث..

فهل جاءت ليلى بشيء جديد..

لم تكن لليلى في هذا البلد زميلات ولكلٍ منهن ما لليلى من عمل ما شأنكن فيها وأنتن بعد في مجنب من الخوض في مثل هذه الشؤون.

وتلتفت المجموعة إلى هذه الشمطاء ويخيم عليهن الهدوء.

ويتفرق الجميع.

لم كل هذا الهمس..

ولم كل هذه الغمزات..!

ومن هي ليلى ومن هو وليدها؟!

وكل هذه الإبتسامات الماكرة من عذارى مكة وهل وراء حمل ليلى من جديد؟

أنها كبقية النساء تنتابها آلام المخاض لتضع وليدها.

ولماذا تتمنى إحدى الفتيات أن يكون وليد ليلى أنثى لتدفنه فتضم بين طيات الأرض رمز العهر والعار.

إن ليلى لم تكن كبقية النساء بل هي ذات علم كما يقولون، وقد كان العرف الجاري في ذلك الوقت أن توضع راية على الدار التي تهيأ صاحبتها نفسها لاستقبال رواد الجنس ليقصدها كل صاحب حاجة ليقضي عندها وطراً من الوقت.

وإن لمولودها هذا قصة قام بتمثيل أدوارها خمسة من الرجال كان لهم على مسرح الأم العاهر جولات فقد دخلوا عليها معاً وقضوا عندها وطراً من اللذائذ الوقتية، ولا بد أن كل واحد منهم أن يدعي الوليد لنفسه.

وفي قبالة ليلى تجلس الحواضن يساعدنها في مخاضها ويخففن عنها آلام الحمل. وفي سورة من حدة الطلق تضع ليلى وليدها فتشرأب الأعناق لتتابع النظرات.

وفي غمرة من الوجوم الذي ضم على المكان ينطلق صوت القابلة لتهنئ الأم المنهوكة وتنبئها بأن الوليد ذكر.

ولم تتمالك الأم من إخفاء فرحتها بل راحت تغمر الطفل بقبلات مسعورة بينما بدأت تتلقى التهاني من صويحباتها.

وعلى مبسم الأفق الجريح تطبع الشمس الغاربة قبلة الوداع لتلقي بنفسها في أحضان المغيب.

وتشهد رحاب مكة على عادتها في كل ليلة مجالس السمر حيث يجتمع أبناؤها في الأندية ليشكلوا حلقات يتجاذبوا أطراف الحديث ومن بين تلك المجالس يلمح القادم حلقة واسعة تضم عدداً من الرجال، وقد تصدروها أبو لهب وانخرط فيها أبو سفيان وأمية بن خلف والعاص بن وائل وهشام بن المغيرة وغير هؤلاء ممن يقتل الوقت بالأحاديث.

ولم يكن أبو لهب في تلك الليلة بادي الإنشراح يحدث عن أصنامه وعن جرائمه البشعة يفتخر بها ويعتز فيها.

كما لم يكن أبو سفيان أيضاً منشرح البال كعادته بين القوم... مغامراته مع بائعات الهوى في مكة.. بل كان حديثهم في هذه الليلة من نوع جديد أنهم يتخاصمون فيما بينهم على وليد ليلى فهؤلاء الخمسة كل منهم يدّعيه لنفسه وإن كان الحماس يظهر على أبي سفيان والعاص بن وائل أكثر من بقية الزملاء.

وأخيراً، التفت أبو سفيان إلى أصحابه قائلاً: سأقدم القرابين خالصة لهبل في هذه الليلة إنها الساعة دنت وأخشى عليها.

ويفهم العاص بن وائل ما يريده أبو سفيان من هذا التحدي الصريح فيهب كالثور الهائج ويلتفت إلى أبي سفيان قائلاً:

ما تقول يا أبا معاوية لقد علمت قصدك من تقديم قرابينك إلى هبل إن وليد ليلى من صلبي وأنا أبوه.

ولا يعير أبو سفيان أهمية لكلام العاص بل أصرّ على أنه أحق بالطفل وتبدو في الأفق بوادر فتنة عمياء فقد أصرّ كل منهم على رأيه وادّعى أبوته للطفل وكثر اللغط واشتدّ تأزم الموقف.

وكادت تراق دماء رخيصة لولا تدخل بعض الجالسين يحاول أن يضع حداً لهذه

المهاترات مخاطب أبو لهب بقوله:

يا أبا لهب ليست هذه الحادثة بجديدة علينا فلقد عودتنا الحلقات أن نلجأ إليك لتقول كلمتك الأخيرة في مثل ذلك.

فيرد عليه أبو لهب نعم وصحيح...

ما تقول...

إني أرى أن تكون الوالدة هي المحكمة في مثل هذه المناسبات فهي أدرى بمن يعود إليه أمر هذا الطفل الذي حملته.

ويأخذ هذا الإطراء مأخذه من شيخ المشركين فيعتدل في جلسته ويرسل أصابعه تعبث في عثنونه المتدلي على صدره بينما راحت عيناه تدور في الحاضين تفحص عن وجود شخص غريب وكأنه يريد أن يتكلم بشيء لا يرغب بأن يطلع عليه غير هؤلاء.

ولكن المتكلم لم يدع فرصة لأبي لهب يعلق فيها على الموضوع، بل قال لهم هلموا بنا غداً إلى ليلى فعند ليلى الخبر الصحيح.

ويوافق الجميع على هذا الاقتراح ويتفقوا على أن يجتمعوا عند ليلى في غد...

وجاء الليل فاستقبل الأفق بدراً وليداً فأرضى الظلام سدوله على مكة وبيوتها ولفها بردائه الحالك وعاد الناس إلى منازلهم وخيم على الجميع هدوء ألفته الطرقات في مثل هذا الوقت من الليل.

وأقفرت الطرقات من المارة إلاّ من رجل كان يسير بخطىً وئيدة تقوده الأفكار المزدحمة... إنه العاص بن وائل ينسل في جنح الليل إلى دار ليلى...

ويصل إلى الدار فيقرع الباب.وانبعث صوت من الداخل يسأل من الطارق ويجيب بأنه العاص بن وائل!

ويختفي الصوت فترة قصيرة ثم تخرج له إحدى صويحبات ليلى لتقابل الضيف العاص بن وائل.

ويستفسر العاص عن صحّة ليلى ووليدها، يدفع لها مبلغاً من المال لتستعين به ليلى على ظروفها الخاصة ويحملها إلى ليلى عواطفه وشوقه ويقفل راجعاً.

وتململ الليل تعباً... فقد تعب كره هذا السكون المطبق وهذه الوحشة الجاثمة على المدينة فلملم أطرافه لتستقبل الطبيعة فجر يوم جديد وارتفعت نسائم عذبة تهب من بادية نجد لتضفي على الجو رقة وعذوبة وحينما تنفس الصباح ودبت الحركة في البلد من جديد سار موكب المتنازعين إلى دار ليلى يتقدمهم أبو لهب.

ويعز على ليلى، وهي في مخدع الولادة أن لا تساعدها الحال لتستقبل هؤلاء الضيوف على عادتها.

لكنها ككل حامل لا تقوى على الحركة ومع ذلك فقد رحبت الجميع ووزعت ابتسامتها على الحاضرين ويستقر المجلس ويتوجه خطيب الجلسة بالأمس إلى الأم.

لعلكِ فهمت يا أم عمرو بالقصد من مجيئنا.

وجمعت ليلى أطرافها وتشاغلت عن القوم وقالت بخبث وما يدريني ما جئتم به.

على أن مجيئكم لنا ليس بجديد وضحكت وقد أطرقت برأسها.

ورد المتكلم يقول...

صحيح ما تقولينه ولكن لمجيئنا هذه المرة قصة اختار القوم أن تكوني أنت المحكّمة فيها فما رأيك مسبقاً؟

وتابعت أم عمرو بنظراتها تستدرج المتكلم، وقد سرها الخبر ولو من بعيد.

وتابع المتكلم يقول...

جئنا نحتكم إليك في أمر هذا الطفل فلقد تنازع فيه هؤلاء وهم من تعرفينهم من علية القوم ولكل منهم أصالة وشرفة في البلد والكلمة الأخيرة لك في تعيين أبيه لأن أهل الدار أدرى...

لم تكن زيارة هؤلاء مفاجئة لليلى فلقد توقعت مثل هذا النزاع ولأنها سمعت بقرارهم البارحة بتوجههم إليها ليحكّموها في أمر الغلام.

ثم مجيء العاص إلى دارها في جنح الليل وفي غلسٍ منه.

ثم المال الذي قدمه.

كلها هذه كانت مؤشرات لهذه النتيجة التي جاء القوم من أجلها لهذا لم يكن قرار التحكيم مفاجئة لها.

وقد مرت عليها في ليلتها الماضية عندما تسربت إليها أنباء مجيء القوم أفكار بقيت تصارعها وهي تلقي برأسها على الوسادة وقد نام الجميع.

إن أهم هؤلاء الخمسة في نظرها أبو سفيان والعاص بن وائل ولأبي سفيان نسب تفاخر به، ولكنه شحيح.

أما العاص بن وائل فيمتاز بسخائه وعلى الأخص عليها فقد عودها على العطاء كما عودته على العطف وكل ما تقدمه بائعة الهوى لمشتري مثل العاص بن وائل.

ولو ألحقت الوليد بالعاص سيكون العاص أباً لهذه العائلة وسيكفيها المال.

وأخيراً، تقدم وتغلب المال على النسب الذي يمتاز به أبو سفيان وهو من سادات قريش.

ورفعت رأسها لتقارن بين الطفل وبين أحد هؤلاء في حركة مصطنعة لتحول إليها أنظار القوم من جديد.

وهم ينتظرون حكمها والموقف بيدها والكل رهن الكلمة الأخيرة.

وبدد السكون صوت المتكلم مرة أخرى.

ما تقولين يا ليلى لمن هذا الطفل.

ووضعت ليلى خمارها على وجهها لتخفي ابتسامة رقيقة مخروجة بحياء وغضت طرفها لتقول...

إنه ولد العاص بن وائل...

ولم تكد تصل إلى هذا الحد من كلامها حتى كادت الشمس تصل إلى وسط السماء وأخذت ترسل حرارتها.

وأذنت الزوبعة بانتهاء وتفرق القوم والخيبة تمزق قلب أبي سفيان فقد مالت ليلى إلى العاص بن وائل وانتهى كل شيء وخرج شيخ بني أمية والحسرة تأكل قلبه وهو يقول:

(أما أني لا أشك إني وضعته في رحم أمه).

ولم يخرج العاص مع من خرج بل بقي إلى جانب الأم في مخدع الرذيلة ليضم إلى صدره ثمرة العهد، وبيد ذليلة تحمل ليلى الطفل لتقدمه إلى الأب الفاجر ليطبع على جبين اللصيق قبلة بكل نهم واهتمام.

لم يكن اهتمام العاص بهذا الوليد أن يحصل إلى الإبن بل بعض قصده الطعن بكرامة أبي سفيان واحتقاره بتغلبه عليه.

وباركت صويحبات ليلى ممن حضرن المجلس لأم عمرو هذه الأبوة الجديدة وبذلك تتم عراقة النسب لابن العاص من الطرفين:

الأب...

ويكفينا أن نقرأه جيداً من خلال الآية الكريمة: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾[1].

فلقد كان العاص يقول لقومه إن محمداً أبتر لا أب له يقوم مقامه من بعده فإذا مات انقطع ذكره واسترحتم منه.

فنزلت هذه الآية المباركة لتندد به ولتعلن إلى الملأ بأن خصم محمد(ﷺ) هو الأبتر.

ومن كان مثل عمرو ولداً له فهو الأبتر تماماً كما تقول الآية الكريمة، يضاف إلى ذلك سجل العاص الحافل بالفسق والفجور.

والأم...

وهي ليلى وقدتحدثت عنها كتب التاريخ فقالت عنها بأنها أشهر النساء في عطائها للمتعة الجسدية وأرخصهن أجرةً.

---

(١) سورة الكوثر، الآية: ٣.

ولنا أن نطالعها من خلال حديث غانمة بنت غانم كبيرة قومها يوم وقفت ترد على معاوية في مجلسه عندما قبضن عليها فتعرض لها ابن العاص بما يخدش كرامتها فقالت وهي تخاطب عمرو...

والله إني لعارفة بعيوبك وعيوب أمك، وإني أذكر لك ذلك عيباً عيباً.

ولدت من أمة سوداء مجنونة حمقاء تبول من قيام إذا لامسها الفحل كانت نطفتها أنفذ من نطفة من ركبها في يوم واحد أربعون رجلاً.

نسب مشرق تفخر به الأجيال والأمم.

تكوّن من أب مشرك في شركه..

وأم مجنونة حمقاء تحوطها الرذائل...

ولو ألقينا نظرة فاحصة على رواد مخدع ليلى لرأيناهم مجموعة من الأحزاب المناوئة للبيت الهاشمي.

فبنو هاشم لا تسوقهم أقدامهم إلى مثل هذه التكايا القذرة والمخادع الموبوئة بل لهم من بيت الله الحرام خير ملجأ يلجأون فيه إلى الله عزّ وجل يؤدون فيه العبادة ويوحدونه ولو كره المشركون أمثال أبي لهب وأبي سفيان والعاص بن وائل.

فلا غرابة إذن، لو رأينا لصيق العاص يشب وبين جوانحه نفس آبائه وقومه عبدة الأصنام وأعداء رسول الله(ﷺ).

فقد انعقدت نطفته من نفايات البشر.

وحفظ في وعاء الفسق والفجور.

وعب رضاعاً من ثدي الرذيلة.

وشب يتصيد الفجور على موائد معاوية ولياليه الحمراء.

من كل هذا وذاك كان عمرو بن العاص من طلائع من تخرج من مدرسة آل أبي سفيان ومن أقرب الناس بطانة معاوية.

وكانت مواقفه المخزية من الإمام علي(عليه السلام) حيث ظهر على المسرح ليقف إلى جنب معاوية يقود الجيش الأموي في صراعه مع الحق فتتوالى أحداث ونكبات وتكون مهزلة التحكيم وعلى عاتقه تقع مسؤوليتها.

وتكون مهازل غير هذي وتلك...

ولابن العاص حصة الأسد منها... وكما حارب العاص أبوه النبوة بشخص النبي الأعظم(صلى الله عليه وآله).

كذلك حارب لصيقه الإمامة في شخص أمير المؤمنين علي(عليه السلام).

وتمر ليال وأيام وفي ليلة ظلماء دامسة كان يرى القادم إلى المدينة بيتاً تدل مظاهره على الترف والثراء، وفي إحدى غرف ذلك البيت كان يقبع ابن العاص وأمامه أهل بيته يحيطون به يلقون عليه النظرات الأخيرة فالرجل يلقي بأنفاسه الأخيرة ويمر بدور الاحتضار.

ومع القوم كان يجلس ولده عبد الله ينظر إلى الأب وهو يقارع الموت بأنفاس مضطربة.

ويضيق المسجى ويلتفت إلى ولده قائلاً:

إني دخلت في أمور لا أدري ما حجتي فيها عند الله.

ويلتفت إلى أمواله المكدسة فيقول... والحسرة تأكل أحشائه «ليته كان بعراً».

ليتني مت قبل اليوم بثلاثين سنة.

أصلحت لمعاوية دنياه وأفسدت ديني...

أثرت دنياي وتركت آخرتي...

وتنتابه نوبة بكاء شديدة فيشفق عليه ولده ليسأله عن سبب بكائه..

أبتاه لِمَ تبكِ أجزعاً من الموت؟

ويلتفت الأب إلى ولده وفي عينيه ذبالة حياة ويجيب بصوت هادىء..

لا يا ولدي ولكن لما بعده.

وتشتد عليه سكرات الموت فيتمتم بكلمات يسمع منها ولده فإذا مت لا تبكي عليَّ باكية ولا يتبعني قادح نار وشدوا عليّ إزاري فإني مخاصم وأحثوا عليّ التراب فإن جنبي الأيمن ليس بأحق من جنبي الأيسر.

ولفظ المسجى أنفاسه الأخيرة في الوقت الذي كانت نسائم الفجر تداعب أصوات المؤذنين تنطق من المآذن والقباب تردد بخشوع وتدعو الناس إلى أداء الواجب المقدس والاتصال بالله العظيم.

الله أكبر.

أشهد أن لا إله إلا الله.

أشهد أن محمداً رسول الله.

كلمات حبيبة تأخذ مأخذها من القلوب المؤمنة الزكية ولكنها ثقيلة الوقع على عمرو وزمرته من نفايات البشر وبقايا المشركين.

وتسحب الشمس أذيالها في ذلك اليوم لتودع الثرى مثال المكر والخديعة وبؤرة الخيانة.

ويهال التراب على جسد الرذيلة... عمرو بن العاص.

(٣)

وحشي بن حرب الحبشي

لم يكن بمقدور قريش أن تغض الطرف عما لحقها من الخزي والعار في معركة بدر فقد قدمت الضحايا في ذلك اليوم ولم تكسب المعركة وانتصر المسلمون ورجعت قريش إلى مكة تجر أذيال الفشل بعد أن فقدت من أبطالها عدداً لا يستهان به.

ولم يكن أبو سفيان، وقد خلا له الجو بالذي يترك مناوئه الرسول الكريم وقد خلف الأعزة وقد قطفتهم سيوف الصفوة المؤمنة في صحراء بدر.

إذن، فلا بد لهم من إعادة الكرة مرة أخرى لعل قريش تخرج من معركتها الجديدة ظافرة منتصرة فتغسل بذلك عارها الذي ظل يلاحقها.

لذلك راح شيخ المشركين أبو سفيان يؤلب الناس ويحرضهم على القتال مرة ثانية فأصدر أوامره إلى بيوت مكة وما ولاها من القبائل أن لا تبكي على قتلاها في بدر ليكون ذلك أدعى إلى التحسس بالمصيبة وإن رقة المرأة وعاطفتها تدعوها لأن تحرض الرجل للأخذ بالثأر.

وقد نجح في مسعاه فجعل الصدور تغلي على الأخذ بالثأر ومرت على معركة بدر سنة وبعض الشهور ورأت مشيخة قريش أن الصبر إلى هذا الحد كافٍ للبقاء على الهزيمة التي بقيت تذوق مرارتها طيلة هذه المدة.

وفي يوم مشرق تجمعت قريش حول أبي سفيان تنصت إليه، وهو يهدر في الجماهير التي جمعها ليقول كلمته الأخيرة فيها:

أيها، يا أشراف قريش ويا فرسان الهيجاء لقد شغلتكم نسائكم عن الانتصار لآلهتكم وانغمستم في ملاذكم فغابت عنكم صور الشباب الذي ذوى في المعركة

وتناسيتم الصفوة الراحلة من مشيختكم والتي تركتم أجسادها طعمة الوحوش والطيور في صحراء بدر وعاد محمد يفتخر عليكم بأن رجعتم إلى دوركم منكسرين أذلاء تزدريكم العيون. ومحمد من عرفتموه يتيم أبي طالب.

ولم يترك خطباء المصر أبا سفيان وحده يعتلي منبر الخطابة ليحرك عواطف المجتمعين والملتفين حوله بل انبرى في كل حلقة خطيب يثير الحماس في النفوس وليثير النخوة فيما بينهم لعلهم ينالوا النصر في معركتهم الجديدة.

وتجاوبت قريش ولحقت القبائل فقرعت طبول الحرب لتخرج إلى يثرب موطن الدعوة المحمدية فتغزوا أولئك النفر الخارجين على حكم الآلهة وتقاليد الأمجاد السالفة.

إنه يوم صاخب تشهده مكة تزخر فيه قوافل الغزاة تتهيأ للخروج والالتحاق بمركز الثقل قافلة أبي سفيان حيث حطت رحالها خارج مكة ليلحق بها من يريد الخروج والحرب.

وأوحت الخطط العسكرية إلى أبي سفيان أن يضم إلى كتائب الرجال كتيبة جديدة من نوعها تضم الحاقدات والموتورات من نساء مكة ممن فقدت الأعزة في بدر مهمتها تشجيع المحاربين وتحريضهم على الاستماتة في سبيل النصر..

وفي طليعة هذه الكتيبة كان المشاهد يرى هند زوجة أبي سفيان ومجموعة أخرى ممن لف لفها وكان لهن دور كبير في تحريض المحاربين وتجميعهم..

وسارت قوافل الشرك تريد مقر الدعوة الإسلامية المدينة المنورة حيث اتخذ النبي الكريم(ﷺ) منها مركزاً له..

وتجد القوافل وزحفت قريش بخيلها وخيلائها وعلم المسلمون بالنبأ فأخذوا أهبتهم لصد هؤلاء الغزاة عن نبيهم والدفاع عن عقيدتهم المقدسة.

وكان (أحد) مسرحاً لحرب ضروس تمثل على سفحه أدوار المعركة الرهيبة وليكن بعد ذلك ما يكون ما داموا مؤمنين بدينهم وأنهم على حق.

وفي وسط الصحراء القاحلة حطت القوافل وأخذ كل جانب ينظم صفوفه ليستعد لغدٍ قريب تسيل منه الدماء رخيصة تروي الأرض العطش حيث ستشتبك قوى الإلحاد مع قوى التوحيد.

وانتصف الليل وهدأ الفريقان فلقد مر عليهم ذلك اليوم وهم في حركة وصخب.

وأطل على الوادي بدر شاحب يجر نفسه نحو الأفق البعيد فلم تسمع إلاّ همسات بعض المجتمعين وهم يفكرون في أمر حرب يوم غد ولمن سيكون النصر.

وبين الآونة والأخرى يمزق هذا السكون أصوات الخيل وهي تهمهم في مرابطها.

وفي وسط هذا الجو المرعب كانت هند زوجة أبي سفيان تنحي بابنة الحارث بن عامر جانباً من الأخبية فقد جمعتهما المصيبة وخيم الثأر.

لقد فقدت هند يوم بدر أربعة من أعزتها وهم:

أباها... عتبة.

وعمها... شيبة.

وأخاها... الوليد.

وابنها... حنظلة.

بينما فقدت ابنة الحارث أباها في ذلك اليوم أيضاً.

وتلمح ابنة الحارث الاضطراب بادٍ على محيا هند وهي اللعوبة الضحوك فتبادرها قائلة:

أخية هند أراك قلقة البال شاردة الذهن فلماذا...؟

وإن كل ما حولنا يبشر بالنصر وإننا على خير.

فهذا زوجك أبو سفيان عبأ الجيوش العربية وأحكم خططه العسكرية في هذه المرة.

أخية ألم تلمحي اليوم جيش محمد ولا يعد شيئاً في قبال هذا الذي جئنا به؟

لقد سمعت من العيون التي تصيدت لنا الأخبار أن عددهم لا يتجاوز السبعمائة نفر ولا يملكون ما نملكه من السلاح والخيل...

أخية سنقف أنا وأنت وبقية الصويحبات غداً لنحرض الرجال على القتال ونغريهم بكل أساليب الإغراء وستكون بمشيئة الآلهة حرباً كما تريدين وتشفى الصدور وستتحدث أندية مكة بعد ذلك بالنصر الذي سيكون حليفنا..

وتتنهد هند لتخفي حسرة بين حنايا قلبها الموتور وتقول بصاحبتها وبكل مرارة: ليست المسألة يدخل في حسابها السلاح والخيل..

وتوقفت ثم تابعت..

إن أصحاب محمد يتحدون بالعقيدة أنهم يتفانون دونه بدرجة أن حركاتهم قد تكون لا شعورية فقد رأيتهم في إحدى المعارك يخوضون الحرب عزلاً من غير سلاح.

إن هذا الالتفات حول صاحبهم والتفاني دونه هو مصدر قلقي... وأن ما أخشاه هو الانكسار في غداة غد وحينئذٍ، فتكون (أحد) كأختها بدراً مصدراً لإذلالنا أمام القبائل وفي كل مكان.

كيف سترفع قريش وهي صاحبة السطوة رأساً بعد هذا أمام يتيم عبد المطلب؟

وما هو مصيرها لو قدر لهذا الجيش الضخم أن يجر أذيال الخيبة والانكسار..؟

إن هذه المشكلة تقضي عليّ المضجع... فبماذا تشيرين عليّ يا أختاه.. وتسرع ابنة الحارث في طرح حلٍ لهذه المشكلة يتلخص في ما يلي:

أن يقتل محمد أو يضعف بقتل أحد البطلين..

ابن عمه... علي.

أو عمهُ... حمزة.

وأبدت هند فرحتها بهذا الحل!

ولكن كيف الوصول إلى أحد هؤلاء؟

ومن يا ترى سيكون القاتل لأحد الثلاثة.. أو بالأحرى من سيمثل هذا الدور الخطير...؟

وعادت هند إلى وجومها فالحل جميل، ولكنه خطير، فمن يستنهض به؟

وتتدارك ابنة الحارث الموقف لترشح عبدها «وحشي بن حرب» للقيام بهذه المهمة وتعقب قائلة:

وسأغريه بأشياء يلين لها قلبه ولا بأس أن تشتركي معي في إغرائه بأساليبك المحببة وابتسمت ففهمت هند ما تقصد ابنة الحارث من تلك الأساليب وكما يقول المثل...

على الخبير وقعت:

وطرحت النسيجة ابنة الحارث أمام هند قائلة..

فإن قدر لوحشي النجاح فهي الغاية المنشودة..

وإن فشل وقتل فليس هو بأهم ممن مضى من الأعزة ممن طحنتهم بدر برحاها فألقي في البئر من جثثهم ما يزيد على السبعين.

وتم الاتفاق على هذا.

وتلمح ابنة الحارث شبح العبد يعود إلى الخباء فتتوارى هند عن الخباء وتبدي مولاته حالة الاضطراب لتخاطبه..

«أين كنت يا وحشي لقد كنت بانتظارك إلى الآن»؟

ويلتفت العبد إلى مولاته يستفهم عن السبب في قلقها عن غيابه ولم يكن قد تأخر عنها كثيراً ويقول..

ما الذي أزعج مولاتي وسلبها النوم، ولماذا كل هذا الاضطراب الذي يبدو عليك؟

وتتصنع ابنة الحارث حالة البكاء وتنساب الدموع من عينيها وترفع إليه طرفاً منكسراً.

وحشي وأرادت أن تتكلم وتكسرت العبرات وعادت فأجهشت في البكاء مرة أخرى، ولكنها بعد ذلك جمعت أطرافها ولملمت أذيالها وهي تخاطب العبد وحشي أن شبح أبي يطاردني من يوم بدر ويطالبني بأخذ الثأر ولقد ثارت عليّ الذكريات في هذا الليل فهيجت مني ما كان كامناً ذكريات عزيزة عليّ تصورت أبي وأنا أنعم بدفء حنانه.

ذلك الأب العطوف ولكن سيف ابن عبد المطلب حصده كبقية الأبطال من قريش تهاووا تحت أرجل الخيل والرجال.

أواه ليتني مت قبل هذا اليوم.

لا لست أطيق أن أتذكر منظر أبي وهو يتشحط بدمه.

وتسرع هند من خبائها وكأن صوت ابنة الحارث أقلقها لتدخل وهي تبدي اضطرابها متسائلة.

ما بك يا ابنة الحارث، وما يبكيك في مثل هذه الساعة لقد سمعت نشيجك فراعني ذلك منك.

لا يا هند ليس بي مكروه أن أنين أبي وهو يلفظ أنفاسه في معركة بدر يرن في مسمعي وشبحه ماثل أمامي وأهاج ذلك أحزاني، هوني عليك فلقد فقدت في بدر أربعة وقلبي يحترق من الغيظ وتجيد هند وصاحبتها تمثيل الدور العاطفي أمام العبد فيحركان فيه عواطفه.

وإذا به يلتفت إلى مولاته قائلاً:

قري عيناً يا سيدتي فغداً ترين ما يسرك وأنا طوع رغبتك وقد كنا الآن وقد جمعنا أبو سفيان لينظم معركة الغد وينيط بكل بطل مهمته الحربية وسنأخذ بالثأر وستقر عين أبيك وهو في قبره كما ستنعمين عيناً يا هند..

وتلتفت ابنة الحارث إلى هند تكلمها والعبد يتابع محاورتهما من يدريني يا هند فلربما تدور الدائرة غداً وسيعود محمد وزمرته إلى المدينة منتصراً وسيبقى العار

يلاحقنا فندع ثمن ذلك وجبة جديدة من رجالنا لأننا نفقد روح التضحية التي يتحلى بها أصحاب محمد.

ولم يتمالك العبد وهو يسمع هذا التقريع..

مولاتي ما تقولين الأمر منك وعليّ التنفيذ لقد نفذ صبري وتوجهت ابنة الحارث إلى وحشي، وهي تقول:

لا أجد يا وحشي كفواً لأبي إلاّ واحداً من ثلاثة..

محمد... أو علي.. أو الحمزة.

وأين لي بمن يأتيني برأس أحد هؤلاء.

وعادت إلى البكاء.

وعادت هند تهدئها.

فهدأت وقالت:

وأنت حر يا وحشي لو تمكنت من أحدهم وقالت هند.. وأنا أعطيه كلما عليّ من ذهب وثياب وله ما يريد من مال إذا رجعنا إلى مكة.

وهزّ العبد سيفه في وجه مولاته ورفيقتها هند.

وانفض الاجتماع.

والصباح الوليد يتثائب وينتفض ليخرج من سجنه المظلم.

ومن خلال الأفق الأحمر بدت الشمس ترسل أنوارها مؤذنة بولادة يوم جديد.

وما كادت الشمس ترتفع حتى كان كل طرف يعبىء قواه الحربية ويعد العدة إلى المعركة الفاصلة فإما تنتصر قريش وتضع حداً للدعوة التي بشر بها محمد(ﷺ) ... أو أنها ترجع منكسرة تجر أذيال الخيبة والعار..

واستعرض كل جانب أصحابه.

فوقف أبو سفيان تحوط مشيخة قريش وفرسانها لتمر أمامه كتائب الجيش وهي

تردد الأناشيد الحماسية وفي مؤخرة الكتائب جاءت كتيبة النساء تتقدمهن هند زوجته وبأيديهن الدفوف يضربن عليها ويرددن بحماس ما يثير في النفوس الهياج والتعطش إلى الدم.

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق
أو تدبروا نغادق فراق غير مرامق

وفي الجانب الآخر.. كان المسلمون يلتفون حول النبي الأكرم(ﷺ) ينتظرون الأوامر تصدر إليهم، وما هي إلاّ ساعة فأما النصر والعود إلى المدينة تكللهم آيات الظفر... أو الفوز بالجنة..

وفي مقدمة هذه الفئة المؤمنة كان يقف الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأسد الله الحمزة ينظمان الجيش المعتز بإيمانه المدافع عن الحق...

ودوت صفارات الحرب تؤذن بالزحف فتنادت قريش تردد يا للات ويا للعزى..

وارتفعت من المعسكر المسلم أصوات مؤمنة ليردد الوادي مع المحاربين.

الله أكبر..

الله أكبر..

العزة لله..

والتحم الفريقان وعلا الغبار وعكست الشمس بريق السيوف ولمعان الرماح وسالت الدماء لتروي ثرى (أحد) وارتفع الأنين وعلت أصوات الجرح وتحول الوادي الهادىء إلى مجزرة دموية استهامت قريش في معركتها فكان الفارس يحارب ولا يجد مجالاً للفرار ففي مؤخرة الجيش كانت الفتيات يستقبلنه وهن يحملن المكاحل ليقلن له.

هاكها تكحل... ودع السيف لمنصفيه.. فأنت مثلنا... فينفر ويعود إلى الحرب مندفعاً إلى ساحة القتال.

وجالت الخيل وكان لصهيلها دوي يردده الوادي واختلط بأصوات الجرحى.

وكان أبو سفيان يخترق الصفوف يبعث في الجيش العزم وهو يردد أعلى هبل أعلى هبل..

ويجيبه صوت يهدر من معسكر المسلمين يرد عليه الله أعلى وأجل.

ويتقزز أبو سفيان من هذا الصوت فيهيج كالثور الغضبان فيخاطب فتيانه..

يا لهبل يا للات والعزى.

معاشر قريش انتصروا لآلهتكم واقضوا على هذه الزمرة التي أفسدت عليكم أمركم..

وإذا ما انطلقنا إلى معسكر المسلمين لنشاهد هذا الجيش المعتز بعقيدته تربط أفراده وحدة العقيدة بالله الكريم وهو يتسابقون إلى الدفاع عن نبيهم وقد حفت به كوكبة من فتيان عبد المطلب.

إنها زمجرة الليث الهائج تنطلق من فم الإيمان الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام) وهو يردد كلمة التوحيد ويصيح بالمشركين:

إلى أين المفر من سيوف الفئة المؤمنة..

وفي جانب آخر من جوانب المعركة يرى الناظر فتى عبد المطلب الحمزة يهدر كالرعد ليحصد رؤوس المشركين حتى أن النبي(صلى الله عليه وآله) لم يتمالك من التكبير حين ضرب طلحة بن أبي طلحة حامل لواء المشركين فكبر المسلمون معه.

وكلما ضرب حمزة بطلاً من أبطالهم صاح بوجهه قائلاً:

خذها وأنا ابن ساقي الحجيج..

في وسط هذا الجو الصاخب كان وحشي يفكر بالأبطال الثلاثة كيف يغتالهم وهو مصمم على الوفاء لمولاته وصاحبتها هند فلمن يا ترى يوجه حربته وطعنته.

للنبي محمد(صلى الله عليه وآله)؟

لا إنه بعيد عنه ومن العسير الوصول إليه لأن أصحابه يحيطون إحاطة السوار بالمعصم.

لعلي بن أبي طالب(عليه السلام)؟

أيضاً يكون الجواب لا، لأنه من الصعب أن يظفر به فهو حذر فطن كثير الالتفات لا يعطي مجالاً لأحد يريد السوء به.

وأما حمزة فهو فارس مغوار، ولكنه إذا حمي الوطيس ودارت رحى الحرب لا يبصر بعينه من شدة الغضب.

إذن، فأبو عمارة فتى عبد المطلب هو بغيته وسينال بقتله هدايا هند وحريته من مولاته.

تتبع وحشي خطى الحمزة فكمن له وراء أكمة من الأكمات وتشاء الأقدار أن تزل فرس الحمزة فيجدها وحشي الفرصة المؤاتية ليوجه طعنته من الخلف فيخر صرح الإيمان الشامخ ويحف به المسلمون وهم يرددون يا أبا عمارة...

فلا يجيب وخبت جذوة الإيمان..

وانتقلت الروح الطاهرة المؤمنة إلى الرفيق الأعلى ملبية نداء السماء وانطفت الشعلة الوهاجة وتوسد فتى عبد المطلب ثرى (أحد).

ويهرع العبد إلى مولاته يزف إليها البشرى فقد حقق لها ما تريد فتسرع هند إلى حليها تقدمها رخيصة إلى القاتل الخنيع جراء فعلته المنكرة وتتلقاه ابنة الحارث لتطبع على جبينه قبلة العار، والخيانة فتقلده بذلك وسام الخزي والعار.

ويقودهما العبد إلى مصرعه ليدلها عليه.

وتقف هند على الجسد الطاهر فتفعل به ما يندى الجبين وتأبى له النفوس.

لقد شقت بطنه وقطعت كبده فمضغتها فلم تستطع وصنعت لها من أذنيه وأنفه وأصابعه قلادة تزين بها مواضع الزينة من بدنها الرخيص وبعد أن أشبعت غريزة الحقد وقفت تؤبن الفقيد بشماتة:

نحن جزيناكم بيوم بدر ... والحرب بعد الحرب ذات سعر

ما كان لي من عتبة من صبر ... ولا أخي وعمه وبكري

شفيت صدري وقضيت نذري

وتقبل على وحشي لتقبل رأسه قائلة:

شــفيت وحــشياً غليــل صــدري
فـشكر وحـشي عـليّ عمـري حتـى تـوم أعظمـي في قـبري

بهذه الكلمات المليئة الملتهبة بالحقد عبرت هند وصاحبتها عما تكنا إزاء البيت الهاشمي الرفيع من حقد وضغن.

ويصل النبأ إلى أبي سفيان فيسرع ليقف على الجسد الطاهر وينظر إلى البدن المزق بمدية هند فتأخذه نشوة الانتصار فيرفع رمحه ويضرب به شدق الشهيد وهو يكرر: ذق عقعق.

هدأ الوادي وألقت (أحد) أوزارها وكان الانكسار من حصة المشركين.. ونصر الله عبده وأعز جنده فكان الظفر حليف المسلمين... ولكنها خسارة لا تعوض حيث فقد المسلمون رجلاً شديد المراس قوي الإرادة ثابتاً في عقيدته لا تأخذه في الله لومة لائم أسد الله أبو عمارة الحمزة فتى الطالبيين.

ويتفقد القائد المثكول قتلاه ليصلي عليهم فيقف على عمد وهو بتلك الحالة من التمثيل وهو الوقور الجلد، ومع ذلك لم يتمالك من أن يطلق لدموعه العنان فيبكي المسلمون معه.

فيلقي عليه ردائه ليستره فلم يصل الرداء إلى قدميه لأن أبا عمارة كان طويل القامة فأمر بقلع الحشيش ليلقي على رجليه بانتظار الصلاة عليه.

وفي سورة من هيجان العاطفة يلتفت الرسول(ﷺ) إلى من حوله ليقول:

لئن أظهرني الله على قريش لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم.

ولكنه ما أتم قوله إلاّ والوحي ينزل عليه ليبلغه قوله تعالى:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾[1].

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٦.

ويغض النبي(ﷺ) طرفه ويرفع رأسه نحو السماء والدموع تنهال على كريمته المباركة قائلاً والرقة تشوب كلامه والأسى يأخذ منه مأخذه...

أصبر أصبر اللهم إني قد عفوت وصبرت...

ولماذا لا يصبر؟ وهو القائل...

ما أوذي نبي بمثل ما أوذيت..

وصبر وصفّ القتلى فصلى عليهم..

تسربت أخبار المعركة إلى المدينة فهبت نساء بني هاشم وقد بلغهن مصرع فتى عبد المطلب فخرجت أخته صفية ومن وراءها كوكبة ممن أثكلهن النبأ واتجهن إلى (أحد).

وأخبر النبي بأن عمته صفية تريد الوصول إلى أخيها لتلقي على جثمانه نظرات الوداع فيأمر ولدها الزبير ليرجعها إلى المدينة.

وتقف الأخت الثكلى لتسأل عن السبب في منعها من الوصول إلى أخيها لتلقي عليه النظرات الأخيرة.

ويعتذر لها الزبير بأن النبي(ﷺ) يخاف عليها من الجزع فإن النساء رقيقات القلوب ومن ثم فإن الموقف يستدعي الحزم وعدم الشماتة من جانب الأعداء.

وتجيب ربة الخدر بثبات وإيمان عميقين.

يا بني لم يكن ذلك في غير الله فما أرضانا بما كان من ذلك لأحتسبن ولأصبرن إنشاء الله فامضِ وأخبر النبي بذلك.

كلمات تتم عن إيمان عميق تتحلى به هذه المرأة المصابة فهي لم تعترض على قضاء الله بذلك بل هي راضية به وصابرة.

ولكنها العاطفة تجيش فتدفعها لتصل إلى مصرع أخيها لتودع جسده الطاهر ومع كل هذا فهي تمتثل أوامر النبي(ﷺ) فتكلف ولدها ليحصل لها الإذن وإلاّ فهي راجعة إلى المدينة.

ويعطف النبي على هذه المفجوعة فيسمح لها بالوصول إلى المعركة لتقف على مصرع القتيل ولكنه يسبقها إلى المكان ليشارك المجموعة من نساء عبد المطلب بتأبين الفقيد.

يقف النبي(ﷺ) مرة أخرى على مصرع عمه تحف به الصفوة والقلوب تحترق من الحزن.

ويصل موكب الخدر فيقفن على الجثمان الطاهر.. وفي أدب وحشمة تنظر الأخت أخاها المسجى وتنهال الدموع غزيرة فبكى من حضر ثم استغفرت له ورجعت إلى خدرها والأسى يحز في قلبها وفي طريق عودة النبي إلى المدينة يمر على دور بني الأشهل فيسمع النساء يندبن قتلاهن فتهيج عليه هذه الندبة ذكرى عمه الشهيد.

وفي جانب من جوانب المسجد كانت حلقة كبيرة من النساء تأخذ مكانها وتندب الشهيد الحمزة.

ولم تكن ذكرى هذا العم العطوف لتبارح مخيلة ابن أخيه بل كان كثيراً ما يذكره وفي مختلف المناسبات.

ودعت الشمس الغاربة مدينة الرسول(ﷺ) وأرخى الظلام سدوله وانبعث المؤذنون يرددون برهبة وخشوع آذان المغرب..

ليكبروا إلهاً واحداً لا شريك له.

وليشهدوا بأن محمداً عبده ورسوله.

وتسابق المسلمون إلى المسجد زرافات ليؤدوا فريضتهم اليومية وتهامس القوم وهم يجتمعون بأن وفد الطائف قدم المدينة ليعرض على النبي(ﷺ) إسلام قومهم وهم بانتظار الانتهاء من مراسيم الصلاة.

وكان بين الوفد «وحشي بن حرب» .. فقد قيل أن رسول الله(ﷺ) لا يتعرض إلى الوفود بسوء ورأى الفرصة مؤاتية لينخرط في ضمن وفد ليأمن القتل ولعله

يستميل النبي(ﷺ) فيعفوا عنه وهو العطوف..

كان الوفد يتابع نظراته هذه الجموع الغفيرة وهي تنتظم صفوفاً متراصة لتقف خاشعة بين يدي الله تهلله وتكبره.

وكان العبد ـ وحشي ـ في معزل عن الوفد غارقاً في أفكاره يفكر في مقابلته وكيف سيقف بين يديه وهو قاتل عمه والذي خلف ذكريات مؤلمة عليه لا تفارقه؟

ويلمحه أحد المسلمين ممن كانت تربطه مع ـ وحشي ـ صلة قديمة فيلتفت إليه يخاطبه.

ما ورائك يا وحشي؟

وهل لا تزال على الشرك؟

ألا ترى الإسلام كيف يعلو وتعظم شوكته؟

وها هي كلمة الله أكبر تموج في الجزيرة؟

أما آن لك أن تدخل معنا وتترك عبادة الأوثان؟

ويجيبه وحشي والاضطراب بادٍ عليه..

ولكن يا أبا عمرو أن ما يرهبني هو مقابلة محمد فإنني لا أظن أنه سيغفر لي ذنبي وما صنعته بعمه في أحد؟

لا يا أبا عمرو إن النبي سيهدر دمي إذا رآني إن لم يقتلني بنفسه وابتسم أبو عمرو في وجه وحشي ليقول له..

لا يا وحشي إذا كانت هذه مخاوفك فكن مطمئناً لأنك لم تعرف هذا الرجل العطوف.

تعال وادخل مع الوفد فسترى ما يسرك.

ويخضع وحشي للأمر الواقع فلا مجال لتخلفه..

إن حياته تتوقف على إسلامه..

دخل الوفد على النبي(ﷺ)، وقيل له إن قاتل عمه بين الوفد فهاجت عليه

ذكريات عزيزة كان مسرحها (أحد).

وجاء دور العبد ليتقدم كما تقدم غيره من أعضاء الوفد فيقف أمام النبي ويتنحى ليجيء دور غيره.

وجثى العبد بين يدي رسول الله وهو مطرق برأسه يعلوه الذل والانكسار، وهو يعلن إسلامه ولا مجال له من الرفض.

فقد أعلن أن من قال:

لا إله إلا الله محمد رسول الله.

حقن ماله ودمه وهو في أمن حيث أظهر الشهادتين وهما رمز على إسلام من قالهما.

ولنستمع إلى وحشي وهو يحدث عن ذلك تلك اللحظات المحرجة.

يقول وحشي...

فلما رآني النبي(ﷺ) قال أنت وحشي؟

قلت: نعم.

قال: أنت قتلت عمي حمزة؟

قلت: قد كان من الأمر ما بلغك؟

قال: ويحك فهل تستطيع أن تغيّب وجهك عني؟

الله أكبر وبالجدارة والاستحقاق كان النبي مصداقاً للآية الكريمة:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1].

إنه وهو بهذه المكانة والقوة لا يأمر العبد بالابتعاد عنه بل وبكل رقة يقول له فهل تستطيع أن تغيّب وجهك عني.

وكانت إشارة واحدة منه تكفي لأن يختلط لحم العبد بعظمه وتتلاقفه الأرجل سحقاً بدل السيوف.

---

(١) سورة القلم، الآية: ٤.

ولكن لا ولا بل استعمل النبي حقاً من حقوقه بكل هدوء فهو لا يريد أن ينظر إلى قاتل عمه فتهيج عليه مناظر عزيزة عليه منظر العم العطوف وهو يعطف عليه فيحميه يوم كان في مكة منظر العم المسلم الذي ترك مكة ليكون في ركابه إلى المدينة ويلازمه ملازمة الظل.

منظر العم الكبير وهو يتمثل أوامر ابن أخيه كفرد من أفراد الجنود في الحرب وكمسلم مؤمن بعقيدته في كل حال.

منظر العم وهو يذب عن دين الله بكل قواه.

منظر العم وهو يجول بين الصفوف في (أحد).

وأخيراً، منظر الطود الشامخ وهو يتوسّد ثرى أحد.

وبعد كل هذا... منظر العم وقد مزقت أحشائه مدية وحشي.

منظر العم وقد مثلت به يد الغدر من آل أبي سفيان هند وهي تشفي غليلها بقطع أوصاله.

والكبد الملفوظ من الفم القذر الذي طالما عبد الأوثان وسبّح لها.

والأوصال المقطوعة تزين صدر الخيانة من البدن الرخيص الذي طالما تلاقفته سواعد البغي صدر هند.

وهذه مناظر مؤلمة.

فللنبي(ﷺ) الحق الشخصي أن يطلب من العبد أن لا يؤذيه بمنظره الأسود البشع ليذكره بكل هذا وغيره.

ويعود وحشي ليحدث أصحابه قائلاً: «فخرجت من النبي(ﷺ) وكنت أتنكب رسول الله(ﷺ) حيث كان لئلا يراني حتى قبضه الله».

(٤)

عمارة بن الوليد

ضاقت مكة بالنبي الأكرم وبالصفوة المؤمنة من محبيه... فقريش تطاردهم وتسومهم ألوان العذاب.

وهم مع ذلك صامدون لا تزعزعهم سياط العدو وملاحقاته..

إن طلاب مدرسة الرسول الأعظم(ﷺ) لا تثنيهم عند توحيد الله قسوة قريش ولا يوهن عقيدتهم برسالة السماء التفنن في أنواع التعذيب وإيصال الأذى إليهم.

ولم يجد النبي الكريم (ﷺ) بداً من اتخاذ القرار النهائي وإبعاد بعض الصحب والأهل عن مكة والسفر إلى الديار البعيدة إلى الحبشة حيث يجدوا فيها أصدقاء يؤمنونهم ويحفظونهم وهم في بعد عن قريش وقسوتها.

وتلاحقت مواكب المهاجرين في جنح ظلام تودع الأرض الطيبة وتلقي نظرات الوداع على بيت الله مهوى الأفئدة الخيرة.

وشيعتهم الصفوة الباقية بدموع الوفاء وفي مقدمة من خرج للتوديع الرسول الكريم (ﷺ) وقف وهو يدعو لهم بالصبر والسلامة.

واتجهت الفلول النازحة نحو الحبشة لا يثني من عزمهم ما يلاقونه من وعورة الطريق.

ولا الشمس اللاهبة.

ولا الرمضاء الهاجرة.

ما داموا إلى المكان الذي ينجيهم من قريش وأصنامها ليحافظوا على دينهم.

ويلمح المشاهد عن بعد من بين تلك المواكب السائرة كوكبة صغيرة بعددها كبيرة بإيمانها وفي مقدمتها بطل الفضيلة والعفة جعفر بن أبي طالب تحف به النفوس المؤمنة بخالقها وعقيدتها سادت القوافل فأطل منه عليائه البدر يتوسط السماء ليرسل أنواره لينير لهم تلك الأودية والشعاب.

ويضفي على الجبال الشامخة حلل البهاء.

ويرتفع النسيم من صحراء نجد عبقاً تمتزج به روائح عطرها تبعثها الرياحين المنتشرة هنا وهناك.

والسهول الرابضة تحت أقدام الجبال يلفها الليل بهدوئه.

لقد كان الوادي هادئاً لا حراك فيه ولا ضجيج.

كون عميق يملأ السهل الواسع.

ويمزق هذا الهدوء وقع حوافر الخيل والإبل، وهي تشق طريقها تحث السير إلى الحبشة.

وبين الآونة والأخرى يردد الوادي فيرجع أصوات الجرأة الشبحية، وهي تودع الوطن العزيز.

كوكبة الإيمان تسير بخطى وئيدة نحو مأمنها الجديد.

كوكبة ابن أبي طالب تحث الخطى لتلحق بالبقية ممن سبقها في الهجرة.

أنفار قليلون لا يتجاوز عددهم الأصابع ألف بين قلوبهم رابط التوحيد بالله والإيمان بالرسالة وبالنبي العظيم.

لم تثني رأسها الصنم ولم يجد الخمر إلى بطونهم طرقاً ولم تعرف إلى الموبقات نفوسهم سبيلاً.

إنهم تلامذة مدرسة النبي الأكرم.

حفظتهم الأرحام الطاهرة وانحدروا من أصلاب مطهرة ورضعوا من ثدي الفضيلة فآمنوا برسالة السماء فهيهات أن تجد قريش من هؤلاء آذاناً صاغية تلبي إلى

أصنامها أو ترتكب موبقاتها.

وبينما كان الراكب يسير، وقد قطع شوطاً بعيداً في مسيرته كان الهمس واللغط يدوران في الحلقات المتجمعة حول البيت وفي أندية مكة من قريش وأصحابها.

لقد هاجر أصحاب محمد إلى الحبشة ليجدوا من أرضها مأمناً.

وعضت الرجال على أصابعها بالندم فقد وجد أصحاب محمد الطريق ليبشروا بدينهم الجديد ولينقلوا تعاليمه إلى البلدان البعيدة وسيعودون بعد ذلك وهم أعز نفراً وأمنع حصناً.

ويصرخ أبو لهب والغضب بادٍ على وجهه: ما لهذا الجلوس.

لقد عاب محمد آلهتنا وسفه طريقة الآباء والأجداد وهدم تقاليدنا ولم يكتف بذلك بل أخذت رسله تشد الرحال إلى الأطراف ليبشروا برسالته. لا كان ذلك أبداً.

يا لهبل واللات والعزى.

إنه لخزي يجلل مفارقكم ولتبقى الآلهة مهانة أشيروا يا قوم نبقى ونحن أولوا القوة ولنا العزة والمجد صاغرين أمام تصرفات يتيم عبد المطلب... وبينما يتصدى بعض من حضر ليهدأ أبا عتبة ويهون عليه الأمد تجتمع كلمة الحاضرين لإرسال وفد مفاوضاً منهم إلى الحبشة يتوصل بشتى الصور لاسترجاع من سافر من اللاجئين وبذل جهود خاصة لدى ملك الحبشة في سبيل هذه المهمة وسوف لا يتأخر النجاشي ملك الحبشة عن تسليمهم لأن وحدة الهدف تحتم عليه التخلص من هؤلاء المبشرين بدين محمد(ﷺ)، ولكن من سيقوم بهذه المهمة الشاقة؟ فلا بد من اختيار أشخاص لهم القابلية في بلورة الوضع وبالأخير إنجاح المسعى وإجادة تمثيل المسرحية أمام ملك الحبشة... إنه دور دقيق يقوم به الوفد ليتمكنوا من بيان وجهة نظر قريش إلى الملك وأتباعه وتفهيمهم بالخطورة... وأن الهدف لكليهما واحد وأن احتضان هؤلاء اللاجئين معناه تقدم الإسلام وتثبيت دعائمه... وحينئذٍ، فأمر الملك يدور بين حالتين لو قدر للوفد أن ينجح بمهمته فإما قتل هؤلاء اللاجئين وبهذا يخفق مسعى

النبي من تهريب صفوته والمحافظة عليهم كمبشرين لدينه... وإما تسليمهم إلى قريش لتقول فيهم كلمتها وهي بعد هذا أقدر على رد عاديتهم...

وبعد مداولات ونقاش حاد يجري بين شيوخ الجلسة يرشح مجلس المشيخة للوفاد بطلين هما: «عمارة بن الوليد وعمرو بن العاص»، فليسيرا على بركة الآلهة وليرجعا إلى مكة بإحدى الحسنيين.

فإما أن يرجعا إلى مكة بالنفر القليل من أتباع محمد وهم صاغرون لينالوا جزائهم على مشهد من الناس نتيجة خروجهم على الآلهة ونبذهم التقاليد الموروثة...

ويحسب لنجاح هذه السفارة ألف حساب فتوضع الخطط التأديبية للحد من نشاط هذه الدعوة التي بشر بها يتيم بني هاشم فلهم مع اللاجئين حساب دقيق لو تمكنوا منهم.

ولتشهد رحاب مكة مناظر السياط تتلوى على تلك الأجساد التي أنحلها السير ولتستقبل رمضاء مكة أجساماً أبلتها العبادة ففي ذلك تأديب لعامة الناس ممن تحدثهم نفوسهم في الدخول إلى هذا الدين الجديد.

وأما أن يرجع الوفد بهم واستجاب الملك لقتلهم فبذلك أيضاً تأديب للناس من عدم اللجوء إلى الهروب والخروج إلى الأطراف ليبشروا بمبادىء السماء التي جاء بها محمد.

ويبحر وفد قريش يحمل الهدايا والتحف إلى البلاط الحبشي.

وتستغرق الرحلة البحرية أياماً وليالي عديدة وتأخذ الخمرة من عمارة مأخذها ومناظر البحر المائج تتكسر على صفحاته أنوار بيضاء زاهية يبعثها القمر النشوان بجماله..

والنسائم العذبة تهب على البحر لتبعث في النفس نشوة غريبة على هؤلاء الوفود منهم بعيدون من هذه المناظر الخلابة..

كل هذه العوامل كان لهذا الأثر في تحريك الشهوة الرخيصة في نفس سفير مكة عمارة بن الوليد وإذا به يبحث عن جسد يجد فيه بغيته ويخفف به نداء الجنس الصارخ.

ويرى في زوجة زميله عمرو صيداً سميناً فلم يتمالك بل رمى نفسه عليها طالباً منها أن تقبله وكانت لعمارة وسامة وشامة تحببه في نفوس بائعات الهوى لذلك كانت الاستجابة له سريعة.

ولكن ما لزوجة عمرو وما تصنع أنها بقيت متحيرة بين الجمال الذي يتمتع به عمارة وله من رشاقته ما تهفوا له النفوس وموقف الزوج الذي كان حائراً في ذلك الوقت.

وتدخل عمرو فأنقذ الموقف وهو يخاطب زوجته:

قبلي ابن عمك...

وكانت هذه القبلة مفتاحاً لاجتماعات عديدة بين الطرفين.

مثل هذا الوفد اللاهي الماجن لا بد وأن يفشل في مهمته إذا لاحظنا أنه سيقف أمام أشخاص ملئوا بالإيمان والتقوى.

وكيف سيستجيب ملك الأحباش ليسلم ضيوفه إلى أمثال هؤلاء سقطة المتاع.

أولئك الذين لا همَ لهم إلاّ عبادة الأوثان والعب من الخمور والفجور وكان الأمر كذلك فقد خابت الآمال العريضة ونسفت تلك المخططات التأديبية حيث تناقلت أندية مكة خبر رجوع عمارة وعمرو صفر الأيدي بعد أن امتنع ملك الحبشة من تسليم ضيوفه واعتبرهم كراماً آمنين.

يا له من نبل يتحلى به هذا الملك الغريب يكرم ضيوفه فلم يسل لعابه لتلك الهدايا والتحف ولم يفلح خبث عمارة ولا مكر عمرو في استمالة الملك إلى طلبهم بل زاد في الطين بلة، أن الملك نفسه أخذ ينصح الوفد القرشي في ترك هذه المجموعة وشأنها فمن حديثه لعمرو قوله: ويحك يا عمرو..

أطعني واتبعه ـ أي محمد ـ فإنه والله على الحق، وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون، وجنوده..

فيا للخيبة أن اللاجئين تمكنوا حتى من الملك نفسه أن يغيروا وجهة نظره وإذا به يتفائل بالخير للدعوة المحمدية..

نعم، لقد فشل الوفد فعاد إلى مكة يجر أذيال الخيبة والحسرة وانتشر الخبر هنا، وهناك أن ملك الحبشة امتنع عن تلبية مطالب مشايخ قريش فلم يسلم الهاربين.

بل، وقع في النفوس ما هو أعظم من ذلك هو رسالته الموجهة إلى الجميع من طريق عمرو بأن يتضامن للدين الجديد، وللنبي(ﷺ) فإنه سيظهر على قومه كما ظهر موسى على فرعون، وجنوده.

وكان هذا محفزاً جديداً لقريش أن تكيل الصاع بالأذى بأشد من ذي قبل للرسول ومحبيه.

المعجزة

وقبل التطرق إلى موضوعنا في البحث عن إمكان المعجزة وعدم إمكانها، ومقدار خضوعها للعلم لا بد لنا من معرفة مالها من المعنى في المصطلحين اللغوي، والعملي.

المعجزة في اللغة:

أصلها العجز، وعجز عن الشيء: ضعف عنه، ولم يقتدر عليه، وعجزه بالتشديد أي: صيره عاجزاً.

والمعجزة: أمر خارق للعادة، ويعجز البشر أن يأتي بمثله، وهي عادة مقرونة بدعوة النبوة، والهاء للمبالغة، وجمعها: معجزات(١).

المعجزة في المصطلح العملي:

يتفق العلماء في أن المعجزة أمر خارق للعادة، ولكنهم اختلفوا في أن هذا الأمر الخارق هل يشترط فيه أن يكون معجزاً لسائر البشر من حين الصدور إلى أن يختار الله لهذا العالم نهايته، أو لا، بل يكفي في الإعجاز أن يعجز عن الإتيان بمثله الأمة التي بعث إليها ذلك النبي الذي ظهرت المعجزة على يديه؟ فيدور أمر المعجزة مدار الرسالة التي كانت الحكمة في ظهورها التصديق بتلك الرسالة فهي لا تخلو:

إما أن تكون أبدية، فتكون المعجزة كذلك.

أو رسالة مؤقتة إلى أمد خاص تنتهي، ويحل مكانها دستور إلهي آخر على يد رسول يختاره اللهَ لرسالته الجديدة، وصادعاً بأمره، وحينئذٍ، فلا يشترط أن يعجز

---

(١) ابن منظور: لسان العرب/ (مادة عجز). والشرتوني: أقرب الموارد / (مادة عجز).

عنها بقية الأفراد ممن لم تشملهم الرسالة السابقة ولم يكونوا من أبناء الأمة التي بعث إليها ذلك النبي.

عبر عن الرأي الأول، الشيخ البلاغي (رحمه الله) بقوله: «المعجز هو ما يظهره الله على يد رسوله من الفعل الخارق للعادة بحيث يعجز عنه سائر البشر بما عندهم من دقائق الفلسفة، والحذاقة في الصناعة، والمهارة في الفنون، وبذلك يعرف أن الله هو الذي أظهره بقدرته الباهرة على يد الرسول تصديقاً لرسالته»(١).

أما عن الرأي الثاني، فقد عبر العلامة الحلي (رحمه الله) قائلاً: «ولا بد في المعجزة من شروط أحدها: أن يعجز عن مثله الأمة المبعوث إليها»(٢).

وعلى أي من هذين الرأيين، فإن القدر المتيقن الذي يتفق عليه الطرفان هو أن المعجزة هي ذلك الفعل الذي يعجز عن الإتيان بمثله من كان مساوياً لمن ظهرت على يده في جميع الخصوصيات الإنسانية لتظهر بذلك الفضيلة وليثبت بذلك أن هذا الأمر الصادر خارق للعادة ولم يجر على وفق المقتضيات الطبيعية، وإذا سمحنا بصدورها على يد من ساوى ذلك الرسول في الخصوصيات الإنسانية في الزمن الذي خصص لتلك الرسالة لما كانت هناك مزية توجب التصديق بما ادعاه ذلك النبي المبعوث إلى تلك الأمة.

الشروط المطلوبة في المعجزة:

الأول: التعجيز:

وكما سبق أن بينا أن المعجزة لا بد فيها أن تعجز الآخرين الذين بعث لهم ذلك النبي وإلا فلا يبقى لتلك المعجزة مزية تجلب الانتباه إلى ما سبقت للتصديق عليه من دعوى النبوة.

---

(١) الشيخ محمد جواد البلاغي: الهدى إلى دين المصطفى/ ١، ١٧١.

(٢) العلامة الحلي: شرح تجريد الإعتقاد/ ١٨.

الثاني: إمكان صدق الدعوى:

وإنما يكون المعجز شاهداً على صدق ذلك المدعي إذا أمكن أن يكون صادقاً في تلك الدعوى، وأما إذا امتنع صدقه في دعواه بحكم العقل، أو بحكم النقل الثابت عن نبي، أو إمام معلوم العصمة، فلا يكون ذلك شاهداً على الصدق، ولا يسمى معجز في الاصطلاح وإن عجز البشر عن أمثاله.

مثال الأول: وهو ما لو كان امتناع الصدق بحكم العقل، إذا ادعى أحد أنه إله، فإن هذه الدعوى يستحيل أن تكون صادقة بحكم العقل، للبراهين الصحيحة الدالة على استحالة ذلك.

ومثال الثاني: وهو ما لو كان الامتناع بحكم النقل الثابت. «ما إذا ادعى أحد النبوة بعد نبي الإسلام، فإن هذه الدعوى كاذبة قطعاً بحكم النقل المقطوع بثبوته الوارد عن نبي الإسلام، وعن خلفائه المعصومين بأن نبوته خاتمة النبوات، وإذا كانت الدعوى باطلة قطعاً فماذا تفيد الشاهد إذا أقامه المدعي، ولا يجب على الله جل شأنه أن يبطل ذلك بعد حكم العقل باستحالة دعواه، أو شهادة العقل ببطلانها»[١].

الثالث: أن لا يكون الإعجاز مستنداً إلى السحر، والشعوذة:

ويتحقق ذلك، فيما يظهره السحرة، والمشعوذون من الأعمال التي تظهر للعيان بأنها خارقة للعادة.

والسر في عدم قبول ذلك، أن هذه الأعمال تستند إلى أصول تخفى على البعض، وبالإمكان الوصول إليها لو اجتهد الإنسان لمعرفتها، ومع هذا فتفقد هذه الأعمال مزيتها كمعجز يعجز عنه الآخرون، بل لا يعجز عنه الآخرون لو توصلوا إليها، فما معنى إعجازها إذن؟

ولا يقيم إعجاز مثل هذه الأعمال كون من جاء بها يدّعي منصباً إلهياً، فإن هذه الدعوى لا تصبح حينئذٍ مدعمة بما يثبت أنها من السماء طالما مدعيها يتذرع بأمور

---

(١) السيد أبو القاسم الخوئي: البيان في تفسير القرآن/ ٣٣.

يتوصل إلى حلها، ولو بمقدمات علمية ودقة في تطبيق تلك المقدمات.

هذه هي أهم الشروط المطلوبة في المعجزة، وقد تذكر شروط أخرى، ولكنها لدى التحقيق تعود إلى هذه الشروط في الإطار العام.

المعجزة في إطار العقيدة:

والمعاجز، والخوارق إذا لاحظناها بمنظار العقيدة التي نتمسك بها، ولا نحيد عنها، فلا نرى لها كثير أهمية من هذه الجهة وذلك:

لأننا نعتقد بأن لهذا الكون بما يشتمل عليه من عجائب، وغرائب، مدبراً مقتدراً، ومختاراً في جميع أفعاله، وأعماله، ولا يقف في قبال إرادته شيء:

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

وعلى هذا المبنى، فلا تكون المعاجز، والخوارق شيئاً يستدعي الاهتمام والبحث وإثبات إمكانها، ومن ثم حصولها بعد فرض الإمكان.

ولماذا يكون غريباً عليه تعالى أن يمدّ، ويجهز من اختاره، واصطفاه من عباده بهذه القوى الخارقة، والإمكانات الواسعة كإحياء الموتى، وإبراء الأكمة، والأبرص، وقلب العصا حية تسعى، وما شاكل هذا من الخوارق عن سنن الطبيعة.

وما المانع من تزويد أولئك النفر الذين خصهم الله بتبليغ رسالة السماء، وألقى على عواتقهم المسؤولية الكبرى لحمل البشر على الطريقة المثلى بتلك الخوارق، وتمكينهم من القدرة عليها ليدعم بواسطتها دعوى النبوة أمام من لا يعترف بهذه السفارة الإلهية إلا بعد الاطلاع عليها من وراء منظار الإعجاز المادي؟

والناس بعد هذا يختلفون من ناحية الإيمان بالدعوة فليس كلهم يحتاج إلى معجزة ليؤمن بالرسالة، وليصدّق بأن النبي هو المصلح، وهو سفير السماء إلى الأرض، والذي يبعث رحمة للعالمين.

---

(١) سورة يس، الآية: ٨٢.

بل البعض منهم يندفع، وبتأثير من تعقله الكامل، وطيب نفسه إلى التصديق بالمثل، والمبادىء القيّمة التي ترتكز عليها تلك الدعوة الرسالية، فالنفوس الخيّرة لا تطالب المصلح بما يؤيد دعواه من أمور خارقة للنواميس الطبيعية، بل لها من وعيها ما يثبت أن ما يقدمه النبي من القوانين هو ما ينفع الناس في حياتهم الدنيوية، ومن ثم ليكون السير على منهجها مؤمناً لنيل السعادة في الحياة الأخروية ما دامت تلك القوانين هي عطاء خالق هذا الكون بما يشتمل عليه من موجودات حية فهو العالم بكل ما يحتاجون إليه، وهو الرؤوف بهم.

ولكن بإزاء هؤلاء نرى الكثير من البشر لا يخضع لما يوحي إليه نداء العقل فلا يؤمن بالنبي إلا إذا قدّم رسول السماء من الخوارق ما يثبت لهم بأن هذه الدعوة تنبثق من عالم آخر غير هذا العالم.

لذلك نراهم يقفون موقف المتعند الصلب الذي لا يريد الإيمان إلا من طريق الدعم الإعجازي: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[1].

بهذا وأمثاله تواجه قريش النبي الكريم(ﷺ) تريد منه ما يدعم دعوى النبوة مما هو خارق، وخارج عن نواميس الطبيعة، من تفجير الأرض ينبوعاً من المياه، أو تكون له جنة من نخيل، وعنب تجري فيها الأنهار، كل ذلك بدون سبب طبيعي من حفر وشق وزرع مما تقتضيه الأصول الطبيعية لحصول هذه الأشياء.

ولا نريد التوغل في بقية الفقرات المطلوبة في الآيات المذكورة فالقضية حسبما تفصح عنه الطلبات تأخذ طابعاً آخر غير طلب المعاجز، والخوارق من أشخاص

---

(١) سورة الإسراء، الآيات: ٩٠ ـ ٩٣.

يريدون أن يجعلوا من المعجزة منظاراً إلى التصديق، والإيمان الكاملين بالدعوة بل هي طلبات تنم عن سوء قصد، وتعنت صدرت من أفراد يقتلهم الحقد، وتعمي أبصارهم غشاوة الكفر، والإلحاد وإلا فما معنى هذا العرض من الطلبات غير المتناسقة، والتي لا يجمعها جامع في حدود الإعجاز؟ «وعلى سبيل المثال» فما هو الجامع بين تفجير الأرض ينبوعاً وبين قولهم: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً﴾؟

إن مثل هذا الطلب لا ينم عن سلامة القصد في الفهم، وطلب ما يحصل للشاك، أو المتحير.

وفي مثل هذه الحالات لا يرى المشرّع ضرورة في إجابة هؤلاء المتعنتين ما دامت المسألة مسألة عناد، وتهكم، لذلك تأتي الأوامر الإلهية فتأمر النبي(ﷺ) أن ينبههم على ما يتخبطون به من جهل وظلام: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ ، فطاقات البشر محدودة، وإمكاناته تقف عند حد من القدرة كما وأن طبيعة المعجزة تأبى أن تكون بهذا النحو من الأتيان بالله، والملائكة كما هو مستحيل ذاتاً.

نعم، لو كان الطلب لصدور المعجزة ناشئاً عن حسن قصد، وتقويم ليكون حصوله مؤيداً على صحة دعوى الرسالة، فإن هذا المقدار ليس ببعيد على الله عزّ وجل أن يجيب السائل إلى طلبه، فيهيء بعض الأمور الخارقة لتكمل الحجة على هؤلاء.

كل ذلك ممكن في نطاق القدرة الإلهية، والعظمة الربانية فإن الذي خلق المادة وأوجدها قادر على إيجاد أمور أخرى لا ترجع إلى المادة، ولا تتصل بالمحسوسات لأنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ، ولأن مراده لا يتخلف عن إرادته.

ولماذا نستكثر على النبي، وهو المبلغ لشريعة السماء أن يقدم من المعاجز بقدرة الله عزّ وجل ما يدعم به شريعة الله، وأنه المبلغ لها فإن هذه الكرامة تحصل لغير النبي، وفي مقام ليس فيه أي تطلع إلى دعوة، وطلب ما يدعم تلك الدعوة فأي إنسان في هذه الدنيا خلص في نيته وأطاعه في أوامره ونواهيه، وردع نفسه عن الرذائل، وطهرها تطهيراً فإن ذلك الإنسان وبفضل هذه الإطاعة ستسمو نفسه إلى أجواء

رفيعة، ويتوصل إلى درجات عالية فإذا به يخاطب من قبل الله جلت عظمته: (عبدي أطعني تكن مثلي، أنا أقول للشيء كن فيكون، وأنت تقول للشيء كن فيكون)[١].

وإذا كان أي فرد من البشر يتمكن من الوصول إلى هذه القدرة الواسعة فكيف بالنبي، وهو رسول السماء لتبليغ شرائع أحكامه؟

وما هي الإطاعة لو لم نعتبر ما قام به الرسل من الأعمال، وما لاقوه من مشاق، وأتعاب إطاعة لله عزّ وجل؟ فحياة كل منهم سلسلة جهاد، ومعاناة، وضيق، وتشديد، وتحمل للبلايا التي امتحنهم الله بها. تمر عليهم المصائب، وتعذبهم المشاق الدنيوية، ويلاقون من الأوباش أنواع العذاب البدني، والنفسي، ومع كل ذلك يصمدون، ويتلقونه برحابة صدر، وبقلوب مملوءة بالإيمان مفعمة بالعقيدة لا يخافون في الله لومة لائم.

إنها النفوس المؤمنة الخاضعة للواقع عرفت من الصميم عظمة الخالق وفضله فانقطعت لشكره وطاعته لا خوفاً من ناره، ولا طمعاً في جنته، ولكن وجدته أهلاً للعبادة فحلقت إليه تعبده، ووجدته أهلاً للخضوع فسجدت له تقدسه وتهلله ورأت فيه مصدراً للنعم فشكرته فهي الطاعة الواقعية، والحب لذاته المقدسة من الصميم.

«إلهي ما عبدتك إذ عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنتك، ولكنني وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك»[٢].

يرددها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام)، وهو يناجي ربه.

إنه الفناء في ذات الله، ومنتهى التقرب إليه.

فهل عزيز على الله بعد هذه الإطاعة وهذا الفناء، والتقرب إلى ساحته المقدسة أن يطلع عباده المقربين على الأسباب التي توجد هذه الخوارق، وتكون السبب في حصول

---

(١) شرح رسالة الحقوق للإمام زين العابدين: ٤١٠.

(٢) العلامة المجلسي: بحار الأنوار، ٦٧، ١٨٦.

المعاجز لا لمصالح تعود عليهم بالنفع بل إنما هي مصالح تعود بالنفع على نفس الدعوة، ونفس النظام الذي اقتضت الحكمة الإلهية أن يطبقه ذلك الرسول الأمين؟

يبعث الله النبي عيسى (عليه السلام) إلى قومه ليهديهم سبيل الرشاد فيسلحه الله بمعاجز خارقة ليصدّق به أولئك الذين استكثروا على هذا العبد المخلص المطيع أن تناط إليه سفارة السماء ليطبّق لهم قوانينها الكاملة ويقدّم لهم كل ما فيه الخير والسعادة.

ولكن لا بد من العطاء الإعجازي لتقر النفوس بأن عيسى رسول الله وليس إنساناً مشعوذاً يدّعي شيئاً وهو بعيد عنه، بل هو رسول إلى بني إسرائيل:

﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا﴾[1].

ولكن هل هذه الخارقة من صنع عيسى (عليه السلام)، وبقدرته؟

وطبيعي أن يكون الجواب بالنفي، فعيسى (عليه السلام) بشر، وليس من شأنه ذلك بل هي بأمر الله وبإرادته، لذلك نرى الآية الكريمة تكمل ما سبق بقوله تعالى:

﴿فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2].

يخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه الروح، ويحيي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص، كل ذلك لا بقدرته، ولا بسحر، ولا يوهم ذلك لمن يراه، بل هي حقيقة واقعة يحس بها، ويشاهدها كل أحد وبالعين المجردة لأنه بإذن الله عزّ وجل فهو مصدر هذه القدرة وهو ملهم هذا الإشعاع لعباده الذين حملهم عبء المسؤولية ومهمة التبليغ.

هذا إذا سرنا على مضمار العقيدة الإلهية، وما نقرّ به من وجود الله وعظمته، وقدرته التي هي فوق كل شيء، فالمعجزة حينئذٍ لا تؤخذ وتقيّم بالتقويم العلمي

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٤٩.

لأن الله حيث اقتضت حكمته أن يخلق هذا الكون، وبما فيه من مخلوقات بشرية اقتضت حكمته كذلك أن يقنن لهم القوانين ليكفل لهم سعادتهم، ومن يقوم بمهمة التبليغ لا يصدقه الكافة من الأمة المبعوث إليها.

إذن، فهو الذي يسلّح نبيه بهذه الطاقات الغريبة لدعم المركز النبوي في مقام تبليغ تلك القوانين.

المعجزة في إطار العلم:

لنلاحظ المعجزة، وما يقابلها به كثير من الفلاسفة وغيرهم من الذين ذهبوا في تقشفهم حتى أبوا أن يذعنوا لشيء لم يخضع إلى عنصر المادة وبالأخير لم يستقر تحت عدسة مجهر العلم.

إن إنكار مثل هذه الظواهر، ودعوى استحالتها بعدم خضوعها للعلم ركيزة يستند عليها المنكر لدفع مزاعم أولئك الذين يعتقدون بها ويرونها من الظواهر الممكنة، بل الواقعة في الخارج، وأمر لا يقبله العقل، ولا يقره الوجدان، فإن ذلك عناد صرف، ومراوغة عن الحقيقة باسم العلم والعلماء، إذ العلم تمشى من القديم فأخذت مجاهره تحل لنا أسرار العجائب والغرائب التي كان الأقدمون يرونها خوارق بالنسبة إليهم، ولم يكن ذلك دفعة واحدة بل على التدريج فكيف، والحال هذه نطلب من العلم أن يقرر بصورة نهائية ما يراه في جميع الخوارق دفعة واحدة فما شمله التحقيق معترف به، وما لم يشمله فهو في عداد الخرافات، والسخافات.

إن الإصرار على الإنكار، والنظر إلى ما يقتضيه العلم لا غير عجز ظاهر لطلاب الحقيقة، وباحثيها. فلقد تكلف العلماء، والباحثون في حل أسرار هذه الخوارق بالتجارب، والاستقصاء فأخذت تقاريرهم تطالع الرأي العام بما يتوصلون إليه بعد الفراغ من كل ناحية يتوجهون إليها، ومن الصعب أن نكلف العلم بأن يواجهنا برأيه حول جميع هذه المعاجز بصورة قطعية فإن ذلك ليس من اللائق أن يتفوه به من اعتبر نفسه في عداد الباحثين، والمحصّلين بعد أن عرفنا أن العلم يسير مع الزمن تدريجياً، ويحل المشاكل واحدة بعد الأخرى لا أنه يقفز قفزات مترامية.

تنبيه:

ولا بد لنا من التنبيه، ونحن في صدد بحث المعاجز والخوارق من زاوية الإطار العلمي، أن هذا البحث يبتني على الأخذ بنظرية أن تكون المعجزة يعجز عنها الأمة المبعوث لها وحينئذٍ فيكون البحث على أساس أن هذه الخوارق أصبحت الآن منتهية المفعول، وغير محتاج لها فيأتي العلم ليحل أسرارنا ويقول كلمته فيها.

أما على النظرية القائلة، بأن المعجزة هي ما يعجز عنها البشر كلهم إلى اليوم الأخير من نهاية هذا العالم الكوني فلا معنى لإخضاع المعاجز لمجاهر العلم لأن حلها ينافي إعجازها الدائمي.

وحيث كنا قد قرّبنا النظرية الأولى، والتي تحدد المعجزة بتعجيزها للأمة المبعوث إليها ذلك النبي لهذا لا نرى بأساً في أن تخضع كثير من المعاجز السابقة غير معاجز نبي الإسلام(ﷺ) إلى العلم فيحل أسرارها، ولا منافاة بين كونها معجزة، وبين خضوعها بعد ذلك إلى مجاهر العلم.

والسبب في عدم المنافاة هو، أن هذه المعاجز لو لاحظناها لما رأينا لها حساباً في المفاهيم التي يبشر بها النبي بل هي وسائل لدعم موقف النبي والتصديق به وإذا فرضنا أنها أعطت تأثيرها الكامل، وبلورت الموقف وتبع الناس، وأخذوا التعاليم والإرشادات التي جاء بها النبي لأمته فلتسقط عن الاعتبار بعد ذلك لو جاء العلم، وحل أسرارها بعد قرون عديدة.

وفي نفس الوقت، لا يكون تحليل المعاجز، والوصول إلى أسرارها بعد فترات من الزمن تقليلاً من شخصية النبي، أو توهيناً لرسالته، وأهدافه التي جاء لتحقيقها لأنا «كما قلنا» في المعجزة أنها الجسر الذي يعبر بواسطتها ضعاف النفوس إلى التصديق بما جاء به من دعوى النبوة، وإذا حصلت الغاية وحصل التصديق فيستغنى عن الواسطة، وليحلها العلم، ويكشف غوامضها، وأسرارها.

ظاهرة من الظواهر توصل العلم الحديث إلى معرفتها، والاعتراف بحقيقتها

تلك هي الشعور على البعد، أو ما يسميه النفسانيون اليوم بـ (التلباثي)[١]، يقول الأستاذ العقاد مترجماً التلباثي:

«ونحن نترجم التلباثي بالشعور عن بعد أو «بالنظر البعيد» إذا أردنا تعميم النظر حتى يشمل الرؤية والمكاشفة، أو يشمل الـ «vision» في اصطلاح بعض النفسانيين».

ويستمر الأستاذ العقاد في الكلام حول هذه الظاهرة فيعتبرها من الأحوال المتكررة التي يحس بها الكثير، ويسجل وقائعها أناس كثيرون متدينون، وغير متدينين واليوم يعتبر من أشهر القائلين بها والمؤمنين بالقول بإمكانها كاتب أمريكي وهو «إبتسون سنكلير» ولم يكتفِ هذا الكاتب بالقول بإمكانها، بل يسوق لك الأدلة على ثبوتها وبتجاربه التي جربها مع زوجته، وغيرها مما دعته لأن يؤمن بها أشد الإيمان[٢].

وأخيراً، يأتي الأستاذ العقاد ليدلي برأيه حول هذه الظاهرة التي تنحل بواسطتها كثير من الخوارق التي يقع كلامنا عنها بعد أن ترجمها قائلاً:

«اعتقادنا في التلباثي أنه هبة نفسية جائزة لا تناقض العقل ولا يمنعها العلم بدليل أنها لا تستند إلى الحس، ولا فرق بينها وبين هبات الحس التي نباشرها كل يوم إلا في طول المسافة، وهو فرق اعتباري غير قاطع بين حالة، وحالة إذ من الذي يستطيع أن يقول: أن الحس ينتهي عند المسافة، ولا يجوز عقلاً أن يتعداها، ويذهب إلى ما ورائه»[٣].

ولم يقف الأستاذ العقاد عند هذا الحد، بل استمر في بيان عدم وجود فرق بين

---

(١) يرى الأستاذ العقاد أن (التلباثي) كلمة مركبة تركيباً مزجياً من كلمتي البعد والشعور في اللغة اليونانية. لاحظ لذلك عباس محمود العقاد: الله/ ٣٨.

(٢) مجلة الرسالة: السنة العاشرة، العدد ٤٩٢، ١١٣٤.

(٣) مجلة الرسالة: السنة العاشرة، العدد ٤٩٣، ١١٣٤.

هذه الحالة الناشئة من جهاز الذهن، وبين سماع الأصوات من المذياع من مسافات بعيدة، وملخص ما قاله في هذا الصدد:

هو أننا في الوقت الحاضر آمنا إيماناً لا ريب فيه بهذا المذياع الذي يسمعنا كل يوم ما يتكلمه الإنسان في أمريكا، واليابان كما يسمعنا الجالس حديثه ولولا وجود هذه الآلة الناقلة لما كنا نعتبر قول من يدّعي ذلك صحيحاً، ولكننا الآن بعد أن جوزنا سماع الأصوات من المسافات البعيدة بجهاز من صنع الإنسان وعمل يده فلماذا إذن نستكثر على قوى الذهن، وأجهزة الشعور أن تحس من مسافات قصيرة، أو يتسنى لها الاتصال بنفس أخرى، وذهن آخر إذا تهيأت لذلك أسباب المساعدة؟

وفي الحق أننا لا نرى ذلك كثيراً ولكننا في الوقت نفسه فمنع ذلك على أجهزة الذهن، وقوى الشعور مع أنه لا فرق بين أجهزة الذهن والمذياع إلا بما يراه العالم النفساني سنيل حيث يقول:

والفرق الوحيد بين الجهاز اللاسلكي، والعقلي هو أن الأول من مادة غير عضوية على هيئة بطاريات، وأسلاك، وأن الثاني مكون من مادة حية في شكل خلايا حساسة، وأنسجة عصبية، أما عمل الاثنين فواحد، وهو إيصال الموجودات الأثيرية غير المنظورة، وغير المسموعة إلى الحواس في شكل تموجات مفهومة مميزة.

«وسنيل» هذا هو أحد القائلين بوجود حاسة سادسة في الإنسان تمكنه من التوصل إلى إدراك أمور لا يمكن إدراكها بواسطة الحواس الخمس المعروفة.

ويعتبر سنيل «النتوء الصنوبري» الموجود في أسفل المخ من ناحية النخاع الشوكي هو عبارة عن الحاسة السادسة، وينتج من ذلك أن هذا العالم الشهير يرى مخ الإنسان جهازاً لاسلكياً لكنه يختلف عن المذياع بما تقدم أن نقلناه من الفرق السابق.

أليست هذه خارقة عجيبة أن يتكلم هنا فيفهم إنسان آخر ما تكلم به والحال أن بينهما مسافات شاسعة.

وبهذه الوسيلة تنحل كثير من الخوارق التي كان الإخبار فيها عن أشياء بعيدة

فيخبر أحدهم عن قضية وقعت، والمسافة بينهما ليست قريبة، ويعتبر ذلك معجزاً في وقته وظرفه، ويكون مثل ذلك دعماً لمركز النبي المبعوث في ذلك الوقت ولا يكون ذلك موجباً للتنقيص من قدره «كما قلنا» ما دام هذا العمل يوجب التصديق بالدعوة.

هذه خارقة، وظاهرة توصل العلم إلى حقيقتها، وكشف النقاب عن سرها بعد أن بقيت مدة محطاً للجدل، والمناقشة دون أن يتوصلوا إلى معرفتها وكم كان الأجدر بأولئك الذين أنكروا هذه الظاهرة، وغيرها مما يجمعها الشعور على البعد أن يتمهلوا ليأتي اليوم الذي يكشف العلم عن أسرار، وغوامض كثير من القضايا التي كانت خوارق فيما مضى من الزمن.

وربما يعتبر البعض أن كثيراً من الخوارق يكون منشؤها العقيدة الشديدة وإليها يرجع الفضل في صدور كثير من الأمور التي تدع الإنسان حائراً عند مشاهدتها، وفي هذا الصدد ينقل الدكتور علي الوردي قصة عن فقير هندي أظهر من العجائب، حيث ظهر في الشتاء في حديثة الهايدبارك بلندن عاري البدن يكاد لا يحس بزمهرير الشتاء، وأخذ يقوم بأعمال خارقة فهو كان يبتلع حطام الزجاج، والمسامير الصغيرة الحادة، وغيرها، ويشرب حامض «النتريك» هنيئاً، ويمشي حافياً على الجمر الملتهب، وقد يدفنه تحت التراب عدة ساعات، ثم يخرجونه حياً كأن لم يكن قد حدث شيء، وقد بحثت جمعية المباحث النفسية في بريطانيا قبل بضع سنوات حالة تشبه هذه الحالة حيث مشى فقير هندي على فراش من الجمر كانت درجة حرارته تزيد على الألف «بمقياس الفهرنايت» وقد أعاد المشي عليه مرة ثانية للتأكيد، فسجلت هذه التجربة في سجلات الجمعية[1]. وهناك مصادفات أخرى نقلها الدكتور الوردي في خوارقه من هذا القبيل شاهدها بنفسه حين يقول:

«وقد يقوم بعض المتصوفة في العراق بأعمال مشابهة لتلك التي يقوم بها فقراء

---

(١) الدكتور علي الوردي: خوارق اللاشعور/ ٢١٤.

الهنود فهم يضربون أنفسهم بالسلاح، ويغمدون خناجر السيوف في بطونهم، ويأكلون النار، وقد سافرت في العام الماضي إلى تكريت مع جماعة من طلاب كلية الآداب، والعلوم، فشاهدنا هناك من هذه الخوارق ما أثار دهشتنا حقاً ولقد حاولت أن أتحقق بنفسي من صحة هذه الخوارق التي نسمع عنها دائماً، فوجدتها خالية من الخداع، والشعوذة ولا يهمني أن لا يقتنع بصحة ما أقول، فإني قد اقتنعت بصحة ما رأيت وهذا يكفيني»[1].

وأخيراً، أبدى الدكتور رأيه في مثل هذه الأمور، فقال:

إن هذه الخوارق كلها تدخل في موضوع تأثير الفكر في البدن وهي في الواقع ناتجة عن سيطرة معينة على بدن الإنسان، فالفقير الهندي حين يمشي على النار إنما هو معتقد اعتقاداً جازماً بأن النار لا تؤذيه[2].

وعلى كل حال، فالدكتور الوردي يرى أن هذه العقيدة الجازمة التي تنقل الإنسان إلى شبه غيبوبة، والتي ينشأ من جرائها كثير من الغرائب ليست من الأمور الهينة التي يتمكن كل إنسان من الحصول عليها ولا يكفي للإنسان في سبيل الحصول عليها أن ينوي، ويغرم، ويقصد بل هي في الواقع من المراتب التي لا تحصل إلا بعد مراس طويل وانغماس لا يخامره شك.

هذا ما يرتأيه الدكتور الوردي بالنسبة لتلك الأفعال التي يصدرها كثير من فقراء الهنود، وما شاكلهم.

وربما مال البعض، إلى استحسان الفكرة، واعتبار كثير من الخوارق والمعاجز الصادرة من الأنبياء ناشئة عن حصولهم على تلك العقيدة الشديدة، وبواسطتها أظهروا كثيراً من الأمور الخارقة، والمعاجز الغربية، فيقال: أنها عقيدة أكيدة وراسخة كانت قد حصلت عند النبي إبراهيم(عليه السلام) إذ كان يعتقد اعتقاداً جازماً بعدم تأثير

---

(١) المصدر المتقدم، الدكتور علي الوردي.

(٢) المصدر المتقدم، الدكتور علي الوردي/ ٣١٥.

النار فيه مهما بلغت حرارتها وفعلاً فقد تمّ له ذلك فكانت النار برداً وسلاماً على إبراهيم.

وأمثال هذا كثير إذا سمحنا للعقيدة أن تسيطر على البدن فهم بفضل تلك العقيدة الثابتة في نفوسهم يتمكنون من إظهار هذه الخوارق التي يقف العقل بإزائها حائراً مذهولاً. إلا أن هذه النظرية لا يمكننا الاعتماد عليها لإنقاذنا فيه من الحيرة والتفكير، وذلك لأن هذه النظرية تتركز على أن الجسم يتأثر بتلك العلاقة التي حدثت بين العقل والجسم والتي يطلقون عليها اسم «العقيدة» ويحصل من جراء ذلك التأثير أن لا يحس الجسم بالنار أو الحديد. ولنقف قليلاً مع هذه العقيدة المسيطرة فهل يمكن التغلب بواسطتها على الصعوبات التي تفوق القابلية العضوية؟

فإذا سيطرت العقيدة، ومنعت من أن يحس الفقير الهندي، أو زميله المتصوف العراقي بحرارة الجمر فهذا لا يعني أن بشرة رجليه لا تحترق إذ لا بد من أن تأخذ النار مفعولها الخاص، وتؤثر أثرها الطبيعي ما لم يكن في البين ما يمنع من تأثير اقتضاء النار للإحراق، ومجرد حصول العقيدة المذكورة لا يكون مانعاً من ذلك التأثير الطبيعي.

نعم، بالإمكان القول بأن العقيدة تؤثر على النفس فتمنع الإحساس بالألم وبما يواجهه الجسم من وخز وحرق فهي كالمخدر الذي يريح المريض من الآلام والأوجاع لبعض الوقت. «وعلى سبيل المثال» فإن ما يستعمله الأطباء اليوم من التخدير لإجراء عملية جراحية هل يكون ذلك موجباً لعدم وجود أثر للجرح الذي أحدثته سكين الطبيب الجراح؟

إذن، فالعقيدة لا يمكنها إلا التسكين الوقتي وعدم جعل صاحبها يشعر بما يلاقيه من الآلام التي تنشأ من الجروح والحروق.

وعلى هذا، فلا معنى لتفسير بعض خوارق الأنبياء، ومعاجزهم من هذا القبيل نتيجة لتأثير العقيدة الراسخة عندهم للفرق بين الموقفين فإن النبي إبراهيم(عليه السلام) بعد أن أُلقيَ في النار من قبل أعدائه فكانت برداً وسلاماً عليه لم تكن قد أثرت في

بدنه حرقاً، أو تشويهاً لا أنها أثرت، ولكن عقيدته تغلبت على ما توجده الحروق من الآلام وهذا ما دعا القوم يستغربون أشد الاستغراب.

فكيف يرمى في النار هذا البشر المتكوّن من دمٍ، ولحمٍ، وعظمٍ، وكلها مواد قابلة للاحتراق، ولا تؤثر فيه شيئاً، وقام منها معافى من كل شيء.

وما زلنا في مأزق حرج يواجهنا ونحن في طريقنا إلى إبطال كون تلك الأفعال الصادرة من فقراء الهند، وأمثالهم منشؤها العقيدة الراسخة المهيمنة على البدن وعلى الفقير إذ لو أبطلنا ما جاء به الدكتور الوردي فبماذا نعلل تلك الأفعال الصادرة من كثير من المشعوذين من قبيل المشي على النار أو ابتلاع المسامير، وغير ذلك من الغرائب، والتي صدرت بمحضر جماعة كثيرة باستطاعتهم الإتيان بأكثر منها وما هي الفضيلة التي يمتاز بها أولئك الأنبياء المنزهون عن الدنس عن أولئك الفقراء وأضرابهم ممن تمكن من إظهار ما يحيّر العقل ويدعه مبهوراً؟

وللخروج عن هذا المأزق طريقان يمكننا بواسطتها أن نميز الأنبياء عن غيرهم بالنسبة إلى صدور العجائب منهم:

الأول: أننا لا نعترف بأن هذه الأمور التي يواحهنا بها هؤلاء المشعوذين من الحقائق لها أهميتها بالنسبة إلى الإعجاز، وذلك لأن تلك الأفعال لا تتعدى الشعوذة، والخفة في الحركة مما يوهم الغير بالابتلاع، أو وضع النار على البدن، وما شاكل، ولكنها سرعان ما تظهر الحقيقة بيضاء ناصعة، ويبطل ما جاءوا به من الوهم، والإيهام كما حدث ذلك لفتاة إيطالية حيث قامت بأعمال غريبة لا يصل العقل إلى تصديقها بحسب الظاهر من قبيل جعل الموائد تتحرك من تلقاء نفسها، وجعل بعض الآلات الموسيقية تعزف بنفسها من غير أن يمسها أحد[1].

ولكن أعمال هذه الفتاة والتي يعرفونها باسم (بلادينو) لم تكن إلا شعوذات تقوم بها بلباقة ومرونة، ولم تمضِ مدة على القيام بما جاءت حتى افتضحت.

---

(١) الدكتور علي الوردي: خوارق اللاشعور/ ٢٢٢.

وبهذا الصدد يقول الدكتور علي الوردي:

والغريب في هذا الأمر أن (بلادينو) بعد أن حازت نجاحاً عظيماً في أوروبا ذهبت إلى بريطانيا، ففحصها أساتذة جامعة «كمبردج» وضبطت هناك متلبسة بالغش، إذ شوهدت، وهي تستخدم يدها في تحريك الموائد(١).

إذن، فربما كانت أفعال فقراء الهند، وأمثالهم من هذا القبيل نتيجة للغش، والشعوذة، وربما كان من الممكن أن تضبط شعوذة ذلك الفقير الهندي الذي وجد في حديقة «الهايدبارك» في لندن لو أوفدت جمعية المباحث النفسية البريطانية لجنة لفحص ذلك الفقير فحصاً دقيقاً دون أن تكتفي بتسجيل حوادثه في سجلات الجمعية فقط كما صنعت مثل ذلك للفتاة الإيطالية (بلادينو) حيث أوفدت لجنة مؤلفة من ثلاثة خبراء معروفين في اكتشاف هذه الشعوذات فوقفوا على شعوذتها وخداعها.

وهناك حوادث كثيرة لغير هذه الفتاة أظهر أصحابها الكثير من الخوارق، ولكنهم أخيراً انكشفوا، وانكشفت فضائحهم، وظهرت وسائل غشهم، وخداعهم. وهذا بخلاف الخوارق التي يظهرها الأنبياء، والأولياء في سبيل دعم مواقفهم فإنها لا تمت إلى السحر بصلة، ولا تشوبها شعوذة قط. ومن ذلك ما وقع للنبي موسى(عليه السلام) حين ألقى عصاه: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾(٢). وكانت نتيجة هذه العملية أن: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ۝١٢٠ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٣).

ولم يك أتباع فرعون لتخفى عليهم خافية إذا كانت عصا موسى من قبيل ما هو جارٍ عندهم، وعلى نواميس صناعتهم السحرية، ولكنهم رجعوا إلى الأصول المتبعة عندهم فلم يروا مثل ذلك يوجد في أساليبهم، ولم يروا أن هذا العمل يستطيع بشر

---

(١) المصدر السابق، الدكتور علي الوردي.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١١٧.

(٣) سورة الأعراف، الآيتان: ١٢٠ ـ ١٢١.

أن يحققه، وليس هذا من قبيل السحر والدجل وإلا لتوصلوا إليه وهم المهرة في السحر والعاملون بشؤونه بعد أن انتقاهم فرعون، وجمعهم لمقابلة هذا النبي الذي أبى أن يذعن لجبروته، وإذا بهم يرجعون خائبين، وقد أعيتهم الحيل، فاعترفوا بأن ما جاء به موسى ليس من قبيل السحر بل هو أمر خارج عن القدرة البشرية. ولا بد أن يكون ذلك صادراً بعناية وقدرة أعظم مما يستطيع إيجاده البشر، وفوق طاقاتهم.

الثاني: ولنا طريق آخر لو اعتبرنا ما صدر من هؤلاء ليس من قبيل الشعوذة والخداع، وأن ما يدعيه هؤلاء الفقراء وغيرهم حقيقة لا يشوبها غش، ولا خداع. مع كل هذا بالإمكان أن نقول:

بأن صدور مثل هذه الخوارق ممن هم دون الأنبياء بمراتب لا يقاسون بهم لا يقلل من كرامة الأنبياء، ولا يخدش فضيلتهم التي فضلهم الله بها على العالمين.

ويكون هذا الجواب بناءاً على رأي من يقول:

بأن المعاجز التي يتسلح بها الأنبياء لا يشترط فيها أن يكون التعجيز فيها مستمراً إلى الأخير. بل يكفي أن يعجز عنها الأمة المبعوث إليها ذلك النبي.

نقول ذلك، ولا يلزم أن تكون المعجزة للرسالة المؤقتة معجزاً للجميع إلى قيام الساعة. أما لو كانت بعض المعاجز لبعض الأنبياء كذلك فلا مانع فيه، بل المهم عدم اشتراط التعجيز الاستمراري لغير معاجز الإسلام، فإن معاجزه يشترط فيها ذلك تبعاً للرسالة التي كانت تلك المعاجز مؤيدة لها. فحيث كانت الرسالية أبدية تقارع الزمن إلى أن يختار الله لهذا الكون نهايته، فإن معاجزه وخوارقه لا بد لها أن تبقى محافظة على طابعها التعجيزي من غير أن تمس، وتخدش، وسليمة عن المحاكاة، والمماثلة لأن محاكاتها معناه عدم إعجازها، وحينئذٍ فما يؤيد صحة رسالة السماء في نظر المنكرين، والمعاندين لو جاءوا بمثلها؟

وإذن، وبناءً على هذا فإن هذا القائل لا يرى بأساً في أن تحاكى معاجز الأنبياء السابقين بعد الفترات التي تمر، وتنتهي بها تلك الرسالة لا في زمانها ولا يكون ذلك مضراً بكرامة ذلك النبي ما دامت معجزته قد حافظت على طابعها الإعجازي في

المدة التي قدر لتلك الرسالة أن تكون شريعة الله في أرضه، وقبل أن تنسخ برسالة جديدة.

وفي نطاق تثبيت قولهم يقول هؤلاء:

وإن تعجيز أمةٍ لا يستدعي مثل ذلك لأمة أخرى لم تكن مشمولة بالدعوة السابقة ولماذا نوجب على أتباع عيسى (عليه السلام) أن يعجزوا عن الإتيان ومحاكاة مثل معاجز النبي موسى (عليه السلام) مع أن وقت الدعوة الموسوية مضى وانقضى؟

وهكذا المسلم بالنسبة لهما، ولمن تقدمهما من الأنبياء فليس على النبي موسى شيء لو قلدت معاجزه من قبل أتباع النبي عيسى، أو المسلمين.

ومع هؤلاء القائلين بهذا الرأي نقف لنقول:

إنهم بجوابهم هذا لا يلتزمون بعدم المحاكاة للمعاجز إلا لمعاجز نبي الإسلام لأنها رافقت دعوة شاءت السماء أن تكون هذه الدعوة خاتمة الشرائع السماوية، ولذلك فهي الوحيدة التي تبقى معاجزها سالمة عن المحاكاة، والمماثلة.

عود على بدء:

ومرة أخرى نعود إلى كلامنا السابق لنقول:

إن دعوى خضوع كل شيء إلى مجهر العلم، وكلمة العلماء أمر لا يمكننا البت به ذلك لأن هناك كثيراً من الأمور لا تكون خاضعة لقوانين الطبيعة ومجاهر العلم.

وهنا أود أن أتساءل، وأوجه السؤال لبعض المنكرين الذين يمنعون، ويصرون على نظريتهم عمن اكتشف معنى الروح، وأسرارها، أو العقل، وآياته، فهل توصل مجهر العلم لحقيقة هذين الأمرين، وهل تميزت عناصرهما؟

إنني أعتقد لو تجرد الإنسان من التعصب المادي، وتصور الحقيقة بعض الوقت لآمن أن الروح، والعقل أمران لم يتوصل لحل أسرارهما العلم حلاً شافياً مقنعاً.

وبهذا الصدد نرى الدكتور محمد حسين هيكل يتحامل على المستشرقين الذين ذهبوا إلى أن الوحي ظاهرة نفسية شاذة فيقول:

كنا نفهم أن يقول هؤلاء المستشرقين، أن الوحي ظاهرة نفسية شاذة في تقدير علمنا، وما حصل إليه حتى اليوم فمن المقتدر إذن تفسيرها على طريقة، لكن هذا القول إنما يدل على أن علمنا على ما انفسح مداه، واتسع أفقه لا يزال قاصراً عن تفسير كثير من الظاهرات الروحية، والنفسية، ولا عيب على العلم في هذا، لا عجب منه، فعلمنا ما يزال قاصراً عن تفسير بعض الظاهرات الكونية القريبة منا، وطبيعة الشمس والقمر وهذه الأفلاك جميعاً وبعض ما تشهده العين المجردة، وما تكشف الآلات المقربة لنا عن كثير من خفاياها، وكثيراً ما نقرأ عن أمور شهدها العلماء، وثبتوها، ثم أثبتوا معها أنهم لا يجدون لها من السنن الكونية التي استنبطها العلم تأويلاً تطمئن إليه وقواعده. فعلم النفس ما يزال بوجه عام غير ثابت السنن في كثير من الشؤون التي تعرض له، فإذا كان هذا واقعاً في الحياة العادية كان البدار إلى محاولة تفسير ظاهرات الحياة جميعها على الطريقة العلمية محاولة عقيمة، وإسرافاً معيناً[1].

على أن هناك كثيراً من الأمور لم يتوصل العلم لحد الآن إلى معرفة حقائقها رغم هذا التطور الذي حدث فيه، ورغم هذه السرعة في عجلاته.

ولنأخذ مثلاً لذلك، فإن مما لم يتوصل العلم لحد الآن لمعرفته هو (الأنزيمات) و (الغرائز) و (الهرمونات).

أما الأنزيمات: فهي مواد عضوية معقدة تسلك سلوك عوامل مساعدة في الهضم، والتمثيل، كـ (الداستان) و (اللايباس) و (الأنسولين).

فالأنسولين: وإن اكتشف العلماء فائدته، وتمكن العلم من استغلال منافعه في مكافحة الأمراض السكرية، وغيرها، ولكن هل تمكن أحد العلماء من معرفة حقيقة هذا التأثير وحقيقة هذا العمل؟

ولا شك أن يكون الجواب بالنفي لأنهم لم يتوصلوا إلى الآن لمعرفة هذه الحقيقة العجيبة، بل كلما توصلوا إليه هو معرفة فائدته لا غير.

---

(١) الدكتور محمد حسنين هيكل: حياة محمد/ ٤١ ـ ٤٢.

وأما الغرائز: فذلك أننا كثيراً ما نشاهد الطيور، والأسماك تفارق صغارها، وتكون المسافة بينهما بعيدة جداً، ولكنها بالأخير ترجع إلى فراخها، وكأنها تسير على خط معبّد دون أن تتجه إلى محل آخر، بل تصل إلى الموضع الذي تركت فراخها فيه، فما معنى ذلك؟

وتفصل الأنهار الكثيرة بين السمك، والمحل الذي ألقى فيه بيوضه إلا أنه بالأخير يعود إلى نفس الموضع مهما كانت المسافة بين المحلين كثيرة.

فأي عالم يتفضل ليدلي برأيه عن هذه الغريزة التي دعت هذا الحيوان يعود إلى الفراخ والبيض؟

وهل من المستحسن أن ننكر هذا الشيء بمجرد عدم توصل العلماء إلى معرفته؟

والعلم في طريقه إلى الاكتشاف، والاعتراف بحقائق كثيرة من الخوارق فلماذا التعصب والعناد؟

ولكن الأجود أن نترك الباب مفتوحاً على مصراعيه، وربما رأينا شمس غد تشرق علينا، وهي تبشر بوصول العلم إلى كشف حقائق أخرى بقيت مجهولة علينا طيلة هذه المدة.

وبين نعم، ولا، هوة سحيقة بعيدة، فلا بد من التحذر إذا أراد الإنسان أن يختار أحد الوجهين، فنرى الذين يركنون إلى الإيجاب يطالبون بالأدلة فيدعون صدورها حسبما أثبته التواتر، وليس ذلك ببعيد حسب ما يعتقدون، ويتمكنون به. أما المنكر فلم يجد بداً من الالتجاء إلى مجهر العلم ليتقي بواسطته هجمات المثبتين، والإنكار ليس بدليل وإنما هو عجز الدليل وجبن في ساحة المخاصمة.

وقد مضى زمن الإنكار والمنكرين الذين كانوا ينظرون إلى هذه الخوارق بعين التعصب والسخرية كأمثال (اللورد كلفن) الذي أثار في بعض خطبه فقال في سنة ١٨٨٣م:

والآن وقد أومأت إلى حاسة سابقة محتملة، وأعني بها الحاسة المغناطيسية

ولنفاسة الوقت وضيقه عن الاستطراد، وإيفاء الموضوع عما نحن بصدده أود أن أدفع الظن بأنني على أي نحو من الأنحاء أومىء إلى شيء من قبيل تلك الخرافة التعسة خرافة المغناطيسية، وتحريك الموائد وتحضير الأرواح، ومناجاتها.

ولكن هذا الموقف تبلور على مرور السنين، وتغير عندما أخذ العلماء يلاحظون هذه الخوارق بعين الإنصاف، والحقيقة كما يعترف بذلك الدكتور (متشل) في خطابه لقسم المباحث النفسية في المعهد البريطاني سنة ١٩٣٧م: لا بد من الاعتراف بالتلباثي، أو بوسيلة أخرى من الوسائل التي قد نسميها الآن خارقة للعادة لأننا إذا أنكرناه وقفنا حائرين بين يدي الظواهر المعززة بأدلة الثبوت مما لا نستطيع له نفياً، ولا تعليلاً.

ونظرة واحدة يلقيها الإنسان على التأريخ بين زمان (كلفن) الذي وقف ساخراً من هذه الخرافات على حد تعبيره، وبين زمن (متشل) الذي آمن بها، واعترف.

يظهر من ذلك صدق ما ندعيه من أن السير إلى الإمام كفيل بإيمان أغلب العلماء المنصفين.

وهكذا لو تأملنا من زمن (متشل) حين بعث بخطابه المذكور إلى جمعية المباحث النفسية سنة ١٩٣٧م إلى الآن والمسافة تزيد على ربع قرن لرأينا كثيراً من العلماء انحازوا إلى جبهة المؤمنين، ونبذوا عصبياتهم جانباً آخر.

وحسب الإنسان أن يقف عند هذا الحد ليعترف بهذه الخوارق وإمكان صدروها وليترك اعتبار عدم خضوع بعضها للعلم ولا يتمسك به لإثبات استحالتها فإن هذا الدليل لأوهى من بيت العنكبوت (كما يقولون).

ولذلك صرح الأستاذ العقاد قائلاً:

ومما لا نزاع فيه أن حق الفكر الإنساني في قبول هذه الظواهر أرجح جداً من حقه في إنكارها، والبت باستحالتها كأنها شيء لا يتأتى وقوعه بحال من الأحوال، فلا إستحالة في ظاهرة من هذه الظواهر غير مستثنى منها النادر المستغرب بالغاً ما

بلغ من الندرة، والغرابة في جميع الأزمان[١].

ويسوق الأستاذ العقاد دليلاً على أحقية الفكر الإنساني على قبول هذه الظواهر من إنكارها، والقول باستحالتها.

وملخص ذلك الدليل:

هو أننا إذا لاحظنا الاطلاع على المستقبل لرأينا غريباً لم تثبته حتى الآن تجربة علمية، ولكنا مع ذلك لم نتمكن من الجزم باستحالته إلا بعد أن ندرس حقيقة الزمن، والجزم بحقيقة المستقبل فما هو الزمن؟

والمخيلة تحرك له صوراً عديدة كلها لا تخلو عن نقص ومناقصة لبقية المقررات المسلّمة لدينا، وما هو المستقبل أيضاً؟

فالذي يدعي استحالة الاطلاع على المستقبل لا بد له من أن يجاهر بدعواه من الجزم الصحيح بحقيقة الزمن، زمنها ينتقل إلى الجزم باستحالة الاطلاع على المستقبل، وكل ذلك محتاج إلى دليل، والأدلة مفقودة فبماذا ندعي؟

على أن هناك ناحية لا بد من الالتفات إليها تلك:

هي أن دخول هذه الخوارق، والمعاجز في نطاق العلم، وأبحاثه لا يكون ركيزة للإذعان، والتصديق بالمغيبات والخوارق، إذ الإيمان بالشيء، والتصديق به لم يكن يعتمد على العلم بحقيقة ذلك الشيء فقط، بل جل اعتماده على ركيزة أخرى هي مقدار شعور الإنسان بما يعتقده، ويؤمن به فلربما اطلع اثنان على شيء واحد، وتساوياً في هذا الاطلاع، ولكن لا يلزم من هذا الاطلاع المتساوي التساوي في الشعور بمحاسن ذلك الشيء والإعجاب به.

والسر في هذا: هو أن النفس لا تؤمن بالشيء على قدر ما توصلت إليه من العلم بحقيقة ذلك الشيء، بل لا بد لإيمانها به من ملاحظة مقدار ما توصل إليه من الشعور بما تعتقد هي به[٢].

---

(١) عباس محمود العقاد: الله / مجلة الهلال، العدد ٤٢، ٤٩ ـ ٥٠.

(٢) عباس محمود العقاد: الله / مجلة الهلال، العدد ٤٢، ٤٩ ـ ٥٠.

إن هذه الركيزة أهم من العلم بحقيقة الشيء والتوصل إلى معرفته، وعليه فماذا يضر عدم خضوع بعض الخوارق إلى مجهر العلم ما دامت النفس حصلت على الإيمان الكافي بما اتجهت إليه؟

وهل ينتفع الذين يرون أن الإنسان لا بد له من السير تمشياً مع البحوث العلمية أمثال (أوليفر لودج) و (وليم كروكس) و(وليم جيمس) و (شارل ريشة) وأمثالهم[1]، في طريقتهم ما دامت النفس لم تحصل على المقدار الكافي من الإيمان، والشعور بما تعتقد؟ كلا فإن انتفاعهم بعيد جداً بلا شك.

ويتناول الأستاذ العقاد هذه الناحية فيقول:

وستظل هذه الظواهر تفصيلاً لا يجوز الشك فيه لقاعدة مقررة. ونعني بالقاعدة المقررة: أن الموجودات أعم من المحسوسات، فهنالك موجودات أكثر مما نحس الآن بالآلات، ووسائل التقريب، والتضخيم[2].

وفي الحقيقة، أن الشك لا يمكن أن يتسرب إلى القاعدة التي ذكرها الأستاذ الكبير وهي: أن الموجودات أعم من المحسوسات.

إذ لو فرضنا أننا لم نسلم بهذه القاعدة فلنحاسب أنفسنا لنرى أي عالم توصل إلى معرفة النفس، والعقل كما ذكرنا ذلك؟ وأي شيء هو ما يتصل بالروح من الشؤون كالشبع والجوع والألم واللذة؟

إن الفرق الجلي بين المنكر، والمعترف هو: أن المعترف الذي يؤمن بهذه الخوارق يرى الأمر كله راجع إلى قدرة الله تعالى بعكس المنكر، فإنه وإن أنكر فهو يجهد نفسه ليرجع ذلك إلى أحدى الغرائز الحيوانية كأنه إذا سمى ذلك بإحدى الغرائز كان جديراً بأن يستحق الثناء لأنه اتخذ من العلم دليلاً يسير على هداه.

إذن، فلنسلم بعد طي هذه المراحل بأن الموجودات أعم من المحسوسات وركب

---

(١) د. علي الوردي: خوارق اللاشعور/ ١٦٦.

(٢) المصدر المتقدم، د. علي الوردي: فوارق اللاشعور.

الحضارة والعلم ليطلعنا كل يوم على اكتشاف جديد توصل إليه العلماء، وحسبنا أن تثبت، وينكر آخرون ولا نصل إلى النتيجة المتوخاة، بل لا بد لنا من العلم بأن العجائب في هذه الدنيا كثيرة، فلماذا نلوذ بالصمت، والإنزواء، ونغلق الباب على أنفسنا بأيدينا؟

النتيجة:

وبعد هذه الجولة من البحث والعرض لا يصح لنا أن نتساءل أن المعجزة ممكنة، أو غير ممكنة، ففيما قدمناه من البحث كفاية عن الدخول لمثل ذلك مرة ثانية. بل سؤالنا في هذه المرة يدور حول نقطة واحدة وهي، أن المعجزة لازمة، أو غير لازمة؟ بمعنى هل كان لها أثرها الكامل في الامتناع بالدعوات السماوية التي جاء بها الأنبياء، والمرسلون، أو لم يكن لها ذلك الأثر الكامل؟ بل كانت من المساعدات إلى التسليم بالدعوات هذا ما سنلاحظه لاحقاً.

الشرائع السماوية:

لا يريد الله لعباده إلا الخير، ولا يشرّع لهم إلا ما يكفل لهم مصالحهم الدنيوية ومنافعهم الأخروية، وقد تقسو القوانين البشرية وتجور التشريعات التي يسنها البشر لمثلهم، ولكن لا مجال للجور والاعتساف في شرائع الله المقدسة، وأحكامه التي تعود على الجميع بالخير والرفاه.

والله الذي خلق البشر، وأفاض عليهم نعمة الحياة والتلذذ بنعيمها لا بد أن يهيئ وسائلها للإنسان ليسلك طريقها نحو الحقيقة المتوخاة، وهي الحياة المثلى الحافلة بالإنسانية والزاخرة بالفضيلة.

أفاض سبحانه وتعالى على البشر نعمة التفكير، فكان هو بمثابة الموجه للإنسان وكفل دستوره نظام الأمة كأحسن قانون يتمتع الجميع في ظله على سواء بالرحمة والإحسان والخير، وأصفى من الحنان ما ترك الإنسان يمرح بالسلام بواسطة قانون سماوي لم يحمل بين جنبيه أي ظلم، وقسوة إنما الخير كل الخير والسعادة كل السعادة.

يريد الله لعباده الحياة المثلى، والحياة الأفضل، ولا يريد لهم أن ينزلوا إلى

الحضيض بعيدين عن شرائعه المقدسة تائهين في أودية الردى والضلال يتخبطون في دياجير العمى والظلمات، بل يريد أن يترفعوا عن الدنايا، ويعيشوا في رفاهية من العيش آمنين مطمئنين.

وهذه السعادة وهذا الخير لا يحصل عليها الإنسان إلا إذا تقيّد بأحكام الله وتكاليفه ففي ذلك ما هو شفاء للقلوب قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾(١). وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾(٢). وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾(٣).

القرآن: هو الدستور الإلهي، وفيه شفاء، ورحمة لكل من آمن به، وأخذ بتعاليمه المقدسة، وفيه شفاء من كل حيرة وقلق لأنه من الله، وما كان من الله إلى المخلوقين، فهو الرابط بينه وبينهم لذلك تطمئن النفس إليه حيث ينقلها إلى رحابه الكريم، فتجد في فنائه الراحة من كل ما يشوبها من أمراض تميت فيها الإيمان والنشاط والحيوية كالحسد والطمع والحيرة والقلق والنزوع إلى الرذائل والموبقات.

وفوق كل هذا ففي الدستور ما هو شفاء مما ينخر بالمجتمع من عوامل تذهب بأمنه، وهدمه، واستقراره.

ومع الشفاء هدى لتخليص الناس من الوقوع في مهاوي الضلال لأن الشريعة من الله، وحاشا لله أن يظلم أحداً أو يختار له غير الصلح. قال تعالى:

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾(٤).

ومن هنا تظهر لنا دستورية القرآن لأن فيه تبياناً لكل شيء، من التكاليف الشرعية وغيرها، لذلك كان رحمة وبشرى لمن أسلم، ويأخذ بأيديهم لما فيه سعادتهم

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

(٢) سورة يونس، الآية: ٥٧.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٤.

(٤) سورة النحل، الآية: ٨٩.

في الدنيا والآخرة، لأن من خلق الخلق لا يختار لهم إلا ما يكفل لهم حياتهم ويهيء لهم ما به يؤمنون على حياتهم في الدار الآخرة، وهي الحياة الدائمة الأبدية.

هذه هي الشريعة وهي القانون والأساس لنظام الحكم.

القانون: أساس الحياة الصحيحة، والتمسك به دليل انتظام الحياة، ولكن هل يمكن أن تسير الأمة على ضوء القانون بدون موجه ومبلغ؟

ومن الطبيعي أن يكون الجواب بالنفي.

ذلك لأن القانون بما يشتمل على تكاليف عامة وخاصة يحتاج بطبيعته إلى من يوضح خفاياه من جهة ويراقب تنفيذه من جهة أخرى، وذلك الشخص هو الذي يطلق عليه اسم المبلغ أو الحاكم أو ما شئت فعبّر من رسول أو نبي أو غير هذه من الألفاظ.

الحاكم: هو الذي يسير بالأمة على ضوء الحقيقة ويحكم على طبق ما يرسمه القانون الإلهي للمكلفين في هذه الحياة، وعلى عاتق هذا الحاكم تقع مسؤولية التبليغ وتبيان الأحكام وإيصالها إلى المكلفين وبه تناط جميع ما تقتضيه السفارة الإلهية من شؤون.

ولنا أن نقدر ما سيلاقيه هذا المبلغ من الناس من أنواع الإنكار وما يقتضيه هذا الإنكار من أنواع التعذيب والتحقير.

وينشأ هذا الإنكار والتحدي من عاملين:

الأول: إن عامة البشر لا تنظر إلى مثل هذه الأمور بمنظار الحقيقة بل يرون الأنبياء والرسل بمنظار العصبية والهمجية لذلك لا يرون للمبلغ ميزة على الباقين ليختاره الله سفيراً إلى السماء ويفضله عليهم بإناطة مهمة التبليغ إليه.

ولقد حكى القرآن الكريم هذه الظاهرة فقال تعالى معبراً عما تجيش به نفوسهم من هذه النظرة السخيفة: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا

وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾[1].

إذن: فهم يرونه بشراً مثلهم دون أن يكون قد امتاز عليهم بما يجعله مطمحاً للأنظار فلماذا هذه الخصوصية؟

ويواجه المبلغ هذه الطبقة من الناس، فيدّعي أنه رسول الله عليهم ليرشدهم، وعاداتهم الهمجية، وليعبدوا إلهاً واحداً لا شريك له، وفي كل هذا ما يهيج عواطفهم، ويحرك فيهم نعراتهم الجاهلية.

الثاني: إن المبلغ لم يكن يواجه الناس بقانون جاء به هو نفسه ومن حصيلة أفكاره، بل يدّعي أنه مبلغ أمر الله إليهم ومن وراء الغيب ويفاجئهم بذلك على أنه الذي شاءت القدرة الإلهية أن يحظى بهذه الدرجة من التفضيل، وليس هذا من الأمور العادية، بل هو من المناصب الرفيعة التي يتطلع إليها كل أحد لذلك، فإن مثل هذه الدعوى تكون مطمعاً للحصول عليها من قبل من لم يصل إلى هذا المستوى الرفيع، وقد دلتنا الحوادث التاريخية على وجود مثل هذه الدعاوى من قبل الكثير ممن انتحلوا هذه الصفة.

ومن هذا المنطلق، يأتي دور المعجزة ليكون شاهداً على صدق دعوى الصادق من هؤلاء المبلغين، وبها يمتاز الصادق عن الكاذب، ومن هنا كان لا بد على المرسل من تسليح الرسول بما يدعم به دعواه في تحمل هذه السفارة الإلهية، وإلا فيبقى الباب مفتوحاً للتصديق والتكذيب، ولا يمكن أن تقف موجة الشك والتحير إذا فقد عنصر الإعجاز من دعوى النبوة، والرسالات الإلهية.

ونتيجة ملاحظة الحوادث التاريخية لمواجهة الأنبياء إلى البشر بالإمكان أن تقسم الناس وهم يواجهون رسل السماء يبلغونهم الشرائع الإلهية إلى أربعة طوائف:

١ ـ طائفة تؤمن بالرسالة من غير حاجة إلى الإعجاز.

٢ ـ طائفة لا تؤمن مهما قدم النبي لها معاجز وخوارق.

---

(١) سورة هود، الآية: ٢٧.

٣ ـ طائفة تتوقف في إيمانها على تقديم المعجزة.

٤ ـ طائفة تحتاج إلى المعجزة للإطمئنان لا الإيمان.

المؤمنون بالرسالة من غير معجزة:

ويؤمن هؤلاء بالرسالة السماوية من دون أن يطالبوا النبي بتقديم معجزة لصدق دعواه، بل يكفيهم أن يتدبروا حقيقة المبادىء والأسس التي تنهض عليها الشريعة المذكورة وأهدافها السامية. وإذا ما سيطر الإيمان على قلوبهم، وفتح لهم طريق الهداية فإنهم يعلنون تبعيتهم وتمسكهم برسالة الله إلى عباده من دون أن يطالبوا الرسول بما يدعم دعواه، بل هو صادق عندهم، لأنهم تدبروا الدعوة بعقولهم السليمة وجردوا أنفسهم من العصبيات والتقليد الأعمى واتجهوا إلى رسول السماء على ضوء الفكر الصحيح فلمسوا فيما بشرهم به هدفاً سامياً وحقيقة لا بد من اتباعها.

المعجز: ليست له الموضوعية في نفسه، بل له الطريقية إلى صدق مدّعي الرسالة ومع ثبوت الصدق والإيمان الكامل بالدعوة فهل يحتاج هذا البعض إلى ما يحصل لهم شيئاً حاصلاً لهم؟

المنكرون للرسالة:

وهؤلاء هم الطائفة الثانية من البشر، فيواجه الرسول أو النبي هؤلاء، وقد أعمى الجهل قلوبهم وأصم العناد آذانهم فأبوا أن يذعنوا إلى الحقيقة وما تتضمنه الشريعة من أحكام كان الغرض من تشريعها هو إسعادهم في الدارين الدنيا والآخرة، بل تمسكوا بتقاليدهم السخيفة وعقائدهم المضلة لا عن دليل وبرهان بل هو تقليد أعمى لطريقة الآباء والأجداد: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[1]، كل ما عندهم، وما يتذرعون به هو أنهم وجدوا آباءهم معاندين عن اتباع الخير وطريقه. وعلى هذا الخط يسير الأنبياء. أما التدبر والوقوف على حقيقة

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٢٢.

الدعوة وأهدافها السامية فهذا ليس له في حسابهم شيء.

ويشتد استكبارهم، ويتمادون في العناد، والعصبية وإذا بهم يواجهون النبي (ﷺ) في مشهد آخر من هذه المشاهد، ويحكي القرآن ذلك عنهم:

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾[١].

إنها نظرة خاطئة يوجهها هؤلاء المتعصبون، فهم يرون النبي موسى وأخاه هارون يجهران بالدعوة ليقوما بتبليغ الرسالة التي أنيطت بهما، ولكنهم يتصورون أن القضية تعود إلى حساب الشخصية الفردية ليتأثرا بالسلطة، وتكون لهما الكبرياء في الأرض، ولذلك أصروا على متابعة طريقة الآباء راحة لضمائرهم التي خيم عليها الجهل.

وفي مشهد آخر من مشاهد العناد والعصبية نرى القرآن الكريم يعرض صورة أخرى عن هذا النوع من الإنكماش، والتخلف فيقول: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾[٢].

فهم يصرون على عنادهم ويقفون موقف الخصم العنيد منكرين أن يتابعوا الله ورسوله لينشلهم من الضلال إلى الهدى مؤثرين ظلامهم على نور الحقيقة الزاهر.

ولم تقف مشاهد الإنكار عند هذا الحد، بل تأخذ في بعض الموارد شكلاً آخر من التطور حيث لم يكتف المنكرون بالرفض لما ترسله السماء من الخير، بل تحدوا نبيهم بإنزال ما وعدهم به من العذاب: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[٣]. هنالك تحل عليهم لعنة الله وينزل عليهم العذاب لعدم اكتفائهم بالاستهزاء والسخرية وعدم الخضوع بل طالبوا بما كتب عليهم من العذاب الأليم.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٧٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٠.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٧٠.

المؤمنون بالرسالة من وراء شبكة الإعجاز:

وهؤلاء هم الطائفة الثالثة من الناس، وهم الذين لا يذعنون بمبادئ الرسالة، وبما جاء به الرسول إلا من أطار المعاجز، والخوارق فتكون المعجزة دليلاً مقنعاً لهم وعصاً يتوكأون عليها، فيقف الفرد منهم مكتوف اليد لا يحرك ساكناً إلا بعد أن يطلع على الموضوع من منظار الخوارق والمعاجز ليتمكن بواسطتها من الإذعان بأن ما جاء به الرسول حق ليس فيه ريب لأن المعجزة «كما قلنا» تفهم العامة بأن من تسلح بها لا يمثل شخصيته الفردية لمحالية صدور مثل هذه الخوارق من فرد لا يتصل بالسماء، فإن قوى الفرد محدودة، وطاقاته قاصرة عن مثل ذلك، بل لا بد لمن يأتي بهذه الخوارق أعلى من قوى الإنسان ليكون مدعماً من قبل تلك القوة القادرة على إظهار كل فعل يكون موجباً وداعياً للإيمان بما جاء به ذلك النبي الجديد كقلب العصا حية وإحياء الموتى ورد الشمس وما شاكل هذه الأمور التي يقف الإنسان حائراً أمامه، فتكون خير شاهد على صدق مدعي الرسالة وأنها من السماء ولم ينسج أطرافها عقل بشري.

ومن هذا القبيل نرى جماعة السحرة الذين آمنوا بموسى (عليه السلام) فقد دعاهم بادئ الأمر موسى إلى رسالته وترك فرعون وأساليبه المضللة، فكانت مساعيه تبوء بالفشل الذريع عندما يجدهم معرضين عنه وعن رسالته، بل وقفوا موقف العناد وطالبوه بالدليل المقنع ليكون برهاناً على صحة دعواه، ولذلك قال قائلهم:

﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [1].

فهم لا يريدون الدخول فيما يدعوهم إليه إلا أن يشاهدوا آية تبهرهم وتحير عقولهم، ولذلك أجابهم إلى طلبهم ليثبت صدق دعواه بعد تحديهم له بقولهم:

﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ .

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٠٦.

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾[١].

ولم يكتف بذلك، بل عزز معجزته بثانية: ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾[٢].

وعندها اطمأنوا لصدقه وأيقنوا بأن الذي يحدثهم لم يمثل شخصية ليستمد منها قوته الخارقة، والتي أظهرت من العجائب ما تركهم حائرين بل لا بد أن قوته مستمدة من قوة جبارة مدبرة قادرة على كل شيء، وفوق طاقات الإنسان المحدودة.

وإذن، وخضوعاً لصاحب المعجزة: ﴿ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾[٣].

وتركوا العناد واللجاجة متحدين بعملهم هذا فرعون وظلمه معلنين أمام الجماهير المحتشدة: ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٤].

وتثور ثائرة فرعون وهو يشاهد خصمه يتغلب عليه فتنهار أعصابه ويفقد توازنه فيخاطبهم غاضباً: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾[٥].

ويستمر في تهديده، ووعيده:

﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[٦].

ويسقط ما في يده، ويزداد غيضاً عندما يأتيه جوابهم، وهو يصدر عن قلوب مؤمنة بربها: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٠٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٠٨.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٢٠.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٢١.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٢٣.

(٦) سورة الأعراف، الآية: ١٢٤.

جَآءَتۡنَاۚ ﴾[١].

ولم يأبهوا لزعقات فرعون وتهديداته وصيحاته المنكرة الـذي عـرف هـو أيـضاً الحقيقة فأنكرها خوفاً على مركزه وعظمته المزيفة بعد أن آمنوا وأيقنوا بصحة ما جاء به موسى(عليه السلام).

ولكنهم «وفي الوقت نفسه» يعرفون بطش فرعون ويعرفون معه ظلمه وقسوته وهو الذي أمر بذبح كل طفل رضيع حين أخبره العرّاف بزوال ملكه ودنو حتفه على يد مولود جديد سيولد لذلك، وبدافع من الإيمان والعقيدة التجأوا إلى ربهم وبأكف تجللها الضراعة وعيون يملؤها الخشوع توسلوا به أن يهوّن عليهم ما يهددهم به ذلك الجبار العنيد ورددت الشفاه بهمس:

﴿ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴾[٢].

فهؤلاء آمنوا بعد أن كانت المعجزة دليلاً لهم على صدق دعوى ما جاء بـه النبـي موسى(عليه السلام) من رسالة السماء.

من كانت المعاجز تزيده في الإطمئنان:

وهؤلاء هم الطائفة الرابعة من الناس، فالفرد منهم لم ينظر إلى المعجـزة كركيـزة أولية يستند إليها لتحصيل إيمانه بالرسالة ويتدبر أهـدافها الـسامية، ولكنـه يطلـب المعجزة لتكون مساعدة على اطمئنانه وترسيخ عقيدته.

وفي هذا الحال ليست المعجزة عند هؤلاء مما يجلب الإيمان، بل مما يثبـت الإيـمان واليقين، وفرق جلي بين هاتين المرحلتين.

ومن هذا القبيل نرى طلب حواريي عيسى عندما طالبوه بالمعجزة:

﴿ إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٢٥ ـ ١٢٦.

(٢) الآيات الكريمة لقصة موسى(عليه السلام) من سورة الأعراف، الآية: ١٢٦.

ٱلسَّمَآءِ ﴾[١].

إنه لطلب غريب من الحواريين فهم يريدون أن تتحفهم السماء بمائدة شهية تحوي أنواع الطعام، وهو طلب ثقيل يمر على مسامع النبي عيسى (عليه السلام) لأنه يصدر من الحواريين الذين يلمس منهم إيمانهم الصادق به وبرسالته، ولذلك أطلق عليهم اسم (الحواريون). فما الذي حدى بهؤلاء المؤمنين أن يطالبوا بهذا النوع من الخوارق، ولهذا فقد تقدم ليرد عليهم ويحذرهم من مغبة مثل هذه الطلبات:

﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[٢].

فهو إذن يستنكر عليهم أن يطالبوا بمثل هذه الأمور التي لا يطالب بها إلا من لم يؤمن لا من هؤلاء المؤمنين، ولكن جوابهم بعد ذلك جاء ليرفع كلفة التفكير لأنهم بينوا الدوافع التي دفعتهم لمثل ذلك الطلب:﴿ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[٣].

ويستبشر عيسى(عليه السلام) حينما يسمع منهم هذا الجواب لأنه اطمأن بأن أصحابه لم تتزلزل عقائدهم بل إنما بقوا مؤمنين يدعونه مطمئنين برسالته كل ما في الأمر أنهم يطالبون بالمعجزة تثبيتاً لعقائدهم واطمئناناً لما آمنوا به، وأنهم على الحق، وليس في ذلك أدنى منافاة لما هم عليه من التقوى والورع.

وربما أطلق النبي بأفكاره ليرجع إلى الوراء فلماذا يلوم أصحابه بهذا النوع من الطلب ومن قبل توسل خليل الله إبراهيم(عليه السلام) إلى الله بمثل هذا:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾[٤].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٢.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٢.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١١٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

فهذا نبي له مكانته السامية الجلية، ومع ذلك فهو يريد من ربه أن يريه حقيقة الإحياء وبعث الروح في الجسد، ولذلك يسأله الله وهو العالم بما في قلبه والمطلع على ما في ضميره: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾[(١)].

ويأتي الجواب من إبراهيم: ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[(٢)].

فمرحلة الإيمان أمر ومرحلة الإطمئنان والتأكد أمر آخر.

وعندها يتوجه عيسى بأدب وحشمة نحو ربه يطلب منه أن يملأ قلوب أصحابه بالإيمان وينعمها بالعقيدة قائلاً:

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[(٣)].

وتستجاب الدعوة وتلبى هذه الطلبة وتنزل المائدة من السماء وفيها ما لذ من أنواع الطعام، ولكن يسبق ذلك نوع من التهديد: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾[(٤)].

وفي التهديد غلظة وشدة تستدعيه طبيعة الموقف الناجم من تقديم الطلب من مثل حواريي عيسى لا من رجال همج رعاع غير مؤمنين ممن تراجع بعد ذلك، فينال عذاباً لم يعذبه الله أحداً من العالمين. لأنهم مؤمنون حقاً، وقد عرفوا الحق فاتبعوه وطلبوا مشاهدة المعجزة ليحصل لهم الإطمئنان الكامل والتثبت الدقيق فلا عذر لأحدهم بعد ذلك ولا يسوغ والحالة هذه التراجع والشك أو الجحود.

نهاية المطاف:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

(٣) الآيات المتعلقة بهذا الطلب من الحواريين من سورة المائدة، الآية: ١١٤.

(٤) سورة المائدة، الآية: ١١٥.

ومن استعراض هذه الطوائف الأربع ظهر لنا أن احتياج الرسل إلى المعجزة إنما ينحصر لمواجهة الطائفة الثالثة من البشر، وهم الذين يشكلون الغالبية من أنصار الدعوة الجديدة لكل رسول ترسله السماء برسالة مقدسة إلى الأرض.

أما الطوائف الباقية فالمعجزة لا حاجة للأنبياء إليها لمواجهتهم.

فالطائفة الأولى: وهم المؤمنون الراسخون في العقيدة يتبعون الرسول من غير حاجة إلى معجزة وخارقة.

والطائفة الثانية: لا ينفع معهم كل إعجاز بل هم معاندون منكرون حتى ولو أقام النبي لهم الدنيا وأقعدها: ﴿ **وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ** ﴾[1].

وهكذا نراهم ينسبون السكر لأبصارهم ويدّعون أنهم مسحورون ليهربوا من الحقائق التي يواجهونها خوفاً على دين آبائهم وخزعبلات الأجداد من التلف والضياع.

إذن، فلا تأثير للمعاجز بالنسبة لكلتا الطائفتين لعلو مركز الأولى وتردي مركز الثانية. وحينئذٍ فينحصر تأثيرها بالنسبة إلى الطائفتين الثالثة والرابعة، وطبيعي أن الحاجة إلى الطائفة الثالثة أشد منها بالنسبة إلى الطائفة الرابعة، لأن تلك تحتاج المعجزة لتؤمن، وهذه تحتاجها لتطمئن، وكم فرق بين الاثنين.

فالمعاجز بعد هذه لازمة ليتم بواسطتها إقناع أكبر عدد ممكن من الأمة التي يحل النبي بين ظهرانيهم ليشرع بتطبيق أوامر السماء في أرض الله الواسعة.

---

(١) سورة الحجر، الآيتان: ١٤ و١٥.

أنوار الإمامة[1]

شخصيات عظيمة عقم الدهر أن يلد مثلها وقادة أبطال تضاءلت البطولة أمامهم. إنهم فوق البطولة وفوق العظمة.

لقد افتخر الإسلام بهم ورفعوا ذكره عالياً في سماء الفخار وتمثل الإيمان فيهم فكانوا عنواناً منيراً له أناروا مسالك العقيدة فاهتدى بنورهم كثير وكثير.

هذه سجلات الإسلام زاخرة بالبطولات ممن ناضلوا وجاهدوا في سبيل إعلاء كلمة الإسلام فكانت نتيجته الرفعة والعظمة.

والتأريخ بين أيدينا يحدثنا عن هذه المجموعة من الرجال الذين كتب لهم أن يتمتعوا بشهرة واسعة وشخصية ذات نفوذ.

ولكنها لما كانت على غير الحق سرعان ما تناستها الأيام وألقت عليها ستاراً تركها في عداد المنسين ولم يكتب لها أن تخلد كما خلد أولئك الذين مضوا فأعقبوا سفراً جليلاً يشيد بخدماتهم القيمة للإسلام وللبشرية جمعاء.

فما الذي أوجب تركيز هذه الشخصيات التي بقيت وكأنها لم تمت باقية ما بقي الليل والنهار خالدة رغم مرور العصور والأزمنة؟

إنه التجرد للمبدأ الحق والعمل المتواصل لرفع راية الإسلام، وإنه التفاني في سبيل الإنسانية والخدمة من أجلها. إن هذه العوامل كانت داعية لأن يحافظ أولئك الأبطال على شخصياتهم المرموقة فلم يتمكن الموت من إطفاء ذلك النور بعد أن بقيت حياتهم وخدماتهم الدينية أفواهاً ناطقة تعبر عن نضال مستمر في سبيل العقيدة وعن مدى جهودهم المتواصلة من أجل الحق.

---

(١) ألقيت يوم ٣٠/ جمادى الثانية/ ١٣٧٥هـ.

وينعكس الأمر بالنسبة لتلك الشخصيات التي حدثنا التأريخ عن انقياد الأمور إليها فنالت شهرة واسعة النطاق ولكنها كانت شخصيات مؤقتة سرعان ما انطوت معهم شهرتهم وبقيت صحائفهم السوداء تلطخ جبين الدهر عاراً وشناراً وتنشر فضائحهم وتلعن ضررهم على الإسلام وأهله حتى كانت يد الموت قد أسدت خدمتها المشكورة للإسلام يوم اختطفت أولئك النفر الذين لم يكن همهم إلا المتاجرة باسم الإسلام والنهب باسم الشريعة المقدسة، وإذا بالإسلام ينفض يديه منهم ويود لو لفهم الموت بشراعه من قبل ليستريح منهم ومما جرّوا عليه من الويل والثبور.

وعلى مبدأ التجرد للعقيدة والتفاني في سبيل إعلاء كلمة الإسلام انتقل الإمام أبو الحسن الهادي(عليه السلام) من مهبط الوحي فحلّ بهذه البقعة التي كتب لها التأريخ أن تكون مهبط الوحي ومصدر الهداية وملجئاً لمنقذ الشريعة من مخالب الضلال. فما الأهل وما الأصدقاء وما الوطن وإن كان عزيزاً عليه أن يفارقه كل ذلك ولكن التدهور الخلقي والتفسخ الاجتماعي الذي بلغ أوجه في ذلك العصر كان باعثاً لأن يتخذ من هذه المدينة مأوى يلجأ إليه «ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر» و «يقيم العدل وينشر الحق» و «يهد ركائز الجور» إنها قوة اليقين وثبات العقيدة الراسخة تدع الإمام(عليه السلام) يخرج بنفسه وحيداً فيقاتل جيوش الظلم والفساد ويقف أمامها بكل قوة وعزيمة ويتذرع لها بالصبر والإيمان.

ويمر الزمن وإذا بجيوش الحق ترفرف أعلامها منتصرة: ﴿وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾(١)، فقد وجد الإسلام في شخصية الإمام أبي الحسن الهادي (صلوات الله عليه) خير ناصر ومعين وتندحر جيوش الباطل أمام هذا الجيش القوي الذي تجمع في شخصية ذلك المصلح العظيم.

ويقف خصماؤه، وقد أخرسهم الخطب وأعمت عيونهم براهين الإمامة وأنوارها الساطعة فلم يروا لمعالجة الموقف خيراً من طريق الاغتيال، وشأن الجبان ذلك إذا أعيته

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٢.

الحيل فيلجأ المتزلفون عندها إلى السلطة الحاكمة ليحيكوا أمراً دبر بليل.

وينشر صباح اليوم الثالث من رجب أضواءه الرتيبة وتشرق الشمس حزينةً كسيرةً وإذا بالمصلح العظيم قد انتقلت روحه الطاهرة إلى فردوسها الأعلى بعد جهاد طويل، ولكن الموت لم يقوَ على إطفاء ذلك النور الذي أبى الله إ لا أن يتركه نبراساً لعباده فبقيت أعماله وقد نشرتها صحائفه البيضاء تدل الملأ على شخصية الراحل الكريم وتعبر لهم عن أسمى معاني الفضيلة والرجولة في ميدان الكفاح وخدمة الإسلام كما انتشرت صحائف أعدائه الذين سمحت نفوسهم الرذيلة بمحو ما أراد الله أن يظهره فبقيت بين الناس دليلاً ناطقاً على خزيهم وتخاذلهم أمام آيات الله وأنواره المتلألئة.

ولكن بعين الحقيقة لاحظ لترى الحق و﴿ٱلْحَقُّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ﴾. فمن حياة الإمام أبي الحسن الهادي(عليه السلام) لا بد لنا أن نستفيد العبر ونأخذ الدروس لنرجع بالنفع على الإسلام وأهله.

ومن حياة المصلحين يجب أن نقتبس سيرتنا ونسير على ذلك الهدى لنؤمن لنا عيشاً رغيداً تضلله النظم الإسلامية وتسوده الأخلاق الفاضلة التي طبقها الإمام الهادي(عليه السلام) لنهتدي بنور الحق ونبتعد عن سنن الضلال.

إن أهل البيت (عليهم السلام) خلّفوا لنا دروساً مثالية يجب أن نسير عليها ونتخذ بواسطتها ما يعود نفعه لصالح المجتمع الإسلامي، ويا للأسف نحن نجتمع ونتفرق كأن لم يكن في البين عين ولا أثر ولا نهتم إلا بالأمور الوقتية والخلافات الزمنية.

هذه الاجتماعات التي حرص الإسلام عليها ورعاها بعين الاعتبار تحصل لنا ولكننا لا نلتفت إلى قيمتها ونفاستها وما يجب علينا أن نطبقه في هذه الفرص السعيدة. إن الحج وصلاة الجمعة والعيدين وما شاكلهما لم تكن همة المشرع الأعظم بالنسبة إليها أن يهرول الناس بين الصفا والمروة محرمين أو ينتظم الجميع في صف واحد وبعدها يتفرقوا كأن لم يكن شيئاً مذكوراً بل إنما هي قيم مثالية لحفظ المجتمع الإسلامي وإعلاء كلمته.

إن الإسلام يريد الألفة والأخوة والمشاورة والاهتمام بشؤون المسلمين وما يعود على الإسلام من النفع وهذا الاجتماع فرصة ثمينة تمكن من اجتماع الأخوة لتتحد الكلمة ويتآزر الكل في ظل راية الإسلام.

ولكننا ويا للأسف نرى هذه الفرص الثمينة تمر مرّ السحاب دون أن نغتنمها ونعيرها أي اهتمام وكأننا في سبات عميق.

أهذه الغاية التي لأجلها سار الإمام الراحل وناضل حتى انتقلت روحه المقدسة إلى جنانها الفسيحة وهل اتخذنا من يوم وفاته لقاء نتزاور فيه فقط؟

إننا أصبحنا وقد أعرضنا عما سار عليه الراحل الكريم وسعى لأجله وأفنى حياته في سبيل تطبيقه. وحري بالنجفيين أن يتمسكوا بسيرة الأئمة (عليهم السلام) لأنهم أولى بتطبيق سيرتهم من غيرهم وهم قبلة أنظار العالم ومطمح الوافدين من أقطار الأرض لمجاورتهم للمصلحين الذين ما فتروا عن تطبيق النظم الإسلامية والأخلاق الفاضلة. فحري بالجار أن يكتسب من جاره كلما يصونه وينزهه وأن يطبقوا تعاليم الإسلام على أدق تطبيق.

وباسم العقيدة والولاء أتجه هذا الركب من بلد أبي السبطين(عليه السلام) ليقيم شعاره السنوي في تأبين أبي الحسن الهادي(عليه السلام) وليحيي ذكرى انتقاله إلى الفردوس الأعظم وليقدم بهذه المناسبة المؤلمة تعازيه إلى أبنائه الأماثل الذين قاموا بواجب الضيافة من خدمات جليلة مشكورة إزاء إخوانهم النجفيين.

فباسم النجف وأهاليه أتقدم بالشكر إلى أهالي سامراء على اختلاف طبقاتهم وإلى الحق نبتهل أن يجعل من لقائنا السنوي مهبطاً للهداية والوحدة والوئام.

والله من وراء القصد.

أشعة من حياة الإمام الهادي(عليه السلام)[١]

بدافع الولاء والعقيدة يمّمت الجماهير الثكلى «سر من رأى» يحدو ركبها الإخاء الصميم لتشارك أبناء هذا البلد الأمين مصابهم الجلل ورزءهم الفادح، فخفقت الأعلام السود لتعبّر في رفيفها عن الأسى والألم لهذه الفاجعة التي روع بها العالم الإسلامي في مثل هذا اليوم.

فها هي ذا شمس اليوم الثالث من رجب تبزغ من مشرقها الكئيب حمراء قاتمة كأنها هي الأخرى قد اصطبغت بالفاجعة الكبرى يوم اقتضت المشيئة الإلهية أن يودع الإمام «أبو الحسن الهادي (عليه السلام) » هذا العالم بعد أن أدى واجبه كأحسن ما يؤديه أمين لله تعالى ليبث أحكامه ونشر تعاليم الدين الإسلامي الحنيف.

إذن: فالواجب يفرض علينا ونحن في هذه العجالة أن نلاحظ الدواعي التي حدت بالإمام(عليه السلام) أن يترك مهبط الوحي المبين ومرقد سيد المرسلين ليتغرب عن الوطن العزيز ليجدّ السير نحو هذه البقعة.

إن للمسؤولية قيمتها في نفس الإمام(عليه السلام) وهو الذي شبّ وترعرع في المدرسة التي أسسها وأدار شؤونها العالية جده الرسول الأمين(صلى الله عليه وآله) ثم أشرف عليها آباؤه المعصومون من بعده إماماً بعد إمام فتأثر بسيرتهم وبالحياة التي كان يحياها كل منهم من العبادة والزهد والعلم والذب عن الدين والمحافظة على التعاليم الإسلامية. أفلا يحق له وقد انتهت إليه نوبة الإشراف على هذه المدرسة العالمية التي تقوم على الهدى والصلاح أن يغامر كما غامر آباؤه وأجداده من قبل في سبيل الله.

فها هو ذا يرى الواجب يحتم عليه مفارقة الوطن ليتدارك شريعة جده وليقيم

---

(١) ألقيت في ذكرى استشهاد الإمام الهادي (عليه السلام) في سامراء.

الاعوجاج الخلقي في الناس وينشر ما خفي وضاع من الأحكام ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ومن لهذه وسواها غيره(عليه السلام) وقد اختاره الله إماماً لعباده وهادياً لهم ومبيناً سنن الحق من الضلال.

إننا إذا ما تجردنا عن الميول السلبية التي تأثرنا بها من مجتمعاتنا المختلفة وحكّمنا عقولنا الحرة ثم لاحظنا الإمامة لرأيناها كالنبوة لطفاً من الله تبارك وتعالى أليس من الضروري أن يكون كل عصر إمام هاد يخلف النبي(صلى الله عليه وآله) في جميع وظائفه من هداية البشر وإرشادهم إلى ما فيه الخير والصلاح والسعادة في الدارين؟

أضف إلى ذلك، أن له الولاية العامة على جميع الناس لتدبير شؤونهم ورعاية مصالحهم وتجنبهم عن المضار الدنيوية والأخروية، بل هو مكلف بإقامة العدل ورفع الظلم والجور.

وبعبارة أخرى: إنه ينوب عن النبي(صلى الله عليه وآله) في تدبير شؤون الناس.

عفواً أيها الأحبة، لست في صدد بيان أن الإمام(عليه السلام) هو الخليفة الشرعي للنبي(صلى الله عليه وآله) وهو الذي يكون أهلاً لتلقي السلطة الإلهية لما حباه الله من عصمة وعلم في الدين، وأدب كامل في الحكمة، وزهد بالغ في الدنيا، وورع تام عن الشهوات، فإن هذه الأمور نور مضيء في ذمة التاريخ، فإن في تصفح سجلاته ما يغني البصير عن الكلام بل الذي يهمني ذكره هو أن الإمام(عليه السلام) يوم رأى نفسه وقد آل إليه الأمر بعد وفاة أبيه الجواد(عليه السلام) ورأى الناس مع ما هم فيه من الفساد وتردي الخلق ونبذ أحكام الله وترك أوامره وهذه سامراء في إبان سطوعها قد نازعت بغداد فتلقفت الخلافة منها بالناس وتوجهت إليها الأنظار وبطبيعة الحال شاعت المنكرات وعمّ الفساد تبعاً للاختلاط والإهمال، رأى الإمام(عليه السلام) ذلك كله وأكثر منه، لهذا وجد إنقاذ الدين من مخالب الضلال أولى من مجاورة مدينة سيد المرسلين ومهبط الوحي المبين لو تخلف عن طلب الخليفة القسري.

وتمر الأيام بطيئة السير ثقيلة الظل وإذا بسامراء تحتضن سبط المشرع الأعظم فيتفرغ من يومه لبث كلمة الحق ويناضل لإعلاء كلمة الإسلام والتمسك بتعاليمه

وإرشاداته القيمة فيلتف حوله جمع كثير أدركتهم الهداية فساروا على منهاجه وأخذوا منه الأخلاق الفاضلة والعلوم النافعة.

ولم يتوان عن واجبه المقدس إلى أن اختاره الله إلى جواره فلبت نفسه الزكية نداء الحق فارتفعت لفردوسه الأعلى راضية مرضية.

هذه حياة الإمام(عليه السلام) كلها نضال وجهاد في سبيل إعلاء كلمة الإسلام وترقية مستواه، حياة عبّر فيها عن الكفاح في ميدان العمل، حياة لم تجد إلى الراحة سبيلاً.

أفلا يجدر بنا ونحن في هذه الظروف العصيبة والذي بلغ بنا التدهور أقصاه أن نستفيد من سيرة هذا المجاهد العظيم ونستضيء بهذا القبس الوهاج لنشق طريقنا إلى الأمام ونبدد بنور سيرته هذه الظلمة الحالكة التي اكتنفنا من كل جانب ونسير على منهاجه سيرة تكفل لنا الحياة الهانئة والعيش الرغيد.

إلى متى هذا التخاذل وهذا الضعف والمستغلون يستغلون الفرص لبث الفوضى وتشويه الواقع ونحن لا نزال نتلذذ بسنة الكرى ولذة النوم؟

إلى متى والجهل والفقر قد أنشبا مخالبهما في هذه الأجسام الضعيفة المريضة التي لا قوة لها على المكافحة والمقاومة؟

فهيا بنا يا أخي المسلم لنتماسك ونكون كالحلقة المفرغة لا مجال للمغرضين من فصمها وحلها وإذا كنا كذلك فإن لنا لكبير أمل في ترقي مجتمعاتنا الإسلامية وبناء ثقافة عالية تزخر بالخير والصلاح.

ولأي ذنب ينال هذا الوطن العزيز الأمرين من اختلافاتنا المذهبية التي لا تقف حاجزاً في طريق سير العمل والتقدم إلى الأمام.

هبنا نختلف في بعض المسائل الفرعية ولكننا نتفق جميعاً في جلب ما يعود إلى الوطن من الخير فما يضرنا لو اتفقنا ووقفنا متكاتفين تربطنا أواصر الدين الإسلامي الحنيف؟

إذن: مدّ يدك لأعاهدك وتعاهدني على أن نتفق في الذب عن وطننا العزيز وعن

إخواننا المسلمين الذين يلاقون الأمرين من التشديد والتعذيب كما هو حال إخواننا اللاجئين.

وها هي راية أبناء علي (عليه السلام) رفرفت في سماء بلدك المقدس يهتف شعارها بالوحدة والأخوة.

إذن: فلم لا نستغل هذه الفرصة المؤاتية لنشق في ضوئها الطريق على صفاء النية وتقارب القلوب والاجتناب عن القيل والقال ونبذ ما يشيعه المغرضون من الطائفيات المفضوحة.

إنني لأُقدر هذه الحفاوة التي لاقيناها من إخواننا المسلمين تتفتح لها صدور المؤمنين وتنكفيء فيها وجوه المضلين.

وإنني بلسان الجميع لأشكر ذلك بملء قلبي وأسأله تعالى أن يجعل التجمع السنوي الطيب مهبطاً للهداية والوحدة والإخاء.

من وحي الذكرى[1]

على اسم الله ويحدوها الولاء وتخفق أعلام الغري في سماء سامراء والجموع المثكولة يدفعها داعي الأخوة والألفة نحو هذا البلد الأمين لتشارك أشبال الهادي(عليه السلام) المصاب الأليم.

ولأغراض سياسية يختار الخليفة العباسي هذه المدينة سامراء مقراً لخلافته وعاصمة لملكه وسرعان ما تتحقق الفكرة وتظهر إلى حيز الوجود، ولم لا تتحقق أمنياته وبيت المال يغص بموارده وتنشأ «سر من رأى» مدينة جميلة تضاهي بجمالها عاصمة الرشيد وتتوافد الجموع على هذه البلدة الحديثة وتعج بالساكنين وتزخر بألوان من الناس، وينشأ من هذا التزاحم تطرف وانغماس في الملذات والحكومة الوقتية قد انشغلت عن إدارة الأمة بتدبير أمورها وترتيب جندها وإصلاح حال جيشها.

وكان الإمام الهادي(عليه السلام) قد تلقى المسؤولية العامة في إمامة الأمة بعد وفاة أبيه الجواد(عليه السلام) وكان رئيساً عاماً وإماماً على الجميع يجب أن يرعى هذه الأحوال ويلاحظ الموقف بدقة، وما الفائدة من السكوت والباطل قد علت كلمته واستحكمت شوكته والمشعوذون قد استغلوا الفرصة المواتية لهم لتفريق الكلمة وتفكيك عرى الاتحاد، وكان للجيش التركي الذي اعتمد عليه الخليفة آنذاك الأثر الفعال في إثارة الفتن والمنكرات فقد كان يتعصب لعنصره ورفع شأنه ويحاول إذلال العرب والفرس معاً كما يقول «الدكتور أحمد أمين» وفعلاً فقد تمّ له ذلك فكثرت في تلك ايام الفتن والوقائع وصادروا أموال الناس ولم يكتفوا بذلك بل إن شدتهم مكنتهم بعد وفاة الإمام الهادي(عليه السلام) من قتل المتوكل نفسه، وعلى أي حال فقد

---

(١) ألقيت في الاحتفال الكبير الذي أقامه النجفيون في مدرسة الإمام الشيرازي يوم وفاة الإمام علي الهادي (عليه السلام).

اجتمعت كلمة المهرجين على العبث بشؤون الإسلام الذي لم يبقى منه إلاّ اسمه لذلك رأى الإمام (عليه السلام) من الواجب أن يسير نحو مقر الخلافة ليقيم ما أعوج من الدين ولإصلاح شأن المسلمين ما استطاع من ذلك.

ومن العسير على أبي الحسن(عليه السلام) أن يفارق مدينة جده النبي(صلى الله عليه وآله) مهبط الوحي الأمين إلاّ أن الرسالة أعظم من ذلك وأسمى معنى ولا بد له من الشخوص نحو تحقيق هدفه السامي الذي انتدبهم الحق لهذا الغرض. ويصل موكب الإمامة سامراء والناس عاكفون على شؤونهم فيستمر في نشر العدل وإقامة أسس الإصلاح وتأدية رسالة جده كأحسن ما يؤديها رسول أمين.

وتمضي الأيام طويلة وتمر الليالي ثقيلة السير حافلة بالمآسي والآلام التي مثلت على مسرح الأمة. وبالنتيجة يتغلب الحق على الباطل ويعيد التاريخ نفسه وإذا بسامراء مدينة المتوكل مهبط الوحي والتنزيل ومرقداً للإمام(عليه السلام).

هذه حياة أمتنا كلها صور تمثل النضال في سبيل الحق وإعلاء كلمته ورفع راية الإسلام: صور تعبر عن الكفاح في سبيل الدين بأجلى معانيه الصادقة.

وحري بنا أن نستفيد من تلك الصور ونتخذها دروساً قيّمة ننظم عليها حياتنا العامة وعلى الأخص في هذه الظروف الراهنة العصيبة التي أخذت تلعب بنا يد المستعمر الغاشم حسب إرادته ومشيئته فالفقر والجهل يستوليان على هذه الأمة المسلمة المسكينة التي فقدت شوكتها القوية وسطوتها المرهوبة يوم كان الإسلام يضرب بجناحيه على ثلاثة أرباع المعمورة ويوم كان المسلمون متفقين في الكلمة متآزرين يداً واحدة ومتمسكين بالمبدأ الإسلامي وبتعاليمه وإرشاداته الثمينة.

ويا للأسف أن تضعف تلك الشوكة وينهار ذلك الصرح العالي نتيجة للتفرق والانشغال بالسفاسف والاختلافات في بعض الفروق التي لا يتوقف عليها الإسلام، ومن هذه الثغرة وجد المستعمر المجال الذي طالما حدّث نفسه على حصولها فلم يترك الفرصة تذهب سدى بل استغلها بدقة ومهارة وهو الخبير «من أين تؤكل الكتف»، وكانت مادة ـ فرق تسد ـ منهاجاً يسير عليه فيستمد منها وحيه فإذا الإسلام بين عشية وضحاها يصبح غرضاً تتلاعب به الأوغاد والخونة حسب

مصالحهم الاستعمارية.

إذن: فالواجب يحتم علينا، أن نلتفت إلى إصلاح حالنا وأن نتحد لنقف سداً منيعاً أمام المهرجين من الأجانب ولنترك الأمور الجزئية المختلف فيها ما دمنا متفقين في الأمور العامة ولنتخذ من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [1] دليلاً نسير على ضوئه ونسلك على هذاه وإذا تمكنا من تحقيق تلك الوحدة فلم يبق حينئذٍ مجال للمغرضين والدساسين أن يعبثوا بهذا العقد المنضد ويفصموا عرى هذا الرباط المقدس الذي يربط المسلمين بأسرهم.

وحسبنا أيها الأخوان، ما مثلت على مسارح بلدنا العزيز من المسرحيات الاستعمارية التي طوحت بكياننا الرفيع: فلنعاهد الله إذن على أن لا ندع لهذا مجالاً في المستقبل قط إذ من الوهن والقبح علينا أن نشغل أنفسنا بهذه الجزئيات في الوقت الذي يعاني فيه أخواننا المسلمون في بقاع الأرض امرين وجدير بنا أن نجمع كلمتنا لنتمكن من مكافحة هذه التيارات الجارفة التي هدمت كياننا وفرقتنا أيدي سبأ.

أيها الأحبة:

وهذه بوارق الوحدة لاحت في الأفق السعيد تحمل بين طياتها كل ما في الخير من معنى يعود على الأمة الإسلامية بالنفع فقد رفرفت رايات أبناء علي الأباة في سماء مدينة العسكريين (عليهما السلام) لتعزي أشبال الإمام أبي الحسن(عليه السلام) الأماجد وها هم أبناء المدينة يستقبلون ضيوفهم برحابة صدر ودماثة خلق فليراع الله هذه الوحدة المطلوبة التي تعيد لنا مجدنا الضائع وعزنا المفقود.

وليكن كل منا واثقاً أننا بهذا التزاور وهذه الاجتماعات نقف سداً منيعاً خطيراً في وجه العدو وإيقاف حركاته العدوانية فحيى الله هذه الأمنيات الموفقة.

وفي الختام، أغتنم هذه الفرصة لأعبر عن شكرنا لإخواننا الأعزاء أبناء سامراء الكرام لما لاقيناه منهم من حفاوة كبيرة ولا عجب فهم مهبط الخلق الفاضل ومعدن الشرف الرفيع.

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٠.

مع الخطبتين الخالية من الألف وغير المنقطة

العرب أهل البلاغة والفصاحة وبلغتهم نزل القرآن الكريم وشهدت لهم بذلك المعلقات وسوق عكاظ وأندية الجزيرة العربية، وقد حدثنا التاريخ عن كثير ممن نبغوا في صياغة اللفظ وجودة المعنى وحسن الالتفات بشكل رصين ومتين.

ويأتي في مقدمة هؤلاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) فخطبه وكتبه وكلماته القصار وحكمه ونصائحه وما تتضمنه هذه المجموعة من المعاني السامية والحكم والمواعظ وتناولها لشتى المواضيع الروحية والاجتماعية والحكمية كلها صور حية وواضحة تعكس قدرته الخارقة في هذا المضمار، فليس بالكثير على أمير المؤمنين(عليه السلام) أن يدون التاريخ له خطبتين: **إحداهما**: خالية عن الألف، وأخرى: غير منقطة.

فلماذا هذا الاهتمام وهذا التعظيم؟

وتأتي الإجابة على ذلك، بأن الإعجاز وكل هذا الاهتمام لا يمكن في هاتين الخطبتين من حيث أنهما تمتازان بهذه الصفة من خلو الألف والنقطة فقد ينظم الأديب أو الكاتب أو الشاعر قطعاً كلامية أو شعرية تحتوي على كثير من هذه الأمور. وفعلاً فالمكتبة الأدبية تزخر بأنواع من ذلك، وقد يجد المطالع كتاباً يضم القصائد الرائعة بحيث تحتوي القصيدة الواحدة على عدة مواضيع فلو قرأت بيتاً بيتاً كانت تعطي معنى من المعاني، و لو قرأت كلمات كل بيت طولاً لأعطت موضوعاً آخر، ولو قرأت زاوية لظهر لنا موضوع جديد وهكذا، ولكن كل ذلك حيث يكون الكاتب أو الشاعر في متسع من الوقت وفسحة من التفكير فليس ذلك بمعجز يستحق فاعله تعظيماً فائق النظر وإن كان يستحق التقدير، بل الإعجاز بالنسبة لهاتين الخطبتين يكمن في هذا الانبثاق الفكري والومضات السريعة بالارتجال وعدم

الإعداد المسبق لإلقاء هاتين الخطبتين.

ولنستمع إلى راوي الخطبة الأولى أبي صالح حيث يقول: جلس جماعة من أصحاب الرسول(ﷺ) يتذاكرون فتذاكروا الحروف الهجائية وأجمعوا على أن حرف الألف هو أكثر دخولاً في الكلام فقام أمير المؤمنين علي (رضي الله عنه) وارتجل هذه الخطبة الخالية من الألف.

(تذكرة الخطبة):

فهي بمجموعها كلماتها السبعمائة اشتملت على عشرة مواضيع مترابطة فيما بينها تنقّل فيها أمير المؤمنين(عليه السلام) من حمد الله والثناء عليه وتمجيده ببيان صفاته التي لا يشاركه فيها أحد إلى حثّ من حضره إلى اغتنام الفرصة فأعطى صورة حية عن الأدوار التي يمر بها الإنسان وهو في عنفوان شبابه وكمال عافيته من ثم تدرجه في العمر كهولة وشيخوخة ومضياً وموتاً وما يعقب الموت من صور رهيبة للقبر وما يؤول إليه هذا الجسم من صيرورته لقمة للديدان، وبعد ذلك كانت نقلته (عليه السلام) إلى إعطاء صورة محزنة ليوم الحشر يوم يقف العبد بين يدي ربه ليحاسب عما جنته يداه في ما آتاه إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وبعد الحساب، عرض (عليه السلام) صورة أخرى عن مسيرة الخاسرين إلى جهنم وما تتضمنه جهنم من أهوال ومنظر آخر عن المؤمنين الأخيار وهم يزفون إلى الجنة بأنهارها وأشجارها وثمارها وحورها.

ثم يختم خطبته بالحث على التضرع إلى الله سبحانه ليغفر لمذنبهم ويزيد في إحسان المحسن.

الخطبة الخالية من الألف[1]:

وهَي خُطْبةٌ رواها كثيرٌ من الناس لـه(عليه السلام) خاليـةٌ مـن حـرْف الألـف؛ قـالوا: تذاكر قوم من أصـحاب رسـول الله(صلى الله عليه وآله): أيُّ حـروف الهجـاء أدخَـل في الكـلامِ؟ فأجمعوا على الألف، فارتجل الإمام عليٌّ(عليه السلام) هذه الخطبة المونقة:

«حَمِدْتُ منْ عظُمت مِنَّته، وسبَغَت نعمتُه، وسبقَت غضبَه رحمتـهُ، وتمـت كلمتُـه، ونفذتْ مشيئتُه، وبلغت قضيَّتُه؛ حَمِدْتُه حمد مُقِّر بربوبيته، متخـضِّعٍ لعبوديَّتـه، متنـصِّل مِن خطيئته، متفرِّدٍ بتوحيدِه، مؤمِّلٍ منه مغفرةً تُنجيه، يومَ يُشغلُ عن فصيلتِهِ[2] وبنيه».

«ونستعينهُ ونسترشدُهُ ونستهديه، ونُؤْمِنُ بِهِ ونتوكَّلُ عليه، وشـهدْتُ لـه شـهودَ مُخْلصٍ موقنٍ، وفرَّدْتُهُ تفريد مُؤْمَنٍ مُتيقنٍ، ووحَّدْتُهُ توحيـد عبـدٍ مـذعنٍ، لـيس لـه شريكٌ في مُلكهِ، ولم يكن له وليٌ في صنعه، جلَّ عن مشيرٍ ووزيرٍ، وعن عـونِ مُعـينٍ ونصيرٍ ونظيرٍ».

«عَلِمَ فستر، وبطن فخبر، وملكَ فقهر، وعِصيَ فغفَر، وحكم فعدلَ، لم يزلْ ولن يزولَ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ﴾[3]، وهو بعد كـلِّ شيءٍ ربٌّ متعـزِّزٌ بعزَّتـه، مـتمكِّنٌ

---

(١) أن تكون الخطبة ـ أي خطبة ـ خالية من حرف هو أكثر الحروف دخولاً في الكلام ـ كالألف ت هـذا أمر طريف ونادر حقاً. ولكن الأطرف والأغرب في هذه الخطبة ـ المعروفة بالمونقة ـ والتي تليهـا، أن الإمام علي(عليه السلام) ارتجلها ارتجالاً، أي أن الإعداد والإلقـاء كانـا في وقـت واحـد. وبعبـارة أخـرى: ارتجلها من غير سابق فكر، ولا تقدّم رويّة. وهذا الأمر لا يصدر إلاّ من رجل عظيم (وهو الإمـام)، تمكّن من العلوم ومنها البلاغة. وكيف لا يكون كذلك وهو الـذي قـال: «لـو كُـشف لي الغطـاء مـا ازددت يقيناً».

(٢) فصيلته: عشيرته، ورهطه الأدنون إليه.

(٣) سورة الشورى، الآية: ١١.

بقُوَّتِهِ، متقدِّسٌ بعلوِّه، متكبِّرٌ بسموِّهِ، ليس يدركه بصرٌ، ولم يُحُط به نظرٌ، قويٌّ منيعٌ، بصيرٌ سميع، رؤوفٌ رحيم».

«عجز عن وصفه من يصفُهُ، وضلَّ عن نعته من يعرفه».

«قرُبَ فبعُدَ، وبعُد فقرُب، يُجيب دعوةَ من يدعوه، ويرزقُهُ ويحبوه[1]، ذو لطف خفِيٍّ، وبطش قويٍّ، ورحمة موسعة، وعقوبةٍ موجعةٍ، رحمته جنةٌ عريضةٌ مونقةٌ[2]، وعقوبته جحيمٌ ممدودةٌ موبقةٌ».

«وشهدتُ ببعث محمدٍ رسولِهِ، وعبدِهِ وصفيِّهِ، ونبيِّهِ ونَجِيِّه، وحبيبه وخليله، بعثه في خيرِ عصرٍ، وحين فترةٍ وكفرٍ، رحمةً لعبيدهِ، ومِنَّةً لمزيدِهِ، ختم به نبوَّتهُ، وشيَّد به حجّته، فوعظ ونصح، وبلّغ وكدح، رؤوفٌ بكل مؤمنٍ، رحيمٌ سخيٌّ، رضيٌّ وليٌّ زكيٌّ، عليه رحمةٌ وتسليمٌ، وبركةٌ وتكريمٌ، منْ ربٍّ غفورٍ رحيمٍ، قريبٍ مجيبٍ».

«وصَّيْتُكُم معشرَ منْ حضرني بوصيَّةَ ربِّكُم، وذكَّرتكُمْ بسنَّةِ نبيِّكُمْ، فعليكم برهبةٍ تسكُنُ قلوبكم، وخشيةٍ تُذْري دموعكم، وتقيَّةٍ تنجيكم قبْل يومٍ تُبليكم وتذهلكم، يوم يفوز فيه من ثقل وزن حسنته، وخفَّ وزنُ سيِّئته ولتكُنْ مسألتكم وتملُّقكُمْ مسألة ذلٍّ وخضوعٍ، وشكرٍ وخشوعٍ، بتوبةٍ وتورّعٍ، وندمٍ ورجوعٍ، وليغتنمْ كلُّ مغتنِمٍ منكُمْ صحَّتهُ قبل سقمه، وشبيبته قبل هرمه، وسعته قبل فقرهِ، وفرْغَتِه قبل شغله، وحضره قبل سفره، قبل تكبُّرٍ وتهرُّمٍ وتسقُّمٍ، يملُّهُ طبيبُهُ، ويعرِضُ عنهُ حبيبهُ وينقطع غمدُهُ، ويتغيَّر عقلُه، ثم قيل: هوَ موعُوكٌ، وجسمُهُ منهوكٌ، ثمَّ جُدَّ في نزعٍ شديدٍ، وحضرَهُ كلُّ قريبٍ وبعيدٍ، فشخص بصرُهُ، وطمح نظرُهُ، ورشَحَ جبينُهُ، وعطف عرينه، وسكن حنينهُ، وحزنتْهُ نفسهُ، وبكتهُ عِرْسُهُ، وحُفِرَ رمْسهُ، ويُتِّمَ منه ولدُهُ، وتفرَّق منهُ عددُه، وقُسِمَ جمعُه، وذهبَ بصرُهُ وسمْعُهُ، ومدِّد وجرِّدَ، وعُرِيَ وغسِلَ، ونُشِّفَ وسُجِّيَ، وبُسِطَ له وهيِّيءَ، ونُشر عليه كفنُهُ، وشُدَّ منه ذقْنُهُ، وقُمِّصَ

---

(١) يحبوه: يعطيه بلا جزاء.

(٢) مونقة: حسنة عجيبة.

وعمَّم، ووُدِعَ وسلَّم، وحُمِلَ فوقَ سريرٍ، وصُلِّيَ عليه بتكبيرٍ، ونُقِلَ من دُورٍ مزخرفةٍ، وقُصُورٍ مشيَّدةٍ، وحُجرٍ مُنجَّدةٍ، وجُعلَ في ضريحٍ ملحُودٍ وضيقٍ مرْصودٍ، بلبنٍ منضُودٍ، مُسقَّفٍ بجُلْمودٍ، وهيلَ عليه حفْرُهُ، وحُثِيَ عليهِ مدَرُهُ، وتحقّق حِذْرُهُ، ونُسيَ خبرُهُ، ورجع عنه وليُّه وصفيُّه، ونديمُهُ[1] ونسيبُهُ، وتبدَّل به قرينه وحبيبُهُ، فهو حشو قبرٍ، ورهين قفرٍ، يسعى بجسمه دود قبرِهِ، ويسيل صديدُهُ منْ منْخرِهِ، يسحقُ تُرْبُه لحمهُ، وينشفُ دَمَهُ، ويرُمَ عظمَهُ حتَّى يوم حشرِهِ، فنشرَ من قبرِهِ حينَ يُنْفخُ في صورٍ، ويُدْعى بحشرٍ ونُشورٍ».

«فثمَّ بعثرتْ قُبور، وحصِّلتْ سريرةُ صُدورٍ، وجيءَ بكلِّ نبيٍ وصدِّيقٍ وشهيدٍ، وتوحَّد للفَصْلِ قديرٌ بعبدِهِ خبيرٌ بصيرٌ، فكمْ من زفرة تضنيه، وحسرةٍ تنضيه، في موقف مهولٍ، ومشهد جليلٍ، بين يدي ملكٍ عظيمٍ، وبكلِّ صغيرٍ وكبيرٍ عليمٍ، فحينئذٍ يُلجِمُهُ عرَقُهُ، ويُحصرُه قلقهُ، عبرتُهُ غير مرحومةٍ، وصرْخته غيرُ مسموعةٍ، وحجْته غير مقبولة، وتبيّنت جريرته، ونُشرَتْ صحيفتهُ؛ نظرَ في سوءِ عملِهِ، وشهدتْ عليه عينه بنظره، ويدهُ ببطشه، ورجلُهُ بخطوه، وفرجهُ بلمسِه، وجلدُه بمسِّه، فسلسِلَ جيدُه، وغُلَّتْ يده، وسيقَ فسُحِب وحْدَه، فوَرد جهنَّمَ بكربٍ وشدَّةٍ، فظلَّ يعذَّبُ في جحيم، ويُسقى شرْبةً من حميم، تشوي وجههُ، وتسلخُ جلدهُ، وتضربه زِبنيَةٌ[2] بمقمعٍ من حديدٍ، ويعود جلده بعد نضجه كجلدٍ جديدٍ، يستغيث فتعرض عنه خزنة جهنَّم، ويستصرخُ فيلبث حقبةً يندمُ».

«نعوذُ بربٍّ قديرٍ، من شرِّ كلِّ مصيرٍ، ونسأله عفو من رضي عنه، ومغفرة من قبله، فهو وليُّ مسألتي، ومنجح طلبتي، فمن زُحزِح عن تعذيب ربِّهِ جُعلَ في جنَّتهِ بقُرْبِهِ، وخُلِّد في قصورٍ مشيدّة، ومُلْكٍ بحورٍ عينٍ وحفدةٍ، وطيفَ عليه بكؤوس، سكن في حظيرة قدُّوس، وتقلَّب في نعيمٍ، وسُقيَ منْ تسنيمٍ[3]، وشرب من عيْنٍ

---

(١) نديمه: رفيقه وصاحبه.

(٢) زبنية: مفرد زبانية، الشديد والشرطي، وسموا بها بعض الملائكة لدفعهم أهل النار إليها.

(٣) تسنيم: قالوا هو ماء في الجنة يتنزّل من علوّ.

سلسبيلٍ، ومزجَ له بزنجبيلٍ، مُخَتَّم بمسكٍ وعبيرٍ، مستديم للملك، مستشعر للسُّرُر، يشربُ من خمورٍ، في روضٍ مغدقٍ، ليس يصدَّعُ منْ شَربَه، وليْسَ يُنزف».

«هذه منزلةُ من خشي ربَّه، وحذّر نفسهُ معصيتهُ، وتلكَ عقُوبةُ منْ جحدَ مشيئته، وسوّلتْ له نفسهُ معصيتهُ، فهو قوْلٌ فصلٌ، وحُكم عدلٌ، وخبر قصص قصٌّ ووعظ نصٌّ، ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1]، نزل به رُوح قدُسٍ مبين، على قلب نبيٍّ مهتدٍ رشيدٍ، صلَّتْ عليه رُسُل سفرة، مكرَّمون بررةٌ، عُذتُ بربِّ عليم، رحيم كريمٍ، منْ شرِّ كلِّ عدوٍ لعينٍ رجيمٍ، فليتضرعْ مُتضرِّعكم، وليبتهلْ مُبتهِلُكُمْ، وليستغفرْ كلُّ مرْبوبٍ منكُمْ لي ولكم، وحسبي ربِّي وحدَهُ»[2].

أما الخطبة الثانية:

(تذكرة الخطبة):

فهي وإن كانت أقل من الأولى من حيث الكلمات ولكنها في الوقت نفسه لا تقل أهمية عن أختها لأنها أيضاً خطبة وعادة أمير المؤمنين(عليه السلام) أن لا يعد لخطبه مسبقاً ولا يحضر بل هو أمير البيان ورائد البلاغة، يقف ليقول خطبته وهي رصينة يبدأها كما هي عادته بحمد الله والثناء عليه وتمجيده ببيان صفاته ومن ثم أعطى صورة عن نبي الأمة وأنه سبحانه أرسله علماً للإسلام وإماماً للحكام إلى آخر ما قال عنه. ومن ثم اختتم خطبته بالوعظ والإرشاد.

إن أمير المؤمنين(عليه السلام) لم يكلف بمقال ليكون في متسع من الوقت ليخط مثل هاتين الخطبتين بعد إعادة النظر فيما كتب وإصلاح لبعض المقاطع بل انطلق من فوره وإذا بالمعاني تنقاد إليه والألفاظ تتناثر من بين شفتيه. ومن هذه الزاوية ينطلق

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٣.

(٢) مصدر الخطبة: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. وهذه الخطبة لم ترد في نهج البلاغة، بل وردت في عدة مصادر أخرى، منها المصدر السابق، مع اختلاف في بعض الفقرات. وقد أوردها الشيخ محمد باقر المحمودي صاحب (نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة)، ج١، ص٨٢، كما أوردها محمد كاظم القزويني في كتاب (عليّ من المهد إلى اللّحد) ص١٥٥.

الإعجاز في الجمع بين الارتجال وبين وفرة المواضيع المترابطة فيما بينها. وعلى هذا النوع من عدم الألف والنقطة.

فصلوات الله عليك يا أمير المؤمنين، لقد عرفتك الدنيا أميراً للمؤمنين، وأميراً للفصاحة والبيان، وعلماً من أعلامها بل أعلم علمائها.

خل النفاق لأهله ... وعليك فالتمس الطريقا
واربأ بنفسك أن ترى ... إما عدواً أو صديقا

الخطبة الخالية من النقط

ثمّ ارتجل الإمام علي(عليه السلام) خطبة أخرى حالية من النقطة، وهي:

«الحمدُ لله الملِكِ المحمودِ، المالكِ الودودِ، مصوّر كلّ مولود، ومآل كل مطرود، ساطح المهاد، ومَوطّد الأطواد، ومرسل الأمطار، ومسهّل الأوطار[١]، عالم الأسرار ومُدركها، ومُدمّر الأملاك ومُهلكها، ومكوّر[٢] الدّهور ومكرّرها، ومورد الأمور ومصدِّرها. عمّ سماحُه[٣]، وكمل رُكامه[٤] وهمل، وطاوع السؤال والأمل، وأوسع الرّمل وأرمل[٥]».

«أحمده حمداً ممدوداً، وأوحِّده كما وحّده الأوّاه[٦]، وهو الله لا إله للأمم سواه، ولا صادع[٧] لما عدله وسوّاه. أرسل محمداً علماً للإسلام، وإماماً للحكّام. مسدّداً للرعّاع، ومَعطِّل أحكام ودّ وسواع[٨]، أوصل الله له الأكرام، وأودع روحه السّلام،

---

(١) الأوطار: جمع وطر.. الحاجات والبغبات.

(٢) مكور: من كور: أي أدخل شيئاً في شيء. وجمع متفرقات.

(٣) سماح: ما كان فيه تساهل. وكما يقال (السماح رباح)، أي: المساهلة في الأشياء تربح صاحبها.

(٤) رُكامة: المتراكم بعضه فوق بعض من السحاب.

(٥) أرمل: رفق. أرمل النسيج: دققه.

(٦) الأوّاه: الكثير التأوّه، والشكوى والتوجّع، والمقصود إبراهيم الخليل، وجاء ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾ سورة هود، الآية: ٧٥.

(٧) صادع: من صدع، أي شقّ.

(٨) ودّ وسواع: إلهان كانا يعبدان من دون الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ سورة نوح، الآية: ٢٣.

ورحم آله وأهله الكرام، ما لمع رائل[١]، وملع[٢] دالّ، وطلع هلال، وسمع إهلال».

«اعملوا (رعاكُم الله) أصلحَ الأعـمالِ، واسـلكوا مـسالك الحـلال. واطرحـوا الحرام ودُعوه، واسمعوا أمـر الله وعُـوه، وصـلُوا الأرحـام وراعوهـا، وعاصـوا[٣] الأهواء واردعوها، وصاهروا[٤] أهل الصّلاح والورع، وصارموا[٥] رهـط[٦] اللهـو والطّمـع، ومـصاهركم أطهـر الأحـرار مولـداً، وأسراهـم سـؤدداً[٧]، وأحلاهـم موردِاً[٨]. وها هو أمَّكم، وحلّ حرمكم مملكاً عروسكم المكرّمة، وما مهر لها كما مهر رسول الله، أمّ سلمه، وهو أكرم صهر أودع الأولاد، وملك ما أراد، وماسها[٩] مملكه ولا وهم، ولا وكس[١٠] ملاحمه ولا وصـم[١١]. أسـأل الله حكـم إحمـاد[١٢] وصـاله، ودوام إسعاده. وألهم كلاًّ إصـلاح حالـه، والإعـداد لمآلـه[١٣] ومعـاده. ولـه الحمـد السرمد[١٤]، والمدح لرسوله أحمد».

---

(١) رائل: السّن الزائدة لا تنبتت على نبتة الأضراس بل خلفها.

(٢) ملع: شقّ، أسرع وخفّ.

(٣) عاصوا: خالفوا أي أنهوا أنفسكم عن هواها.

(٤) صاهروا: صيّروا أصهاراً. والصّهر: زوج الابنة أو الأخت. وتعني صاهروا أيضاً: قاربوا وادنوا.

(٥) صارموا: قاطعوا.

(٦) رهط: أهل.

(٧) سؤدداً: شرفاً. أسراهم: أكرمهم.

(٨) مورداً: المورد: موضع الورود، وهو الطريق إلى الماء أيضاً.

(٩) سها: غفل.

(١٠) وكس: نقص، خسر. وكس التاجر في تجارته: خُسر في تجارته فذهب ماله.

(١١) وصم: كسل، فتر.

(١٢) إحماد: إتيان ما يحمد عليه. الرضى عن الفعل والتصرف.

(١٣) مآله: مرجعه. أي موته، ومعاده.

(١٤) السرمد: الدائم.

ابتسامة ذات مغزى[1]

لم يكن «الشيخ عبيد» كباقي شيوخ القرية فهو مسموع الكلمة بينهم موهوب الجانب عندهم تذعن له رجالها وتأخذ برأيه وتتهافت على تقبيل يده الكريمة شيبها وشبابها وكان والحق يقال لا يقصر في أداء الواجب معهم فهو على استمرار دائم يذكّرهم بأهوال القيامة ومخاوفها ويطري لهم بأوصاف الجنة التي وعد الله عباده المتقين بها ويهول لهم النار وصفاتها وكيف أن الذي لا يؤدي حقوقه المفروضة عليه من قبل الله تعالى سيكون مصيره النار وسيكون لقمة سائغة لتلك الأفاعي الساكنة بها ذات العيون الواسعة التي تتقادح منها الشرر ويخرج من فمها لهيب النار فترى الحفل حينئذٍ يموج بالحوقلة والاستغفار والتأسف على الأفعال التي صدرت منهم والتي تكون عليهم وبالاً في الآخرة.

وكم، وكم اجتمعوا حوله ليقص عليهم الأحاديث الغريبة عن مملكة الجن وكيف أن المارد أفلت من قمقم سيدنا النبي سليمان(عليه السلام) وأن الساحر الفلاني سرق ابنة السلطان الجميلة إلى غير ذلك من الأحاديث المهولة، ولو قدّر لك أن تختلط بزمرتهم لوجدتهم يسايرون القصة أينما وصلت فإن ذكر الشيخ مورداً يستثير التأسف لرأيت وجوههم تنكمش وإن وصل لمورد يرمز إلى السرور لرأيت التباشير ظهرت على ملامحهم فهم يظهرون بوحي اللاشعور انطباعاتهم النفسية إزاء قصة شيخهم الجليل.

---

(١) كان السيد الشهيد (رحمه الله) ولوعاً بالقصة الهادفة ويملك ذوقاً أدبياً متميزاً انعكس ذلك في مؤلفاته التي كان يمازج فيها بين الحداثة والقدم ليأتي بأسلوب جديد. هذه القصص إحدى محاولاته القصصية في ريعان شبابه، عثرنا عليها ضمن مجموعته الخاصة وقد ذيلها بأنها كتبت في يوم الخميس ١ ـ جمادى الأولى ـ ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م.

ولأهل القرية عقيدة راسخة بشيخهم الوقور فإن البقرة التي لا يحمل له من لبنها بين مدة وأخرى تكون عرضة لكوارث الدهر وسرعان ما يبدو عليها الهزال فتنطلق الهمسات مرددة «الشيخ مو مستبارك لها» وبأسرع من البرق يحملون للشيخ مقداراً من لبنها تفادياً من هذه الكارثة التي حلت بهم، ولكن العجيب أن البقرة تعود إلى صحتها ثانية مما يجعل تقدير الشيخ يزداد عندهم بعد كل قضية تحدث من هذا القبيل حتى أن الشيخ نفسه أخذ يعتقد بأن للقدر عناية به حتى جعلته يحتل تلك المنزلة من نفوس أهل القرية لما يرونه من ظهور المعاجز والبركات على يده ولم يكن عمره بالقصير بل على العكس فقد شارف على التسعين، وقد أنهكته الشيخوخة فلم يعد يستطيع لحركة إلا بعد الجهاد الشاق مستعيناً بعكازته التي لا تفارقه إلا ساعة منامه، وهكذا فقد أصبح على مرور الزمن هيكلاً عظيماً ما فيه إلا الروح والعظم والجسد الشاحب اللون.

وأما لحيته البيضاء المتدلية على صدره فهي الوحيدة من بين سائر أعضائه التي بقيت محافظة على أبهتها ولم تخسر إلا مقداراً زهيداً لا ينقص من مهابته وجلالته. أما صدره فكأنه غابة لم تصلها يد الإنسان منذ مدة قديمة فقد تكاثف فيه الشعر الأبيض. هذا ورأسه قد اشتعل من الشيب، وفي مقدمة وجهه حاجبان أبيضان يطلان على عينين غائرتين فكانت كل هذه عوامل لهيبته في نفوس أهل قريته.

وفي ليلة من ليالي الشتاء الباردة حيث كانت الطبيعة هادئة وساكنة إلا تلك الأصوات التي تخلفها الرياح الهائجة والقمر في أخريات أيامه، فقد ظهر الشيخ تلك الليلة شاحب اللون يميل ضوؤه إلى الصفرة القاتمة ولم يكن في الحقيقة قمراً كاملاً بل لقد تطاولت عليه يد الأيام فسلبته نصفه أو مقداراً أكثر من النصف فإذا به ينقلب إلى هيئة مخيفة تبعث في النفس الرهبة والوجل بينما كان أنيس العاشقين وسميرهم الذي سيّرهم أين ما حلّوا وارتحلوا.

وبينما كان الشيخ مندساً تحت لحافه يغط بإغفاءة قصيرة وإذا به ينتبه لأصوات غريبة قريبة منه وأخذته الحيرة فهو لم يك يعهد في بيته مثل ذلك خصوصاً والليل قد

مضى ثلثاه ولم يبق منه إلا الهزيع الأخير وتضاربت أفكاره فهو لا يدري كل شيء.

وأخيراً، اهتدى لحل يرضيه وهو أن الأصوات منشؤها بيت جاره. لقد كان جاره مريضاً وكان قد دعا له اليوم بعد أداء فريضته، فاستيقن أن الحكمة الإلهية اصطدمت بالدعوة فانتقل الجار إلى رحمة ربه. ولكنه عاد ولم يقنع بهذا التعليل لأن الأصوات قريبة منه حتى لكأنه تخيل أنها داخل غرفته، وهنا رفع رأسه ليتحقق من أن الصوت هل هو داخل غرفته فلم تقع عيناه إلا على إبريق بجانبه الإناء كانا معاً أُعدا لوضوئه وهناك بعض الأرائك البالية التي قد أكل الدهر عليها وشرب ومصباح محتضر تراكم عليه الغبار.

وأخيراً، ضجر من ذلك الحال فنادى حفيدته (رمزية) ودخلت عليه رمزية وجلست بجانبه.

الشيخ: رمزية ما هذه الأصوات الغريبة التي أسمعها الليلة عندكم فهل حدث جديد؟

رمزية: ليس إلا الخير يا جدي العزيز إن ماما جانت ساعة ولادتها وها هي نساء الجيران يحضرن بمعية القابلة أم أمينة ولكن يا جدي قم واطلب البركة (لماما) فإنها من مدة طويلة تعانى آلام الحمل العسيرة.

وبعد حوار قصير ذهبت رمزية إلى غرفة أمها لتساعدها أو تقوم بحاجة إن اقتضى الأمر ذلك بينما أخذ الشيخ ينسحب قليلاً، قليلاً من تحت لحافه وبعد جهد جهيد قعد في فراشه وأراد النهوض ولكنه عجز فتماسك.

وأخيراً، قام واتجه إلى حيث ربض الإبريق فكأنه هو الآخر أضر به البرد فانتحى ناحية من الغرفة ليسلم من الرياح الباردة الداخلة من شقة الباب وبعد أن أسبغ وضوءه توجه إلى مصلاه وابتدأ يصلي بحرارة ويتضرع إلى الله ليخفف آلام الحمل. واستجاب الله لهذا الشيخ الفاني دعاءه فقد هدأت آلامها نسبياً ولكنه الهدوء الذي يسبق العاصفة إذ سرعان ما عادت إليها الآلام بشدة فلم تقوَ تلك المسكينة على احتباس عبراتها المختنقة فأفلتت منها صرخات يائسة وأنين موجع مكتوم وعاد

الشيخ إلى تضرعه وتوسله.

وبين الفينة والأخرى كان الشيخ يتوقف ليرفع يده ويضعها وراء شحمة أذنه ويوجهها نحو باب الغرفة ليستمع الأصوات علـه يسمع ما يسره ولم تك تلك الأصوات عليه ببعيدة فهي تخرج من الغرفة المجاورة لغرفته وكانت تلك الغرفة هي غرفة الحامل المسكينة.

وقدر لي ولصاحبي أن نتلصص من شقوق باب تلك الغرفة لنرى أن الحامل قد جلست في صدرها وقد جلست قبالها القابلة الحاجة أم أمينة وعلى يمينها أم حسون. وأم حسون هذه هي زوجة حارس القرية وكانت قد تجاوزت الخمسين من عمرها إلا أنها مع ذلك حافظت على رونقها الخارجي الذي تحسدها عليه كل ظبية تراوح عمرها بين السابعة عشر والعشرين فهذه المساحيق تأخذ مكانها من وجهها المنكمش المتغضن على غير انتظام وعلى حاجبيها خطان من الوشم الأخضر فكأنها بذلك المنظر هي المعنية بقول الشاعر:

عجوزٌ أرادت أن تكون فتيَّة — وقد يبس الجنبان واحدودب الظهر
تروح إلى العطار تبقي شبابها — وهل يُصلح العطَّار ما أفسدَ الدَّهر

ولو أجلت النظر في الجالسات لرأيتهن لا يختلفن عن أم حسون اختلافاً مهماً.

نعم، في بعض الجزئيات فكونها زوجة الحارس لها أثرها في نفوس الباقيات، وكانت تنطلق بين الفينة والأخرى أصوات من تلك الأفواه الهزيلة أو عبارات تدل على التشجيع والصبر يوجهنها لتلك المسكينة التي شغلت عن الكل بآلامها، وما أن يهدأن إلا ويرتفع صوت أم أمينة بنغمة خاصة يعرفها كل أحد ويردد الجوق الموسيقي تلك النغمة فتسمع لهم دوياً غريباً.

وأخيراً، قادني صاحبي إلى غرفة الشيخ لنتلصص ونراه ماذا يعمل في تلك الساعة وأطعته وسرت إلى باب غرفته ونظرت من الشقوق فإذا بي أرى الشيخ وقد استقبل القبلة يدعو ويتضرع ويواصل صلواته، ولكنه توقف دفعةً وأخذ يفكر وظهرت بوادر العجب على صاحبي فلماذا توقف الشيخ عن متابعة صلواته وما

الذي أشغله عن مناجاة ربه؟

وقطعت الحيرة فقلت لصاحبي لا تشغل فكرك فالشيخ كما تعلم لم يكن عنده سوى هذه البنت وزوجها غريب لم يتصل بالأسرة نسباً ولم تربطه بالأسرة روابط النسب، لذا فهو يرجو من ربه أن يهبه ولداً ليكون عونه في ملماته خصوصاً وقد ضعف حاله ومزاجه، وأحسب أنه يفكر في هذا الأمر، ولم نشعر إلا والشيخ يرفع يديه نحو السماء ويقول واللهفة ظاهرة عليه:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾[1].

وتحققت نبوءتي إذن، فإن الشيخ كان يفكر فيما بينته لصاحبي وحقاً إن امرأته عاقر فهي بالنسبة إلى الذكور عاقر ولم تلد له سوى هذه البنت التي تعاني من آلام الحمل أشدها ولم يقتصر امر على الأم فإن البنت كذلك فهي قد ولدت خمسة من الإناث في حين أنها لم تلد من الذكور شيئاً.

وبينما الشيخ مشغول بأدعيته وتوسلاته هاله أن انقطع الصوت وهدأت الضجة وأخذ يفكر في سر ذلك الهدوء فهل وضعت؟

ولئن وضعت فلم لم يخبروني؟

وهل كان الوليد ذكراً أم أنثى؟

ولكن المسكين نسي أن هذه الساعة التي تمر على النسوة من أحرج الساعات فإن الحامل قد وضعت وها هي أم أمينة تفتح كيس الحمل لتخرج منه الطفل الذي علا الكون بصراخه وعويله وها هي العيون كلها تتجه نحو العريف لينبئهم بالمولود الجديد وحتى هذه الضعيفة المتعبة من آلام الحمل والوضع أخذت تتطاول بعنقها لتنظر وليدها الجديد فقد نسيت آلامها واستعادت صحتها مؤقتاً لتنظر هل الله حقق

---

(١) سورة مريم، الآيات: ٤ ـ ٦.

أمنيتها ورزقها ذكراً جميلاً فلطالما تمنت من الله أن يرزقها ذكراً فهو الذي يرفع رأسها وبذلك تفخر أمام نسوة القرية، وكم من ليلة مرت ولم تذق عينها سِنَةَ الكرى كانت خلالها تفكر في ولدها الجديد وكيف أنه سيشب ويترعرع وبعدها تحتار له زوجة جميلة صالحة له وبذلك يتم لها سرورها.

وتعلقت القلوب واحتبست الأنفاس وشمل الهدوء جميع الحاضرين فقد آن لأم أمينة أن تعلن عن النتيجة المطلوبة وها هو العريف ينبؤهم بأنها (أنثى).

وهنا بانت البرودة على الجميع فكلهم كان ينتظر أن يكون المولود ذكراً خصوصاً أن بعض المشعوذين كان أنبأهم بذلك وأخذت ألسنة العجائز تردد عبارات السلامة والتبريك الذي كانت تخرج من الأفواه ببرودة واضحة، وأما تلك المسكينة التي قد تحملت تلك الآلام العسيرة الشديدة وحملت الوليدة تسعة أشهر لاقت خلالها من المشاق قسطاً وافراً فقد خابت آمالها وعادت بخفي حنين.

وما إن انتهت القابلة من إجراء المراسيم المعتادة على الطفلة إلا ووضعت الطفلة في مخدعها الجديد، وهنا مدت الوالدة ذارعيها لتحتضن الوليدة وتوجهت بوجهها نحو السماء والطفلة على ذراعيها قائلة بنغمة حزينة:

﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [1].

وبقلب مليء بالأسى والألم أعادت الطفلة إلى مخدعها الجديد وأسندت رأسها إلى الوسادة وراحت في شبه إغفاءة قصيرة علها تحلم بأمنيتها المنشودة بعد أن أبى القدر أن يهبها في اليقظة أمنيتها التي طالما فكرت فيها أو لعلها تناومت لتستر خجلها أمام هذا الرهط من نسوة القرية لأنها ولدت أنثى.

وذهبت رمزية إلى جدها حيث وجدته يرتّل بعض الأدعية والتذاكير لتخبره بالخبر فلما وصلت قالت له والبساطة ظاهرة عليها جدي إنها جميلة جداً كوردة مناداة ليتك يا جدي لمستها بيدك وطلبت لها البركة.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٦.

وافتر ثغر الشيخ العاري عن الأسنان عن بسمة واسعة ذات مغزى.

وهنا بادرني صاحبي قائلاً ألا تدري سر هذه البسمة فهل فرح بوليدته الجديدة؟

وأجبته، ومن يعلم فقد تكون بسمته بسمة الاستهزاء والسخرية من القدر الذي أخذ ينصب له شراكه كل مرة والذي حرمه من تلك اللذة فإنه لو كان ذكراً لكان الشيخ مرتاحاً إذ هو يريد أن يجعله مساعداً له على الحياة الاقتصادية عندما يحل الموسم، ومن ناحية أخرى، إنه يريد أن يكون ذلك الوليد خليفته فليس من اليسير عليه أن يخرج من هذه الدنيا وتذهب أتعابه التي بذلها حتى أوجد تلك المركزية له بين أهل القرية بل كان يأمل أن يكون ذلك المنصب لوليده الجديد وبالأخير سمعته يردد إنها أنثى... إنها أنثى وهنا تذكرت أن الإنسان مهما تأخر زمانه ومهما تقدمت به الثقافة وتطورت أوضاعه فهو لا يزال هو ذلك الذي حكى عنه الله بقوله:

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾[1].

ومن ناحية أخرى، لما رأيت هذا الشيخ الفاني يأسف على كون الوليدة أنثى ويأسف على عدم تحقق أمنياته على حين أنه قد ذرف على التسعين وهنا تذكرت الحديث النبوي الشريف: «إذا شاب المرء شبت معه خصلتان الحرص وطول الأمل».

---

(١) سورة النحل، الآية: ٥٨.

ضرار بن مالك الأزور

كان الليل هادئاً مقمراً وكانت النسمات العليلة تهب على دجلة من البساتين التي تحيط ببغداد فيبدو كل شيء باسماً في هذا الجو الحالم.

وفي ضاحية النهر كان يقوم منزل جميل له إطلالة بديعة تحيط به حديقة غناء إنها دار الشيخ عبد الرحمن أحمد في عصر الخليفة المأمون، وكانت لهذا العالم حلقة تنظم بها التلاميذ في كل ليلة ليتطارحوا البحث في مختلف العلوم.

في تلك الليلة الهادئة كالعادة اجتمع التلاميذ فأخذوا أماكنهم، القمر يرسل أنواره ليداعب الأمواج الخفيفة فطمئن النفوس لهذه المناظر الخلابة، ويلتفت الشيخ عبد الرحمن، وقد زينت صدره لحية بيضاء تدلت من وجه عريض تعلوه تجاعيد السنين الطويلة فيسمح لتلاميذه بأن يتقدموا بأسئلتهم يتقدم أحد التلاميذ لشيخه قائلاً:

هل يسمح لي شيخي أعزه الله بالسؤال عن مشكلة عرضت لي؟

نعم: يا بني وفقك الله.

شيخنا: هلاّ حدثتنا في ليلتنا هذه عن الصحابي «ضرار بن مالك الأزور» ودوره في قضية «مالك بن نويرة» ودور القائد «خالد بن الوليد» في القضية التاريخية؟

ولم يلق السؤال هوى في نفس الشيخ الطاعن فقد أحرج للجواب عن قضية تاريخية تكتنفها مشاكل عويصة.

ولكنه عوّد تلاميذه على رحابة الصدر والحديث عن مختلف المسائل فما عساه أن يتهرب من الموضوع.

وحيث صمم الشيخ على الإجابة تنحنح وجمع أطرافه ليبدأ الحديث.

أعزائي وأحبتي: نحن بين يدي قضية تاريخية تحيط بها ملابسات من جميع الجوانب، ولا بد لي من بسط القضية بكاملها لنخرج من وراء ذلك بنتيجة مرضية، وترتفع الأصوات الحاضرة تخاطب الشيخ الوقور:

على هذا عودتنا في حديثك.

إخوتي وأحبتي: شاءت القدرة الإلهية أن ينتقل النبي الكريم (ﷺ) إلى الرفيق الأعلى بعد جهاد عنيف والإسلام لم يقدّر له أن تعظم شوكته كما ترونه في هذه الأيام، وطبيعي أن يحدث بعض التضعضع في الصف الإسلامي. فقد ارتدت جماعات عن الدين كانت تعتقد أن الإسلام مبدأ يقوم بشخص الرسول الأكرم(ﷺ)، فإذا ارتحل إلى الرفيق الأعلى عادوا إلى ما كانوا عليه قبل الإسلام. فتوقف بعض ريثما يتجلى له الموقف الغامض. فمدينة الرسول(ﷺ) تزدحم بالمسلمين ليلقوا النظرة الأخيرة على جثمان الراحل المقدس(ﷺ)، وتشكلت بأثره سقيفة بني ساعدة لتنتخب خليفة النبي(ﷺ)، ويتوقف بنو هاشم ومن يميل لهم عن الاشتراك في ذلك الانتخاب. وكان السبب في ذلك التوقف عاملين:

الأول: إن النبي(ﷺ)، لم يترك أمته سدى بل نص على خليفته في حجة الوداع ونصب ابن عمه علي بن أبي طالب(عليه السلام) لأن الخلافة منصب إلهي لا يجوز فيه الانتخاب.

الثاني: انشغالهم بالجثمان الطاهر وهو بعد لم يوسد الثرى.

وتتابعت الأحداث ويتم الانتخاب وإن امتنع من لم يوافق عن ذلك. وينشأ من هذا الصراع أن يتوقف جماعة من الناس عن دفع الزكوات ريثما ينجلي الموقف وتنكشف السحب المتلبدة في أفق الإسلام.

وتضطر السلطة الجديدة لدعم المركز أن تقضي على المخالفين أو يخضعوا مهما كلّف الثمن. وينظّم الخليفة جيشاً يعقد لواءه «خالد بن الوليد» ويعززه بأمثال «عبد الله بن عمر وأبو قتادة الأنصاري وضرار بن مالك الأزور»، وغيرهم بعد أن جهزهم بوصايا عديدة.

يسير الموكب قاصداً تلك الأطراف التي تندلع فيها ألسنة الثورة فيتفوق المسلمون في غزواتهم ويقضوا على ما يقع في طريقهم من العقاب.

ولكن ابن الوليد لا يريد أن يقف عند حده بل أراد أن يقصد البطاح ليتعقب مالك بن نويرة وجماعته.

وهنا تحدث مشكلة كبيرة بين المحاربين فالبعض وعلى رأسهم القائد ابن الوليد يريد أن يسير فيتعقب البقية الباقية. والبعض الآخر يرون ضرورة إخبار القيادة العامة وإخبار الخليفة. فإما المسير وإما الرجوع، لذلك قال قائلهم يخاطب ابن الوليد «ما هذا بعهد الخليفة إلينا إنما عهده إن نحن فرغنا من البزاخة استبرأنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب إلينا».

ولكن القائد يصر على رأيه ليجيبهم بقوله: «إنه إن لم يكن عهد إليكم بهذا فقد عهد إلي أن أمضي وإنما أنا الأمير وإليّ تنتهي الأخبار».

ومضى وتبعه الآخرون ليصلوا البطاح مركز ابن نويرة فلم يجدوا فيها أحد لأن مالكاً فرّق قومه.

واختلف المؤرخون في ذلك، فالبعض يرى أنها مكيدة من ابن نويرة ليخلي لهم البطاح فيجمع أمره ويستعد للحرب.

وذهب آخرون، إلى أن ابن نويرة كان يتجنب الحرب ويريد السلام ولذلك أفرغ البطاح من المحاربين.

لم يقف القائد عند هذا الحد، فقد أرسل بعض السرايا من الجيش لملاحقة مالك وقومه وفعلاً فقد وجد مع جماعة من قومه وجيء بهم جميعاً إليه.

وهنا يسأل أحد الحاضرين محدثه قائلاً:

بماذا نفسر هذه المخالفة من القائد أن الخليفة يأمره بأن يتمهل إذا هو فرغ من البزاخة ولكنه يسير إلى البطاح بدون إذنه ويتعقب مالك بن نويرة وجماعته ليحضروا بين يديه؟

ويتجه الشيخ نحو السائل فيجيبه:

إننا نعذر القائد في تصرفه المذكور فإن متطلبات الحرب تقضي عليه أن يعمل بما تقتضيه المصلحة العامة ولعل الفرصة في نظره ستفوت عليهم لو تمهل وكتب بالموضوع إلى الخليفة.

ويعود الشيخ إلى سابق حديثه:

لقد قتل مالك بين يدي خالد فأصدر حكمه عليه وعلى جماعته بالقتل ويدافع مالك عن نفسه ليقول:

أو بذلك أمرك صاحبك؟

فأجابه ابن الوليد، والله لأقتلنك.

ويتدخل أبو قتادة الأنصاري أحد قادة الجيش وعبد الله بن عمر للتوسط في أمر مالك ولم تنجح المحاولة. فطلب مالك من القائد إرساله إلى القيادة والمثول بين يدي الخليفة فيقول فيه كلمته.

ولكن باءت كل المحاولات بالفشل فإن ابن الوليد يصرخ ويخاطب مالكاً لا مالني الله إن لم أقتلك.

هنا، وحيث يأس مالك من الحياة. التفت إلى خالد مشيراً إلى زوجته «وكانت من أجمل النساء» هذه هي التي قتلتني.

فيأخذ الغضب من القائد، وهو يقول: بل الله قتلك برجوعك عن الإسلام.

فأجابه مالك: أين أنت عن الإسلام.

ويقطع خالد هذه المحاور ويلتفت إلى ضرار بن مالك الأزور ليضرب عنقه.

لم تمض دقائق إلاّ ورأس مالك تلتهمه النار فقد جعل أثفية لقدر لنذر القائد لكونه قد نذر بأن الله إن مكنه من ابن نويرة لقتله وجعل رأسه أثفية للقدر.

ثم إن القائد ابن الوليد قد دخل وتزوج بزوجة مالك في تلك الليلة.

تعليق على حديث الجامعة النجفية

كنت أتصفح ملحق مجلة الغري بعددها الرابع من السنة الرابعة عشر فجلب انتباهي مقال بعنوان «حديث عن الجامعة النجفية» وقرأت المقال فوصلت إلى هذه الفقرة: وقد سمعت في الحديث السابق لمحة عن النجف في عهد البويهيين ومن الأدباء من يذهب إلى أن الدراسة في النجف بدأت منذ نفي الشيخ المفيد من بغداد إلى النجف بواسطة ما حدث هناك من الثورات والاختلافات وإليه يرجع تأسيس أول مدرسة وهيئة علمية في النجف، فوقفت حائراً إزاء هذه الدعوى التي نقلها الكاتب عن أحد الأدباء واليت لو دققنا فيها لرأيناها تتنافى والحقيقة.

وأمام هذه الدعوى نناقش المدعي فنردها من ثلاث نواحي:

الناحية الأولى:

إن الشيخ المفيد (رحمه الله) كان معاصراً للدولة البويهية المشهورة وكانت هذه الدولة تعتنق المذهب الشيعي، ولها شوكة قوية وكلمة مسموعة في جهاز الحكم.

وكان الشيخ المفيد (رحمه الله) من المقربين عند رجال هذه الدولة ولا سيما «عضد الدولة البويهي»، وبين أيدينا كتب التاريخ فهي تحدثنا عما كان يتمتع به الشيخ المفيد من المكانة السامية عند البويهيين بل وجميع الشيعة حتى أصبح لهم الشأن الرفيع والقول الفصل.

ـ ونقل العماد الحنبلي ـ عن ابن أبي طي الحلبي في ـ تاريخه ـ تاريخ الإمامية أنه قال: (وهو، الشيخ المفيد ـ شيخ مشايخ الصوفية ولسان الإمامية رئيس الكلام والفقه والجدل وكان يناظر أهل كل عقيدة مع الجلالة العظيمة في الدولة البويهية)[1].

---

(١) نقلاً عن الشيخ الطوسي: تهذيب الأحكام ـ ١، ٣٣، تحقيق وتعليق: السيد حسن الموسوي الخرسان.

ونقل ابن العماد أيضاً: وكان عضد الدولة ربما زار المفيد[١].

ثم انظر إلى ابن كثير حيث يقول[٢]: «ابن النعمان شيخ الروافض والمصنف لهم والحامي عن حوزتهم كانت له وجاهة عند ملوك الأطراف لميل كثير من أهل ذلك الزمان إلى التشيع وكان مجلسه يحضره خلق كثير من العلماء من سائر الأطراف».

وما دونك فاستمع لما تذكره الكتب عن يوم وفاته فقد قال صاحب شذرات الذهب[٣] عند ذكر حوادث سنة ٤١٣ هجرية: «وكان يوم وفاته مشهوداً شيعه ثمانون ألف من الرافضة والشيعة».

والمامقاني (رحمه الله) حيث يقول[٤]: وكان يوم وفاته يوماً لم ير أعظم منه من كثرة الناس والصلاة عليه وكثرة البكاء من المخالف والمؤالف.

وهذه نبذة بسيطة ممّا نقله المؤرخون عن حياة هذه الشخصية العلمية.

فإذا صدَّقنا ذلك كله، فكيف يجوّز العقل قبول دعوى نفيه من بغداد إلى النجف في الوقت الذي نراه معززاً مكرّم الجانب في جميع أدوار حياته.

مضافاً، إلى أن الدور الذي عاش فيه المفيد كان من أحسن الأدوار التي مرت على الشيعة ومن كان يتمكن أن يجرؤ على نفيه وله تلك المنزلة المرموقة عند البويهيين كما حدثناك عنها.

الناحية الثانية:

إن المتتبع لترجمة الشيخ المفيد (رحمه الله) في كتب التاريخ يعرف جيداً أن وجوده كان ثقيلاً على أهل ذلك العصر من السنة. فهذا الخطيب البغدادي يريك ألواناً من الكلام القارص يكيله دون حساب على الشيخ المفيد (رحمه الله)، فانظره تارة، ينقل عن

---

(١) شذرات الذهب: ٣، ٢٠٠.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ـ ١٢، ١٥.

(٣) شذرات الذهب ـ ٣، ٢٠٠.

(٤) الشيخ عبد الله المامقاني: رجال المامقاني ـ ٣، ١٨٠.

أبي القاسم الخفاف المعروف بابن النقيب قال[١]:

«إنه جلس مجلساً للتهنئة يوم وفاة الشيخ المفيد. وقال: ما أبالي أي وقت مت بعد أن شاهدت موت ابن المعلم».

وانظره ثانية، عند ذكر ترجمته يقول[٢]: «محمد بن محمد بن النعمان أبو عبد الله المعروف بابن المعلم شيخ الرافضة والمتعلم على مذهبهم صنف كتباً كثيرة في ضلالاتهم عن اعتقاداتهم ومقالاتهم وكان أحد أئمة الضلال هلك به خلق من الناس إلى أن أراح الله المسلمين منه».

وهذا العلامة النوري ينقل عن ابن طي في ترجمة المفيد (رحمه الله) فيقول[٣]: «وكانت جنازته مشهودة، شيعه ثمانون ألف من الرافضة والشيعة وأراح الله منه».

ومن كان بهذه النظرة عند الخطيب وغيره وهم الذين وقفوا له بالمرصاد، فإذا كان موضوع النفي صحيحاً فلماذا لم يذكره أحد من هؤلاء ولو تشفياً. مع العلم أن مسألة النفي من الأمور التي يلحق من جرائها العار على المترجم وطائفته. ولما لم نر في كتب هؤلاء ذكراً لذلك نستدل به على عدم صحة هذه الرواية.

الناحية الثالثة:

يعلل هذا الأديب بهذه الرواية أن أسباب نفي الشيخ المفيد (رحمه الله) من بغداد إلى النجف كان مرجعه إلى الثورات والاختلافات التي حدثت في بغداد، وهذا التاريخ بين أيدينا فلم نر فيه وقوع فتن بين السنة والشيعة في عهد المفيد(رحمه الله)، أو ثورة نشبت هناك فأوجبت نفي الشيخ (رحمه الله).

نعم، هناك حوادث بسيطة وقعت بين أفراد الجيش البويهي، وذلك بين الترك والديلم وسرعان ما كانت الأمور تعود إلى مجاريها الطبيعية.

وقد نشبت فتن وثورات أوجبت على الشيعة الهجرة إلى النجف، وكان ذلك في

---

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ـ ١٠، ٣٨٢.

(٢) المصدر المتقدم: الخطيب البغدادي ٣، ١٣١.

(٣) الميرزا النوري: مستدرك الوسائل ـ ٩، ١٤٥.

أواخر الدولة البويهية وإبان ضعف حكومتهم وابتدأ هذا الأمر في حدود سنة ٤٢٢هـ، أو ما يحيطها بقليل.

وهذا ابن الأثير يذكر في حوادث سنة ٤٢٢هـ وقوع فتنة بين الشيعة والسنة[١]. وكان لهذه الفتنة تأثيرها على الشيعة ولكن عند التدقيق نرى أن هذه الحادثة بعد وفاة الشيخ المفيد بتسع سنين فإن وفاة الشيخ المفيد كما يذكرها المؤرخون سنة ٤١٣هـ والفرق الحاصل بين التاريخين كثير فيظهر من ذلك أنه لا علاقة لهذه الفتن بالشيخ المفيد(رحمه الله) حتى يمكننا أن نصحح على ضوئها دعوى نفيه إلى النجف فهو من ضواحي بغداد أصلاً وفيها حصل علومه كما ذكره المامقاني[٢].

ونستفيد مما ذكره العلامة النوري إنه كان موجوداً في بغداد وله من العمر ١٩ سنة فقد جاء عند ذكر مشايخ المفيد فعد منهم الشيخ الثقة أبو علي أحمد بن محمد بن جعفر الصولي البهري المصاحب للجلودي واستفاد النوري ذلك من عبارة المفيد في أماليه حيث قال: «حدثنا أبو علي أحمد بن محمد الصولي بمسجد براثا سنة ٣٥٢هـ[٣] وولادة المفيد سنة ٣٣٩هـ. فمنه يظهر أن عمره، وهو ينقل الحديث ستة عشر سنة، وهكذا أخذ علومه على بقية أساتذته في بغداد إلى أن توفي فيها سنة ٤١٣هـ، وعليه، فإن نسبة النفي إلى الشيخ المفيد عارية عن الصحة وعلى المدعي إثبات ذلك ببينة تاريخية».

ثم إن دعوى الأديب الذي نقل عنه صاحب المقال من أن مرجع تأسيس أول مدرسة وهيئة علمية إلى الشيخ المفيد أيضاً عارية عن الصحة لما يشهد به التاريخ، إذ المشهور أن المدرس الأول الذي وضع حجر التأسيس هو الشيخ أبو جعفر الطوسي(رحمه الله) بعد هجرته من بغداد إلى النجف لما حدث من الفتن والاضطرابات هناك، ولم يكن الشيخ الطوسي (رحمه الله) قد نفي وإنما هاجر إلى النجف بمحض إرادته.

وبعد هذا فإني أرجو من الكاتب أن يمحص ما يذكره قبل نشره ليكون قد أسدى خدمة للجامعة النجفية تذكر فتشكر، والله من وراء القصد.

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ـ ٩، ١٤٥.

(٢) الشيخ عبد الله المامقاني: رجال المامقاني ـ ٣، ١٨١.

(٣) الميرزا النوري: مستدرك الوسائل ـ ٣، ٥٢١.

الفهرست